رواية

د.هـ لورانس

الطاووس الأبيض

مكتبة بغداد



ترجمة : أسامة منزلجي

د.هـ لورانس

الطاووس الأبيض

ترجمة : أسامة منزلجي





مقدمة

ريتشارد ألدينغتن

ثمة اهتمام خاص بالكُتُب الأولى لمشاهير العالم. وقليلٌ من القرَّاء هم الذين يتجرَّدون من الخيال بحيث لا يفكّرون في الوقت الذي كُتِبَ فيه مثل ذلك الكتاب بيدِ مؤلّفهِ المغمور حينذاك، والآمال التي عُقِدَتْ عليه والمخاوف التي انطوى عليها، وخيبات الأمل والاستقبال الأول له، وانزلاقه الظاهري إلى عالم النسيان، وعودته البطيئة إلى الحياة مع كفاح المؤلف التدريجي لشق طريقه بين تحاملات الشهرة ولامبالاتها.

كان د.هـ لورنس صغيراً جداً ومغموراً جداً عندما باشر بكتابة المسوّدة الأولى لهذا الكتاب في خريف عام ١٩٠٦. كان حينئذٍ في جامعة نوتنغهام يقضي دورة إعدادية مدتها عامان لكي ينال شهادته كمُدرِّس للمرحلة الابتدائية. كان قد التحق بالجامعة بجهوده الخاصة، ذلك أنَّ والده، عامل المنجم ذو الأطفال الخمسة، لم يكن في وسعه أنْ يتحمّل تكاليف إرساله إلى هناك من دون مساعدة. وكان لورنس تلميذاً متفوقاً بصورة استثنائية في المدرسة وعندما تقدّم لنيل منحة كينغ الدراسية أذهل رفاقه بكونه الأول في الدفعة الأولى، ولولا تدهور صحته لكان له مستقبل أكاديمي مرموق.

نشأت رواية «الطاووس الأبيض»، التي كُتِبَتْ وأُعيدت كتابتها ثلاث مرات أو أربع على مدى ثلاث سنوات خلال ساعات الفراغ وفي العُطل، من تجارب حياته في ميدلاند ومنذ بداية مسيرته الأدبية أبدى أصالة وعدم اكتراث بالأدب السائد، الذي كان في ذلك الوقت منكباً على «الشكل» في الرواية رافقه فراغ في المحتوى. بالنسبة إلى لورنس لم يكن تأليف رواية عرضاً فنياً لحكاية مُختلَقة ولا مجرد قطعة من التسلية المُثيرة - بل كانت «مغامرة ذهنية»؛ تهدف في المقام الأول إلى وضع القارئ في تلامسٍ مع الحياة.لقد مقت أنواع الكتابة «الشكلانيّة» كلها، وأخطاؤه التي ارتكبها مرجعها في الغالب إلى تصميمه الشديد على أنْ يكون صادقاً مع الحياة كما عرفها. وللسبب نفسه تنتهي رواياته كالمعتاد بهدوء، وبدون حسم تقريباً - لأنَّ النهاية الماهرة أو المُثيرة ينبغي دائماً تقريباً أنْ تُزيّف الحياة.

إذا وضع القارئ هذا في حسبانه فسوف يكون مستعداً لمواجهة حقيقة أنَّ «الطاووس الأبيض» ليست عملاً أدبياً مبنياً ببراعة اصطناعية. إنه يمثّل جزءاً من فترة شباب لورنس أُعيدَ بناؤه تخيُّلياً، على الرغم من أنها ليست رواية تعتمد على السيرة الذاتية، على غرار «أبناء وعشّاق». إنَّ تلك هي الأماكن التي ترعرع فيها والأشخاص الذين نشأ بينهم. وإنْ كان الكتاب يحتوي خطأً خطيراً، فذلك مرجعه إلى حياء المؤلف وانعدام ثقته في نفسه التي قادته إلى تناول شخصيات من الطبقة العاملة وخلع مظهر الطبقة المتوسطة الخادع عليها. وأفضل المشاهد هي تلك التي ينسى فيها الشاب كياسته الزائفة، ويمنحنا الحياة في مزرعة ستريلي ميلز وفي نُـزُل رام إنْ دون أية محاولة لجعلها تنتمي إلى الطبقة المتوسطة.

ما الذي كان يحاول أنْ يفعل بإعطاء هذه الرواية العنوان الخاطئ الغريب «الطاووس الأبيض» التي ليست لها أية صِلة بالطواويس، أبيضاء كانت أم خضراء مائلة إلى الزُّرقة، وصِلتها كلها بأشخاص إنكليز ينتمون إلى تربة وعقلية ما قبل نصف قرن؟ لقد كان لورنس شخصاً شديد التعقيد ومتناقضاً مع نفسه، وكأنه ينطوي على ذاتَين متعاديتين تتصارعان دائماً للسيطرة. كان أبعد ما يمكن عن «التماسُك» المُصطنع للسياسي أو الأديب. وهكذا أحبَّ موطنه دربيشير («أرضي ميدلند»، كما كان يقول بفخر)، إلا أنه خاف وفرَّ هارباً مما كان بالنسبة إليه «بليّة» حركة التصنيع التي اجتاحتها، وتبرُّؤ الحياة «العضوية» القديمة لإنكلترا من الحياة «الممكننة» الجديدة، التي «تفوح برائحة مُتع المال العفنة» في رواية «الطاووس الأبيض» - التي تعود بتاريخها إلى أيام كانت السيارات لا تزال اختراعاً جديداً - هذا الانقسام المشبوب فيه كان فقط في بدايته. إنها رواية عن فترة شبابه، ومترعة بالحب الرقيق والندم الكئيب على الشباب العابر.

سوف تظهر بضع حقائق تبيّن مدى تطابُق لورنس مع هذا الكتاب. إنَّ سيريل (يا له من اسم مُريع!) هو صورة متكلِّفة عن شبابه الساذج، مع استبعاد الكثير من مرحه وكل خبثه ونزوعه للسيطرة. و «ليتيس» هو أحد الأسماء غير المُستعملة لأخته المُفضّلة. و «بيرسديل» كان اسم أمّه قبل زواجها. والجميع يعرفون أسطورة حب لورنس الشديد لأمه وكراهيته لوالده؛ لذلك من المهم أنْ يموت والده في روايته من إفراطه في شرب الخمر، وأنْ يستقرّ سيريل بسعادة مع أمه وأخته. وكان حلم شباب لورنس هو أنْ يمتلك كوخاً ويتلقّى ثلاثين شلناً في الأسبوع، وأنْ يعيش مع أمه إلى الأبد، يرسم، ويُساعدها في أعمال المنزل.

معاقـرة الخمر! الشخصية الأشـدّ لفتاً للانتباه في هذا الكتاب هي جـورج، المزارع الشاب غير المُثقّف الـذي يحب ليتي، التي تتلاعب به وتتركه من أجل لـزلي، وفي نوبة غضب يتزوج الحسيّة الناعمة ميغ من الرام، وتؤدي به خيبة الأمل إلى أنْ يُصبح سكيراً في نهاية المطاف. وكانـت والدة لورنس مناهضـة شرسة لشرب الخمـر وربّت أولادها علـى كراهية والدهم لأنـه يقضي وقته ويُبدد مالهـم في الحانة. ونشأ لورنـس علـى الاعتقاد بأنَّ العائلـة بقيتْ فقيرة بسبـب معاقرة الوالد للخمـر. ومن هنا كانت صورة انهيار جـورج. أمّا إلى أي مدى هذه الرواية كُتِبَتْ لتلقى إحسان أمه فيمكن معرفته من هذه الصورة لجمعية «حزمة الأمـل»[1] التي انتمى جورج إليها ومن حقيقة أنَّ دار هاينمن للنشر كانت تمتلك نسخة واحدة متقدمة من الكتاب طُبِعَتْ وجُلِّدت من أجل لورنس لكي يُهديها إلى أمه قُبيل وفاتها.

في هـذا الكتاب هناك مقاطـع شِعرية عديدة تبيِّن كم كان لورنس كاتبـاً طبيعياً فصيحاً وجميلاً. انظر إلى الفقـرات التي تبدأ بـ «الهدير المتواصـل للريـاح» (الفصـل الثـاني): و «بعضـ الأحصنـة الخشبية انطلقـت مسرعة» (الفصل الرابـع) «وبعد قليل خرجنـا نحن أيضاً» (الفصل الخامـس) ؛ «لقد وُلِدتُ في شهر أيلول» (الفصل السادس)؛ «وأخيراً بـدأ فصل الشتاء» (الجـزء الثاني، الفصـل الأول) ؛«وهكذا تابعنا الطريق» (الفصل نفسـه)؛ وتقريباً فصل «شبح في الربيع» كله؛ وأخرى عديدة. ولا يفوتك وصف الخنازير في أول فصل «المغازلة»–

١ – «حزمـة الأمل»: جمعية تساعد علـى الامتناع عن شرب الخمر مدى الحياة بين الشبان. تأسست في بريطانيا في عام ١٨٤٧. – المترجم

وهــي قطعة مــن الفكاهة الساخـرة والملاحظة المثاليــة. وفي المحاولة الأولى يتســاوى - والبعض يعتقدون أنه يتفـوّق - مع أستاذه توماس هــاردي، في الفقــرات التــي يُعتقَد أنَّ هــاردي لا يُضاهــى. لقد كان لورنس يعرف حيــاة بلدة المنجم، ذلك أنه نشأ في إحداها. فقط وهو بــين قومه يبدو هنا مُتردداً. لكنَّ وجودهــم هو حقيقة جوهرية، حتى بالنسبة إلى السوقيّة الوقحة لتلاميذه.

كان مُقــدَّراً للورنســ أنْ يُحلّــق ويتجاوز إنجــازه في «الطاووس الأبيضــ»، ولكــن عندما نُشِرَ للمرة الأولى في شهــر كانون الثاني عام ١٩١١، لبسَ الأدب الإنكليــزي شخصيــة جديــدة عظيمة كادت تكــون غــير مُدركة، ذلك أنَّ عــدداً ضئيلاً من النقّــاد لاحظوا وجود الكتاب وفقط واحد أو اثنان على الأكثر فهموه.

الجزء الأول

الفصل الأول

سكان نندرمير

وقفتُ أراقب ظلال السمك المنساب في ظلام بركة الطاحونة. كان رمادياً، هبط من أشياء فضيّة انبثقتْ مبتعدة عن الرهبان، في الأيام المبكِّرة عندما كان الوادي يضجّ بالحيوية. المكان برمّته كان يستقطبُ تأمُّلَ الشيخوخة. والأشجار المكتظة على الشاطئ البعيد كانت من شدّة القتامة والرصانة بحيث لا تغازل أشعة الشمس؛ والغابات برزت مزدحمة لا تُبدي حركة. لم تهب حتى أرق النسمات لتهزّ أشجار الصفصاف على الجزر الصغيرة. والمياه استقرّت هادئة، ساكنة. وحده الجدول الرفيع الساقط من خلال قناة الطاحونة كان يغمغم لنفسه عن جلبة الحياة التي بثّت ذات يوم الحيوية في الوادي.

كدتُ أقع في المياه مُجفلاً من مجلسي على جذور جار الماء من صوت يقول:

«حسن، ما الذي يستحق النظر إليه؟». كان صديقي مزارعاً شاباً، ضخم الجثّة، بُنيّ لون العينين، وذا بشرة صافية بالفطرة اصطبغت بسُمرة داكنة وكستها البقع. ضحك، عندما لاحظ إجفالي، ونظر نحو الأسفل إليّ بفضولٍ كسول.

«كنتُ أتساءل كم أضحى المكان قديماً، وأتأمّل في ماضيه»

نظر إليّ مع ابتسامة رخيّة وكسولة، واستلقى على ظهره على السرير الخفيف، وقال:

«لا بأس في وجود سرير خفيف – هنا»

أجبتُ: «ما حياتك إلاّ سرير خفيف. سوف أضحك عندما يهزّك أحدهم ويوقظك».

ابتسم بارتياح ووضع يديه على عينيه ليقيهما وهج الضوء.

تشدقّ قائلاً: «لماذا ستضحك؟»

قلت: «لأنكَ ستكون مُسلياً»

رانَ علينا الصمت فترة طويلة من الزمن، ثم تقلَّبَ وبدأ يلكز السرير بإصبعه.

قال بأسلوبه الرخيّ: «حسبتُ أنَّ هناك سبباً لكل ذلك الطنين»

نظرتُ، فرأيتُ أنه أخرج بحركة اللكز عشاً قديماً، هشاً، من نحل الحقول الجميل الذي يبدو أنه غمس أذياله داخل الغبار الكهرماني البرّاق. وكانت بعض الحشرات النشطة تدور حول كتلة البيض، الذي أضحى معظمها فارغاً الآن، وأُزيلت قممها؛ وترنحت بضع نحلات صغيرة في محاولة طيران مترددة قبل أنْ تتمكن من حشد طاقتها لتطير مُحلِّقة بمسارٍ قويّ. راقب الصغير منها وهي تهرع جيئة وذهاباً بين ظلال العشب هنا وهناك في ذعر.

قال مُحاصراً نحلة صغيرة مسكينة تحت ساق ورقة عشب، بينما أخذ يفرش الأجنحة الزرقاء مُستخدماً ساقاً أخرى: «تعالي إلى هنا – تعالي إلى هنا!»

قلت: «لا تزعج الصغيرة المسكينة»

«هذا لا يؤذيها – أريد أن أرى إن كان عجزها عن الطيران سببه فشلها عن فرش جناحيها. ها هي تطير – كلا، إنها لا تطير. فلنجرب الآخر».

قلت: «دع النحل وشأنه. دعه يجري في الشمس. لقد خرج تواً من البيض. لا تعذّبه لكي يطير».

لكنّه ألحّ، وكسر جناح أخرى.

قال: «أوه، يا إلهي – خسارة!»، وسحق المخلوق الصغير بين إصبعيه. ثم تفحّصَ البيض، وأخرج بعض خيوط الحرير المُحيطة باليرقة، وتفحّصها بصورة عابرة، وهو يسألني عن كل ما أعرف عن الحشرات. وبعد أنْ انتهى أطاح بكتلة البيض إلى المياه ونهضَ واقفاً، وأخرج ساعته من أعماق جيب بنطلونه القصير.

قال، مبتسماً لي: «أعتقد أنه حان وقت الغداء. إنني دائماً أعرف متى تحل الساعة الثانية عشرة. هل ستأتي إلى الداخل؟»

قلت: أنا قادم في كل الأحوال، «ونحن نسير على طول ضفة البركة، ثم نعبر الجسر الخشبي الممتد عبر جبين بوابة التحكم. جانب

الضفة حيث يلوي البستان الرمادي أشجاره كان شديدة الانحدار، طويلاً وحاداً، يهبط إلى أسفل الحديقة.

كانت حجارة المنزل الكبير مُثقلة بنبات اللبلاب وصريمة الجدي[2]، وشُجيرة الليلك الضخمة التي كانت ذات يوم تحرس مدخل المنزل أصبحت الآن تسد الممر. خرجنا من الحديقة الأمامية وانتقلنا إلى فناء المزرعة، ومشينا على طول الممر المرصوف بحجارة القرميد إلى الباب الخلفي.

قال لي وهو يسبقني: «أغلق البوابة من فضلك».

اجتاز غرفة الأطباق والأواني الكبيرة إلى المطبخ. كانت الخادمة تنتزع على عجل مفرش المائدة من درج الطاولة، وكانت أمه، المرأة الضئيلة الطريفة ذات العينين الكبيرتين البنيّتين، تحوم حول موقد النار الفسيح، حاملة شوكة.

قال بنبرة امتعاض: «ألم يجهز الغداء بعد؟»

أجابت أمه معتذرة: «كلا، يا جورج، لم يجهز. لقد رفضتْ النار أنْ تشتعل. ولكن سوف تحصل على طعام بعد بضع دقائق».

ارتمى على الأريكة وبدأ يقرأ في رواية. أردتُ أنْ أغادر، لكنَّ أمه أصرّت على بقائي.

قالت متوسلة: «لا تذهب. سوف تسعد إميلي كثيراً إذا بقيت – والوالد أيضاً، أنا واثقة. اجلس، الآن».

---

٢ – صريمة الجَدي: شجيرة أزهارها غنيّة بالرحيق. – المترجم

جلستُ على كرسي الأسل[٣] بجوار النافذة الطويلة التي تُشرِف علـى الفناء. وبينما كان يقـرأ، وبينما كانت أمه تبذل أقصى طاقتها لمراقبـة سلق البطاطا وشيّ اللحم، تُرِكتُ وحدي مع أفكاري. تابع جورج، لا مبالياً لكل الطلبات، القراءة. كنتُ شديد الانزعاج وأنا أراقبه يشدّ شاربه البنـيّ، ويقرأ ببطء بينما الكلب يحك نفسه على طمّاقـه[٤] وعلى رُكبـة بنطلون الركوب العتيـق والقصير. إنه حتى لا يزعـج نفسـه بمداعبة أُذنيّ تريـب، لأنه شديد الرضـا عن روايته وعن شاربه. كانـت أصابعه الثخينة تبرم وتبرم، وعضلات ساعديه العاريين تتحرك قليلاً من تحت البشرة البنيّة المحمرَّة. وكانت النافذة التي فوقه تُسرِّب ضوءاً أخضر من بين أوراق شجرة كستناء الحصان الضخمـة في الخـارج ويسقط البريق على شعـره الداكن، ويرتعش عبر الأطباق التـي كانت آني تُنزِلها عن المنصب، وعبر وجه الساعة الطويلـة. كان المطبخ شاسعاً؛ وبدت الطاولـة وحيدة، والكراسي تنعى باكتئاب صُحبة الصوفا الضائعة؛ وكانت المدخنة تجويفاً أسود بعيـداً في الخلف، ومقاعد ركـن المُصطلى مُستـترة خلف حُجيرة صغـيرة أخرى متـوردة بفعل وهج النـار، حيث تحـوم الأم. كان مطبخاً كئيباً، امتداداً مُقفراً مـن حجارة الأرضية الرمادية الوعرة، يتألـف من زوايا مُظلمـة ومتباعدة وأثاث وقـور. الأشياء الوحيدة المرحة كانت أغطيـة الشيت على الصوفا ووسائد الأرائك، حمراء فاقعـة وسط المكان الرزيـن والمُجرَّد؛ قد يبتسم المـرء لمرأى الساعة

---

٣ – الأسـل نبات ذات أوراق أسطوانية طويلـة تُستخدم في صنع مقاعد الكراسي. – المترجم

٤ – الطمّاق: كساء للساق من الجلد أو القِماش. – المترجم

العتيقــة، المزيَّنة بدواجن حيوية ورائعــة؛ لكنها لم تُثِر فيَّ إلاّ التعجُّب والتأمُّل.

بعــد قليل سمعنــا أحدهم يكشط جزمته الثقيلــة في الخارج، وإذا بالوالــد يدخل؛ مزارع ضخم الجثّة قوي البنية، شبه أصلع تتوزع على رأسه خصلات قليلة هشّة ومُجعّدة.

قــال بمرح: «مرحباً، سيريــل. أراك لم تهجرنا»، ثم قال ملتفتاً إلى ابنه:

«هل لديك المزيد من الصفوف في فناء الشجيرات؟»

أجاب جورج وتابع القراءة «انتهت!»

«هــذا حسـن – يجب أنْ تستمر في ذلك. لقــد قرضت الأرانب اللفت، يا أمي»

أجابت زوجتــه: «هذا ما توقعــت»، وكان اهتمامها مُنصبّاً على المقــالي. وأخيراً اعتبرتْ أنَّ البطاطا نضجــتْ وخرجت حاملة المقلاة التي ينبعث منها البخار.

وُضِعَ الطعــام على المائدة وباشر الوالد تقطيع اللحم. نظر جورج مــن فوق حافة كتابه لكي يستعرض الطعام، ثم تابع القراءة إلى أنْ قُدِّمَ إليــه طبقه. جلستْ الخادمة على طاولتها الصغيرة بالقرب من النافذة، وباشرنــا تنــاول الوجبة. ثــم سُمِعَ وقــع أربعة أقدام علــى طول الممر القرميدي، ودخلتْ فتاة صغيرة، تبعتها أختها البالغة. كان شَعر الفتاة

الصغيرة الطويل والبنيّ مرفوعاً بعنف إلى الخلف تحت قبعة البحارة. وضعتْ جانباً ذلك الجزء من ملابسها وجلستْ لتأكل، وهي تتحدث دون توقف مع أمها. الأخت الكبرى، وهي فتاة في نحو الحادية والعشرين، نفحتني ابتسامة ونظرة مُشرقة من عينيها البنّيتين، وذهبت لتغسل يديها. ثم عادت وجلستْ، ونظرتْ مغمومة إلى لحم البقر غير الناضج على طبقها.

قالت: «إنني أكره هذا اللحم النيء».

أجاب أخوها، الذي كان يأكل بنهم: «إنه مفيد لك، يمنحك بعض العضلات لكي توسعي الصِّبية ضرباً».

دفعته جانباً، وبدأتْ تأكل الخضار. أعاد أخوها ملء طبقه وتابع الأكل.

قالت مولي، الأخت الصغرى، بنبرة صوت متألّمة: «عزيزنا جورج، أعتقد أنَّ في استطاعتك أنْ تُمرر لنا حساء المرق».

أجاب: «حتماً، ألا تريدين أيضاً قطعة لحم المفصل الكبيرة؟».

ردّت السيدة الصغيرة ذات الاثني عشر عاماً: «كلا! لا أعتقد أنكَ انتهيت منها بعد».

هتف بفم ممتلئ: «ذكية!».

قالت الأخت الكبرى إميلي، متهكمة: «أتعتقد؟».

أجاب برضا: «نعم، أرى أنكِ جعلتِها حادة الذكاء مثلك. بما أنكِ أوصلتهـا إلى الصف السادس. سوف أتذوّق قطعة بطاطا، يا أمي، إذا استطعت أنْ تعثري على واحدة ناضجة».

«يبـدو، يا جـورج، أنها مختلطة. أنـا متأكّدة مـن أنْ القطعة التي تذوقتها كانت ناضجة. خذ - إنها مختلطة - انظر إلى هذه، إنها طريّة بقدر كافٍ، أنا متأكدة من أنها غلت مدة كافية».

قالت إميلي بغضب: «لا تبرري له وتعتذري منه».

قـال بهدوء: ليس لشخص معيَّن، «لعـلَّ الأطفال أزعجوها كثيراً هذا الصباح».

صدحت مولي: «كلا، لقد ضربت أحد الأطفال على أنفه وجعلته يدمى».

قالــت إميلي، وهي تبتلع بصعوبة: «يا للبائس المسكين. أنا سعيدة لأنني فعلت! إنَّ بعض أطفالي ينتمون إلى - إلى -».

اقترح جورج «إلى الشيطان»، لكنها لم تقبل جوابه.

جلس والدها يضحك؛ ونظرت الأم، والأسى يبدو في عينيها، إلى ابنتها، التي أطرقت رأسها وأخذت ترسم أشكالاً على مفرش الطاولة بإصبعها.

سألت الأم، برقّة، وخوف: «إنهم أسوأ من المجموعة السابقة؟».

أجابت باقتضاب جاف: «كلا - لا شيء غير عادي».

قال جورج: «إنها فقط شعرت برغبة في ضربهم بعنف»، ثم هتف، وهو ينظر إلى وعاء السُّكر وإلى كعكته:

«أحضري لي المزيد من السُّكر، يا آني».

نهضتْ الخادمة عن طاولتها الصغيرة في الركن، وهرعت الأم أيضاً إلى خزانة الأطباق والكؤوس. وأخذتْ إميلي تعبث بعشائها وقالت له بمرارة:

«ليت لديك رغبة في التعلُّم، كان ذلك سيُشفيك من رضاك عن نفسك».

أجاب بامتعاض: «أوف! يمكنني بسهولة أنْ أُدمي أنوف عدد من الأطفال».

تابعت قائلة: «لَمّا جلستَ هكذا تتكلم بحماقة كعجلٍ مُسمَّن».

هذا الحديث دغدغ مولي إلى درجة أنها انفجرت في نوبة ضحك، مما أثار رعب الأم، التي نهضَتْ واقفة ترتعش خوفاً من أنْ تختنق.

قال، وهو ينظر إلى التواء قسمات وجه أخته الصُّغرى: «أنت تسخرين يا مولي».

كانت إميلي شديدة التوق إلى التكلُّم أكثر معه، وغادرتْ المائدة. وسرعان ما عاد الرجلان إلى الأرض المحروثة واللفت، ومشيتُ أنا على طول الممر مع الفتاتين وهما في طريقهما إلى المدرسة.

قالــت إميلــي فجأة بحماسة شديــدة: «إنه يُغيظنــي بكل ما يفعل ويقول».

قلتُ: «أحياناً يتصرف بفظاظة».

أصرّت: «هــو كذلك فعلاً! إنه يُغيظني إلى درجة لا تُحتَمَل بتظاهره بأنــه يعرف كل شيء، وبوسامته الطاغية – لا أحتمل هذا. ولا أحتمل تذلُّل أمي أمامه –!»

قلت: «إنه يُخرجك عن طورك».

كــررت، وصوتها يتذبذب بانفعال عصبــيّ: «طوري!». وتابعنا المسير يلفّنا الصمت، ثم سألتْ:

«هل أحضرتَ لي أشعارك تلك؟».

«كلا – آسف – لقد نسيتها من جديد. في الحقيقة، لقد أرسلتها».

«لكنّكَ وعدتني».

«أنــتِ تعلمين كيف هي وعودي. أنا معــدوم الشعور بالمسؤولية كهبّة ريح».

تجهّمتْ من نفاد الصبر وكانت خيبة أملها أعظم مما هو ضروريّ. وعندمــا تركتها عند منعطف الزقاق شعرتُ بوخــز تأنيبها العميق في رأسي. وكنت دائماً أشعر بالتأنيب بعد أنْ تذهب.

أخـذتُ أعدو فـوق جدول صغير بـرّاق قادم مـن أعماق البركة غزيرة الأعشــاب. كانت حجارة العبور بيضاء تحـت أشعة الشمس، والميــاه تنساب ناعسة بينها. وفراشــة أو اثنتان، لا يمكن تمييزهما على صفحة السماء الزرقاء، تلهــوان منتقلتان من زهرة إلى زهرة تقودانني إلى أعلى التل، عبر الحقل حيث تقفُ أشعة الشمس الحارة كأنما داخل طاس، وكنتُ ألجُ كهوف الغابة، حيث تنحني أشجار السنديان وتوفّر لنا ظلاً يستدعي الامتنان. وفي الداخل، كان كل شيء شديد السكون والـبرودة حتى أنَّ وقع خُطاي كان يعلق ثقيــلاً على طول الممر. ومدَّ السرخس أذرعه نحــوي، وكان حضن الغابة ممتلئــاً بالعذوبة، لكنني واصلتُ رحلتي، تحثّنــي هجمات جيش من الذباب الذي شنَّ حرب عصابــات حول رأســي إلى أنْ اجتزت شجــيرات الوردية السوداء في الحديقــة، وهناك تركنــي، وأنا أشــمُّ، دون أدنى شــك، رائحة قدور ريبيكا من الخل والسُّكر.

المنزل الأحمــر المنخفض، بسقفه عديم اللــون والغائر، كان يغفو تحــت ضوء الشمــس، مستغرقاً في النوم في ظلٍّ رمتــه أشجار القيقب الضخمة التي تمتد خارج الغابة.

لم يكن هناك أحد في غرفة الطعام، لكنني سمعتُ هدير آلة خياطة يتناهــى من غرفة المكتــب الصغيرة، كأنه طنين حشـرة ضخمة حقود تحــوم وتئزّ، تارة بضجيج عالٍ، ثم خافــت، ثم مُستقر. ثم تناهى وقع أربع نغمات أو خمس من أسفل سلَّم لوحة مفاتيح بيانو غرفة الجلوس، استمر إلى أنْ انتهى السلَّم بأكمله بقفزات صغيرة، وكأنَّ ضفدعاً بديناً جداً يقفز من أول السلَّم إلى آخره.

قلتُ في نفسي: «لابدّ أنها الأم تزيل الغبار في غرفة الجلوس». أجفلني صوت البيانو القديم غير المعتاد. كانت الأوتار الصوتية خلف الحوض الحريري الأخضر - لا يمكن أنْ تكتشف أنه ليس حوضاً من حرير بلون البرونز إلاّ بفرد أحد تضاعيفه جانباً - قد أضحتْ رفيعة ولا تُصدر نغمات كأنها أوتار صوت امرأة عجوز. لقد حوَّل الزمن لون مفاتيح بيانو أمي الصغير إلى الاصفرار، وقلَّص حجم قوائمه الهزيلة. مسكين ذلك الشيء العتيق، لم يعُد يُصدر إلاّ صراخاً استجابة لأصابع ليتي وهي تجري بسرعة عبره بحركة ازدراء، لذلك كانت حواف غطائه البنيّة، الأنيقة، دائماً مغلقة ما عدا عندما يسمح بإزالة الغبار عنه.

أما الآن فالبيانو الصغير الشبيه بعانس عجوز بدأ يعزف لحناً فيكتورياً رناناً، وتخيّلتُ أنَّ التي تعزف عليه امرأة محتشمة ضئيلة الحجم ذات خصلات شعر لولبية كحزم من حشيشة الدينار تتدلى على جانبيّ وجهها. أزعجني اللحن الصغير الخجول بأحاسيس قديمة، لكنَّ ذاكرتي لم تُسعفني. بينما أنا واقف أحاول أنْ أُحدد مشاعري المبهمة دخلتْ ريبيكا لتزيل المفرش عن الطاولة.

سألتُ: «مَنْ الذي يعزف، أهو بيك؟».

«بل أمك، يا سيريل».

«لكنها لا تُحسن العزف. حسبتُ أنها لا تعزف».

أجابت ريبيكا: «آه، لقد نسيتَ كيف كنتَ تجلس وأنت صغير

مُستنـــداً إلى ثوبها وتلعب بكتاب الصلـوات، وهي تغني لك. أنتَ لا تتذكرهـا عندما كانت خصـلات شعرها اللولبيـة طويلة كشرائط من الحرير البنيّ الطويل. أنتَ لا تتذكرها عندما كانت تعزف وتغني، قبل أنْ تولَد ليتي وكان والدك -».

استدارت ريبيكا وغادرت الغرفة. اقتربت وأخذتُ أتلصص على غرفة الجلوس. كانت أمي جالسة أمام البيانو البنيّ الصغير، وأصابعها البدينـة، المتيبسـة تتحرك عبر المفاتيـح، وابتسامة واهيـة ترتسم على شفتيهـا. في تلك اللحظـة دخلت ليتي مسرعـة وتجاوزتني، وطوَّقتْ عنق أمي بذراعيها، وهي تُقبّلها وتقول:

«أوه، يـا عزيزتي، تخيّلوا عزيزتي تعزف علـى البيانو! أوه، أيتها المرأة الصغيرة، لم نكن نعرف أبداً أنك تُحسنين ذلك!».

أجابـت أمي وهي تضحك ـ وتُفلِتْ من عناقهـا: «ولا أنا. كنتُ فقـط أتسـاءل إنْ كان في مقدوري أنْ أعزف هـذا اللحن القديم؛ لقد تعلَّمته عندما كنتُ فتـاة بارعة، على هذا البيانو. حينئذٍ كان معطوباً؛ و لم يكن لدي غيره».

ناشدتها ليتـي: «ولكن اعزفي من جديد، يـا عزيزتي، اعزفي من جديد. لقد كان أشبه برنين كؤوس زجاجية برّاقة، وتبدين ظريفة جداً وأنت على البيانو. اعزفي، يا عزيزتي!».

قالت أمـي: «كلا، إنَّ ملمس المفاتيح العتيقة علـى أصابعي يُثير أشجاني - ولا أظنكِ ترغبين في رؤيتي أذرف دموع الشيخوخة؟».

قالت ليتي تُؤنبها، وتقبّلها من جديد: «شيخوخة! أنت شابة وقادرة على عزف ألحان رومانسية صغيرة. أخبرينا عن هذا، يا أمي».

«عمَّ، يا طفلتي؟».

«عندما كنتِ تعزفين».

«تقصدين قبل أنْ تتيبَّس أصابعي بفعل خمسين عاماً وأكثر؟ أينَ كنتَ يا سيريل، أنت لم تحضر على مائدة الغداء؟».

قلت: «ذهبتُ فقط إلى ستريلي ميل».

قالت أمي ببرود: «طبعاً».

سألتُها: «لماذا تقولين» طبعاً؟.

قالت ليتي: «وأتيت حالما توجهت إيم إلى المدرسة؟».

قلت: «نعم».

هاتان المرأتان كانتا غاضبتين مني. وبعد أنْ ابتلعتُ شعوري القليل بالامتعاض قلت:

«لقد رغبوا في بقائي لتناول الغداء».

لم تتنازل أمي وتُعطي جواباً.

سألتْ ليتي «ألم يعثر جورج العظيم على فتاة بعد؟».

أجبتُ «كلا، ولن يفعل وهو على هذا الحال. لن تكون هناك فتاة جيدة بالقدر الكافي بالنسبة إليه لتصلح له».

قالـــت أمـــي: «أنا واثقة من أنني لا أعلم ما الذي تجده في أي منهم يجعلك تتردد عليهم كثيراً».

أجبـــتُ، غاضباً: «لا تكوني مزعجة هكذا، يـــا أمي. أنتِ تعلمين أنني مُعجب بهم».

قالـــت أمـــي متهكمة: «أنـــا أعلم أنك مُعجب بها هـــي. أما هو – فجـــروٌ ينقصه التهذيب. ماذا يمكـــن أنْ تتوقع منه بعـــد أنْ أفسدته أمه بالتدليل. ولكن ما يُثير تعجّبي فاهتمامك به». وتنشّقتْ أمي امتعاضاً.

قالت ليتي مع ابتسامة: «إنه شديد الوسامة».

قلـــت، وأنا أنحني لها ساخـــراً: «أنا واثق من أنـــكِ تستطيعين أنْ تجعلي منه رجلاً».

أجابتْ، أيضاً بتهكُّم: «من ناحيتي، لستُ مهتمّة».

ثم شمختْ برأسهـــا، وإذا بكل الشعرات الرفيعة التي تحررت من قيودها تشكّل ضباباً من الضوء الأصفر في أشعة الشمس.

سألتْ: «أي ثوب سأرتدي، يا أمي؟».

أجابت أمها: «كلا، لا تسأليني».

قالــت متأمّلة: «أعتقد أني سأرتدي الثــوب الأحمر الأرجواني – مع أنَّ هــذه الشمس سوف تجعل لونه باهتــاً». كانت ممشوقة القامة، تبلــغ حوالي ستــة أقدام طولاً، لكنهــا نحيلة؛ شعرهــا أصفر، يميل إلى البنــيّ الداكن، وذات عينين وحاجبين جميلة، لكنَّ أنفها ليس حَسَناً. وكانت يداها جميلتين جداً.

سألتُ: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

لم تُجبني.

قلت: «لمشاهدة مسرحية» العاصفة «؟». ولم تُجب.

تابعتُ كلامي: «لا أعلم ماذا ترين فيه».

قالــتْ: «أشيــاء كثيرة! إنــه لا يقلّ جودة عن معظــم الناس –» ثم طفقنا نحن الاثنان نضحك.

تابعت كلامها وقد احمرّ وجهها خجلاً: «هذا لا يعني أنني أفكّر فيه. أنا فقط ذاهبة لحضور مباراة في كرة المضرب. هل ستأتي؟».

سألتُ: «ماذا ستقولين إذا وافقت؟».

شمخت برأسها «أوه! سوف يُسرنا جميعاً ذلك، أنا واثقة».

قلت بسخرية راقية: «أووراي!».

ضحكت مني، متوردة الوجه خجلاً، وهرعت ترتقي الدَّرَج.

بعد ذلك بنصف ساعة أبرزت رأسها داخل غرفة المكتب لكي تودّعني، متمنية أنْ تراني أستحسن مظهرها. كانت فائقة الفتنة بثوبها الكتّان الأنيق والقبعة ذات الأزهار، حتى لم يسعني إلا أنْ أفخر بها. طلبَتْ مني أنْ أتابعها من النافذة، ذلك أنها تلوّح لي من بين شجيرات الوردية الضخمة بقفاز مُخرَّم، ثم تابعت طريقها متلألئة كزهرة تشق طريقها بإشراق خلال أشجار البندق الخضراء. كان دربها يمتد خلال الغابة في الاتجاه المعاكس لستريلي ميل، على طول مسار العربات عبر المساحة المكتظة بالشجار الواصلة إلى الطريق العامة. هذه الطريق تمتد حتى نهاية بحيرتنا، نذرمير، على مدى حوالي ربع ميل. ونذرمير هي الأشدّ انخفاضاً في سلسلة من ثلاث بحيرات. الاثنتان الأُخريان هما بركتا المطحنة العليا والسفلى في ستريلي: هذا أكبر تجمُّع فاتن من المياه، طوله ميل وعرضه ربع ميل. وغابتنا تمتد حتى حافة المياه. وعلى الجانب المقابل، على تل خلف الزاوية الأبعد من البحيرة، تقع هايكلوز، وتنظر عبر المياه إلينا في وودسايد بعين واحدة، بينما يُلقي كوخنا نظرة جانبية طويلة من جديد إلى المنزل المتكبّر ويتلصص بحياء من خلال الأشجار.

تتراءى لي ليتي كشراعٍ ناء ينسلّ على طول حافة المياه، تخفق مظلتها فوقها. تنعطف لتنفذ من خلال أجمة من أشجار الصنوبر، وترتقي الحقل شديد الانحدار، ومن جديد تطويها الأشجار بجوار هايكلوز.

كان لزلي متمدداً على كرسي معسكر، تحت شجرة زان نحاسية على المرج، وسيجاره مشتعل. راقبَ الرماد يتحول غريب الشكل

ورمادياً في وضح النهار الدافئ، وشعر بالرثاء على نل ويتشرلي، امرأة كان قـد أوصلها بالسيارة إلى المحطة، إذ ألن تشعر بالانفصال المخيف بينمــا القطار يهدر مبتعداً أكثر فأكثر؟ ما أشد استهتار تلك الفتيات في تعاملهــن مع الرجل! لكنها كانت مخلوقــاً صغيراً لطيفاً - سوف يدفع ميري للكتابة إليها.

عندئـذٍ لمح مظلة ترفرف على طـول الممشى، وفي الحال غرق في نوم عميق، لا يقطع إغفاءه إلا شق صغير يسمح له برؤية اقتراب ليتي. ولمّا اكتشفت أنَّ مَنْ يُراقبها نائم ويفتقر إلى الشهامة، وسيجاره، وليس مصباحه، غير متوازن، كسرتْ غُصناً غضاً من الليلج[٥] لم تنشر براعمه البيضــاء العاجيّة بعد عِطرها الزكي. لا أعلم كيف استطاع طرف أنفه أنْ يتوقَّـع قبل أنْ تشعر بوجوده في الواقـع، لكنه بقيَ ساكناً بشجاعة إلى أنْ غمره عطر بتلات الزهر. ثم، أجفل مستيقظاً من نومه، وهتف:

«ليتني! كنتُ أحلمُ بالقُبلات!».

«على جسر أنفك؟» وضحكتْ - «ولكن لِمَنْ كانت القُبلات؟».

ابتسم «مَنْ الذي أثار الإحساس؟».

«بما أني فقط نقرتُ على أنفك فينبغي أنْ تحلم بـ -».

قال، بشكل غير متوقَّع: «أكملي!».

أجابت، مبتسمة لنفسها وهي تُغلقُ مظلّتها، «بالدكتور سلوب».

---

٥ - الليلج: نبتة عطرة الزهر.

قال يخشى من أنها تسخر منه: «لا أعرف الرجل».

أجابــت، وهي ترميه بإحدى تلك النظرات الخاطفة الحميمة التي تــبرع المرأة في امتداح الرجال بهــا: «كلا - إنَّ أنفك كلاسيكيّ بكل معنى الكلمة»، فتورّد وجهه من السرور.

الفصل الثاني

تعليق التفاحة

الهدير الممتد للرياح في الغابة والنشيج والأنين المتبادَلان بين أشجار القيقب والسنديان بالقرب من المنزل، جعل ليتي تشعر بالقلق. لم ترغب في الذهاب إلى أي مكان، ولم ترغب في عمل أي شيء، لذلك أصرّتْ على أنْ أرافقها حتى حافة المياه. اجتازتْ تشابُك الخنشار والسرخس، وقصب العلّيق والتوت البري المنتشر على مساحة واسعة أمام المنزل، ثم هبطنا المنحدر المعشوشب إلى حافة بحيرة نذرمير. الرياح التي أحدثتْ أمواجاً صغيرة هادرة، وغرغرة وقعقعة تلك التي تجري بين الحصى، وهفيف الهبّات النشطة والنسيم المنعش على وجهينا، أيقظتنا.

كانت إكليلة المروج مُزهرة على طول الشاطئ القصير ومشينا بينها غائصَين حتى رُكبنا، نراقب السباق المُزبِد للأمواج الصغيرة وابيضاض أشجار الصفصاف على الشاطئ النائي. في الموقع الذي يضيق فيه وادي نذرمير باتجاه الطرف العلوي، ويستلم الجدول من ستريلي، تندفع الغابة إلى الأسفل وتتوقف لتغسل قدميها بالمياه. كسرنا

دربنــا على طول الشاطئ، ساحقين النعناع البري ذي الرائحة الحادة، الذي يُعيق عبقه الأنفاس، ورحنا نتفحَّص هنا وهناك بين بقع المستنقع بحثاً عن أعشاش هشّة لطيور الماء، التي هُجِرَتْ الآن. أجفلت طيور الزقزاق الشامي الغضّة والنحيلة لدى اقترابنا، وفرّت بخفّة بعيداً عنا، مادةً أعناقها بخوف متوتر من ذاك الذي لا يمكن أنْ يؤذيها. فرَّ واحد، اثنــان، يُسقسقان ليحتميا بالغابة؛ وفي الحال تقريباً عادا من جديد إلى حيث نقف، ليندفعا مبتعدين بانحراف، في نشوة من الحيرة والرعب.

سألتْ ليتي: «ما الذي أخافَ هذه المخلوقات الصغيرة المجنونة؟».

«لا أدري. أحيانــاً تكون وقحــة جداً؛ ثم تئن، وتفرّ هاربة بنشاط من وهمٍ وكأنَّ ثعباناً تحت أجنحتها».

لم تنتبــه ليتي إلى فصاحتي، ونحّتْ جانباً شجيرة قديمة، فانهمرت عليهــا بجمــال آلاف الفُتات الصغيرة من أزهارهــا كشرائح من الخبز وغسلتها بعطر شافٍ. تبعتُها، ونلتُ نصيبي، وأجفلت عندما سمعتها تهتف فجأة: «أوه، سيريل!».

علــى الضفّة أمامنــا تمددت قطة ســوداء، قائماهــا الأماميان كانا مُمزَّقــين ومُلطخين بالدماء داخل فــخ. لا شك في أنها كانت تندفع إلى الأمام تلاحق فريستها عندمــا صيدَتْ. كانت هزيلة وبريّة؛ لا عَجَبَ أنها أخافت طيور الماء المسكينــة وجعلتها تُسقسقُ بهلع. حدَّقتْ إلينا بشراسة، تزمجر بصوت خافت.

صرخت ليتي، وهي ترتعش: «ما أقسى هذا – أوه، ما أقساه!».

دثّــرت يــديّ بقلنسوتــي وبوشاح ليتــي وانحنيتُ لأفتــح الفخ. هاجمتنــي القطــة بأسنانها، ممزِّقــة القماش بحركة متشنجــة. بعد أنْ تحرّرتْ، قفزت مبتعدة بوثبة واحدة، ثم سقطتْ تلهثُ، وتراقبنا.

دثّرتُ المخلوق بسترتي، ورفعتها، مُغمغماً:

«مسكينة السيدة نيكي بن – لطالما خمّنا أنَّ هذا سيحدث لك».

سألتْ ليتي: «ماذا ستفعل بها؟».

قلت: «إنها إحدى قطط ستريلي ميل، لذلك سآخذها إلى بيتها».

تحـرك الحيوان المسكـين وغمغم وأنا أحملها، لكننـا أخذنآها إلى المنـزل. لدى رؤيتي أدخل المطبخ بلا سترة، حاملاً صرة غريبة، تتبعني ليتي، حدّقوا.

قلـت وأنا أكشف عن عبئي: «لقـد جلبتُ المسكينة السيدة نيكي بن».

هتفت إميلي، مادة يدها لتلمس القطة: «أوه، يا للأسف!»، لكنها سحبتها بسرعة، كطيور أبي طليط.

قالت الأم: «هكذا هو مصيرها جميعاً».

قالــت مولي بنبرة صــوت حقود: «أتمنى أنْ يعلــق كاحلا الحرّاس على مدى يومين أو ثلاثة في فخ».

وضعنا الحيوان المسكين على بساط وقدَّمنا إليه حليباً دافئاً. لم تشرب كثيراً، بسبب وهنها الشديد. أحضرتْ مولي، يملؤها الغضب، السيد نيكي بن، وهو قط أسود جميل آخر، لكي يتفحَّص وليفته المُعاقة. ألقى السيد نيكي بن نظرة، وهزَّ كتفيه بشعرهما الأملس استخفافاً، ومشى مبتعداً بخطوات سامية. سادت روح احتجاج أنثوية عامة على قسوة القلب الذكرية.

دخل جورج طلباً للمياه الحارة. شهق من مفاجأة رؤيتنا، ودبّت الحيوية في عينيه.

هتفت مولي: «انظر ماذا حدث للسيدة نيكي بن». خرَّ على رُكبتيه على البساط ورفع المخلبين الجريحين.

قال: «إنهما مكسوران».

قالت إميلي، وهي ترتعش بعنف: «ما أفظع هذا!»، وغادرتْ الغرفة.

قلتُ: «كلاهما؟».

«واحد فقط - انظر!».

هتفت ليتي: «إنكَ تؤلمها!».

قال: «لا فائدة».

هرعت مولى والأم خارجتين من المطبخ إلى الصالون.

سألتْ ليتي: «ماذا ستفعل؟».

أجاب، وهو يرفع القطة المسكينة: «سأضع حدّاً لعذابها»، وتبعناه إلى الحظيرة.

قال: «أسرع وسيلة هي الإطاحة بها وسحق رأسها على الجدار».

هتفت ليتي: «أنت تُثير اشمئزازي».

قال مبتسماً: «إذن سأُغرقها». راقبناه بارتياع وهو يتناول حبلاً من القنب المجدول ويُثبت أنشوطة حول عنق الحيوان، وبجوارها مكواة إوزيّة[٦]؛ واحتفظ بقطعة من الحبل مربوطة إلى المكواة.

قال: «لا أظنك ستأتين؟ أليس كذلك؟». نظرت ليتي إليه؛ كان الشحوب قد كسا وجهها.

قال: «سوف يُثير المشهد اشمئزازك». لم تُجب، لكنها تبعته عبر الفناء إلى الحديقة. على ضفة بركة الطاحونة السفلية التفت من جديد إلينا وقال:

«الآن إلى العمل! - أنتما المعزيان الرئيسان». لما لم يُجِب أي منا، ابتسم، وأسقطَ القطة الملتوية المسكينة في الماء، وهو يقول: «الوداع، أيتها السيدة نيكي بن».

٦- مكواة إوزيّة: مكواة يستخدمها الخياطون لها ذراع يُشبه عنق الإوزة.- المترجم.

انتظرَ على الضفة بعض الوقت. ثم ألقى علينا نظرة فضولية.

قالت ليتي بهدوء: «سيريل، أليس هذا قاسياً؟ – أليس فظيعاً؟».

لم يكن لديّ ما أقول.

سأل جورج: «هل تقصدينني بكلامك؟».

«ليس بوجه خاص – بل كل شيء! إذا تحرّكنا فسوف يرتفع الدم في آثار أقدامنا».

نظر إليها بجديّة، بعينين سوداوين.

قال، وهو يُثبّت الحبل الذي يُمسك به إلى حفرة الرماد: «لقد اضطررتُ إلى إغراقها بدافع الرحمة». ثم ذهب ليُحضر مسحاة وحفر بها قبراً في التربة السوداء العتيقة.

قال: «لو كانت جثّة القطة العزيزة المسكينة أكثر جمالاً لنثرتِ عليها أزهار بنفسج».

كان قد غرز المِسحاة في الأرض، ورفع القطة مع المكواة الإوزيّة.

قال مُستعرضاً الجثة الشنيعة: «حسناً، لقد تلاشى جمالها! لقد كانت قطة ظريفة».

أجابت ليتي: «ادفنها وانهِ الأمر».

فعل ذلك وهو يسأل: «هل ستنتابنا كوابيس بعد هذا؟».

أجابت، مُشيحة وجهها: «الكوابيس لا تزعجني».

ولجنا إلى الداخل، إلى الصالة، حيث كانت إميلي تجلس بجوار النافذة، تعضّ إصبعها. كانت الغرفة طويلة وسقفها ليس عالياً جداً؛ وامتدت عبر السقف دعامة خشبية ضخمة. وعلى رف المدفأة، وفي الموقد، وفوق البيانو وُضِعَتْ أزهار بريّة ونُثِرتْ أوراق خضراء نضرة بغزارة؛ كانت الغرفة منعشة برائحة الغابة.

سالتْ إميلي: «هل انتهى؟ وهل راقبته؟ لو أني شاهدتُ ما فعل لكرهت مرآه، وكنتُ فضَّلتُ ملمس يرقة على ملمسه».

قالت ليتي: «لن أكون مسرورة إذا لمسني».

قال إميلي: «ثمة شيء مُقزز في القسوة والوحشية. إنه يملؤني بالاشمئزاز».

قالت ليتي مبتسمة ببرود: «أحقاً؟». ومشت حتى آلة البيانو. «كل ما في الأمر أنه صحيح الجسم. ولم يمرض قط، حتى الآن على الأقلّ». جلستْ وأخذت تعزف عشوائياً، تاركة الأنغام الصمّاء تنهمر كأوراق نبات ميتة من البيانو العتيق، المتعجرف.

تابعنا أنا وإميلي الحديث بجوار النافذة، عن الكتب والناس. كانت شديدة الجديّة، ونجحَتْ في العموم في جرّي إلى الحالة نفسها.

بعد قليل، دخل جورج بعد انتهائه من عملية الحلب والإطعام. كانت ليتي لا تزال تعزف على البيانو. فسألها: لماذا لا تعزفين لحناً

متناغمـاً، مما دفعهـا إلى الاستدارة وهـي على كرسيهـا لتُعطيه جواباً مُدمِّـراً. لكنَّ مظهره بدّد كلماتها كعصافير مُجفلة. كان قد قدِمَ مباشرة مـن المطبخ، إلى الصالون، ووقفَ خلـف كرسي ليتي يمسح بلا مبالاة الرطوبـة عن ذراعيه. كان كُمّاه مرفوعَـين عالياً حتى كتفيه، وقميصه مفتوحـاً واسعـاً عند الصـدر. بوغتَتْ ليتـي قليلاً بمـرآه واقفاً منفرج الساقَين منتعلاً طماقاً وحذاءً طويلاً قذرين، ومرتدياً بنطلوناً ممزقاً عند الركبة، عاري الصدر والذراعين.

كرّر القول، وهو يدعك المنشفة على كتفيه من تحت القميص: «لِمَ لا تعزفين لحناً متناغماً؟».

رددت، تراقبُ انتفاخ ذراعيه وهو يُحرّكهما، وارتفاع وانخفاض ثدييـه، الصلبَين والأبيض بصورة رائعـة: «لحناً؟». وبعد أن تفحّصتْ بفضول الالتقاء المفاجئ للبشرة الحارة بفعل الشمس مع اللحم الأبيض عند نحره، قابلت عيناهـا عينيه، ثم استدارت من جديد نحو البيانو، بينمـا تـورّد لـون أذنيها اللتـين رحمتهمـا ووقتهما كميـة كبيرة من خصلات شعرها المجعدة البرّاقة.

سألتـه، مُشـيرة بإصبعهـا إلى المفاتيح بشيء مـن الارتباك: «ماذا سأعزف؟».

سحـبَ كتاب أغـانٍ من بـين ركام صغير مـن الموسيقى ووضعه أمامها.

سألتْ وقد أُثيرت قليلاً لـدى شـعورها بساعديه شديديّ القرب منها: «ماذا تريد مني أنْ أغني؟».

«أي شيء ترغبين».

قالت: «أغنية عاطفية؟».

«إنْ شئتِ - نعم، أغنية عاطفية -» وضحك بتلميح فظ جعل الفتاة تنكمش.

لم تُجِب، بل باشرت بعزف لحن سليفان «Tit Willow». كان له صوت جهير مقبول، لا يتَّصف بأي عمق عظيم، وغنى بحماس. ثم عزفت له لحن «اشرب نخبي فقط بعينيك». وفي نهايته التفتت وسألته إنْ كان أحبَّ الكلمات. فأجاب بأنه وجدها سخيفة. لكنه نظر إليها بعينين بنيّتين متوهجتين، وكأنما بتحدٍّ مُتردِّد.

أجابت: «هذا لأنَّ عينيك خاليتان من الخمر لتشرب به»، وردَّتْ على تحديه بإطلاق لهب أزرق من عينيها. ثم أسدلت رموشها على وجنتيها. فضحك مع أثر خفيف من الخجل، وسألها ما أدراها.

قالت ببطء، وهي ترفع نظرها إليه متظاهرة بالتعنيف: «لأنَّ عينيك تغيَّرتا عندما نظرتُ إليك. أنا دائماً أعتقد أنَّ الأشخاص الأكثر القيمة يتكلمون بعيونهم. ولهذا أنتَ مُضطر إلى احترام العديد من الأشخاص غير المُثقَّفين. لأنَّ عيونهم شديدة الفصاحة، وممتلئة بالمعرفة». كانت تنظر إليه باستمرار وهي تتكلم - تراقبُ استحسانه الخفيف لوجهها المقلوب، وشَعرها، حيث الضوء دائماً متشابك، وتراقبُ تفحّصه القصير لذاته ليرى إنْ كان في استطاعته أنْ يستشعر أي صدقٍ في كلماتها، تراقب إلى أنْ انفجر في ضحكة قصيرة كانت أشدّ ارتباكاً وأقلّ رضا من المعتاد. ثم أشاحت بوجهها، تبتسم أيضاً.

قالت، تقلّبُ الصفحات بعدم رضا: «هذا الكتاب لا يحتوي شيئاً يستحق الغناء». عثرتُ لأجلها على مجلّد وغنت منه «Should he upbraid». كانت تمتلك صوت سوبرانو جميلاً، وأبهجته الأغنية. اقتربَ منها، وعندما تلفّتت حولها بعد أنْ انتهتْ بحركة مفاجئة وخبيثة، وجدته يشرب نخبها بعينين رائعتين.

قالت بلهجة العارفة المتفوقة: «هل أعجبتك»، وكأن كل ما على المرء أنْ يفعله، ويا لله، هو أنْ ينتقل إلى الصفحة الصحيحة من المجلد الضخم لروحه ليُرضي هؤلاء الناس.

أجاب بلهجة جازمة: «أعجبتني»، مُعترفاً بهذا بانتصارها.

قالت تسأله: «أفضّل» أنْ أرقص وأغني حول الهمّ المتغضن «على أنْ أوصد الباب بعناية في وجهه، وأنام في مقعد المدخنة – ألا توافقني؟».

ضحك، وبدأ يفكّر فيما كانت تعني قبل أنْ يُجيب.

أضافتْ: «كما تفعل».

سأل: «ماذا؟».

«تُبقي نصف حواسك غافية – نصف حيّة».

سأل: «أأفعلُ هذا؟».

«طبعاً تفعل؛ – «bos – bovis؛ ثور». أنتَ أشبه بثور مربوط، أكل ومرعى وقلّة صنعة»، ثم قالت مبتسمة: «ألا تحب الراحة؟».

أجاب، مبتسماً من إحساسه بالخجل: «ألا تحبينها أنتِ؟».

«طبعــاً. تعــال وقلِّب الصفحــات قليلاً لأجلي بينمــا أعزف هذه المقطوعــة. حسناً، ســوف أومئ لــك برأسي عندما ينبغــي أنْ تقلب الصفحة - اجلب كرسياً».

باشــرت بعزف مقطوعــة رومانس لشوبــرت. مــال مُقترباً منها ليُمســك صفحة النوتة الموسيقيــة؛ شعرتْ بشعرهــا المُنسدل يُلامسُ وجهــه، فالتفتت لترميه بنظــرة سريعة، ضاحكــة، في أثناء عزفها. مع نهاية الصفحــة أومأت برأسها، لكنه كان شــارداً؛ قالت، فجأة بصبر نافــد: «نعم!»، وحاول أنْ يقلب الصفحة؛ فدفعت يده بسرعة جانباً، وقلبتْ الصفحة بنفسها وتابعت العزف.

قال، وقد تورّد وجهه خجلاً: «آسف!».

قالــت، متابعة العزف دون أنْ تلاحظه: «لا تزعج نفسك». وبعد أنْ انتهت

قالت: «انتهينا! والآن أخبرني ماذا كان شعورك وأنا أعزف؟».

أجاب، وهو مُسربل بالارتباك: «أوه - أني أحمق!».

قالــت: «يسعــدني أنْ أسمع هذا - لكنني لم أعنِ ما قلت. بل أعني كيف جعلتك الموسيقى تشعر؟».

أجــاب بتأنٍ، مُتدبِّــراً في إجابته، كالمعتاد «لا أدري - إنْ كانت - قد جعلتني أشعر بأي شيء».

أعلنــتْ: «أنا أقول لــك، إما أنكَ نائم أو أحمــق. أحقاً لم تجد أي شيء في الموسيقى؟ ولكن فيمَ كنتَ تفكِّر؟».

ضحك – وفكّر قليلاً – وضحك من جديد.

اعترفَ، وهو يضحك، ويُحاول أنْ يقول الحقيقة كاملة: «في الواقع! كنتُ أفكّر في كم أنَّ يديك جميلتان – وفيما ترغبان في لمسه – وفكّرتُ في أنَّ لمسَ شَعر شخص آخر وهو يُدغدغ وجنتي هي تجربة جديدة». بعد أنْ انتهى من سرده الدقيق سدّدت ضربة خفيفة إلى يده، وغادرته قائلة:

«إنك تزداد سوءاً على سوء».

قطعت أرض الغرفة إلى مكان الأريكة حيث كنت أجلس وأتحدث إلى إميلي، وأحاطت عنقي بذراعها.

سألتْ: «ألم يحُن الوقت بعد للعودة إلى المنزل، يا بات؟».

قلتُ: «إنها الثامنة والنصف – لا زال الوقت مبكراً جداً».

قالتْ: «ولكن أعتقد – أعتقد أنه كان ينبغي أنْ نكون في المنزل الآن».

قال: «لا تذهبا».

سألتُ: «لماذا؟».

ألحّت إميلي: «ابقيا حتى العشاء».

تردّدتْ: «ولكن أعتقد –».

قلت: «لديها سمكة أخرى عليها أنْ تقليها».

تردّدتْ من جديد: «لستُ متأكدة –». ثم فجأة انتفضتْ غاضبة، هاتفة: «لا تكنْ هكذا خسيساً وسيئاً، يا سيريل!».

سألَ جورج بتواضُع: «هل ستذهبان إلى مكان معيَّن؟».

قالت، متوردة خجلاً: «في الواقع – كلا!».

توسّل قائلاً: «إذن ابقيا حتى العشاء – ممكن؟». ضحكتْ، ورضختْ. وولجنا المطبخ. كان السيد ساكستون جالساً يقرأ. وتمدّد تريب، الكلب الكبير ذو الشعر القصير، عند قدميّ متظاهراً بالنوم؛ واسترخى السيد نيكي بن بهدوء على الصوفا؛ وكانت السيدة ساكستون ومولي تهمّان بالذهاب إلى السرير. تمنينا لهما نوماً هانئاً، وجلسنا. كانت آني، الخادمة، قد ذهبت إلى بيتها، لذلك قامت إميلي بإعداد العشاء.

قال السيد ساكستون لليتي، مُشرقاً في وجهها إعجاباً واحتراماً: «لا أحد يُحسن العزف على ذلك البيانو أفضل منك». كان فخوراً بذلك الشيء العتيق العجوز، والفخم، وكان يقول: إنه مملوء بالموسيقى لأجل مَنْ يطلبونها. ضحكتْ ليتي، وقالت: إنَّ قليلين جداً هم الذين عزفوا عليه، وهذا لا يُعتبَر شرفاً كبيراً لها.

سألَ الوالد فخوراً، ولكن وهو يضحك ضحكة فاتنة في النهاية: «ما رأيكِ في غناء ابننا جورج؟».

قالت: «أعتقد أنه عندما يقع في الحب سوف يُغني بشكل جيد جداً».

كرر الوالـد، ضاحكاً بصوت عالٍ، وبسـرور عارم: «عندما يقع في الحب!».

قالـت: «نعـم، عندما يعثر على شـيء يرغب فيـه ولا يستطيع أنْ يناله».

فكَّر جورج في الأمر، وضحك بدوره.

قالـت إميلي، التي كانت تُعدُّ المائـدة: «يكاد الـ pippin يخلو من الماء، يا جورج».

هتف: «أوه، اللعنة! لقد خلعت حذائي العالي».

قالت أخته: «لا أعتقد أنَّ انتعاله من جديد بالأمر الجلل».

قال بغضب: «لِمَ لا تُحضره آني - ما عملها هنا؟».

نظرتْ إميلي إلينا، ورفعت رأسها، وأدارتْ ظهرها له.

قـال الوالد بنبرة صوت مُريحة: «أنا سأذهـب، أنا سأذهب، بعد العشاء».

قالت إميلي وهي تضحك: «بعد العشاء!».

نهضَ جـورج واقفاً وجرَّ قدميـه إلى الخارج. كان عليـه أنْ يلج الأيكة المجـاورة للمنزل نحو بئر هناك، ولمـا كان يشعر بالدفء كره أنْ يخرج.

كنا قد جلسنا تواً على مائدة العشاء عندما اندفع تريب نحو الباب وهو ينبح. أمره الوالد: «اهدأ»، لئلا يوقظ النائمين، وتبع الكلب.

كان لــزلي. أراد من ليتي أنْ ترافقه إلى المنزل في الحال. رفضتْ أنْ تفعل، فانتقــل إلى الداخل، وأقنعوه بالجلوس على المائدة. ازدرد لقمة من الخبز والجبن، وشرب فنجاناً من القهوة، متحدثاً مع ليتي عن حفل في الحديقة سيُقام في هايكلوز في الأسبوع التالي.

قاطعه السيد ساكستون: «وما المناسبة؟».

كرر لزلي: «المناسبة؟».

شرح السيد ساكستــون: «أهي من أجل المبشرين، أم العاطلين عن العمل، أم شيء آخر؟».

قال لزلي: «إنها حفل في الحديقة، وليس سوقاً شعبية»

«أوه – مسألــة شخصيــة. حسبتُ أنه أمر يتعلــق بالكنيسة يخص أمك. إنها نشطة جداً في شؤون الكنيسة، أليست كذلك؟».

قال لزلي: «نعم – إنها مهتمة بالكنيسة!»، ثم تابع شرحه لليتي بأنه يُعدُّ لإقامة دورة في كرة المضرب وأنها ستشترك فيها. عند هذه النقطة أدركَ أنــه يستأثر بالحديث، فالتفــت إلى جورج، في اللحظة التي كان فيها هذا الأخير يتناول قطعة جبن من سكّينه بأسنانه، وسأله:

«أتلعــب كرة المضــرب، سيد ساكستون؟ – أنا أعــرف أنَّ الآنسة ساكستون لا تلعب».

قــال جورج، وهــو يمضغ قطعة الجبن، «كلا، أنــا لم أسمع عن أية إنجازات للسيدات».

التفــتَ لــزلي إلى إميلي، التــي كانت تدفع بحركــة عصبية طبقَين لتغطــي بهما بقعة على المفرش، وأجفلتْ عندما أدركــتْ أنَّ الكلام موجّه إليها.

«سوف يُسعد أمي أنْ تحضري إلى الحفل، آنسة ساكستون».

«لا أستطيع. سأكون في المدرسة. شكراً جزيلاً لك».

قــال الوالــد، مُشرقاً: «آه – سوف تكون مفيــدة جداً لك». لكنَّ جورج ابتسم امتعاضاً.

بعــد الانتهاء من تناول وجبة العشاء نظر لــزلي إلى ليتي ليُبلغها أنه مستعــد للرحيل. لكنها رفضتْ أنْ ترى نظرته، لكنها تحدثت بإشراق مع السيــد ساكستــون، الذي كان مُبتهجــاً. شعر جــورج بالإطراء، وانخــرط في الحديث بحماس. ثــم بدأ غضب لــزلي الصامت يلفت انتباهنا جميعاً. وبعد فترة من الصمت، رفع جورج رأسه وقال لوالده:

«أوه، لــن أُدهَشــ إذا ولــدت البقرة الحمراء الصغــيرة عجلاً هذه الليلة».

وَمَضَتْ عينا ليتي متلألئة لأنها تسلّت بهذا التصريح المفاجئ.

وافقَ الوالد: «ولا أنا. هذا ما قلته لنفسي».

بعــد برهــة مــن الصمــت، تابــع جــورج بتــأنٍ «لقــد تحسستُ غضاريفها–»

قالت إميلي بحِدّة: «جورج!».

قال لزلي: «سوف نذهب».

رفع جورج بصره بنظرة جانبية إلى ليتي وكانت عيناه السوداوان ممتلئتين بالخبث المتهكم.

قالت ليتي: «هلا أعرتني شالٌ من فضلك يا إميلي؟ أنا لم أجلب معي شيئاً، وأعتقد أنَّ الريح باردة».

لكنَّ إميلي أبدتْ أسفها لأنه ليس لديها شالاً، وأنَّ على ليتي أنْ ترتدي معطفاً ثقيلاً فوق ثوبها الصيفي. بدا عليها مُثيراً للسخرية حتى أننا ضحكنا، لكنَّ لزلي كان شديد الغضب لأنها بدت سخيفة أمامهم. وأظهر لها كل ما يمكن من الاهتمام المهذَّب، وربط المعطف عند العنق بدبوس الشال الذي على شكل لؤلؤة، رافضاً الدبوس الذي عثرتْ عليه إميلي، بعد بعض البحث. ثم انطلقنا.

عندما أصبحنا في الخارج، قدَّمَ ذراعه لليتي بهيئة الكرامة الجريحة. فرفضتها وبدأتْ تُبدي احتجاجها.

«أعتقد أنه كان ينبغي أنْ تكوني في المنزل كما وعدتِ».

أجابت: «عفواً، ولكني لم أعِدْ».

قال: «لكنكِ كنتِ تعلمين أنني قادم».

ردَّتْ قائلة: «حسناً – ها قد وجدتني».

وافقها: «نعم، لقد وجدتكِ؛ تغازلين رجلاً من العامة» ساخراً.

ردّت: «حسناً. صحيح أنه سمّى العجلة باسمها».

قال: «وأعتقد أنَّ ذلك أعجبك».

قالت، بلا مبالاة مُزعجة: «لا اعتراض لدي».

أجاب، متهكماً: «حسبتُ أنَّ ذوقك أرقى من ذلك. ولكن أعتقد أنكِ وجدته رومانسياً».

قالت: «جداً! متورداً، أسمر، وصاحب عينين مُثيرتين حقاً».

قال لـزلي: «أكره أنْ أسمع فتاة تقول كلاماً قذراً». هو نفسه كان لديه شعر متجعد مثل الطبقة «السمراء».

أصرّتْ، تستفز غضبه، «لكنني جادّة».

ثار غضب لزلي: «يسعدني أنه يُسليك!».

قالت بوضـوح: «طبعاً، ليس من الصعـب إسعادي». وطُعِنَ في الصميم.

قال ببرود: «إذن يُريحني قليلاً أنْ أعلم أنني لا أسعدك».

قالت: «أوه! لكنكَ تسعدني! وتسليني أيضاً».

بعد ذلك لم يقُل أي شيء، مُفضّلاً، في اعتقادي، ألا يُسليها.

أمسكــت ليتــي ذراعي، وبيدهــا الحرة رفعت أطــراف ثوبها عن العشب المُبلل. بعد أنْ غادَرَنا في نهاية الطريق في الغابة، قالت ليتي:

«يا له من طفل!».

اعترفتُ: «وأحمق قليلاً».

قالــت: «ولكن حقاً! إنه مقبول في العموم أكثر من – من صاحبي تاورو»

كررتُ وأنا أضحك: «ثورك!».

الفصل الثالث

بائع الرؤى

في يوم الأحد الذي تلا زيارة ليتي للمطحنة، جاء لزلي في الصباح، بملابس مُثيرة للإعجاب، أكملها بهيئة فخمة. قدته إلى غرفة الجلوس المُظلمــة، وتركته. في المعتاد كان يتمشــى نحو الدَّرَج، ويجلس هناك مُنادياً على ليتي؛ أما اليوم فلزم الصمت. حملت نبأ وصوله إلى أختي، التي كانت تُثبّت دبوس زينتها.

سألتْ: «وكيف حال الفتى؟».

قلت: «لم أسأله».

ضحكتْ، وراحت تتسكع في المكان إلى أنْ يحين وقت الانطلاق إلى الكنيسة قبل أنْ تهبط إلى الطابق السُّفلي. ثم قامت هي أيضاً بتلبُّس هيئــة الفخامة وانحنتْ له انحنــاءة جميلة. بوغت قليلاً و لم يقُل شيئاً. قطعــت أرض الغرفة ترفل بثوبها نحو النافـذة، حيث تنمو زهرة إبرة الراعي البيضاء وتزدهر. قالت: «يجب أنْ أتزيَّن بها».

كان من عادة لزلي أنْ يُحضِر لها أزهاراً. ولما لم يفعل ذلك في هذا اليوم، استاءتْ. كان يكره رائحة إبرة الراعي وبياضها الطباشيري. فابتسمتْ له وهي تُثبِّتها على صدر ثوبها، وتقول:

«إنها جميلة جداً، أليست كذلك؟».

غمغم بما يُفيد أنها كذلك. ونزلت الأم إلى الطابق السفلي، ورحّبت به بحرارة، وسألته إنْ كان يمكن أنْ يُرافقها إلى الكنيسة.

قال: «إذا سمحتِ لي».

ضحكت الأم: «أنت متواضع اليوم».

كرّر القول: «اليوم!».

قالت الأم: «أنا أكره التواضُع في الشاب – هيا، سوف نتأخّر». كانت ليتي تتزيَّن بأزهار إبرة الراعي طوال النهار – وحتى المساء. وقد أحضرَتْ معها أليس غال إلى المنزل لتناول الشاي، وطلبتْ مني جلب «صاحبها تاورو»، بعد انتهاء عمله في المزرعة.

كان الجو نهاراً حاراً وخانقاً، والشمس تزداد احمراراً جهة الغرب ونحن نقفز متجاوزين الموقع الأكثر ضحالة من الجدول. كانت روائح المساء قد بدأتْ تستيقظ، وتتجول خفيّة في أرجاء الهواء الساكن، وشعاع أصفر عابر من الشمس يمتد مائلاً من خلال سقف أوراق الأشجار السميك ويتمسك بشغف بكتل من ثمار رماد الجبل البرتقالية. كان الصمت يرين على الأشجار، التي تنسحب معاً إلى

النوم. وحدها بضع زهرات سحلبية وردية اللون بقيَتْ واقفة شاحبة على جانب الدرب، ترنو بحزن إلى صفوف من أبواق حمراء قرمزية، تتوق أزهارها الأخيرة، المتوهجة من قمة عمود برونزي، بغموض إلى أشعة الشمس.

تابعنا سيرنا بتمهُّل في صمت، لا نكسر الهمسات الأولى لأراضي الغابة. ومع اقترابنا من المنزل سمعنا همهمة بين الأشجار، صادرة عن مقعد مُخصص للعشاق، حيث سقطتْ شجرة ضخمة وبقيَتْ تعلوها الطحالب بطبقة هشّة. هناك كان غصنٌ معقوف يصلح مقعداً جميلاً لعاشقَين.

قلتُ ونحن نواصل سيرنا: «تصوروا عاشقَين يُصدران جَلَبَة في مثل هذا الوقت من الغسق». ولكن عندما أصبحنا قبالة الشجرة الساقطة، لم نرَ أي عشّاق هناك، بل رجلاً نائماً، ويُتمتم في أثناء نومه. كانت القلنسوة قد سقطتْ عن شَعره الأشيب، ورأسه يميل إلى الخلف ومُستنداً إلى كتلة غزيرة من أزهار إبرة الراعي الصغيرة البرية تزيِّن الغصن الميت برقّة شديدة. كانت ملابس الرجل جيدة، لكنها قذرة ومُهمَلة، ووجهه شاحباً ومُرهقاً من المرض والفسق. بينما هو نائم، كانت لحيته الشائبة تهتز، وفمه القبيح المرتخي يتحرك متلفظاً بكلام مُبهم. كان يُعيد تمثيل جزء من حياته، وكانت قسمات وجهه ترتعش في أثناء نومه الغريب. كان يُطلِقُ أنيناً قصيراً، مُخيفاً لأُذنها، من ثم تحدث إلى امرأة ما. كانت قسماته ترتعش كأنما من الألم، وإن قليلاً.

افترت شفتاه عن تكشير كاشف عن أسنان صفراء من تحت اللحية.

ثـم باشر الكلام من جديد مـن حنجرته، بصوت أجشّ، بحيث إننا لم نتبـيَّن إلا جزءاً مما قال. كان شيئاً شنيعاً جـداً. وتساءلتُ كيف سنُنهي الأمـر. وفجأة شقَّـت ظُلمة الغابـة الممسوسة بالغسـق صرخةُ أرنب اصطـاده ابن عرس. استيقظ الرجل مع «آه!» حادة – تلفَّتَ حوله في رعب، ثم قال وهو يغوص من جديد مُرهقاً: «إنني أحلم من جديد».

قال جورج: «لا يبدو أنك ترى أحلاماً جميلة».

أجفل الرجل، ثم نظر إلينا وقال، بشبه سخرية: «ومَنْ أنتم؟».

لم نُجِب، بل انتظرنا أنْ يتحرك. لكنه لزم السكون، ونظر إلينا.

أخيراً قال، بإرهاق: «حسن! أنا أحلم فعلاً. أحلم، أحلم». وتنهد من أعماقه. ثم أضاف، متهكماً: «هل أنتم مُهتمون بالأمر؟».

قلـتُ: «كلا، لكنـكَ حتماً بعيد عن طريقـك. أي دربٍ تريد أنْ تسلك؟».

قال: «تريد مني أنْ أرحل».

قلـتُ وأنـا أضحك باستخفاف: «في الواقـع، لا يهمني إنْ كنتَ تحلم. لكنَّ هذا الدرب لا يؤدي إلى أي مكان».

سأل: «إلى أين أنت ذاهب إذن؟».

أجبتُ بوقار: «أنا؟ إلى المنزل».

سألَ، وهو يتفحّصني بعينين مُحتقنتين بالدم: «أأنتَ من آل بيرسدال؟».

أجبتُ بمزيد من الوقار: «أنا كذلك!»، متسائلاً مَنْ يمكن أنْ يكون الرجل؟

بقيَ بضع لحظات جالساً، ينظر إليّ. كان الظلام يزداد حلكة في الغابة. ثم أخرجَ عصا من خشب الأبنوس ذات رأس ذهبيّ، ونهضَ واقفاً.

بدا أنَّ العصا حازت على إعجابي. كنتُ أراقبها بفضول ونحن نسير مع الرجل العجوز على طول الدرب إلى البوابة. رافقناه حتى الطريق العامة. عندما وصلنا إلى السماء الصافية حيث سقط الضوء القادم من الغرب على كامل وجوهنا، التفتَ من جديد ونظر إلينا بإمعان. فغر فاه بحِدّة، وكأنه ينوي أنْ يتكلَّم، لكنه سكت، واكتفى بالقول: «وداعاً – وداعاً».

سألتُ، عندما رأيته يسير مترنحاً: «هل ستكون على ما يُرام؟».

«نعم – أنا على ما يُرام – وداعاً، بنيّ».

سار مبتعداً بوهن داخل الظلام. شاهدنا أضواء عربة على الطريق العام: بعد قليل سمعنا ارتطام باب، وقعقعت العربة مبتعدة.

قال جورج ضاحكاً: «حسن – مَنْ يكون؟».

قلت: «أتعلم، لقد شعرتُ بأني خسيس قليلاً».

«آه؟» وضحك، محوِّلاً نهاية الاستفهام بدهشة متسامحة.

عدنا إلى المنزل، وقد قرّرنا ألا نقول أي شيء للنساء. كنَّ جالسات على حافة النافذة يراقبننا، أمي وأليس وليتي.

قالت ليتي: «لقد تأخرتم كثيراً! لقد راقبنا الشمس تغيب – تنحدر بصورة رائعة – انظروا – إنَّ حافة التل لم تختفِ بعد. ماذا كنتم تفعلون؟».

«ننتظر صاحبك تاورو ريثما ينتهي من عمله».

قالت على عَجَل: «والآن اهدؤوا»، ثم قالت – ملتفتة إليه: «هل أتيتَ لتغني تراتيل؟».

أجاب: «أي شيء تشائين».

هتفتْ أليس، ساخرة: «هذا لطفٌ منكَ، يا جورج!». كانت قصيرة القامة، ممتلئة، شاحبة، ذات عينين متحديتين، متمردتين. أمها من آل وايلد، وهي عائلة شهيرة إما بخرقها الصاعق للقوانين، أو باستقامتها المفرطة. وأليس، بوجود والدها المُثير للإعجاب، وأمها التي تحب زوجها بولَه، كانت جامحة ومتمردة في الظاهر، لكنها صاحبة قلب شديد الاستقامة ومحبوبة. وقد جمعتها مع أمي صداقة سريعة، وليتي تكنّ لها تعاطفاً كبيراً. لكنّ ليتي في العموم كانت تستهجن سلوك أليس المُستفز، على الرغم من أنها كانت تستمتع به – ولكن ليس بين أصدقاء «متفوقين» عليها. ومعظم الرجال كانوا يستمتعون بصُحبة أليس، ولكن عندما ينفردون بها يُكافحون الحياء.

سألتْ: «هل كنتَ ستقول الشيء نفسه لي؟».

قال، وهو يضحك: «الأمر يتعلَّق بما ستُجيبين».

«أوه، أنتَ حـذر جداً. إنني أفضِّل مسماراً في حذائي على رجلٍ حذِر، ألا توافقين، يا ليتي؟».

كان جواب ليتي: «في الواقع – الأمر يتعلَّق بالمسافة التي سأسيرها على قدميّ – ولكن إذا كنتُ مُضطرة إلى أنْ أعرج مسافة طويلة جداً–».

أشاحت أليس بوجهها بعيداً عن ليتي، التي طالما اعتبرتها مُثيرة للأعصاب.

قالت لي: «تبدو مكتئباً، يا سيريل. هل يريد أحد أنْ يُقبّلك؟».

ضحكتُ – على الجانب الخطأ، بسبب فهمي لتلميحها الأنثوي الخبيث – وأجبتُ:

«لو أنَّ هناك أحداً، يا بُنيّ العزيز، لبدت السعادة عليّ».

«إذن ابتسم الآن، يا بنيّ العزيز» – ونقرتْ أسفل ذقني، فتراجعت.

«أوه، يا لله – كم نحن جديون! ما خطبكم؟ جورجي – قُل شيئاً – وإلا ستتوتر أعصابي».

سأل، مُبدلاً وضع ساقيه ومُريحاً مُرفقيه على رُكبتيه: «ماذا

أقــول؟». هتفتْ بقــدر عظيم من نفــاد الصبر، «أوه، يــا إلهي!». لم يُساعدهــا، بل اكتفى بالجلوس شابــكاً يديه معاً، وُمبتسماً بجانبٍ من وجهــه. كان متوتراً. نظر إلى الصور، إلى الزخارف وإلى كل ما تضمه الغرفــة؛ نهضتْ ليتــي لتضع بعض الأزهار علــى رف المدفأة، فتابعها بإمعــان. كانت ترتدي شيئاً من الحرير الأزرق، مع تخريم عند النحر، وآخر على أساور الكُمَّين وحتى المرفقَين. كانت ممشوقة القامة ولدنة؛ وكان شعرهــا زغبيــاً مُجعداً بصورة رائعة الجمــال. و لم يكن هو أطول منهــا، وبدا أقصر قامة، لأنه قويّ البنية. هو أيضاً كان ذا حُسن خاص به، ولكن ليس وهو يجلس متيبّساً على كرسي من شعر الخيل. وكانت أنيقة في حركاتها.

بعد قليل نادت علينا أمي لتناول طعام العشاء.

قالت له ليتي: «تعال، خذني إلى مائدة العشاء».

نهضَ واقفاً، شاعراً بارتباك شديد.

قالــت لتضايقه: «أعطني ذراعــك»، ففعل، واحمر وجهه خجلاً مــن تحت سُمرة الشمس، خوفاً من ذراعهــا المستديرة نصف المُسترة تحت التخريم، وتستلقي بين تضاعيف قميصه.

عندمــا جلسوا الوّحتْ بملعقتهــا وسألتْه ماذا يود أنْ يتناول. تردَّد، ونظــر إلى الأطبــاق الغريبة وقال: إنه يرغب في بعضــ الجبن. فأصرّوا على أنْ يأكل أصناف اللحم الجديدة، والمعقدة.

قالت أليس، بأسلوبها الساخر: «أنا واثقة من أنك تحب التانتافلين،

أليس كذلك يا جورجي؟». لم يكن واثقاً. لم يتمكن من تمييز نكهتها، وشعر بالاضطراب والحيرة حتى من خلال حاسة التذوُّق عنده! وتوسلت إليه أليس كي يتناول السلطة.

قال: «كلا، شكراً، لا أحبها».

قالت: «أوه، جورج! كيف تقول هذا وأنا التي تُقدِّمه لك».

قال «– أنا تناولت منه فقط مرة واحدة، وذلك عندما كنتُ أعمل مع فلينت، فأعطانا شحماً مُقدداً وقطعاً من الخس منقوعة بالخل – وراح يُردد: «خُذ المزيد من السلطة»، لكنني اكتفيت.

قالت أليس وهي تغمز بعينها: «لكنّ خسّنا حلو المذاق كالجوز، ولا يحتوي على أي خلّ». ضحك جورج بكثير من الارتباك بسبب تلاعبها اللفظي باسم أخته[٧].

قال، بشهامة طنانة: «أصدّقك».

هتفتْ أليس: «تصوروا! صاحبنا جورجي يُصدقني. أوه، أنا سعيدة جداً، جداً!».

ابتسم بألم. كانت يده ترتاح على طاولة المائدة، وإبهامه محشور بإحكام تحت أصابعه، وابيضّتْ براجمه من فرط ضغطه العصبي على إبهامه. وأخيراً انتهوا من تناول وجبة العشاء، والتقطَ منديل المائدة الخاص به عن الأرض وبدأ يطويه. ليتي أيضاً بدت منزعجة. لقد

٧ – أخته اسمها Lttie والخس بالإنكليزية هو Lettuce. – المترجم

عمدت إلى مضايقتــه إلى درجة أنَّ الإحساس بارتباكه أصبح مُزعجاً. والآن شعــرت بالأسف، وبقدر قليل جداً مــن الندم، فتوجهت نحو البيانــو، كما تفعل دائماً للتخلُّص مــن غضبها. فعندما ينتابها الغضب تعزف مقطوعات رقيقة لتشايكوفسكي، وعندما تكون بائسة، تعزف موتسارت. الآن تعزف هندل بأسلوب يجعل النغمات الطويلة توحي بسهول السماء، والنقرات الصغيرة والسريعة كأنها ترقص الفالس على سلَّم حُلم يعقوب[٨] كالعــذارى في لوحات بليك[٩]. ولطالما أخبرتها أنهــا تمدح نفسها بصورة فاضحة من خلال عزفها على البيانو؛ ولكن في العمــوم كانت تتظاهــر بأنها لا تفهمني، وأحيانــاً تُفاجئني بعزف «Ave Maria» لغونو، لعِلمها أنَ الطابع العاطفي للحن سوف يحظى بإعجابــه، ويُثير حزنــه، ويُنسيه شرور هذه الحيــاة الوضيعة. ابتسمتُ وأنا أراقب سريان مفعول الخدعة الرخيصة. وبعد أنْ انتهتْ، استقرتْ أصابعهــا برهة لا تبدي حِــراكاً على لوحة المفاتيــح، ثم دارت حول نفسها، ونظرت مباشرة إلى عينيه، واعدةً بابتسامة. لكنها ألقتْ نظرة سريعة على رُكبتها.

قالت: «أنتَ مللتَ الموسيقى».

أجاب، هازاً رأسه نفياً: «كلا»

---

٨ – سلَّم يعقوب: سلَّم يصل إلى السماء تراءى لسيدنا يعقوب في الحلم، كما ورد في سِفر التكوين ٢٨: ١٢–١٧. – المترجم.

٩ – وليــم بليك: شاعــر، رسّام، نحّــات ومتصوف إنكليزي، مــن دواوينه «أغاني البراءة» و «زواج الجنة والنار» و «أغاني التجربة». – المترجم.

سألتْ مع ومض من المزاح: «أتفضّلها على السلطة؟».

رفع بصره إليها مع ابتسامة مُفاجئة، لكنه لم يُجِب. لم يكن وسيماً؛ كانت قسمات وجهه في مُعظم الأحيان في حالة استرخاء ثقيل؛ ولكن عندما رفع بصره وابتسم بصورة غير متوقعة، غمرها بفيضٍ من الرقّة.

قالــت: «إذن ستحصل على المزيد منها»، والتفتت من جديد نحو البيانــو. عزفتْ قطعــاً ناعمة، كئيبــة، وفجأة انتفضــت وسط إحدى القطــع العاطفية شديدة الكآبة، وغادرت البيانو، وارتمت على إحدى الكراســي بجوار موقــد النار. بقيتْ جالسة هنــاك ونظرتْ إليه. كان واعياً أنْ عينيها مُثبتتان عليه، لكنه لم يجرؤ على مبادلتها النظر، فأخذ يشدّ شاربه.

قالــت له بهــدوء: «أنت في النهاية مجرد صبــي صغير». ثم التفت وسألها لماذا؟

كــررتْ القول، وهــي تستند بظهرهــا إلى الكرســي، وتبتسم له بكسل: «لستَ أكثر من صبي».

أجاب بجديّة: «لم أعتقد هذا أبداً».

قالت، مقهقهة: «أحقاً؟».

قال، مُحاولاً أنْ يتذكّر انطباعاته السابقة: «كلا».

ضحكتْ من أعماق قلبها، وهي تقول:

«ها أنت تكبر».

سألَ: «كيف؟».

كررتْ، ولا زالت تضحك: «تكبر».

قال: «لستُ متأكّداً من أنني لم أكن أتصرف بصبيانية».

قالت: «أنا أُعلِّمكَ، وعندما تتصرّف بصبيانية سوف تصبح رجلاً عالي الكياسة. إنَّ الرجل العادي لا يجرؤ على أنْ يكون صبياً خوفاً من أنْ يسقط من علياء هيبة رجولته، وعندئذٍ يُصبح المسكين أحمق».

ضحك، وجلس ساكناً ليفكّر في الأمر، كما هي عادته.

فجأة سألتْ، بعد أنْ سئمت النظر إليه: «هل تحب اللوحات؟».

أجاب: «أكثر من أي شيء».

قالت: «ما عدا وجبة العشاء، وموقد دافئ وأمسية كسول».

نظر إليها فجأة، وقد أصبح أكثر تشدّداً اتجاه إهانتها، وعضَّ شفتيه لدى تلقيه هذه الإهانة. ندمتْ، ورسمت له ابتسامة الندم المتأملة الخاصة بها.

قالت، وهي تنهض وتخرج من الغرفة: «سأُريكَ شيئاً». شعر أنه أصبح أقرب إليها. عادتْ، حاملة ركاماً من الكتب الضخمة.

قال: «يا إلهي – أنت قوية حقاً!».

قالت: «أنت تفتنني بمديحك».

ألقى عليها نظرة سريعة ليرى إنْ كانت تتهكم.

أصرّت قائلة: «هذا أقصى ما لديك تقوله لي، أليس كذلك؟».

سألها، غير راغبٍ في تعريض نفسه للشُّبهة: «أحقاً؟».

أجابت: «طبعاً» - ومن ثم أردفتْ، وهي تضع الكتب على الطاولة: «أعرف كيف سيمدحني رجل من طريقته في النظر إليّ» - وركعت أمام نار الموقد. «بعضهم ينظر إلى شَعري، والبعض يراقبُ ارتفاع وانخفاض أنفاسي، والبعض ينظر إلى عنقي، وقليلون - وأنت لستَ منهم - ينظر في عينيّ بحثاً عن أفكاري. بالنسبة إليك، أنا عيّنة رائعة، أنا قويّة! قوية جداً! يا لكَ من رجل بدائيّ!».

جلسَ يلوي أصابعه؛ كانت هي على عكسه تماماً.

قالت، وهي تجلس عند الطاولة وتفتح كتاباً: «قرِّبْ كرسيك». حدَّثته عن كل لوحة على حِدة، مُصرَّة على سماع رأيه. أحياناً كان يُخالفها الرأي ولا يقتنع. في مثل تلك الأوقات كانت تستاء.

قالت: «لو أنَّ أي بريطانيّ قديم جاء بشحمه ولحمه وخالفني الرأي كما تفعل، أما كنتَ طلبتَ منه ألا يتصرَّف بحماقة؟».

قال: «لا أعلم».

أجابت: «إذن يجب أنْ تعلم. أنت لا تعلم أي شيء».

قال: «لماذا تسألينني إذن؟».

بدأتْ تضحك.

«في الواقـع – إنه سؤال مناسب. أعتقد أنك ربما تكون لطيفاً، في الحقيقة»

قال، مبتسماً بسخرية: «شكراً لك».

قالــت: «أوه! أعلم، أنت تعتقد أنكَ كامل، لكنك لست كذلك، أنت مزعج جداً»

هتفــتْ أليس، التــي كانت قد ولجتْ الغرفة مــن جديد، مستعدة للمغادرة: «نعــم». إنه يزدهر ببطء شديد! إنه صفقة عظيمة! مَنْ يريد أشخاصاً من أجل حمل وجبات باردة؟ ألا تودين أنْ تبثّي فيه النشاط، يا ليتي؟.

أجابت هي الأخرى ـ بهدوء: «لا أشعر باهتمام كبير».

سألت أليس، باهتمام بــريء، وهي تنخسني بحركة خبيثة: «هل سبقَ لك أنْ حملت سجقاً مطبوخاً، يا جورجي؟».

أجاب، بارتباك شديد: «أنا! – لماذا؟ – ما الذي يجعلك تسألين؟».

«أوه، أنــا فقط تساءلتُ إنْ احتــاج أهلك إلى أي دواء لعلاج عسر الهضم – أبي يُعدَّه – فإنَّ سعر الزجاجة بنس ونصف».

باشر بالقول: «لا أرى –».

«كفى – كفى، أيها الفتى. سأمنحكَ وقتاً للتفكير في الأمر. عمتِ مساءً، ليتي. إنَّ الغياب يُلهِبُ اشتياق القلب – يا جورجي – إلى شخص آخر. وداعاً. هيا بنا، سيريل حبيبي، القمر ساطع – عمتم مساءً جميعاً، عُمتم مساء!».

رافقتها إلى بيتها، بينما تابعا الفرجة على الصور. لقد كان رومانسياً. يُحب كوبلي، وفيلدينغ، وكاترمول وبركت فوستر[١٠]؛ ولم يكن يرى أي شيء في إنتاج غيرتن أو ديفيد كوكس. لقد سقطا دون أدنى شك في مقابل جورج كلوزن.

قالت ليتي: «لكنه صاحب أسلوب واقعيّ حقيقي، ويجعل الأشياء العادية جميلة، ويرى الغامض والرائع الذي يُغلِّفنا حتى ونحن نعمل كالعبيد. أنا أعرف فعلاً وأستطيع أنْ أتكلَّم. إذا عزقتُ الحقول التي إلى جوارك –». كانت هذه فكرة جديدة جداً عليه، كادت تكون صدمة بالنسبة إلى مُخيّلته، وراحت تتكلَّم دون انتباه. واللوحة موضوع النقاش كانت لوحة بالألوان المائية – لوحة «العزق» لكلوزن.

قالت، تعيده إلى الموضوع: «سوف تكون مثل ذلك اللون الذي في مشهد الغروب، وإذا نظرتَ إلى الأرض فسوف تجد فيها ما يُشبه النار الذهبية الدافئة، وحالما تفهم اللون، سوف يقوى بحيث لا ترى

---

١٠ – كوبلي وكاترمول وبركت فوستر: رسامون ظهروا بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فيلدنغ: كاتب إنكليزي من القرن الثامن عشر، له «جوزيف أندروز». المترجم.

أي شـيء آخر. أنت أعمى؛ نصف مولود؛ بهيمـيّ من الحياة الرغيدة والنـوم الثقيـل. أنت أشبه ببيانـو لا يعزف إلا بضعة أنغـام مبتذلة. إنَّ غـروب الشمـس لا يعني لك أي شيء - إنه مجـر د حادث يقع في أي مـكان. أوه، ولكنـك تجعلني أرغـب في دفعك إلى المعانـاة. لو أنكَ مرضـتَ يوماً؛ لـو أنكَ وُلِدتَ في منزل شعـرتَ فيه بالاضطهاد، و لم تفهم سببه؛ لو أنـكَ آمنتَ، أو حتى شككتَ، لأصبحتَ الآن رجلاً. أنـتَ لم تبلغ سن الرشد، كبصلة النبات التي تنتفخ طوال فصل الصيف وتمتلئ لكنها لا توقِظ بذرة زهرة. أما أنا، فالزهرة نبتَتْ داخلي، لكنها تريـد أنْ تخـرج. إنَّ الأشياء لا تُزهِر إذا ما أفـرطَ في تغذيتها. في هذه الحيـاة عليكَ أنْ تعاني قبل أنْ تُزهِر. يكفي أنْ يلمس الموت نبتة، حتى يدفعهـا نحو شغف الإزهار. أنتَ تتعجَّب كيـف لمستُ الموتَ. أنت لا تعلـم. في هذا المنزل هناك دائماً إحساس بالمـوت. وأعتقد أنَّ أمي كرهـتْ والدي قبل أنْ أولَد. ذلك كان الموت الذي جرى في عروقها ونقلته إليّ قبل أنْ أولَد. إنه يُحدِث فرقاً -».

بينمـا هو جالس يُصغي، اتسعتْ عينـاه وانفرجت شفتاه، كطفلٍ يعيشـ الحكاية لكنـه لا يفهم الكلمات. وعندما ابتعـدتْ عن نفسها أخيراً رأته، وبدأتْ تضحك برقّة، وربتت على يده قائلة:

«أوه، يا قلبي العزيز، هل تشوش ذهنك؟ كم أنت لطيف بإصغائك إليّ - إنَّ كلامي كله مجرد ثرثرة لا معنى لها - بلا أي معنى حقاً!».

قال: «ولكن، لماذا تقولينه؟».

ضحكـتْ: «أوه، السـؤال الكبير! فلنعُد إلى وجبتنـا، إننا نتبادل التحديق كصورتين مذهولتين».

وتابعـا، يتبادلان الحديث العادي، إلى أنْ هتف جورج فجأة، «ها هي!»



كانت لوحة موريس غريفنهاغن[١١] «مشهد ريفي». (انظر اللوحة المُرفقة)

---

١١ - موريـس غريفنهاغن (١٨٦٢ - ١٩٣١): رسّام بريطاني. كان معروفاً برسم صـور للكتب وللمُلصقات بالإضافة إلى رسم المناظر الريفية. كان عضواً في أكاديمية الفنـون الملكية. اللوحة المذكورة تمثّل شاباً قرويـاً يتدثر بجلد خروف يُقبل فتاة يبدو عليها الخجـل والاستسلام وسط حقل من أزهار شقائـق النعمان. (انظر إلى اللوحة المُرفقة بالترجمة)- المترجم.

سألـتْ، وهي تتضـرج تدريجياً بحُمـرة الخجل: «مـاذا بها؟».
تذكّرتْ حماسها الخاص للوحة.

هتف، ناظراً إليها بعينين متوهجتين، وأسنانه تظهر بيضاء بابتسامة لا تدل على التسلية: «أليس رائعاً؟».

سألتْ، منكسة رأسها باضطراب: «ماذا؟».

أشرقَ بفضول: «تلك – فتاة كتلك – نصف خائفة – وشغف!».

«قد تكون شبه خائفـة، عندما يأتي البربري بكل عظمته، والجلد الذي يكسوه وما إلى ذلك».

سألَ: «ولكن ألا تعجبكِ؟».

هزّت كتفيهـا استخفافاً، وقالت: «غازل الفتاة التالية التي تقابل، وعندمـا يحين الوقت الذي تصبغ فيـه شقائق النعمان الحقل بالحُمرة، سـوف تستسلـم بين ذراعيك. سـوف تكون في حاجـة إلى أكثر من الشعور بشبه خوف، أليس كذلك؟».

أخذتْ تعبث بأوراق الكتاب، ولم تنظر إليه.

تلعثم قائلاً، وعينانه تتوهجان: «ولكن، سيكون – بالأحرى –».

هتفت وهي تضحك: «لا تقلها، أيها الفتى العذب، لا تقُلها!».

قـال متردداً: «ولكن ينبغـي ألا – لا أعلم إنْ كنتُ سأرغب من أية فتاة أنْ –».

قالت بصـوت ناعم متهكم، وهي تداعب وجنته بإصبعها: «أيها النفيس سير غالاهاد[١٢]، كان ينبغي أنْ تُصبح راهباً – شهيداً، زاهداً».

ضحـك، دون أنْ ينتبـه. كان يتلوى مبهـور الأنفاس تحت ضغط الإحساس الجديد بنارٍ ثقيلة، لا يمكن إخمادها في صدره وفي عضلات ساعديه، ألقى نظرة سريعة على صدرها وارتعش.

سألته: «هل تدرس الدور الذي ستلعبه؟».

«كلا – ولكـن –» حـاول أنْ ينظر إليها، لكنـه فشل. انكمش، ضاحكاً، ونكّس رأسه.

سألته بفضول حيويّ: «ماذا؟».

لـمَّـا أصبح أكثر هـدوءاً بقليل، رفع نظره إليهـا، بعينين واسعتين وتنبضان بالحياة وبإعلانٍ جعلهـا تنكمش متراجعة وكأنَّ لهباً انتفضَ نحو وجهها. أحنتْ رأسها، وأخذتْ تعبث بثوبها.

قالت، بصوت منخفض خالٍ من النبرة: «ألم تر اللوحة من قبل؟».

أغمضَ عينيه وانكمشَ خجلاً.

قال: «كلا، لم أرها من قبل».

---

١٢ – سير غالاهاد: في الأصلِ هو أحد فرسان المائدة المستديرة التابعين للملك آرثر. كان مثـال الطُهر والعفاف، وأسنـدت إليه مهمة استرجاع الكأس المقدسة. أصبح اسمه رديفاً للإنسان النبيل، العفيف والطاهر والنقي. – المترجم

قالت: «أنا مندهشة. إنها شائعة جداً».

أجـاب: «أحقاً؟»، وانتهى ذلك الحديـث المُدَّعى عند هذا الحد. رفعـت عينيهـا ـ فقابلتـا عينيه. تبـادلا التحديـق برهة قبـل أنْ يُخفيا وجهيهما من جديد. كان عذاباً لكليهما أنْ يتبادلا النظرات الصريحة؛ ألماً مذهـولاً، منكمشاً، حتى أنهما أجـبرا نفسيهما على تحمّله برهة، ولعلهمـا في اللحظـة التي تلـتْ الارتعاش بإحساس عنيف امتلأت عروقهمـا بدفق كهربائي، نـاريّ. وبحثتْ عن شـيء تقوله وهي في حالة تشبه الرعب.

حاولت أنْ تقول: «أعتقد أنها في ليفربول، أعني اللوحة».

لم يجـرؤ على قتل تلك المحادثـة، كان شديد الخجل. أجبر نفسه على أنْ يُجيب: « لم أكنْ أعلم أنَّ هناك صالة عرض في ليفربول».

قالت: «أوه، يوجد، وصالة جيدة جداً».

تقابلـت عيونهمـا في لمحـة خاطفة، ثـم أشاح كلاهمـا بوجهه بعيـداً. وهكذا تفـادى كل منهما الآخر، وتحـولا إلى الحديث. أخيراً نهضـتْ واقفة، وجمعت الكتـب، وحملتها وابتعـدت. عند الباب التفتت. عليها أنْ تسرق لحظة حادة أخرى: سألته: «هل أنتَ مُعجب بقوتي؟». كانـت وِقفتها جميلة. برأسها الشامـخ، واستدارة نحرها التـي تهبط برهافـة حتى صدرها المرتفع من فـوق ركام الكتب، التي يحملهـا ذراعاها المُستقيمان. نظر إليهـا. ابتسمت شفاهما بفضول. تراجعـت بنحرهـا إلى الخلـف وكأنها تشـرب. شعرا بالدمـاء تنبض

بجنـون في عنقيهما. ثم استدارت فجأة مُقاطِعـةً ارتعاشهما الوجيز، وغادرت الغرفة.

بعـد أنْ خرجت، جلس وأخذ يبرم شاربه. ثـم عادت إلى الصالة وهي تُكلِّـم نفسها بجنـون بالفرنسية. وبما أنها كانـت شديدة التأثُّر بـدور سـارة برنـار في مسرحية «غـادة الكاميليـا» و بـأداء أرديان ليكوفرور[١٣]، التقطت ليتي شيئاً من نبرة تلك الممثلة العظيمة الغريبة، وكان مزاحها وتهكمها يخرجان منها على هيئة أمواج صغيرة عنيفة. ضحكـت منه، ومـن نفسها، ومن الرجال عمومـاً، ومن الحب على وجـه الخصوص. ومهما قال لهـا، كانت تُجيبـه بالرطانـة الفرنسية المجنونـة نفسهـا، بصوت عـالٍ وأجشّ. كان ضجيـج صوتها غريباً ومُزعجـاً. بدت على جبينه قسمات الارتبـاك المتألِّم، وهو ما اختبرته كثيراً بعد ذلك، إحساس بشيء مؤلِم، شيء لم يفهمه.

أخـيراً هتفـت: «حسن، حسنٌ، حسن، حسـن! أحياناً يجب أنْ نكون مجانين، وإلا ظهر علينا التقدُّم في السن. هاين؟».

قال بحزن: «ليتني أفهم».

ضحكت: «عزيـزي المسكين؟ كم هو جـادّ! أأنتَ ذاهب حقاً؟ سوف يظنون أننا لم نقدم لك عشاءً، تبدو حزيناً».

باشـر بالقـول، وعينـاه ترقصان بابتسامـة وهو يُغامـر باستخدام مُقتطف: «لقد تعشّيت – حتى الشبع–». لقد كان شديد الحماس.

---

١٣ – أدريان لوكوفرور (١٦٩٢ – ١٧٣٠): ممثلة فرنسية.

هتفت تُكمِل الجملة «من الرعب! وهذا أسوأ من أي شيء منحتكَ إياه».

أجاب: «أحقاً؟»، وتبادلا الابتسام.

أجابت: «وأسوأ». انتظرا بضع لحظات ترقّباً. نظر إليها.

قالــت، مادةً يدها: «وداعاً». كان صوتها ممتلئاً برقّة متمرّدة. نظر إليهــا من جديد، بعينين تومضان. ثم أمسك بيدها. ضغطتْ أصابعه، متمسكة بها مدة أطول. وعندما شعرت بالخجل من إفشاء مشاعرها، نكست رأسها. كان هناك جرح طويل عبر إبهامه.

هتفت، مرتجفة: «يا له من جُرح!»، وتمسّكتْ أشدّ قليلاً بأصابعه قبل أنْ تُحرّرها. ضحك ضحكة قصيرة.

سألتْ برقّة شديدة: «ألا يؤلمك؟».

ضحــك من جديــد - أجــاب بهــدوء: «كلا!»، وكأنَّ إبهامه لا يستحق الاهتمام.

من جديد تبادلا الابتسام، وبحركة مُفاجئة كسر السِّحر وغادر.

الفصل الرابع

الأب

حلّ فصل الخريـف، وأزهار الأضاليا الحمـراء التي حافظتْ على الضـوء الدافئ حياً على صدورهـم حتى وقت متأخِّر من المساء ماتت في الليل، و لم يبقَ لدى الصباح ما يعرضه إلا كرات بنيّة من العفن.

لـدى مروري بباب مكتب البريـد في إبرويتش ذات أمسية هتفوا لي، وحمّلـوني رسالـة إلى أمـي. أربكنـي خـط اليد المُشـوَّه، الممتد، بانزعـاج غامض؛ نحّيتُ الرسالة جانباً، ونسيتُ أمرها. وتذكّرتها في وقـت لاحق من المساء، عندمـا أردتُ أنْ أتذكّر شيئاً يُثير اهتمام أمي. نظـرتْ إلى خط الكتابة، وباشرت على عجـل وبعصبية تمزّق المُغلَّف؛ حملتـه بعيـداً عنها تحت ضـوء المصباح، وبعينين نصـف مُغمضتين، حاولـت أنْ تقـرأ. لذلك عثرتُ لها عن نظارتهـا، لكنها لم تشكرني، وارتعشـت يدها. قرأت الرسالة القصيرة بسرعة؛ ثم جلستْ، وقرأتها من جديد، واستمرت تنظر فيها.

سألتُ: «ما الأمر، أمي؟».

لم تُجِب، بل استمرّتْ في التحديق إلى الرسالة. اقتربتُ منها، ووضعتُ يدي على كتفها، شاعراً بإزعاج شديد. لم تلاحظ وجودي البتة، وبدأتْ تتمتم: «مسكين يا فرانك – مسكين فرانك»، وهذا هو اسم والدي.

«ولكن ما الأمر، يا أمي؟ – أخبريني ما الأمر!».

التفتت ونظرتْ إليّ وكأني شخص غريب عنها؛ نهضتْ واقفة وراحت تتمشّى في أرجاء الغرفة؛ ثم غادرتْها، وسمعتها تخرج من المنزل.

كانت الرسالة قد سقطتْ على الأرض. التقطتها. كان خط اليد مُشوشاً جداً. ويذكر العنوان اسم قرية لا تبعد أكثر من بضعة أميال؛ والتاريخ يعود إلى ثلاثة أيام خلتْ.

عزيزتي ليتيس:

سوف ترغبين في معرفة أني قد متُّ. لا أستطيع أنْ أصمد أكثر من يوم أو يومَين – إنَّ كليتيّ قد توقفتا تقريباً.

في إحدى الأيام أتيت إليكم، لكنني لم أركِ، بل رأيتُ الفتاة جالسة بجوار النافذة، وتبادلتُ بضع كلمات مع الفتى. وهو لم يعِ شيئاً، و لم يشعر بأي شيء. أعتقد أنَّ الفتاة ربما كانت تعي. لو تعلمين كم أشعر بالوحدة، يا ليتيس – كم كانت ظروفي فظيعة، لشعرتِ بالرثاء لأجلي.

لقـد ادّخرتُ قـدر استطاعتي، لكي أُسدِّد دَينـي لكِ. لقد مررتُ بأسـوأ ما يمكـن تصوره، يا ليتيس وأنا سعيـد لأنَّ النهاية حانت لقد مررتُ بالأسوأ.

وداعاً - إلى الأبد - زوجك

فرانك بيردسال

شعرتُ بالخَدَر بسبب رسالـة والدي تلك. كافحتُ بجهدٍ مُضنٍ كي أتذكّره، لكننـي كنتُ أعلم أنَّ الصورة التي أحملها لرجل وسيم، شديد السُّمـرة، طويل القامة، أشيب الشَّعر هي من رسم كلمات أمي القليلة، ومن صورةٍ مرسومة رأيتها ذات مرة.

لم يكن الزواج سعيداً. كان والدي شخصاً عابثاً، يميل إلى السوقيّة، لكنه مقبول، ويتمتع بقدر وافر من السِّحر. كان كذّاباً، يفتقر إلى أدنى قـدر من الصـدق، وقد خدع أمـي بشكل كامل. اكتشفـت خياناته الحقـيرة وخدعـه واحـدة بعد أخـرى، وكانـت روحها تنتفـر منه، ولأنَّ وهمـه تحطَّم إلى ألف شظيـة سوقيّة، رحلت حاملة احتقار امرأة اكتشفـتْ أنَّ حلمها الرومانـي كان حكايـة تفاهة. وعندما غادرها لينغمسـ في ملذات أخرى - كانـت ليتي لا زالت طفلة في الثالثة من العمـر، وكنتُ أنا في الخامسة - ابتهجتْ مع إحساس بالمرارة. كانت تسمـع أخباره من مصادر شتى - و لم تكـن أخباراً جيدة، على الرغم مـن أنَّ أحوالـه ازدهرت - لكنه لم يأتِ أبـداً لرؤيتها أو كاتبها طوال الأعوام الثمانية عشر.

بعـد قليـل دخلتْ أمـي. جلستْ، وهـي تطوي حاشيـة مئزرها الأسود، وتعود فتمسّده من جديد.

قالـت: «أتعلـم، إنَّ له حقـاً في الأولاد، وأنا منعتهـم عنه طوال الوقت».

قلتُ: «كان في وسعه أنْ يأتي».

«لقـد حرّضتهم ضده، وأبعدتهم عنه، وهـو أرادهم. كان ينبغي أنْ أكون إلى جانبه الآن - كان ينبغي أنْ آخذكَ إليه قبل وقت بعيد».

«ولكـن كيـف كان يمكنـكِ أنْ تفعلي، وأنـت لا تعرفين عنه أي شيء؟».

«كان يمكن أنْ يأتي - لقد أراد أنْ يأتي - هكذا شعرت على مدى سنين. لكننـي أبعدته، أعلم أنني أبعدته. أنـا شعرت بهذا، وهو شعر به. مسكين فرانـك - سوف يتبيَّن أخطاءه الآن. ما كان ليكون قاسياً مثلي -».

«كلا، يا أمي، إنها فقط الصدمة التي تدفعك إلى قول هذا».

«هـذا الآن. لكننـي أشعـر في داخلي منـذ زمن طويل أنـه يتألَّم؛ إننـي أحمل شعوره داخلي. كنتُ أعلم، نعـم، كنتُ أعلم أنه يريدني، ويريـدك، شعرت بـه. لقد حلَّ عليّ الشعور بـه خاصة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة... لقد كنتُ قاسية معه».

قلتُ: «- سوف نذهب إليه الآن، أليس كذلك؟».

أجابــت، وقد لاحظت وجودي حقاً للمرة الأولة: «غداً – غداً. سوف أذهب في الصباح».

«وأنا سأذهب معك».

«نعم – في الصباح. ليتي لديها حفلة في تشاسورث – لا تُخبرها – لن نُخبرها».

قلت: «كلا».

بعــد ذلك بقليل، ارتقــت أمي إلى الطابق العلــوي. وعادت ليتي متأخـرة من هايكلوز؛ لم يدخل لزلي معها. وفي الصباح كانوا ذاهبين مــع فريق من السيارات إلى ماتلــوك وتشاسورث، وكانت متحمسة، ولم تلاحظ أي شيء.

علــى أية حال، لم نكــن أنا وأمي سننطلق حتى فــترة بعد الظهيرة الدافئــة، المعتدلة. عندما ترجّلنــا من القطار في كوسشــاي كان الهواء ممتلئــاً باصفرار ناعم. أصــرّتْ أمي على المشي مسافــة الميلين الطويلة حتى القرية. مشينا ببطء علــى الطريق، متلكئين فوق الأزهار الحمراء الصغيرة في أسفل السياج العالي ونحن نرتقي منحدر التل. كنا كارهَين الوصــول إلى هدفنا. وعندما بدأ بــرج الكنيسة الرمادي الصغير يلوح للعــين، سمعنا هدير موسيقى خشنة وعاليــة كالنهيق. وأمامنا، وعلى امتداد الحقل الصغير، كان الاحتفال في ذروته.

ثمــة أحصنة خشبية تدور بمرح، والأراجيــح –القوارب تقفز في وجــه السماء الزرقــاء المعتدلة. جلسنــا أنا وأمي علــى مرقى السياج،

ورحنا نتفرّج. هناك أكشاك للبيع، وبقايا جوز الهند ودوامات الخيل موزّعة على أرجاء الحقل الصغير. ومجموعات من الأطفال تتنقَّل بهدوء من عرض جذّاب إلى آخر. ورجل داكن السُمرة اقترب عبر الحقل حاملاً دلوين من الماء يقطران. ونسوة يتفرجن من أبواب عربات القافلة المُغطاة، وكلاب نحيلة نهضت بكسل ثم استقرّت من جديد تحت الدرَج. تحرّك المهرجان ببطء، على الرغم من ضجيجه الصاخب. دعت سيدة ضخمة الجثة بصوت ذكوري أجشّ الأطفال المتحمسين إلى عرض صندوق الدنيا. ورجل داكن البشرة وقف متباعد الساقين النحيلين على منصّة دوامة الخيل، مائلاً نحو الخلف، وفمه منتفخ بصفٍّ من الأصابع، يُصفِّر بصورة مدهشة على هدير أصابع الأرغن، وبدا صفيره صافياً كطيران إوز برّي عالياً فوق قمم المداخن، وهو يدور مع الدوامة. ووقفَ رجل قصير وبدين مع انتفاخ قبيح على صدره يصرخ من كشك قذر أمام حشد من الأولاد، يطلُب منهم أنْ يقبلوا تحدي شابٍ ضخم، متين البنية، وقف معقود الساعدين، وقبضتا يديه تُبرزان عضلات أعلى الذراعين. وعندما سُئل إنْ كان يقبل أيّاًمن تلك التحديات المُحتَمَلة، أومأ الشاب برأسه موافقاً، دون أنْ يصل إلى مرحلة الكلام: - نعم إنه يقبل اثنين دفعة واحدة، هكذا صرخ الرجل القميء ذو الانتفاخ الضخم على صدره، مُشيراً إلى الأولاد والبنات المذعورين. وأبعد قليلاً، سُمِعَ صوت كراكوز الغريب عندما توقف بائع جوز الهند عن إطلاق الضجيج من خشخيشة الأطفال. لقد كان شديد الغضب، لأنَّ أولئك الصغار لا يُجازفون ببنس واحد خجول، وضجَّ زعيق الخشخيشة كالعفريت. وتقدَّمت فتاة صغيرة لتنظر إلينا، وهي

تلعق بأناقــة شطيرة المثلجات. لكنها لم تُثِر اهتمامنا، فتابعت طريقها لتحدّق إلى عربات القوافل.

كدنـا نستجمـع شجاعتنا تقريبـاً لاجتياز موقع الاحتفـال، وإذا بناقوس الكنيسة المكسور يُرسِل رنينه لينهمر فوق ضجيج الأصوات.

«واحــد – اثنــان – ثلاثة»– إنْ كان حقاً قــرعَ ثلاث مرات! فإنَّ الثالثة صدرت عن ناقوس أكثر انخفاضاً – «واحد – اثنان – ثلاثة». ناقوس يظنّه المرء خطــأً إنساناً! نظرتُ إلى أمــي – فأشاحت بوجهها عني.

تابعــت آلة الأرغــن عزفها الهادر – تقدمت المــرأة ذات الصوت الأجشّ لتجــدد دعوتها. ثم سادت فترة هدوء. كان الرجل ذو الكتلة على صدره قد اختفى خلف الستارة ليتعارك مع الشاب المتين. وكان بائــع جوز الهند قد ذهب إلى الحانــة وهو شديد الغضب، وفتاة وقحة في السابعــة عشرة أو نحوهــا كانت مسؤولة عن الجــوز. واستمرت الأحصنة الخشبية في الدوران، حاملة صبيين خائفَين.

فجــأة بــدأ الرنين السريــع والهــادر للناقوس المنخفض يضجُّ من جديــد. أصغيتُ – لكننــي لم أتمكن من الاستمــرار في العدّ. واحد، اثنــان، ثلاثة، أربعــة – للمرة الثالثــة صمَّم ذلك الفتــى الضخم على امتطاء الأحصنة، وبدأت بالــدوران عندما كانت قدمه على الدّرَجة، فتفشــل محاولته – ثمانية، تسعة، عشــرة – لا عَجَبَ أنَّ لذلك الرجل الصافِر تفاحة آدم كبيرة – تساءلتُ إنْ كان يشعر بالألم في عنقه عندما يتكلَّــم، لأنها مُدبَّبــة – تسعة عشر، عشرون – كانت الفتاة تلعق المزيد

مــن المثلجات، بلعقــات صغـيرة، متكلِّفة - خمسة وعشــرون، ستة وعشــرون - تساءلتُ إنْ كنــتُ عددتُ حتى ستة وعشريــن آلياً. عند هــذه النقطة تخليتُ عن الأمر، وانتظرتُ اقــتراب رأس لورد تنيسون الأصلــع وهو يدور على الحافــة المرسومة لدوامة الخيــل، يتبعه الوجه الأحمر للورد روبرتس، ثم دزرائيلي ذو المظهر الخسيس.

قالت أمي: «واحد وخمسون - هيا - هيا بنا».

أسرعنــا الخُطى خلال المهرجان، باتجاه الكنيسة؛ نحو حديقة يطل فيهــا آخر الحرّاس الحُمر من قمة أبراج زهــر الخطمي. كانت الحديقة كتلــة مُشوّشة من أزهار الأقحوان الزهــري الباهت، وأزهار النجميّة ضعيفــة البصر، وسيقان الخطمي الشبحية. وهي تابعة لمنزل منخفض، مُظلــم، رابض خلــف حجاب من أشجــار الطقسوس. تابعنا المشي حتى مقدمته. كانــت الستائر مُسدلة، وفي إحدى الغُرف رأينا الضوء الباهت لشموع مشتعلة.

سألتُ أمي فتى فضولياً: «هل هذا كوخ الطقسوس؟».

أجاب الفتى: «إنه كوخ السيدة ماي».

سألتُ: «هل تعيش وحدها؟».

«كان يُقيــم معهــا كارلــن الفرنســي - لكنه مــات - وهي تترك الشموع مشتعلة لتجعل الفتى يشعر بالألفة».

اقتربنا من المنزل وقرعنا الباب.

همســـتْ عجوز محنيّــة الظهر بصوت أجش، وهــي ترمقنا بعينين شديدتــيّ الزُرقة: «وأنتما جئتما من أجلــه؟»، وتومئ برأسها العجوز بشبكته الحريرية باتجاه داخل المكان.

قالت أمي: «نعم – لقد استلمنا رسالة».

«نعــم، مسكين – لقد رحل، يا سيدتي»، وهزّتْ العجوز رأسها. ثــم نظــرتْ إلينــا بفضول، ومالــت إلى الأمــام، ثم وضعــت ذراعها الذاوية العجوز على ذراع أمي، ذراعها ذات العروق الزرقاء الداكنة، وهمســتْ تُفضــي إليهــا «والشموع انطفــأتْ مرتين. لقــد كان فتى مرحاً، مرحاً جداً!».

قالت أمي، ترتعش: «يجب أنْ أدخل وأسوّي الأمور – أنا نسيبته الأقرب».

«نعم – لا بدّ أني غفوت، لأنني عندما رفعت بصري، كان الظلام حالكاً. سيدتي، إنني لا أجرؤ على البقاء يقظة وهو غائب، وقد دفنت الكثيريــن. آه، لكنَّ آلامه، يا سيدتــي – المسكين – آه، يا سيدتي!» – رفعت كلتا يديها العجوزين، ونظرتْ إلى أمي، بعينين عميقتيّ الزُّرقة.

سألتْ أمي: «أتعلمين أين احتفظ بأوراقه؟».

«نعم، لقد سألتُ الأب برنز عنها؛ قال: إننا يجب أنْ نُصلّي لأجله. لقد اشتريتُ له شموعاً من جيبي. لقد كان فتى غريب الأطوار، حقاً!» ومن جديد هزّت رأسها الشائب في حزن. تقدّمتْ أمي خطوة.

سألتْ العجوز بنبرة سؤال شبه خائفة: «هل تريدين أنْ تريه؟».

أجابــت أمــي، بإيماء حيــوي: «نعــم». أصبحت تــدرك الآن أنَّ العجوز كانت صمّاء.

تبعنــا المــرأة إلى المطبخ، وكان غرفــة طويلة، منخفضــة السقف، مُظلمة، بستائر مُسدلة.

قالــت العجوز بالنــبرة المنخفضــة نفسها، وكأنها تكلِّــم نفسها: «اجلسا».

«أأنتِ أخته؟».

هزّتْ أمي رأسها نفياً.

ألحّت العجوز «أوه – أنت زوجة أخيه!»

هززنا رأسينا نفياً.

خمَّنتْ: «مجــرد نسيبة؟»، ونظرتْ إلينا مناشِــدة. أومأتُ برأسي موافقاً.

قالــت: «اجلسا هنا دقيقــة»، وابتعدتْ. أوصــدت الباب بقوة، مُرتطمــة بكرســي في أثنــاء ذلك. ولــدى عودتها وضعــت زجاجة وكأســين مع صــوت مكتوم على الطاولة أمامنا. بــدا رسغها النحيل، الرقيق، غير قادر على حمل الزجاجة.

قالت، وهي تدفع الزجاجة نحو أمي: «كان قد بدأ بشربها – لديّ القليل لينعشك – هيا الآن، يا للمسكين»، وهرعتْ منطلقة، ثم عادتْ مع السُكر وإبريق الشاي. رفضنا.

«لن يشربه بعد الآن، المسكين – وهو لذيذ، يا سيدتي، كان يشرب منه الكثير. نعم – وخلال الأيام الثلاثة الأخيرة لم يشرب قطرة واحدة، المسكين، فتى مسكين، ولا قطرة. هيا الآن، سوف يفيدك، هيا الآن». ورفضنا.

همست، مُشيرة إلى باب موصد في الزاوية المظلمة من المطبخ الكئيب: «إنه في الداخل». ارتقيتُ متعثراً دَرَجة، وتابعت مرتطماً بطاولة متهالكة عليها شمعة يحملها شمعدان طويل من النحاس. سقطت الشمعة، وتدحرجت على الأرض، وسقط الحامل النحاسي مع صوت ارتطام عالٍ.

ولْولَت العجوز: «آه! – آه! – يا إلهي يا ربي، يا إلهي – يا قلبي، يا إلهي – يا قلبي!». وراحت تهرول مسرعة إلى الطرف المقابل من السرير، وأعادت إشعال الشمعة المطفأة من طرفها المُستدقّ الذي كان لا يزال فيه أثر اشتعال. ولدى عودتها، توهج الضوء على وجهها العجوز، المُجعّد، وعلى المَقابض المصقولة لقوائم سرير خشب الماهوغاني القاتم، بينما قطَرَ سيل من الشمع على الأرض. وعلى الضوء الخفّاق للشمعتين رأينا الشكل العام تحت اللحاف. رفعت الحافة وبدأتْ تُصدِرُ أصوات عويل ملؤها الألم. كان قلبي يخفق وشعرت كأني أختنق. لم أرغب في النظر – ولكن كان لا بدّ أنْ أفعل. إنه الرجل الذي رأيته في الغابة – وقد اختفى الانتفاخ عن وجهه.

شعرتُ بشفقة عنيفة هائلة، وبإحساس بالخوف، وإحساس بالرعب، وبإحساس فظيـع بالضآلة والوحشة وسط فضاء خـاوٍ هائل. شعرتُ بأني خارج عن طوري وكأنني مجرد ذرّة تذروها الريح بلا وعي خلال الظـلام. ثم شعرت بذراع أمي يُطوّق كتفـي، وبكت إشفاقاً، «آه، يا بُنيّ، يا بُنيّ!».

ارتعشـتُ، واستعـدتُ تماسكي. لم تكن هنـاك دموع على وجه أمـي، بل مجـرد مُناشدة عظيمة. قلتُ بلا تناسُـق: «لا بأس، أمي - لا بأس».

نهضـتْ واقفة وغطّـت وجهها من جديـد، ودارت وذهبت إلى العجوز، وأمسكت بها لتهدِّئها، وتكفّ عن عويلها الواهن. مسحت العجـوز دموع الشيخوخـة القليلة عـن وجنتيها، ودفعـتْ بشعرها الشائب ومسّدته تحت الشبكة المخملية.

سألت أمي: «أين أغراضه كلها؟».

قالت العجوز رافعة أُذنها: «هه؟».

كررت أمي القول بصوت أعلى نبرة: «هل أغراضه كلها هنا؟».

«هنا؟» - لوّحتْ العجوز بيدها نحو أرجاء المكان. كان يضمُّ سرير خشب الماهاغوني الكبير، خاليـاً من الستائر وطاولة كتابة، وصندوقاً من خشب السنديـان، وكرسيين أو ثلاث كراسي من الماهاغوني. «لم أستطـع أنْ أحملـه إلى الطابق العلوي؛ إنه لم يمكـثْ هنا أكثر من ثلاثة أسابيع».

قالت أمي بصوت عالٍ في أُذُن العجوز: «أين مفتاح طاولة الكتابة؟».

أجابت العجوز: «نعم، هذه هي الطاولة». نظرت إلينا، مرتبكة ومُرتابة، تخشى أنْ تكون قد أساءت فهمنا. كان شيئاً رهيباً.

صرختُ: «المفتاح! أين المفتاح؟».

كان وجهها العجوز مشحوناً بالاضطراب وهي تهزّ رأسها نفياً. فهمتُ من ذلك أنها لا تعلم.

كررتُ مُشيراً إلى مِعطفي: «أين ملابسه؟ الملابس». فهِمتْ، وتمتمت: «سأحضرها لك».

كان ينبغي أنْ نتبعها وهي ترتقي مسرعة إلى الطابق العِلوي من خلال بابٍ قريبٍ من رأس السرير، لو لم نسمع وقع خُطى ثقيلة في المطبخ، وصوتاً يقول: «هل تنوي العجوز أنْ تعاقر الخمر مع الشيطان؟ مرحباً، سيدة ماي، تعالي واشربي معي!». وسمعنا خرير مشروب يُصبُّ في كأس، وفي الحال تقريباً الربت الخفيف للكأس الفارغة على الطاولة.

قال: «سوف أرى ما الذي تفعله تلك العجوز»، واقتربت الخطوات الثقيلة منا. وكما حدث معي، تعثّر عند الدرجة الصغيرة، لكنه نجا من الارتطام بالطاولة.

قال بعنف: «اللعنة على الدرجة الحمقاء». كان الطبيب - ذلك

أنه احتفظ بقبعته على رأسه، و لم يتردَّد في التنقُّل في أرجاء المنزل. كان أحمر الوجه، ضخم الجثة، قوي البنية.

قال، عندما لاحظ وجود أمي: «عفواً». انحنت أمي له.

سألَ، وهو يخلع قبعته: «السيدة بيردسال؟».

انحنت أمي.

«لقد بعثتُ إليك برسالة. أنت قريبة له – قريبة لكارلن المسكين؟» – وأومأ بحركة جانبية نحو السرير.

قالت أمي: «الأقرب».

«مسكين – لقد كان منبوذاً قليلاً. كان أعزب، يا سيدتي».

قالت أمي: «لقد فوجئتُ بتلقّي رسالته».

«نعم، أعتقد أنه لم يكن متعوداً على مكاتبة أصدقائه. ومؤخراً أمضى وقتاً عصيباً. ولابد للمرء أنْ يدفع الثمن في وقت ما. نحن الذين نجلب الهموم على أنفسنا – ما أشد حماقتنا – لا تؤاخذينني».

رانت برهة صمت علينا، تنهد خلالها الطبيب، ومن ثم بدأ يُصفِّر بنعومة.

قال: «حسناً – ربما سنشعر بارتياح أكبر إذا أزحنا الستارة»، قال هذا وهو يسمح لضوء النهار بالدخول وسط خفق ضوء الشموع.

قال: «على أية حال، ليست لديك أية مشكلة تحتاج إلى حل – لا

ديـون أو ما شابـه. أعتقد أنكِ ستتركين أغراضـاً كثيرة – فلا بأس في ذلك. يا للمسكين – لقد ظل كئيباً حتى النهاية؛ ولكن يجب أن نُسدد مـا علينا في وقت من الأوقات». وسـأل، وهو ينظر عالياً إلى السقف المُدعَّـم، وكان يُدمدم ويهـدر بسبب البحث العنيـف الذي تقول به العجوز، «ما الذي تفعله تلك العجوز بحق الله؟».

قالت أمي: «نريد مفتاح هذه الطاولة».

«أوه – أنا أستطيع أنْ أعثر عليه – وعلى الوصية أيضاً. لقد أخبرني عـن مكانهما، وطلب مني أنْ أُسلمهمـا إليك عندما تأتين. يبدو أنكِ كنتِ تعنين الكثير بالنسبة إليه. ربما كان ينبغي أنْ يعتني بنفسه أكثر –».

هنـا سمعنا وقع خُطـى العجوز الثقيلة وهي تهبـط الدَّرَج. توجه الطبيب نحو أسفل الدَّرَج.

صاح: «مرحباً، الآن – خذي حذرك!». ووقع للعجوز المسكينة كما توقـع أنْ يقع، ووطأتْ حامل البنطلـون الذي كانت تجره معها، وانهـارت بين ذراعيه. أجلسها برفق، قائلاً: «لا أظنكِ أوذيتِ، أليس كذلك؟ – كلا!»، وابتسم لها وهزَّ رأسه نفياً.

«آه، دكتـور – آه، دكتـور – بوركت، أنا ممتنـة لأنك أتيت. الآن ستهتم بأمرهما، أليس كذلك؟».

أومـأ برأسه بطريقته المُخادعـة، الناجعة، وهرع إلى المطبخ، وأعدَّ كـأسـاً من الويسكي، وأعدَّ آخر له، قائلاً لها: «خذي هذا – لقد كان أمراً مزعجاً لك».

جلست العجوز المسكينة على كرسي بجوار باب بيت السلم المفتوح، وركام من الملابس متجمع عند قدميها. تلفّتت حولها بصورة مُثيرة للشفقة، نظرت إلينا وإلى ضوء النهار الذي يُكافح بين أضواء الشموع، مُشكلاً بريقاً مُخيفاً على السرير حيث تستلقي الجثة الباردة بلا حِراك؛ ويدها ترتعش حتى لم تكد تستطيع أنْ تحمل كأسها.

أعطانا الطبيب المفاتيح، وبدأنا ننقب طاولة الكتابة والأدراج، ونصنِّف كل الأوراق. والطبيب جالس يرشف المشروب ويُحدثنا طوال الوقت.

قال: «نعم، إنه لم يمكث هنا أكثر من عامَين. ثم، أعتقد أنه بدأ يشعر بأنه ينهار. لقد أمضى وقتاً طويلاً في الغربة؛ وكانوا دائماً ينعتونه بالفرنسي». ورشف الطبيب من المشروب وأخذ يفكّر، ورشف من جديد. «نعم – لقد كان رحالة في حياته – كان يغوص في الأحلام. من صالح العجوز أنها كانت صمّاء. شيء فظيع أنْ يستسلم الرجل للأحلام؛ كنتُ ألعب النرد معه، وأعلم هذا». ورشف، رشف، رشف – والمزيد من التفكير – وأعدَّ كأساً أخرى من الويسكي.

«لكنه كان شخصاً دمثاً جداً – كريماً، سخيّاً. الناس لم يحبّوه، لأنهم لم يفهموا أعماقه؛ إنهم دائماً يكرهون الشيء الذي لا يستطيعون سبر غوره. وكان منغلقاً، لا ريب في ذلك – ما عدا في نومه أحياناً». نظر الطبيب إلى كأسه وتنهّد.

فجأة صاح: «ومع ذلك – سوف نفتقده – أليس كذلك، مستر ماي؟»، أجفلنا، مما جعلنا ننظر إلى السرير.

أشعل غليونه وأخذ ينفث الدخان بكثرة لكي يحجب جاذبية كأسه. في تلك الأثناء كنا نتفحّص الأوراق. كانت هناك رسائل قليلة – واحدة أو اثنتان موجهتان إلى باريس. وهناك العديد من الفواتير، وإيصالات استلام، وكمبيالات – أعمال، كله في مجال الأعمال.

لم نعثر على أي أثر للعواطف بين كل تلك الأوراق المبعثرة. قامت أمي بفرز الأوراق التي رأتْ أنها قيّمة؛ أما الأخرى، الرسائل الرسمية الخطيّة التي نظرتْ إليها بفضول ووضعتها جانباً، فحملتها إلى المطبخ وأحرقتها. بدت خائفة من أنْ تعثر على أكثر مما ينبغي.

واصل الطبيب تلوين دخان تبغه ببضع كلمات متأملة.

قال: «آه، هناك طريقتان. يمكنك أنْ تحرق مصباحك بنفخة قوية، فيتوهج بسطوع، إلى أنْ ينفد الزيت، ثم يُصدر رائحة كريهة ويُرسل دخاناً وينطفئ. أو يمكنكَ أنْ تتركه متوازن اللهب على طاولة المطبخ، وبين حين وآخر تلوث أصابعك برفع اللهب، وسوف يدوم وقتاً طويلاً، ويخمد باعتدال». هنا التفت إلى كأسه، ولما وجده فارغاً، استيقظ وعاد إلى أرض الواقع.

سألَ: «هل أستطيع أنْ أقدِّم أية مساعدة، مدام؟».

«كلا، شكراً لك».

«نعم، لا أعتقد أنَّ هناك ما يستوجب الحل. ولا سنوات عديدة نبددها – عندما يُنفق رجل سنوات عمره وذروة شبابه على كائن مَنْ كان، لا يمكن أنْ تتوقع من الذين يتذكرونه شاباً أنْ يحزنوا كثيراً

لفقدانــه». لكنه نال نصيبه من الملذات في حياته، «مدام. نعم – لا بدّ أنه كان ذا ثراء في وقت ما. والمرء فيه لا يشبع – دائماً يريد، ويشتهي. لا شــيء يُضاهــي الزواج – فيه تحصل على وجبتــك وتوضع أمامك، ويجــب أنْ تأكلهــا». ومن جديــد انغمس في التفكــير، ولم يستيقظ منــه إلا بعد أنْ أقفلنا طاولة الكتابــة، وأحرقنا الأوراق العديمة القيمة، ووضعنا أخرى في جيبي وفي حقيبة سوداء، ووقفنا استعداداً للرحيل. عندئذٍ رفع الطبيب نظره فجأة وقال:

«ولكن ماذا عن الجنازة؟».

ثــم لاحــظ الإرهاق باديــاً على أمي، فقفــز واقفاً، وتنــاول قبعته بسرعة، وهو يقول:

«تعــالي لزيــارة زوجتي وتناول كــوب من الشــاي. عندما يُدفَن المــرء في هذه الحُفر اللعينــة يُصبح قروياً فظاً. تعالي حتماً – إنَّ زوجتي الصغيرة تشعر بالوحدة – تعالي فقط لتريها».

ابتسمــت أمــي وشكرتــه. وهممنــا بالرحيــل. تــردَّدتْ أمي في خطوتهــا؛ وعند عتبة الغرفة استدارت لتلقــي نظرة إلى السرير، لكنها تابعت طريقها.

في الخــارج، في الهــواء الطلق من أول المســاء، لم أُصدِّق أنَّ ذلك صحيح، ذلك الوجــه الحزين، الشاحب، ذو اللحية الشائبة، يتذبذب على ضــوء الشموع الأصفــر. إنها كذبة – ذلــك السرير الخشبي ذو الأعمدة، وتلك المــرأة الصمّاء، كانا بقايا باهتة من اللاحقيقة. الوهج

الأصفر لأزهار عباد الشمس الصغيرة كان حقيقة، والظل الذي ترميه الساعة الشمسية على منازل الفقراء القديمة التي يسطع عليها ضوء الشمس - ذاك كان حقيقة. واكتنفنا ضوء شمس بعد الظهيرة الثقيلة دافئاً ومُنعِشاً؛ ارتعشنا، وخرجت اللاحقيقة من عروقنا، و لم نعُد نشعر بالبرد.

كان منزل الطبيب ينهضُ جميلاً بين أشجار الزان، وعلى السياج الحديدي أمام بقعة المرج الصغيرة كانت امرأة تتحدث مع بقرة جرزي جميلة أقحمتْ أنفها القاتم في السياج من الحقل المجاور. كانت امرأة سمراء ضئيلة، متوردة؛ تدعك أنف الحيوان الرقيق، وتُدقق النظر في العينين الداكنتين، وتتكلَّم بلهجة اسكتلندية مُحبَّبة؛ تتحدث برقّةِ حديثَ أمٍّ مع طفلتها.

عندما استدارتْ مندهشة لكي تُرحِّب بنا كان لا يزال في عينيها رقّة بعد ظهيرة خصبة. قدَّمت لنا الشاي، والكعك، وهلام التفاح، ونحن نصغي طوال الوقت بابتهاج إلى صوتها، الذي كان موسيقياً كطنين النحل في أشجار الزيزفون. وعلى الرغم من أنها لم تقُل شيئاً يستحق السماع إلا أننا أصغينا إليها بانتباه.

كان زوجها مرحاً ولطيفاً. كانت تلقي عليه نظرات خشية خاطفة وسريعة، وكانت عيناها تتفاداه. وكان هو، بطريقته المرحة، الصريحة، يُمازحها، ويُفرِط في مدحها، ثم يُضايقها من جديد. ثم أصبح منزعجاً قليلاً. أعتقد أنها كانت تخشى من أنه يُعاقر الخمر؛ أعتقد أنها ارتعدتْ من شدّة الرعب عندما رأته يترنّح، وارتبكت وفزعت عندما رأت أنه

سكران. لم يكـن لديهما أطفال. ولاحظتُ أنه كفَّ عن المُزاح عندما بـدا عليها الارتبـاك. كان كثيراً مـا يرميها بنظرات خاطفـة، وازداد انزعاجه، وبات جلياً أنه يرغب في المغادرة.

قـال لي: «إذن، يُستحسن أنْ أذهب معك لمقابلة القسّ»، وغادرنا الغرفـة، التي تطـلُّ نوافذها على جهـة الجنوب، عبر المـروج، الغرفة حيث لوحات صغيرة أنيقة بالألوان المائية، وقليل من الزخرفة الجميلة، ومزهريـات فارغة، وروايتـان قذرتان مـن مكتبة البلـدة، وآلة بيانو مُغلقـة، والأكواب ذات الشكل الغريـب، والفوهة المكسورة لإبريق شاي يُسبب بُقعاً على المفرش - هذه كلها تحكي حكاية واحدة.

ذهبنا إلى محل النجّار وطلبنا تابوتاً، وشرب الطبيب كأس ويسكي نخـب ذلك؛ ودفعنا أجـر حفّار القبر، وختم الطبيـب صيغة الاتفاق بقطرة مـن البراندي؛ وأكمل كأسٌ من البـورت مرح الطيب، وعدنا إلى المنزل.

هـذه المرة لم يتمكّن الاضطـراب الظاهر في عينيّ المـرأة الضئيلة الداكنتـين من تبديد مرح الطبيـب. كان يُبربر طوال الوقت، وراحت هي تُدير خاتم زواجهـا بحركة عصبية. وأصرَّ على إيصالنا إلى المحطة بالسيارة، على الرغم من إحساسنا بالرعـب.

قالـت الزوجة، بنبرة حديـث هايلاند المُداعِـب: «ولكن سوف تكون آمنـاً تماماً معه». وعندما تبادلنا المُصافحة عند المغادرة لاحظتُ قوة راحة يدها الصغيرة؛ - ولطالما كرهتُ ثوباً صوفياً أسود عتيقاً.

كانت المسافة بين محطة القطـار في إيبرويتش والمنزل طويلة جداً. قطعنـا جزءاً من الطريـق بالحافلة؛ ثم مشينا على أقدامنـا. إنها مسافة طويلة جداً على أمي، بسبب خطواتها المُثقلة بالاضطراب.

كانـت ريبيـكا في الخـارج بجـوار أزهـار الورديّة تبحـث عنا. وهرعت إلينا جزعة، وسألتْ أمي إنْ كانت قد تناولت الشاي.

قالـت: «ولكن يمكنك أنْ تتناولي كوباً آخر»، وأسرعت عائدة إلى المنزل.

جاءتْ إلى غرفـة الطعام لكي تأخذ قلنسوة أمي ومعطفها. كانت تنتظـر منا أنْ نتكلّـم؛ كانت مبتئسـة بالنيابة عن أمـي؛ لقد لاحظت السـواد الذي ظلّل عينيهـا، وأخذت تتململ بعصبيـة، غير راغبة في السؤال عن أي شيء، لكنها منزعجة وقلقة لأنها تريد أنْ تعرف.

قالت: «لقد جاءت ليتي إلى المنزل».

سألتْ أمي: «وذهبتْ من جديد؟».

«جـاءت فقط لكي تبدِّل ثوبها. ارتدت ثـوب البوبلين الأخضر. وتساءلت إلى أين ذهبتما؟».

«وماذا قلتِ لها؟».

«قلـتُ: إنكما خرجتمـا قليلاً لقضاء حاجة. فقالـت إنها سعيدة لذلك. كانت شديدة الحيوية كسنجاب».

نظرتْ ريبيكا بحزن إلى أمي. وأخيراً قالت هذه الأخيرة:

«لقد مات، يا ريبيكا. لقد رأيته».

«الآن أشكر الله على هذا – لم يعد هناك من داعٍ للقلق بشأنه بعد الآن».

«ولكن! – مات وحيداً، يا ريبيكا – وحيداً».

قالت بيكي بالقسوة نفسها: «لقد ماتَ كما عشتِ أنتِ».

«ولكن كان لديّ أولادي، كان لديّ أولادي – لن نُخبِر ليتي، يا ريبيكا».

«كلا يا سيدتي»، وغادرت ريبيكا الغرفة.

قالت أمي لي: «سوف تحصل أنتَ وأختك على المال». كان هناك مبلغ مقداره أربعة آلاف جنيه أو نحوه. تُرِكَ لأمي؛ أو، في حال غيابها، لليتي ولي.

«حسن، يا أمي – إنْ كان لنا، فهو لك».

ساد صمت بضع دقائق، ثم قالت: «كان يمكن أنْ يكون لديك والد –».

«نحن شاكران لأنه لم يكن لدينا، يا أمي. لقد وفّرتِ علينا ذلك»

قالت أمي: «ولكن كيف تعرف هذا؟».

أجاب: «لا أعرف. وأنا شاكر لك».

«إذا شعرتَ يوماً بأنَّ احتقاراً لشخص قريب منك يتنامى داخلك، حاول أنْ تكون سمحاً، يا بنيّ».

قلت: «حسناً –».

أجابــت: «نعم، لن نقول أكثر من هذا. عندما يحين الوقت يجب أنْ تُخبِر ليتي – أخبرها بنفسك».

وأخبرتها، بعد ذلك بأسبوع أو نحوه.

سألتْ، وقد قَسَتْ قسماتها: «مَنْ يعلم بهذا؟».

«الماما، وبيكي، ونحن».

«لا أحد آخر؟».

«كلا».

«إذن لقــد أحسن عملاً بموته وهو بعيــد عنا إنْ كان قد عامل أمي بخسّة. أين هي؟»؟

«فوق».

وهرعت ليتي إليها.



الفصل الخامس

رائحة الدم

غـيَّر موتُ الرجل الذي كان والدنـا حياتنا. هذا لا يعني أننا عانينا كثيراً من الحزن؛ المشكلـة الكبرى كانت بكاء الفشـل الذي لا يلقى رداً. لكننـا تغيّرنـا في مشاعرنا وفي صلاتنـا؛ كان أصبح هناك وعي، وحرص جديد.

كنـا قد عشنـا، أنا وليتي، طوال حياتنا بـين الغابة والمياه، وكانت تسعـى وراء الأنغام المشرقة في كل شيء. وكأنها تسمع المياه تضحك، وأوراق الشجـر تتهامـس وتقهقـه كالفتيـات الصغـيرات؛ والحور الرجراج يُرفرف بأوراقه كأثواب العابث، وكان هديل حمام الورشان يتصرَّف بحماقة بسبب طبعه العاطفي.

ولكـن لاحقـاً، لاحظتْ من جديـد البكاء القاسـي المُثير للشفقة لقنفذ عالق في شَرَك، وكانـت قد لاحظتْ الأفخاخ التي وُضِعَتْ من أجـل القَتَلَة الصغيرة الشرسة، أفخاخ مُحاطـة بسياج صغير من أشجار التنوب، وأُغويَتْ بأحشاء أرنب مقتول.

بعد ظهيرة أحد الأيام بعد زيارتنا لكروساي بوقت قصير، جلستْ ليتي على حافة النافذة. تشبّثت أشعة الشمس بشعرها، وقبّلتها برشقات مُدلِّهة وصلتْ من الزاحف المُحتضِر ذي اللون القرمزي في الخارج. كانت الشمس تعشق ليتي، وتكره أنْ تتركها. كانت تطل عبر نذرمير على هايكلوز، الغامضة وسط ضباب أيلول. ولولا الضوء القرمزي على وجهها، لظننتُ أنّها تبدو حزينة ومتجهمة. استكانت عند النافذة، تسند رأسها على العمود الخشبي. وتراخت تدريجياً مستغرقة في النوم. ثم عادت من جديد لتبدو كطفلة رائعة - كانت الفتاة ذات السابعة عشرة نائمة هناك، وشفتاها الممتلئتان البارزتان منفرجتين قليلاً، وأنفاسها تخرج خفيفة. وانتابني الإحساس القديم بالمسؤولية؛ يجب أنْ أحميها، وأعتني بها.

سُمِع ضجيج حصى يُسحَق. إنه لزلي قادم. رفع قبعته لها، مُعتقداً أنها تنظر إليه. إنه صاحب ذلك التكوين الجسدي، الرشيق، الرائع، الذي يوحي بحيوان عالي الحيوية؛ إنَّ شخصيته تزداد جاذبية باطّراد؛ يُراقبه المرء يتجول، فيشعر بالسعادة. وجهه أقلّ إمتاعاً من شخصه. إنه ليس وسيماً؛ حاجباه خفيفان جداً، وأنفه كبير وقبيح، وجبينه، على الرغم من علوّه وحُسنه، يخلو من الوقار. لكنه يحمل تعبير وجه صريح، ودود، وله ضحكة صحيّة، جميلة.

تساءلَ لَمَ لم تتحرّك. وعندما تقدَّمَ رأى. ثم غمز لي ودخل. قطع أرض الغرفة على أطراف أصابع قدميه لكي ينظر إليها. اللامبالاة العذبة لجلستها، وطفولة وجهها الجذابة، شبه المُثيرة للشفقة، لمست

شغاف قلبه الحسّاس، ومال إلى الأمام وقبَّلَ وجنتها حيث كانت بقعة قرمزية من أشعة الشمس.

استيقظت نصف يقظة من نومها، مع «أوه!» قصيرة، كطفلة خرقاء. جلس خلفها، وقرَّبَ برفق رأسها منه، ونظر إليها مع ابتسامة رقيقة، مُهدهدة. حسبتُ أنها هكذا ستستغرق من جديد في النوم. لكنَّ جفنيها ارتعشا، وعيناها من تحتهما ومضتا بالوعي.

هتفت، وهي تدفعه بعيداً عنها: «لزلي! - أوه! - دعني!». تركها، ونهضَ واقفاً، ورماها بنظرة مؤنِّبة. هزّتْ ثوبها، وذهبت مُسرعة إلى المرآة لكي ترتّب شَعرها.

هتفت، تبدو متوردة الوجه، غاضبة، وشعثاء.

ضحك من كل قلبه وقال: «إذن لا ينبغي أنْ تستغرقي في النوم وتبدي غاية في الجمال. فمَنْ سيساعدك؟».

قالت، عابسة من شدة الغضب: «هذا ليس لطيفاً!».

«نحن لسنا» لطيفين «- أليس كذلك؟ حسبتُ أننا فخورون بكوننا غير تقليديين. فلِمَ لا أُقبّلك؟».

«لأنَّ الأمر يتعلّق بي، وليس بك وحدك».

«يا إلهي، أنتِ حقاً تقليديةِ بصورة ما!».

«أمي قادمة».

«أحقاً؟ يُستحسن أنْ تُخبريها».

كانت أمي شديدة الكَلَف بلزلي.

قالت: «حسناً، يا سيدي، لِمَ أنت متجهم؟».

فبدأ يضحك.

«إنَّ ليتي توبخني لأنني قبّلتُها بينما كانت تقوم بدور «بياض الثلج».

قالت أمي: «إنَّ الفتى يحلم بأن يقوم بدور الأمير!».

قال بحزن: «أوه، ولكن يبدو للأسف أنني لا أُحسن القيام بالدور».

ضحكتْ ليتي وسامحته.

قال، وهو ينظر إليها ويبتسم: «في الواقع، لقد أتيتُ لأطلب منك الخروج معي».

قالت أمي: «إنَّ الجو ممتع».

ألقتْ نظره عليه، وقالت:

«إنني أشعر بكسل هائل»

أجاب: «لا بأس! سوف تنتعشين. اذهبي واعتمري قبعتك».

بدا نافد الصبر. نظرتْ إليه.

ابتسم ابتسامة ذات معنى.

قال، لنفسه، ولي: «سوف تأتي مع ذلك. إنها تحب أنْ تتلاعب بي».

كأنها سمعتــه. عندما خرجت من جديد، وهــي ترتدي قفازها، وقالت بهدوء:

«أنت أيضاً ستأتي معنا، يا بات».

استدار وحدَّقَ إليها بذهول غاضب.

قلت، منزعجاً: «أُفضِّل أنْ أجلس وأُكمل هذا الرسم».

«كلا، بل تعال، هناك شخص عزيز»، وانتزعت الفرشاة من يدي، وجرّتنــي بعيداً عن الكرسي. وانبجس الدم على وجنتيه. انتقل بهدوء إلى الصالة وأحضر قلنسوتي.

قــال بغضــب: «حسنــاً! إنَّ النســاء يُحبــبن أنْ يتخيّلــن أنفسهن نابوليونات».

قالت ساخرة مُحاكية: «هذا صحيح، عزيزي الدوق الحديدي».

قال، بما أنها زوّدتــه بالفكرة: «ومع ذلك، هناك موقعة واترلو في تاريخهن».

«قُل بيترلو، أيها القائد، قُل بيترلو».

أجــاب، مع التواء رائع من الشفة: «نعــم، بيترلو – ما أسهلها من غزوات!».

تلتْ ليتي: «لقد جاء، لقد رأى، لقد انتصر».

قال، بغضب متفاقِم: «ألستِ قادمة؟».

أجابتْ، وهي تتناول ذراعي: «بعد أنْ تطلب مني».

قطعنــا الغابــة، والأرض الحدوديــة الوعــرة إلى الطريــق العامة،

والأرض الحدودية التي كان ينبغي أنْ تُصبح متنزهاً، لكنها تحولت إلى دغـل من الحشائش البرية وجحور المناجـذ الصفراء، ومُشوَّشة بنبات الجولـق والعلّيق والـورد البرّي، مع أشجار الزعـرور القديمة المنتشرة، وتكتل غريب الأطوار من أشجار التنوب الاسكتلندي.

على الطريق العامة كانت أوراق الأشجار تتساقط، وتتهشَّم تحت وطـأة أقدامنا. وكانت الميـاه معتدلة وزرقاء، وعيـدان الذرة تنتصبُ ناعسة ضمن «حُزم».

ارتقينـا التل خلـف هايكلوز، وتابعنا المسير علـى طول المنحدر، ونحـن ننظر نحـو تلال دربيشـير القاحلـة، ولا نراهـا، لأنَّ الفصل خريـف. وأصبحنا على مرأى كيزان الـذرة المتحركة في حوض مرفأ سلبي، والقرية القبيحة المنتصبة جدباء وعارية على جبين التل.

كانــت ليتي في حالـة عالية من الانشـراح. تضحك وتمزح طوال الوقــت. تلتقط أغصان الورد البري وتُثبّتها علـى ثوبها. ولما انغرزت شوكـة في إصبعها من عسلوج العلّيق، ذهبتْ إلى لزلي لكي يُخرجها. كنا مرحـين ومسرورين عندما انعطفنا عن الطريـق العامة وانتقلنا إلى درب الجيـاد، والغابة إلى يميننـا، وأمامنا تلال ستريلـي العالية تحجب عنا وادينا الصغير، والحقـول وأرض مُشاع إلى يسارنا. وفي منتصف الطريـق هبوطاً نحو الممر الضيق بـين السياجات سمعنا صوت شحذ منجـل. فاقتربت ليتي مـن السياج لترى. كان جـورج يجزّ الشوفان على جانب التل شديد الانحدار حيث لا تستطيع الآلة أنْ تصل. كان والده يربط عيدان الذرة على شكل حُزَم.

عندما رآنا السيد ساكستون، استقام وهتفَ لنا كي نأتي ونساعده. اخترقنا السياج من فجوة فيه واقتربنا منه.

قال الأب لي: «والآن، اخلع عنك ذلك المِعطف»، وقال لليتي: «هل جلبتِ معك مشروباً لنا؟ كلا؛ - أوه، هذا أمر سيئ! خرجتم للتمشية، كما أعتقد. أترون ما معنى أنْ يُصبح المرء بديناً»، ورسم تعبير استياء على وجهه وهو يميل ليحزم الذرة. كان رجلاً متورد الوجه وضخم الجثة بصورة جميلة، وفي عزّ الشباب.

قالت ليتي: «أرني، سأحزم بعضها».

أجاب بلطف: «كلا، سوف تخدشين رسغيك وتمزقين مشدِّك. قفي عند يديّ» - ودَعَكهما معاً - «إنهما كورق السنفرة!».

كان جورج يدير لنا ظهره، ولم يُلاحظ وجودنا. وتابع الجزّ. وراقبه لزلي.

هتفَ: «هذه حركة رائعة!».

أجاب الأب، وهو ينهض أحمر الوجه من عمل الحزم: «نعم. وابننا جورج يستمتع بالجزّ. إنه يجعلك في أحسن حال عندما تتغلّب على أول بوادر التصلّب».

اقتربنا من عيدان الذرة القائمة. ولما كانت أشعة الشمس معتدلة، خلع جورج قبعته، وكان شَعره مُبللاً وملتوياً في كتلة مشوّشة من الشعر شبه المُجعّد. وقف بساقين راسختين، يتأرجح بإيقاع جميل

بـدءاً بالخصر. علـى ورك بنطلونه القصير المُثبَّت بالحـزام علَّقَ مشحذ المنجـل؛ وكان قميصه، الـذي بهتَ لونه حتى بات أقـرب إلى اللون الأبيضـ، ممزَّقاً فوق الحـزام، وكشفَ عن عضلات ظهـره التي تلهو كالأضواء على رمـال الجدول البيضاء. كان هناك شيء شديد الجاذبية في الجسم المتناسق.

وجّهـتُ كلامي إليـه، فاستدار. نظر مباشـرة إلى ليتي مع ابتسامة مُشرقة، فاضحة. لقـد كان على جانب مذهل من الوسامة. حاول أنْ يقـول بضع كلمات ترحيب، ثم انحنى وجمـع مقدار ملء ذراع من الذرة، وراح يحزمه بتأنٍ.

ليتي، مثله، لم تعثر على ما تقول. لكنَّ لزلي علّقَ قائلاً:

«يجب أنْ أعترف بأنَّ عمل الجزّ تمرين مفيد».

أجاب: «هو كذلك»، ثم أردفَ، بينما لزلي يلتقط المنجل، «لكنه يجعلك تتعرَّق، ويجعل يديك تتقرّحان».

شمخ لزلي برأسه قليلاً، وخلع معطفه، وقال باقتضاب:

«كيـف تفعـل هذا؟»، وتابـع دون أنْ ينتظـر رداً. لم يقُل جورج شيئاً، لكنه التفت إلى ليتي.

قالت، بقدر من الارتباك: «أنتَ جميل. مناسب تماماً لمشهد ريفي رومانسي».

قال: «وأنتِ؟».

هزّتْ كتفيهـا استخفافـاً، وضحكتْ، والتفتـت لتقطف كزبرة الثعلب القرمزية.

سألتْ: «كيف تحزم الذرة؟».

تنـاول بعض عيدان القش الطويلة، ونظّفها، وعرَضَ عليها طريقة حملهـا. وبدل أنْ توليـه انتباهها، راحت تنظـر إلى يديه، الكبيرتين، القاسيتين، الملتهبتين من مقبض المنجل.

قالت: «لا أعتقد أنّني أستطيع أنْ أفعل هذا».

أجـاب بهـدوء: «كلا»، وراقـب لزلي يجـزّ. كان هـذا الأخير، المستعـد دائماً بصورة رائعة لأي شيء، يبلي بلاءً حسناً، لكنه لا يتمتع بمزايـا الآخـر التي لا تُقهَـر، ولا يُصـدر الصوت الموسيقـي الساحق الحاسِم نفسه.

قال جورج: «أراهن على أنه سيتعرَّق».

أجابت: «ألا تتعرَّق أنت؟».

«قليلاً - لكنني لستُ متأنّقاً».

فجأة قالت: «هل تعلـم أنَّ ذراعيكَ تُغوياني بلمسهما إنهما ذاتا سُمرة رائعة، وتبدوان قويتين جداً»

قدّم لها إحداهما. تـردّدت، ثم وضعت أطراف أصابعها بحركة سريعة على العضل الأسمر والأملس، وسحبتها. وبسرعة أخفتْ يدها داخل تضاعيف ثوبها، وعلَتْ الحُمرة وجهها.

ضحكت ضحكة خافتة، هادئة، وفي الوقت نفسه تسرُّ سامعها وتفاجئه.

قالت، مُشيحة بوجهها نحو حزم الذرة القائمة، والغابة الزرقاء المُعتمة، «ليتني أستطيع أنْ أعمل هنا». تابع منظرها، وضحك بهدوء، باستسلام مُتساهل.

قالت مع تشديد: «أتمنى فعلاً!».

قال، مُقحِماً يده داخل قميصه المفتوح، ومُدلكاً عضلات جنبه برفق: «إنَّ ملمسكِ ممتع. ومن الممتع أنْ يعمل المرء أو أنْ يبقى واقفاً لا يتحرك. ممتع للذات – للجسم».

نظرتْ إليه، مباشرة إلى جماله الجسدي، وكأنه برعم صلب ضخم من الحياة.

اقتربَ لزلي، وهو يمسح جبينه.

قال: «يا إلهي، إنني أتصبب عرقاً».

تناول جورج معطفه وساعده في ارتدائه، قائلاً:

«قد تُصاب بالقشعريرة».

قال: «إنه شكل ممتع حقاً من التمرين».

جورج، الذي كان يتحسَّس رأس إصبع واحد، أخرج الآن مطواته وتابع إخراج شوكة من يده.

قال لزلي: «يبدو أنَّ جلدك متين جداً».

لم تفه ليتي بأية كلمة، لكنها انكمشتْ قليلاً.

الوالـد، الذي كان سعيداً باستئذانـه ليُريح ظهره وليتبادل أطراف الحديث، اقتربَ منا.

قال للزلي ضاحكاً: «لقد اكتفيت بسرعة».

أجفلنا جورج عندما صاح فجأة: «هوللوا». فالتفتنا، ورأينا أرنباً كان قـد برز فجأة من بين الذُّرة، وأسـرع متسللاً من السياج، مراوغاً وقافـزاً بين الحزم. كانت الذرة المنتصبـة أشبه ببقعة على طول منحدر التل طولها حوالي خمسين قدماً، وعرضها عشرة أقدام أو نحوها.

قـال الوالـد، وهو يتنـاول مِدمةً قصـيرة، ومتوجهـاً نحو الجدار المنخفض للذرة: « لم أكـن أعتقد أنَّ هنـاك أياً منها هنـاك». وتبعناه جميعاً.

قال الوالد: «راقبوا! أخبروني إذا رأيتم رؤوس الذرة تهتز!».

أخذنا نجوس حول بقعة الذرة.

هتـف الوالـد فرِحـاً، وفـور انطـلاق الأرنـب خارجـاً من الغطـاء: «توقفـوا! انتبهـوا!».

وكان الهتـاف: «نعـم – نعـم – نعـم، حاصـروه – حاصـروه! «وانطلقنـا بأقصى سرعة. حاد الحيوان الصغـير المُشوَّش، الذي أخافه

ركض لزلي الجامح وصراخه، عن مساره، وراغ عبر التل، واتخذ مساره المرعوب خلال متاهة حزم الذرة، مندفعاً بخط متكسِّر مؤلِم، تارة تعيقه حزمة غير مربوطة من الذرة، وطوراً ينحرف عن مصدر صراخ. لقد كان البائس الصغير مُحاصَراً بشدّة؛ اندفع جورج نحوه، فاتجه داخل بعض الذرة المُبعثرة، لكنه رآه، وانقضَّ عليه. وفي الحال نهضَ من جديد وإذا بالمخلوق الصغير يتدلى من يده.

عُدنا، نلهثُ، ونتصبب عرقاً، وعيوننا تومض، إلى حافة حِزم الذرة القائمة. سمعتُ ليتي تهتف، والتفتُ فرأيتُ إميلي والطفلين يلجان الحقل في أثناء مرورهم عائدين من المدرسة.

هتف لزلي: «هناك آخر!».

رأيت قمم الشوفان تهتز. صرختُ «هنا! هنا!». قفز الحيوان خارجاً، وانطلق متجهاً ناحية السياج. اندفع جورج ولزلي، اللذان كانا على ذلك الجانب، وحاصراه، فعاد يسير باتجاهنا. أبعدته باتجاه الوالد الذي اندفعَ سعياً وراء مسافة قصيرة، لكنه كان من فرط ثقل الوزن بحيث عجز عن فعل ذلك. شقَّ الحيوان الصغير طريقه نحو البوابة، ولكن في هذه المرة كانت مولي، ممسكة قبعتها بيدها وشعرها يتطاير، هي التي أسرعت نحوه، وقامت هي والولد الصغير الضعيف بإعادته من جديد. كان التعب ينال من الأرنب. تفادى الحزم بطريقة سيئة، وهرع باتجاه أعلى السياج. لاحقتُه. ولو أني انطرحتُ عليه لأمسكته، لكنَّ ذلك كان مستحيلاً عليّ أنْ أفعله، واكتفيتُ بمنعه من الاندفاع والتسلل من خلال الفتحة إلى برّ الأمان. فتابع تسلله السريع

علـى طول أسفل السياج. انطلق جـورج وراءه. وعندما انقضّ عليه، اندفع كالسهـم داخل السياج. انبطح على وجهـه، وأطبقَ بيده على الحفـرة. لكنه كان قد فرَّ هارباً. بقيَ منبطحـاً هناك، يلهثُ بشهقات كبـيرة، وهو ينظر إليّ بعينين ملؤهما إثارة وإرهاق يتصارعان كالضوء الخفّاق والظلام. وعندما أصبح قادراً على الكلام، قال: «لِمَ لم تنقضّ عليه؟».

قلتُ: «لم أستطع».

عدنـا من جديـد. كان الطفلان أيضاً يُحدّقـان إلى الذرة الكثيفة. وحسبنا أنـه لم يعُد هناك المزيد. واستأنفَ جـورج جزَّ العشب. وفي أثنـاء تجـوالي في أرجاء المكان لمحـتُ أرنباً يتسلـل خِلسة بالقرب من الزاوية السفلى مـن البقعة. كانت أُذناه مُلتصقتـين بظهره؛ استطعتُ أنْ أرى خفقـان قلبه من خلال فروه البُنيّ، واستطعتُ أنْ أرى العينين السوداويـن اللامعتين تنظران إليّ. لم أشعر بالشفقة عليه، ومع ذلك لم أستطـع في الواقـع أنْ أؤذيه. أومأتُ إلى الوالد. هـرع مُسرعاً، وسدّد ضربة من المِدمة. صدرت صرخة قصيرة حادة أرسلتْ موجة حارة من الألم في جسمي وكأنَّ أحدهم طعنني. لكنَّ الأرنب هرب، وفي الحال نسيتُ الصرخة، ورحـتُ ألاحقه، شاعراً بأصابعـي متيبّسة استعداداً لخنقـه. كان ضعيفـاً جداً. وفي الحـال انقضَّ لزلي عليـه، وكاد ينتزع رأسه عن جسمه في غمرة الحماس لقتله.

رفعـتُ بصـري. كانـت الفتيات عنـد البوابـة، قبـل أنْ ينعطفن مبتعدات.

قال الأب: «لم يعُد هناك أي منها».

في تلك اللحظة هتفت ميري:

«هناك واحد عند هذه الحفرة».

كانت الفتحة صغيرة جداً ولا يستطيع جورج أنْ يُقحم يده فيها، لذلك أخرجناه بمقبض المِدمة. دخلت الخشبة بوحشية إلى عمق الحفرة، ثم صدر صرير حاد.

قال جورج: «فئران!»، وحالما قال هذا انزلقتْ الأم إلى الخارج. ضربها أحدهم على ظهرها، فانفتحت الحفرة. وبدا أنَّ فئراناً صغيرة تعجُّ في كل مكان. كأننا كنا نقتل حشرات. وأحصينا تسعة من الصغار موتى.

قال، وهو ينظر إلى الأم: «حيوان مسكين، كم كابدت لتربي كل هذا العدد!»، ورفعها، وعاملها بفضول وبإحساس بالشفقة. ثم قال: «حسناً، قد أُنهي هذا هذه الليلة!».

تناول الأب منجلاً آخر عن السياج، وأخذا معاً يُطيحان بالرؤوس المتكبرة والمرتعشة. وقمتُ أنا ولزلي بربطها بينما هما يجزّان، وسرعان ما انتهى العمل كله.

كان النهار يتضرح بالحُمرة استعداداً للموت. وجهة الغرب كان الضباب يتكثّف ويُصبح أشدّ زُرقة. وكسر السكون المُطبق همهمة مُنتظمة لـ آلات في منجم الفحم النائي وهي ترفع آخر دفعة من

الرجال. وبينما نحن نعبر الحقول أصدر ما تبقّى من جُذامة رنيناً كأنها آلات القانـون. وبدأتْ رائحة الذرة تنتشر برفق. وتناهت آخر صرخة عن الفلاحين من الغابة، وكانت آخر سحابة من الطيور قد رحلت.

حملتُ منجلاً، ومشينا، مُرهقين بصورة ممتعة، هابطين أسفل التل إلى المزرعة. وكان الأطفال قد ذهبوا إلى المنزل مع الأرانب.

عندمـا بلغنا الطاحونة، وجدنا أنَّ الفتيات ينهضن تواً عن المائدة. بـدأتْ إميلي تنقل القـدور المستعملة، وتضع مكانهـا أخرى جديدة لأجلنا. اكتفتْ بإلقاء نظرة سريعة علينا ورمتْ تحيتها الرسمية. تناولت ليتي كتاباً كان موضوعاً على أحد المقاعد، وذهبت إلى النافذة، وانهار جورج على أحد الكراسـي. كان قد خلع معطفه ورماه، ودفع شَعره إلى الخلف. أراح ذراعيه الضخمين الأسمرين على طاولة المائدة وران عليه الصمت برهة.

قال لي، وهو يُمرر يده عبر عينيه: «إنَّ الركض هكذا يجعلكَ مُتعباً أكثر مما يفعل عمل يوم كامل. لا أعتقد أنني سأفعل ذلك مرة أخرى».

قال لزلي: «إنَّ ممارسة الرياضة جيدة إذا استمرتْ».

قالت السيدة ساكستون: «إنها تؤذيك أكثر مما تفيدنا الأرانب».

تشدق ابنها قائلاً: «أوه، لا أعتقد هذا، يا أمي. إنَّ الأمر لا يُكلِّف أكثر من شِلنَين».

«ويومين من حياتك».

أجــاب، وهو يتناول قطعة مــن الخبز الممسوحــة بالزبد، ويقضم لُقمة كبيرة منها: «ما هذا!».

قال لإميلي: «صُبّي لنا قليلاً من الشاي».

أجابتْ، وقد رقّت نبرتها، وهي تستعرض إبريق الشاي بتباه: «لم أكنْ أعلم أنَّ عليَّ أنْ أخدم حيوانات مثلكم».

قال، وهو يتناول قطعة أخرى من الخبز مع الزبد: «أوه، هذه المرة لستُ وحدي في الهمجيّة».

قالــت ليتــي، بحِــدَّة، دون أنْ ترفع بصرها عــن كتابها: «الرجال كلهم حيوانات».

قال لزلي، بودّ شديد: «يمكنكِ أنْ تروّضينا».

لم تُجِــبْ. باشر جورج بالقول، بذلــك الصوت المتأنّي الذي يُزعج إميلي كثيراً:

«لكــنَّ ملمس الفرو وعدم استطاعتــك الإمساك به يُثير جنونك» - وضحك بهدوء.

تململــت إميلي بامتعاض. فغرت ليتي فاها واسعاً تنوي أنْ تتكلَّم، لكنها بقيتْ صامتة.

قــال لزلي: «لا أعلــم. عندما يتعلَّق الأمر بالقتــل يكون ذلك ضد مصلحة المعدة».

قال جورج: «إذا كان في استطاعتك أنْ تركض، ففي استطاعتك أنْ تركض حتى الموت. عندما يرتفع معدل ضغط دمك، لا تستطيع أنْ تتوقف في منتصف الطريق».

قالت ليتي: «أعتقد أنَّ الرجل يكون فظيعاً عندما يتمكن من نزع الرأس عن جسم مخلوق صغير وضئيل كالأرنب، بعد ملاحقته وتعذيبه في الحقل».

قالت إميلي: «هذا إذا كان أصلاً ليس أكثر من همجيّ –».

قال جورج: «لو أنكِ أنتِ ركضتِ – لأصبحتِ هكذا».

قال لزلي، مع نظرة سريعة إلى ليتي: «في الواقع، إنَّ النساء قاسيات بما فيه الكفاية»، ثم أردفَ: «نعم، إنهن قاسيات بالقدر الكافي على طريقتهن» – ورماها بنظرة أخرى، مع ابتسامة صغيرة هزلية.

قال جورج: «حسن، ما فائدة أنْ يكون المرء نيِّقاً – إذا رغبتَ في أنْ تفعل شيئاً – يُستحسن أنْ تفعله».

قالت إميلي، وهي تأكل: «إلا إذا كنتَ لا تتحلّى بالشجاعة».

نظر إليها بعينين داكنتين، وقد تلبّسه فجأة غضب عارم.

قالت ليتي – لم تتمكن من منع نفسها عن طرح السؤال: «ولكن، ألا تعتقد أنه عمل وحشي الآن – الآن وقد صرتَ تعتقد هذا فعلاً – أليس من المهانة والخسَّة أنْ تُطارد تلك المخلوقات الصغيرة المسكينة؟».

أجاب: «ربما، لكنَّ هذا لم يحدث قبل ساعة من الزمن».

قالت بمرارة: «أنتَ مُجرَّد من المشاعر».

ضحك استخفافاً، ولكن لم يقُل شيئاً.

أخذنا نشرب الشاي في صمت. ولما واصلت ليتي القراءة، وأخذت إميلي تتجول في أنحاء المنزل، نهضَ جورج أخيراً وخرج. وبعد دقيقة أو اثنتينْ سمعناه يجتاز الفناء مع دلاء الحليب، وهو يغني: «بستان شجر الدردار».

قالت إميلي مع مرارة متزايدة: «إنه لا يأبه البتّة بأي شيء». نظرتْ ليتي من النافذة عبر الفناء، وهي تشرب، يبدو عليها الغمّ الشديد.

بعد قليل خرجنا نحن أيضاً، قبل أنْ يبهت الضوء ويختفي تماماً عن البركة. أخذتنا إميلي إلى الحديقة السفلى لنقطف بعض ثمار الخوخ الناضجة. كانت الحديقة القديمة منخفضة جداً، والتربة قاتمة اللون. كان لبلاب الذرة والنجيل يتشبثان بشجيرات عنب الثعلب العجوز، التي تنتشر على طرفيّ الدروب. لم تكن الحديقة وافرة الإنتاج، إلا من الأعشاب البرية، وربما أيضاً نبات أرضي شوكي هزيل أو كوسا منتفخة. ولكن في الأسفل، حيث ينهض مبنى المزرعة عالياً ورمادياً كانت هناك شجرة خوخ مصلوبة على الجدار، منفصلة وتميل إلى الأمام بعيداً عن القيد. وتحت الأغصان تختبئ كنوز ضخمة قرمزية اللون، مُغلَّفة بالغبار، وكرات رائعة. هززتُ الجزع العجوز، المُثلَّم، الأخضر، الذي حتى المادة الصمغية الجديدة راكدة عليه، وإذا بالكنوز

تسقط منها ثقيلة، مع صـوت مكتوم بين أغصان الراوند الكثيفة تحتها. ضحكـت الفتيات، وتقاسمنا الغنيمة، ثم عدنا أدراجنا إلى الفناء. هبطنا إلى حافة الحديقة، التي تحف بالبركة السفلية، بركة مُكبّلة بكمّ كثيف من الأعشاب الضـارة. كانت تعجّ بالجرذان، كما قـال الوالد. كان الأسل كثيفاً تحتنـا؛ وعلى العكس، كانت الضفة الشاسعـة تقابلنا، ببستان من الأشجار ترتقيها كأنها سفح تل. والبركة السفلية كانت تتلقّى الدفق من العلوية عبر قناة من المياه السوداء العميقة.

لـدى اقترابنا هـرع جرذان إلى داخـل مجرور المياه القـذرة. جلسنا علـى ركام مـن الحجارة التي يعلوهـا الطحلب، لكـي نراقبهما. خرج الجرذان من جديد، وهرعا مبتعدَين قليلاً، ثم توقفا، ثم هرعا من جديد، وأصغيـا، واطمأنا، وراحـا يتجولان بحرية، جارّيـن ذيليهما الطويلَين العاريين. وسرعان ما تجمَّع ستة أو سبعة رمادية منها وراحت تلهو حول فوهة المجرور، في المكان المُظلِم. جلستْ وراحت تمسح وجوهها ذات الملامح الحادّة، وتمسّد شواربها. ثم يندفع أحدها قليلاً ويتلوى من الإثارة ويقفـز عمودياً في الهواء، ويحطّ على قوائمـه الأربعة، ويعدو، وينسلّ داخـل الظل القاتم. وغطـس أحدها بصوت ثقيل قبيـح في الماء، وسبح نحونـا، ذلك المخلوق المؤذي العجوز، وخطمه الحادّ وعيناه الصغيرتان الخبيثتان تتقدم نحونا. ارتعشت ليتي اشمئزازاً. فرميتُ حجراً إلى البركة الراكـدة، فأخفتها جميعاً. ولكن نحن أنفسنـا خفنا أكثر منها، وهرعنا مبتعدين، ونضرب أقدامنا بارتياح على الرصيف الخالي للفناء.

كان لـزلي يبحث عنـا، مفتشاً الفنـاء والمخزن تحت إشـراف السيد كوكستون.

سأل: «أكنتم تهربون مني؟».

أجابت: «كلا، كنتُ أحضِر لك ثمرة خوخ. انظر!»، وعرضَتْ عليه ثمرتيّن داخل ورقة خضراء.

قال: «إنهما جميلتان وخسارة أنْ تؤكلا!».

ضحكتْ: «أنتَ لم تتذوقهما بعد».

قال، وهو يُقدِّم لها ذراعه: «تعالي، هيا بنا إلى ضفة المياه». فقبِلَتْ ذراعه.

كانت أمسية رائعة، والضوء كثيفاً وأصفر اللون ينعكس على صفحة مياه البركة الساكنة. جَعلتْه ليتي يرفعها نحو غصن مائل من شجرة صفصاف. جلس ورأسه يرتاح على ثوبها. وتابعتُ وإميلي طريقنا. سمعناه يغمغمُ بشيء، وسمعنا صوتها يُجيب، برقّة، كالمداعبة:

«كلا – دعنا نلزم الهدوء – إنه أشدّ ما أحبّ الآن».

وتجاذبتُ مع إميلي أطراف الحديث، ونحن جالسان عند أسفل أشجار جار الماء، على مسافة قصيرة منهما. بعد الإثارة، وفي المساء، خاصة في فصل الخريف، يميل المرء إلى الحزن والمزاج العاطفي. كنا قد نسينا أنَّ الظلام يهبط. سمعتُ عن بُعد صوت لزلي وقد بدأ يهمهم كخنفساء تطير على مسافة منا. ثم، بعيداً في الفناء بدأ جورج يغني الأغنية القديمة «نثرتُ بذور الحب».

قاطعَ هذا تناهي صوت لزلي، وبينما الغناء يقترب، توقفَت

همهمة الكلمات الخافتة. تقدَّمنا لمقابلة جورج. استقام لزلي في جلسته، قابضاً على رُكبتيه، و لم يتكلَّم. اقتربَ جورج، قائلاً:

«سوف يطلع القمر».

قالت ليتي، رافعة يديها إليه لكي يُساعدها: «أنزلني». ولما أساء فهم رغبتها، وضع يديه تحت إبطيها، وأنزلها برفق، كما يفعل المرء مع طفل. نهضَ لزلي بسرعة واقفاً، وبدا أنه ابتعد منفصلاً، ماقتاً التدخُّل.

قال جورج بهدوء: «حسبتُ أنكم أنتم الأربعة معاً». التفتت ليتي بسرعة لدى سماعها الاعتذار:

«نحن كذلك. نحن كذلك - والآن أصبحنا خمسة. هل سيطلع القمر من هناك؟».

قالت إميلي: «نعم - أحبّ أنْ أراه يعلو فوق الغابة. إنه يرتفع ببطء لكي يُحدِّق إليك. لطالما اعتقدتُ أنه يريد أنْ يعرف شيئاً، ولطالما اعتقدتُ أنَّ لديّ الجواب الذي يُريد، لكنني لا أعرف ما هو».

حيث كانت السماء باهتة جهة الشرق فوق حافة الغابة ظهر جبين القمر الأصفر. وقفنا نراقب في صمت. ثم، بينما القرص الكبير، البدر تقريباً، يرتفع وينظر إلينا مباشرة، كنا نغسل أقدامنا في بحر ضياء القمر المُبهم. وقفنا والضوء ينهمر كالماء على وجوهنا. كانت ليتي سعيدة، مبتهجة قليلاً؛ وكانت إميلي مُضطربة بشغف؛ منفرجة الشفتين، كأنما في تعبير التوسُّل؛ وكان لزلي متجهماً، شارداً، وجورج يفكِّر، وأشعة القمر الكثيفة، الرهيبة، تنضفر مع مشاعره. بعد وقت طويل، قال لزلي برقة، مُخطئاً:

«هيا بنا، يا عزيزتي» – وتناول ذراعها.

تركتـه يقودها على طـول ضفة البركة، وعبر المعـبر الخشبي فوق المياه المتدفقة.

قالـت، بينمـا كنا نهبط بحرص منحدر ضفة البستـان: «أتعلم، إننـي أشعر كما لـو أني أرغب في الضحك، أو الرقص – في فعل شيء شائن».

أجاب لزلي بصوت منخفض، شاعراً بتأذٍ شديد: «حتماً لا ترغبين في هذا الآن».

«ومع ذلك سأفعل! سوف أسابقكَ حتى الأسفل».

منعهـا قائلاً: «كلا، كلا، يا عزيزتـي!». وعندما وصل إلى البوابة الصغيرة المؤدية إلى المروج الأمامية، قال لها شيئاً بصوت خافت، وهو يُمسك بالبوابة:

أعتقـد أنه أراد أنْ يُكمِل عَرْضَه الـذي لم يكتمل، وهكذا يربطها به.

انفكّتْ عنه مُتحررة، هتفتْ وهي تنظر إلى المرج الطويل الممتد في الظل الرمادي بين الوهجَين الشرقي والغربي:

«بولـكا! – رقصة البولـكا – يمكن للمرء أنْ يرقص البولكا عندما يكـون العشب أملس وقصيراً – حتى وإنْ كانت هناك بعض الأوراق المتساقطة. نعم، نعم – ما أحلى هذا!».

مـدّتْ يدها للزلي، لكنَّ الصدمة كانت أقوى من احتمال مزاجه. فهتفـت لي، وشـاب صوتها ظلٌّ مـن القلق، خشية أنْ تقـع في شِباك انفعال الليل العاطفي.

«بات – سترقص معي – إنَّ لزلي يكره البولكا». رقصتُ معها. لا أعلم متى لم أكن أُحسنُ رقص البولكا – يبدو أنه متأصّل في قدميّ، أنْ أرقص وأرقص. رحنا ندور في المكان ونطير، وسط هسيس الأوراق الميتة. وأخذ الليل، والقمر الأصفـر الواطئ، وشحوب جهة الغرب، وسحابـة المسـاء الزرقاء فـوق رؤوسنا تدور وتغزل خـلال الأغصان الغريبة لنبـات السيتيسوس العجوز، قليلاً مـن الجنون. لا يمكن لليتي أنْ تتعـب؛ إنَّ قدميها جناحان يضربان الهـواء. وعندما نجحتُ أخيراً في إيقافها ضحكتْ بانطلاق كأنها لم تفعل شيئاً، وهي تربط شَعرها.

قالـت للزلي، بنـبرة الرضا التامّ: «أرأيت! هـذا ممتع. هلا تقدّمت لترقص الآن».

قـال، بحـزن، شاعراً بـأنَّ معيار الرقص يُصيب الشِعـر في قلبه بالمهانة: «ليس رقصة البولكا».

«ولكـن لا يمكن رقصـ أي رقصة أخرى علـى العشب الرطب، وخلال الأوراق الميتة. وأنت، يا جورج؟».

أجاب: «إميلي تقول إنني أقفز».

«هيا – هيا» – وفي الحال كانا يندفعان خلال العشب. وبعد بضع خطـوات انسجمت معـه وراحا يدوران حول العشـب. صحيح أنه

كان يقفز، ويقوم بخطوات كبيرة واسعة جداً، ويحملها معه. كان رقصاً رائعاً، لا يُقاوَم. يجب أنْ ننضم إليهما أنا وإميلي، مُشكّلين دائرة داخلية. وفي أثناء دورانهما مارّين بنا كان هناك بين حين وآخر إحساس بشيء أبيض طائر يدنو، وحفيف قماش جامح، وخشخشة أوراق مُضطربة. وبعد أنْ نال منا التعب بفترة طويلة تابعا الرقص.

في النهاية، بدا ضخماً، منتصباً، متوتراً بإحساس الانتصار، وانتشتْ هي كالسكرى.

سأل لزلي: «هل انتهيتِ؟».

كانت تعلم أنها أصبحت آمنة من عَرضِه لها في ذلك اليوم.

قالت وهي تلهث: «نعم، كان ينبغي أنْ ترقص. ناولني قبعتي، من فضلك. هل أبدو مشينة كثيراً؟».

تناول قبعتها وأعطاها إياها.

ردّد: «مُشينة؟».

«أوه، أنتَ حقاً جديّ هذه الليلة! ما الأمر؟».

كرّر بنبرة ساخرة: «نعم، ما الأمر؟».

«لا بدّ أنه تأثير القمر. والآن، هل قبعتي متوازنة؟ أخبرني الآن - أنتَ لا تنظر. إذن اعدِلها. والآن! لَم يداك باردتان جداً، ويداي حارتان جداً! أشعر بأني عفريتة لعوب» وضحكتْ.

«انتهينـا - الآن أنـا جاهـزة. هل لاحظـتَ أنَّ أزهـار الأقحوان الصغيرة تلك تحـاول أنْ تكون رائحتها مُحزِنـة؛ عندما يضحك القمر العجوز ويغمز بعينه من خلال تلك الأغصان؟ ما أشدّ تأثير حزنها!».

قطفَتْ حفنة مـن الأزهار ورمتها في الجو: «هاك! إذا تنهّدت طالبتْ بالحزن - أحبُّ الأشياء التي تغمز بعينها وتبدو جامحة».

الفصل السادس

تثقيف جورج

كما قلتُ سابقاً، تقع ستريلي ميل على الطرف الشمالي من وادي نذرمير الطويل. على المنحدرات الشمالية يقع مرجه والأراضي الصالحة للزراعة. الأرض المُشاع مشوّشة النماء مُسيَّجة الآن وجزء من العزبة، يُشكّلان المنحدر الغربي، والأرض المحروثة، تمتد شرقاً حتى المسقط المباشر لمجرى الجدول، وشريط ضيق من أرض الغابة يتَّسع ليغدو أيكة من الأشجار وينتهي عند البركة العليا؛ وخلف هذا، إلى الشرق، ينهض سفح التل المكسو بالأعشاب، حاداً، جامحاً، وتنتشر عليه الهياكل العتيقة، نخرة وهزيلة، لصفوف السياجات القديمة، نمت فأضحتْ أشجاراً شوكيّة. وعلى طول حواف التلال، الجهة الشمالية الغربية، امتدت أرض الغابة القاتمة، منتشرة شرقاً وجنوباً إلى أنْ تنحدر مسرعة بعشوائية حتى الحافة الجنوبية لنذرمير، مكتنفة منزلنا. ومن قمة التل الشرقي، عندما تنظر مباشرة ترى برج كنيسة سيلبي، وبضعة أسقف، وقمم متحركة من المنخفض.

إذن كانت تكتنف المزرعة من الجهات الثلاث الغابة، وجحور الأرانب، والأرض المُشاع التي تضم طرائد أخرى.

مالك العزبة، سيد منزل عتيق، كان ذات يوم مشهوراً أيضاً، أما الآن فأصبح متهدماً، كان يحب الأرانب. وخلافاً لمصير العائلة، كانت شجرة العائلة مزدهرة بصورة مُذهلة؛ لا يوجد في شroوود كلها شبيهاً لها. كانت تفرعاتها عجيبة؛ أقرب شبهاً بتين البنغال منها بالسنديان البريطاني. كيف كان المالك الطيب يُعيل نفسه وزوجته، ويدعم اسمه، وتقاليده، وفروعه الثلاثة عشر النهمين من ريع عزبته التافه؟ وقد ساقه الحظ العاثر إلى اكتشاف أنَّ في استطاعته أنْ يبيع كلاًّ من أرانبه، تلك المخلوقات المؤذية المكسوة بالفرو، مقابل شلن أو ما يُقاربه في نوتنغهام؛ ومنذ ذلك الوقت والعائلة النبيلة تعيش من بيع الأرانب.

كانت المزارع تتآكل؛ الذرة والعشب الجميل يختفيان عن وجه التلال؛ والماشية تزداد هزالاً، ولا تُقبِل على أكل الكلأ الملوَّث. ثم أصبحت المزرعة منزل أحد القيِّمين، وران الصمت على الريف، مع اختفاء ثغاء الغنم، وقعقعة حوافر الخيل، ونباح الكلاب الجائعة.

لكنَّ صاحب العزبة أحبَّ الأرانب. دافع عنها ضد زمجرات المزارع اليائس، وحماها ببندقيته وبإشعارات إنذار الإخلاء. وكم أشرق امتناناً عندما شاهد سفح التل المُشوّش يميد عندما انتقل الضيوف المزعجون!

في الصباح الباكر لأحد أيام الاثنين، عندما دبَّتْ الحياة في المرج

العِلوي لدى إطلاق عيار مـن بندقيته، قال لضيفه الرياضي: «أليست أشبه بالمنّ والسلوى؟ مَنّ وسلوى - في هذا الدغل؟».

وافـق الضيف الرياضي وهـو يتناول بندقية أخـرى، بينما ابتسم القيِّم الساخر بكآبة: «هي كذلك، وحقّ الله!».

في تلك الأثناء، بدأتْ ستريلي ميل تعاني من هذا الداء. لقد كانت نقطـة متقدمة في البريّـة. وكان مفهوماً أنَّ لا أحـد من نزلاء صاحب العزبة يحمل بندقية.

قال صاحب العزبة للسيد ساكستون: «حسن، لقد حصلتَ على الأرض مجاناً تقريباً - مجانـاً تقريباً - بإيجارٍ تافه حقـاً. وطبعاً القليل الذي تأكله الأرانب -».

أجـاب المزارع: «إنـه ليس بالقليل - تعال وانظـر بنفسك». قام المالك بإيماء نفاد الصبر.

سأل: «وماذا تريد؟».

كان الطلـب المتكـرِّر هـو: «هـلا أقمـتَ سياجـاً مـن الأسلاك الشائكة؟».

«إنَّ الأسلاك الشائكة - ماذا يقول هالكيت - تتطلب كمية كبيرة - وسوف تتكلَّف - ماذا يقول هالكيت - مبلغاً كبيراً من المال. كلا، لا أستطيع أنْ أفعل هذا».

«حسن، لا يمكنني أنْ أعيش بهذه الطريقة».

«أترغب في كأس أخرى من الويسكي؟ نعم، نعم، أنا أريد كأساً أخرى، إنني لا أستطيع أنْ أشرب وحدي – فإذا أردتُ أنْ أستمتع – هذا هو! والآن أنت حتماً تُغالي قليلاً. إنَّ الأمر ليس بهذا السوء».

«لا أستطيع أنْ أستمر على هذا المنوال، أنا واثق».

«حسن، سوف نتوصل إلى تعويض – سوف نرى. سوف أتحدث مع هالكيت، وسوف آتي وأُلقي نظرة عليك. نحن جميعاً نواجه مشكلة صغيرة في مكان ما – إنه مجرد إرث إنسانيّ».

أنا وُلِدتُ في شهر أيلول، وهو أحبّ الأشهر إليّ. فلا حرارة، ولا استعجال، ولا ظمأ وضجر في حصاد الذرة كما في القشّ. إذا تأخّر الموسم، كما يحدث معنا عادة، فإنَّ وسط شهر أيلول يشهد بقاء الذرة على شكل مجموعة حزم قائمة. وأوقات الصباح تأتي متمهّلة. وتكون الأرض أشبه بامرأة متزوجة وتذوي؛ لا تقفز وتضحك لأنها تلقَّتْ أول قُبلة منعشة من الفجر، لكنها تستلقي ببطء، بهدوء، بصورة غير متوقعة تراقبُ استيقاظ كل يوم جديد. والضباب الأزرق كالذاكرة في عينيّ زوجة مُهمَلَة، لا يغادر أبداً التل المكسو بالأشجار، ولا يزحف بعيداً عن السياجات القريبة إلا عند الظهيرة. لا يوجد أي طائر يضع أغنية في حنجرة الصباح؛ وحده نعيب الغراب يُسمَع خلال النهار. وقد يُسمَع التنفُّس الصامت المُنتَظَم للمنجل – وحتى الارتجاج المتقطِّع لآلة الجزّ. ولكن في اليوم التالي، صباحاً، عاد السكون يرين على كل شيء. الذرة المُلقاة على الأرض رطبة، وعندما تُربَط، وتُرفَع الحزمة الثقيلة لضمها إلى الحزم القائمة، تنجدل ضفائر الشوفان بعضها حول البعض الآخر وتتدلى بكآبة.

في أثناء عملي مع صديقي في أوقات الصباح الساكنة كنا نتحدث دون توقف. فأمدّه بخُلاصة ما أعرفه في الكيمياء، وعِلم النبات، وعلم النفس. ومع مرور الأيام نقلتُ إليه كل ما أخذته عن الأساتذة؛ عن الحياة، والجنس وأصوله؛ عن شوبنهاور ووليم جيمس. كنا صديقين منذ أمد بعيد، وكان متعوداً على سماع أحاديثي. ولكن هذا الخريف أخرجَتْ العلاقة الحميمة بيننا ثمرتها الأولى. حدّثته كثيراً عن الشِعر، وعن الميتافيزيقيا الابتدائية. كان شخصاً من معدن ثمين. لم يكن يعتنق مبدأً واحداً، ما عدا ما يُعجبه منها. ولا يعني له الدين أي شيء. لذلك كان يُصغي إلى كل ما أقول بعقلٍ منفتح، ويفهم مجرى الأحداث بسرعة كبيرة، وبسرعة يجعل تلك الأفكار جزءاً منه.

هبطنا من أجل تناول العشاء لا يُدفئنا إلا ما علق بنا من دفء أشعة الشمس. في مثل ذلك الجو الساكن الغامر تكون الصحبة الهادئة أمراً يستحق غاية الامتنان. كان الخريف يزحف إلى كل شيء. الخوخ الداكن الصغير في مذاق شهر أيلول الشبيه بكعكة البودينغ، ويفوح بعبق الذاكرة العطِر. إنَّ أصوات الجالسين على المائدة أشد خفوتاً وأحفل بالذكريات مما تكون في عزّ النهار.

فترة بعد الظيرة دافئة ووضّاءة. حزم الشوفان تُصبح أخفّ؛ تتهامسُ فيما بينها وتتعانق دون خجل. بقايا الحصاد الثخينة ترن عندما تحفُّ القدم بها؛ ورائحة القش ممتعة. عندما تُرفَع الحزم المسكينة، باهتة اللون، عن السياج، ينتشر رذاذٌ من ثمار العليق البرية التي تومئ برؤوسها وثمار أخرى متأخرة تستعد للسقوط؛ وقد تُكتَشَف كمية من ثمار العليق بين وفرة العشب الرطب. ثم يُلاحظ المرء آخر ناقوس

مُـدلّى من البرج المُثلَّم لزهر قفـاز الثعلب. الحديث يدور حول الناس، حـول كتاب غريب، حـول الآمال - وحول المستقبـل؛ حول كندا، حيـث العمل شاق، ولكـن ليس الحياة؛ حيث السهـول مترامية، ولا يجـد المرء نفســه داخـل أي وادٍ ضحـل، كتفاحة تسقـط في بستان منعـزل. الضبـاب يتسلل على وجه بعد الظهـيرة الدافئ. انتهى عمل الحـزم، و لم يتبـقَّ إلا جمع الحزم المُلقاة وجعلهـا قائمة في مجموعات. والشمسـ تغوص في وهجٍ ذهبي في الغـرب. ويتحول اللون الذهبي إلى أحمر، والأحمر يُصبحٍ قانٍ، كوهج نار مشتعلة، وتختفي الشمس خلف ضفة الضباب الحليبيّ، قرمزية كزهرة شاحبة على خوخ أزرق، ونرتدي معاطفنا ونتوجه إلى المنزل.

في المسـاء، بعد الانتهاء مـن حلب الأبقار، وإطعـام الماشية كلها، خرجنـا لكـي نتفحّص الأشـراك. تجولنـا عابرين الجدول ثـم ارتقينا سفـوح التلال. قرقعت اقدامنا بين البقع السـوداء لنبات شيخ الربيع؛ التففنـا حول زغب شائك طافٍ، يلمع كلمـا لمسه ضوء القمر. تابعنا المسير نتعثّر خلال العشب الخشن والرطب، متجاوزين جحور مناجذ رقيقـة وجحور الأرانب السوداء. التـلال والغابة ترمي ظلالاً؛ وبرك الضباب في الوديان جمعتْ أشعة القمر لتغدو ضوءاً بارداً، مرتعشاً.

وصلنـا إلى مزرعة قديمة قائمة على جبـين التل المستوي. ابتعدت الغابة عنها، مُخلِّفة بقعة مكشوفة واسعة مما كان ذات يوم أرضاً محروثة. حازت المداخن الأنيقة للمنزل، أمام سماء بلون خفيف، على إعجابي. لاحظـتُ أنه لا ينبعـث أي ضوء أو وهج من أية نافذة، على الرغم من أنَّ المنـزل لا يزيد عرضه عن حجـم غرفة واحدة، وعلى الرغم من أنَّ

الليـل لم يكن يتجاوز الساعة الثامنة. نظرنا إلى الواجهة الطويلة المُثيرة للإعجاب. كان عدد من النوافذ ذات أُطُر من القرميد، تُعطي انطباعاً بالعمـى يُثير الأسـى؛ والأماكن التـي سقط عنها الجصّ من الجدران بـدت أشدّ حلكة في الظل. دفعنا البوابة، ومشينا على الممر وأعشاب بريـة ونباتات ميتة تحـفّ بكواحلنا. نظرنا إلى النافـذة. كانت الغرفة مُضـاءة أيضاً بنافذة من الجانب المقابل، ينسكب منها ضياء القمر على الأرضية المبلّطة، القذرة، مفروشة بالأوراق، وبكتل من القشّ. الموقد مُعرَّضٌ للضوء، بكل ما يوحي بـه الرماد بالأسى، وبأكوام من الورق المُحـترِق، ودمية لطفل بلا رأس، متفحمـة وتُثير الشفقة. وعلى حافة الظل قلنسـوة مستديرة من الفرو - قلنسـوة حارس طرائد. وضعتُ اللوم على ضياء القمـر بسبب ولوجه الغرفة المهجورة؛ وحده الظلام كان مُهذّبـاً وصموت. كرهتُ الورود الصغيرة التي على الجزء المُضاء من ورق الجدران، وكرهتُ جانب المصلى ذاك.

استدار جورج بغريزة المـزارع نحو المرحاض الخارجي. أجفلني فنـاء الأبقـار. كان غابة من أطول ما شاهـدتُ في حياتي من القراص - قراص أطول مني أنـا البالغ ستة أقدام. كان الهـواء مُشبَّعاً برائحة القرّاص شديدة الرطوبة. بينما كنتُ أتبع جورج على طول ممر القرميد المُعتِـم، شعرتُ بقشعريرة. لكن عندما ولجنا الأبنية وجدناها في حالة ممتـازة؛ كانت قـد جُدِّدَتْ خـلال عدد قليـل من السنـوات؛ كانت مُدعّمـة بالأخشاب، وأنيقـة، وأليفة. رأينا ريشاً منثـوراً هنا وهناك، وقطعاً مـن جثث حيوانات، وحتـى من بقايا قطـة، تفحّصناها على عَجَـل على ضوء عود ثقاب. ولدى ولوجنا الاسطبل سمعنا ضجيجاً فظيعاً، واندفع ثلاثة جرذان ضخام نحونا وهددونا بأسنانهم الشريرة.

ارتجفتُ، وأسرعتُ عائداً أدراجي، متعثراً بدلو يكسوه الصدأ، وممتلئ بالأعشـاب الضارة حتـى ظننتُ أنّه جزء من الدغـل. ثم ساد صمتٌ أصبح مُخيفاً بالضجيج الخافت الذي كانت الجرذان والخفافيش الطائرة تصـدُره. كان المكان مُجرّداً من أي أثر لـذُرة أو قشّ أو تبن، كان فقط مختنقاً بالأعشـاب الضارة الهائلة. وعندما وجدتنـي حراً في البستان لم أتمكـن مـن التوقف عن الارتجـاف. لم أر فوقنا أية ثمـار تفاح بيننا وبـين السماء الزرقاء. فإما أنَّ الطيـور تسبّبت في سقوطها، والتهمتها الأرانب، أو أنَّ أحدهم جمعها.

قال جورج بمرارة: «إلى هذا سيؤول أمر الطاحونة».

قلت: «بعد زمنك».

«زمنـي – زمنـي. لن يكون لي زمن أبداً. ولـن أُدهَش إذا ما طال زمـن والدي – بوجـود الأرانب وأشيـاء أخرى. إنَّ واقـع الحال هو أننـا نعتمد على دورة الحليب، وعلى أعمـال النقل بعربة الجر لصالح المجلس. لا يمكن القول إنها أعمال تخص المزرعة. إننا مزيج بائس من المزارع، وبائع الحليب، وبائع الخضار، ومتعهد نقل إنه وضع بائس».

أجبتُ: «يجب أنْ تعيش».

«نعـم – لكنَّ الوضـع عفِن. ووالدي لن يتحـرك – ولن يُغيِّر من أساليبه».

«حسن، وأنت؟».

«أنــا! و لِمَ أتغيَّر؟ – أنا مرتاح في المنزل. أما عن مستقبلي، فيمكنه الاعتناء بنفسه، ما دام لا أحد يعتمد عليّ».

قلت مُبتسماً: «Laissez faire» (لا تتدخل)

أجــاب، وهو يتلفّت حوله: «هذا ليس عدم تدخُّل، إنه أشبه بنزع حَلَمة الثدي من بين شفتيك، وترك الحليب يفسُد. انظر هناك!».

من خلال غلالة الضبــاب المُنار بضوء القمر التي تغطي سفح التل استطعنــا أنْ نــرى جيشاً من الأرانب يتجمَّــع، أو يقفز بضع خطوات نحو الأمام، ويأكل.

انطلقنــا بخُطــى متمايلة إلى أسفــل التل، مُبديــن الحشود. ومع اقترابنا من السياج الذي يُحدد حقول ميل، هتف «مرحباً!»– واندفع إلى الأمــام. تبعته، وراقبــتُ الشكل المُعتِم لرجلٍ نهضَ عن السياج. كان حارســ الطرائد. تظاهــر بأنه يتفحَّص بندقيته. ومــع اقترابنا منه حيّانا بعبارة «مساء الخير!» هادئة.

ردَّ جورج بتفحُّص الفجوة الصغيرة التي في السياج.

قال: «سأُسبِّب لك المشاكل بسبب هذا الشَّرَك».

أجاب أنّابل، عريض المنكبين، ضخم البُنية، أسود الوجه، «أحقاً؟ وأودُّ أنْ أعرف ماذا تفعل على الجانب الخطأ من السياج؟».

قــال جورج بغضب: «تستطيــع أنْ ترى ما تفعل – أعطني شَرَكي – وأيضاً أرنبي».

قال أنّابل، مُلتفتاً بسخرية نحوي: «أي أرنب؟».

أجـاب جـورج: «أنت تعلـم جيداً – ويمكنـك أنْ تُعيـده إليّ – وإلا –».

كشّرَ الرجل بامتعاض. «وإلا ماذا؟ أفصِح! لن يخيفني صوتك».

قال جورج، متقدماً من الرجل بحنق: «أعطنيه هنا!».

قال الحارس، واقفاً بثبات، وينظر دون تأثُّر إلى اقتراب جورج:

«إيـاك! الأفضل لك أنْ تعود إلى بيتك – أنت وهو معاً. لن تحصل على الشّرَك ولا على الأرنب – أترى!».

قال جورج: «سوف نرى حقـاً!»، وقام بحركة مُفاجئة ليُمسك بمعطف الرجل. وفي الحال أخذ يترنّح متراجعاً بعد أنْ تلقّى لكمة قوية تحت أُذنه اليُسرى.

هتفـتُ بقوة، مُوجِعـاً براجمي بتسديدها إلى فـك الرجل: «أيها الحيوان الملعون!»، ثم وجدتني أنا أيضاً جالساً على العشب مذهولاً، أراقـب أطراف ردائه المخملـيّ الواسعة تتطاير حولـه وكأنه شيطان، وهـو يبتعد بخطـوات واسعة. نهضتُ، ضاغطـاً على صدري حيث تلقّيت الضربة. كان جورج مُلقـى في أسفل السياج. قلبتُه، ودعكتُ صِدغيـه، ونفضتُ العشب المُخضّل عن وجهه. فتح عينيه، ونظر إليّ، مذهولاً. ثم أخذ يتنفّس بسرعة، ووضع يده على رأسه.

قال: «كاد – كاد يُفقدني صوابي».

أجبت: «الشيطان!».

«لم أكن متهيّئاً».

«كلا».

«هل طرحني أرضاً؟».

«نعم - وأنا أيضاً».

لزم الصمت بعض الوقت، وهو جالس منهك. ثم ضغط يديه على خلفية رأسه قائلاً: «إنَّ رأسي يُغني!»، وحاول أنْ ينهض، لكنه فشل. «يا إلهي! - ما أبشع أنْ أُطرَح هكذا على يد حارس ملعون!».

قلت: «هيا بنا، فلنرَ إنْ كان في استطاعتنا أنْ نخرج».

قال بسرعة: «كلا! لا داعي لإخبارهم - لا تُخبرهم».

جلستُ أفكر في الألم الذي يسكن صدري، وأتمنى لو أتذكّر سماع فك أنّابل يتهشّم، وأتمنى لو أنَّ براجمي تأذّت أكثر - على الرغم من أنَّ ما أصابها يكفي. نهضتُ واقفاً، وساعدتُ جورج على النهوض. ترنّح، وكاد يجرّني معه. لكنه سرعان ما أصبح يمشي بخطوة غير مستقرة.

«هل يُغطيني الطمي وأشياء أخرى؟».

أجبتُ، مُضطرباً جراء نبرة الخزي والتشوُّش اللتين تكلّم بهما: «ليس كثيراً».

قال، واقفاً ولا زالت القذارة عالقة به: «انفضه عني».

بذلت أقصى جهدي. ثم رحنا نتجول بين الحقول بعض الوقت، ترين علينا الكآبة، والصمت والغيظ.

فجأة، في أثناء مرورنا بجانب البركة، أجفلنا بظهور ظلال ضخمة، سوداء، تحفّ وهي تنساب فوق رأسينا مباشرة. كانت طيور البجع تحلّقُ بحثاً عن مأوى، بعد أنْ بدأتْ الريح الباردة تهبّ الآن على نذرمير. تهادت هابطة على سطح بركة الطاحونة الساكنة، مُبعثرة ضوء القمر إلى نقاط عبر الظلال العميقة؛ وضجَّ الليل بخفق أجنحتها على سطح الماء؛ وانكسر السكون والصمت؛ وانشقَّ ضوء القمر وتبعثر، وانكسر. وبينما طيور البجع تلج الظلال، أضحتْ أشباحاً قائمة، تسكن المكان؛ ووجدتنا الريح نرتعش.

سألَ وأنا أغادره: «إياك – لن تبوح بشيء أليس كذلك؟».

«كلا».

«لا شيء على الإطلاق – لا لأحد؟».

«كلا».

«أسعدت مساءً».

مع حلول نهاية شهر أيلول، أُصيبَ الريفُ بالرعب لدى مُهاجمة كلاب غريبة الماشية. فذات صباح، بينما صاحب الملك يقوم بجولة في حقوله كعادته، انتابه الرعب لدى عثوره على اثنين من ماشيته ممزَّقَين

وميتين في أعماق السياج، والباقي متجمعين في ركن يتململون من فرط الفزع، ومُلطّخين بالدم. و لم يبرأ صاحب الملك من تلك الصدمة على مدى أيام.

ثم وصل تقرير عن وجود كلبَين رماديين ذئبيين. وكان حارس صاحب الملك قد سمع عواءً في حقول الدكتور كولينز، من الأبرشية، عند حوالي الفجر. وعندما ذهب العامل بالقطعان لكي يعتني بها وجد ثلاثة منها غارقة في دمائها.

ثم أُنذِر المزارعون. وأصبح سيد مزرعة البيت الأبيض يعمد إلى إيداع ماشيته الزريبة، واضعاً إياها في عُهدة كلابه. لكنَّه كان يوم سبت، وقد انطلقَ الأولاد إلى المسرح الجوّال الصغير الذي كان قد توقّفَ في ويستوولد. وبينما هم جالسون فاغرين أفواههم في المسرح، الذي يُكنّى بفخامة بـ «حوض الدماء»، يُشاهدون الأبطال يموتون مع كثير من الالتواء، والجيشان، ويُصارعون كي ينطقوا كلمة، ثم ينهارون دون أنْ ينطقوها، كان ستة من ماشيتهم الحمقاء تُذبح في الحقل. وسُئل كل منزل إنْ كان الكلب في الداخل؛ فلم يجدوا أياً منها هارباً.

كان في أرض السيد ساكستون ثلاثون من الماشية. وقد صمم جورج أنَّ أسهل شيء بالنسبة إليه هو أنْ ينام معها. فبنى مأوى من ألواح من الخشب منضفرة مع أغصان مقطوعة، وخلال بعد الظهيرة المُشمسة جمعنا أكواماً من السرخس، الذي كان قد أخذ يتحول الآن إلى اللون البني المُحمر الشتوي. نام هناك على مدى أسبوع، ولكن

في أثناء ذلك الأسبوع شعرت أمه أنها قد كبرت عاماً. كانت تخرج في غسق الصباح البارد تنتظر، ومئزرها فوق رأسها، وصوله. لم تكن ترتاح ما دام هو في الخارج.

لذلك، في ليلة يوم السبت أخرج أغطيته، وعيّنَ غيب ليقوم بالحراسة بدلاً عنه. جلسنا بعض الوقت ننظر إلى النجوم فوق التلال القائمة. وبين حين وآخر كان أحد أفراد القطيع يسعل، أو يتململ أرنب تحت العلّيق، أو يئن غيب. زحف الضباب فوق شجيرات الجولق، وكانت شِباك العنكبوت فوق العليق بيضاء؛ – إنَّ الشيطان يرمي شباكه على نبات العليق حالما يُدير شهر أيلول ظهره، كما يُقال.

قال جورج، ونحن جالسان نطل من مأواه الصغير: «لقد شاهدت شخصين يمرّان حاملين حقائب وشِباك».

قلت: «صيادون متطفلون. هل كلّمتهم؟».

«كلا – لم يروني. كنتُ أوشك أنْ أستغرق في النوم عندما اندفع أرنبٌ ليختبئ تحت الغطاء، وفرائصه كلها ترتعد، وكلب وِبتْ سريع يُلاحقه. سدّدت لكمة إلى عنق كلب الوبت، فابتعد وهو يعوي. ومكثَ الأرنب معي فترة طويلة – ثم رحل».

«وكيف شعرت؟».

«لم أبال. إنني لا أبالي كثيراً بما يحدث الآن. يمكن للوالد أنْ يعيش من دوني، وأمي لديها الأطفال. أعتقد أني يجب أنْ اهاجر».

«لِمَ لم تفعل من قبل؟».

«أوه، لا أعلم. هناك في المنزل وسائل صغيرة للراحة واهتمامات يفتقدها المرء. ثم إنكَ في بيئتك الريفية تشعر بأهميتك، أما في البلاد الأجنبية فتشعر بأنك نكرة، في اعتقادي».

«لكنكَ عازم على الرحيل؟».

«ما الذي يدفعني إلى البقاء؟ إنَّ الوادي كله أصبح مسعوراً ولم يعُد مُربحاً. إنكَ لستَ حراً في أنْ تفكِّر في رأي الآخرين فيك، وكل ما حولك يبقى على حاله، وهكذا لا تستطيع أنْ تغيّر نفسك - لأنَّ كل ما تنظر إليه يُثير المشاعر القديمة نفسها، ويمنعك من أنْ تحصل على مشاعر جديدة. وماذا يوجد هنا له قيمة؟ - ماذا في حياتي يستحق الاحتفاظ به؟».

قلت: «كنتُ أعتقد أنَّ راحتك تستحق الاحتفاظ بها».

لزم السكون ولم يُجِب.

سألتُ: «ما الذي أخرجك من عشّك؟».

«لا أدري. لم تعُد تنتابني المشاعر نفسها منذ أنْ نشب ذلك الشجار مع أنّابل». وقد قالت ليتي لي: «هنا لا تستطيع أنْ تعيش على هواك - بأية طريقة أو ظرف. أنت أشبه بإحدى قطع الفسيفساء الزجاجية الملوّنة تلك التي في الصالة، يجب أنْ تُثبّتها في لوحتك الخاصة، في نموذجك الخاص، لأنَّ هذا موقعك منذ البداية. لأنكَ لا

تريد أنْ تكون أشبه بقطعة في رقعة فسيفساء – أنت تريد أنْ تلتحم مع الحياة، وتذوب وتمتزج مع باقي الناس، أنْ تحرق بعض الأشياء فيك – «وقد كانت جادة كل الجديّة».

«حسن، لستَ في حاجة إلى تصديقها. متى قابلتها؟».

«جاءتْ إلى هنا يوم الأربعاء، عندما كنتُ أقطف التفاح في الصباح. وارتقت الشجرة معي، وكانت الريح شديدة، ولهذا كنتُ أقطف التفاح كله، وكانت تهزّنا، أنا في القمة، وهي في منتصف المسافة تحمل السلّة. سألتها إنْ كانت تعتقد أنَّ الحياة الحرّة هي الأفضل، وكان هذا جوابها».

«كان ينبغي أنْ تعارضها».

«لقد بدا كلامها صحيحاً. في الحقيقة، لم يخطر في بالي أنْ أعتبره خطأً».

«بحقك – هذا يبدو سيئاً».

«كلا – ظننتُ أنها تتعالى علينا – على أسلوبنا في الحياة. ظننتُ أنها تعني أنني أشبه بشرغوف في حفرة[١٤]».

«كان ينبغي أنْ تبيِّن لها الفرق».

---

١٤ – «شرغوف في حفرة»: اسم طبق يتألّف من سجق مع بيض وحليب وطحين. – المترجم

«كيف أفعل وأنا لا أرى أي فرق؟».

«يُدهشني أنك عاشق».

ضحــك للفكرة، قائلاً: «كلا، ولكن من المزعج أنْ تكتشف أنكَ لا تتصف بأي شيء تفخر به».

«هذه نغمة جديدة عليك».

أخذَ يُقلِّب العشب بكآبة.

«ومتى تنوي أنْ ترحل؟».

«أوه – لا أعلم – لم أقُل أي شيء لأمي. حتى الآن – على أية حال لن أُخبرها قبل حلول الربيع».

قلت: «ليس قبل أنْ يقع أمر».

سأل: «ماذا؟».

«أمر حاسم».

«لا أعلم ماذا يمكن أنْ يحدث – إلا إذا طردنا صاحب الملك».

قلت: «كلا؟».

لم يتكلم.

قلت: «ينبغي أنْ تفتعل أشياء».

أجاب بيأس: «لا تدعني أشعر بأني أسوأ أحمق، يا سيريل».

قفز الكلب غيب شاداً سلسلته لكي يلحق بنا. الأشكال الرمادية الضبابية داخل ظلمة الشجيرات كانت، القطيع يرتاح زحف ضباب قاتم، بارد ممتداً على الأرض.

قال: «ولكن لهذه الأسباب كلها، يا سيريل، عندما تضحك منك عبر طاولة المائدة؛ وتسمعها تغني وهي تتنقَّل في المكان، قبل أنْ تشعر بالإرهاق ليلاً، عندما تُشيع النارُ الدفءَ، وأنتَ مُتعب؛ عندما تجلس بجوارك على مقعد الموقد، قريبة وناعمة...».

قلت: «في إسبانيا، في إسبانيا».

لم يُلاحظ، لكنه فجأة التفت، ضاحكاً.

«أتعلم، عندما كنت أجمع الأكوام، وأرفع الحزم، شعرتُ كأني أطوّق فتاة بذراعي. كان إحساساً مُفاجئاً».

قلت: «يُستحسن أنْ تنتبه، سوف تقع في شِباك أحلام حريرية، وحينئذٍ –».

ضحك، دون أنْ يسمع كلماتي.

اعترفَ قائلاً: «يبدو أنَّ الوقت يمضي بسرعة البرق – وأنا أفكّر، أشعر كأني أحصد أوقات الصباح بملء يدي».

قلت: «أوه، يا إلهي! لِمَ لا تُخطط لنيل ما تريد، بدل أنْ تحلم بالإنجازات؟».

أجـاب: «حسن، أمـا كنتَ ترغب في أنْ تسترسـل في الحلم، إنْ كان حلماً جميلاً؟»، وبهذا أنهى كلامه، ورجعتُ أنا إلى المنزل.

جلستُ عنـد النافذة أُرسِلُ نظري منها، أحاول أنْ أرتّب الأمور. ارتفـع الضباب، والتفَّ حول نذرمير، كأشباح تجتمع وتتعانق بحزن. تذكّرت متى ينبغي على صديقي ألاّ يتبع خط الحراثة على سفح وادينا الصغير الحميم، ومتى ينبغي على غرفة ليتي المجاورة لغرفتي أنْ توصد بابهـا لتُخفي فراغهـا، وليس فرحها. لقد تعلّـقَ قلبي بشغف بالفراغ الذي يشملنا جميعاً؛ كيف أستطيـع تحمُّل أنْ يُصبح وحيداً! تساءلتُ ماذا ستفعل ليتي.

في الصبـاح استيقظت باكراً، عندما انبلج ضوء النهار مع ارتعاشة سَرَت في الغابـة. خرجـت، وكان القمر لا يزال يسطـع بوهن جهة الغـرب. انكمشـ العالم في وجـه الصباح. عندئذ لفظـت آخر أشياء الصيـف أنفاسها. كانـت الغابة قاتمة – وفاحت منهـا رائحة الرطوبة وبدتْ مُثقلة بالخريف. وعلى الدروب تكدّست أوراق الأشجار.

عندمـا اقتربتُ من المزرعة سمعت نبـاح كلاب. هرعت مسرعاً، ووصلـت إلى الأرضـ المشاع، فرأيـتُ القطيع متجمّعـاً ومنتشراً في مجموعـات، وثمة شيء يثِب حوله. ظهر جـورج فجأة للعيان مندفعاً يُلاحـق شيئاً. وفي الحال سُمِعَ صوت طلق ناري. التقطتُ قطعة ثقيلة من الحجر الرملي وركضتُ أتبعه. كان أمامي ثلاثة من الماشية تتشتت جامحة. وعلى الضوء المُعتِم رأيتُ ظلالها الرمادية تتحرك بين شجيرات الجولـق. ثم قفز كلب، فأطحت بالحجر الـذي أحمله بكل ما أوتيت

من قوة. أصبته. ارتفع عواء ناحب عالي النبرة من فرط الألم؛ ورأيتُ الحيوان ينطلقُ مبتعداً، فلحقتُ به، أراوغ الشجيرات الواخزة، واثباً فوق العليق الممتد. ومن جديد تردد صدى طلقات نارية، وسمعتُ الرجال يهتفون من الفرح. كان كلبي قد غاب عن الأنظار، ومع ذلك واظبتُ على ملاحقته، هابطاً منحدر التل. في حقل ممتد أمامي شاهدتُ أحدهم يركض. فلحقت به واثباً فوق السياج المنخفض وأدركتُ إميلي، التي كانت تهرع بأسرع ما في وسعها خلال العشب الرطب. وسُمِعَ طلقٌ ناريّ آخر وصراخ هائل. تلفّتت إميلي حولها، فرأتني، وأجفلَتْ.

قالت وهي تلهث: «لقد ذهب باتجاه مقلع الحجارة». تابعنا المسير، دون أنْ نتفوه بأية كلمة. تبعنا مجرى الجدول، على حافة الأيكة، إلى أنْ وصلنا أخيراً إلى سياج المقلع. كانت الحفر قد أضحت الآن مملوءة بالأشجار. الجدران شديدة الانحدار، التي يبلغ عمقها في بعض المواقع عشرين قدماً، كانت مُمتلئة بالحجارة المتفرقة، ويتدلى منها العليق. هبطنا الضفة السحيقة للجدول، وولجنا المقالع عبر قاع الجدول. وتحت أيكة من أشجار الدردار والسنديان كان لا يزال زهر الربيع الشاحب موجوداً، يومض بوهن بجوار المياه الخفيّة. عثرتْ إميلي على بقعة من الدماء على امتداد جميل لنبات اللبلاب. تبعنا الأثر حتى العراء، حيث يتدفق الجدول على القعر الصخري القاسي، وعلى أرض المقلع الحجري لم يكن هناك غير دغل من نبات الجولق والعليق وصريمة الجدي.

قلت: «انتقي حجراً جيداً»، وحثثنا الخطى قُدُماً، إلى حيث

الدغل في الحفرة الكبرى يـزداد ظلمة من جديد، وانساب الجدول سـراً تحت أذرع الشجيرات وشَعر الأعشاب الطويلة. فتشنا المكمن حتـى الطريق تقريباً. ظننتُ أنَّ الحيـوان فرَّ، فقطفتُ حفنة من ثمار رماد الجبـل، ووقفتُ أرميها على رُكبتـي. أجفلتني زمجرة وصرخة صغيرة. انطلقتُ مُسرعاً، فصادفت واحداً من تلك الأُتُن[١٥] الجصيّة القديمة التي على شكل نعل فرس قائم على رأس المقلع. وهناك، عند فوهة أحد الأُتُن، كانت إميلي راكعة فوق الكلب، ويداها مدفونتان في شَعر نحره، تدفع رأسه نحو الخلف. كانت الاهتزازات المتشنجة لجسم الحيوان هي ارتعاشات الموت؛ العينان تغوصان، والشّفة العليا تراجعتْ عن الأسنان من فرط الألم.

هتفتُ: «يا إلهي، إميلي! لكنه ميّت!».

نحّيتُها جانباً. «هل آذاك؟». كانت ترتعش بعنف، وكأنها تشعر بالرعب من نفسها.

قالـت: «كلا – كلا»، وهي تنظر إلى نفسها، والدم يُلطّخ ثوبها كلـه، حيث كانت تركع على الجرح الذي سبّبتُهُ للكلب، وضغطتُ علـى الضلـع المكسور داخل الصـدر. كان علـى ذراعها خيط من الدماء.

سألتُ، قلقاً: «هل عضّك؟».

«كلا – أوه، كلا – أنـا فقط أصدرتُ صوتاً خافتاً، فإذا به يقفز.

---

١٥ – أُتُن: جمع أتون؛ فرن، موقد، تنّور. – المترجم

لكنَّ قِواه كانت خائرة، فرددتُ على ذلك بضربه بحجري، وفقدتُ توازني، وسقطتُ فوقه».

«دعيني أغسل ذراعك».

هتفتْ: «أوه! أليس شيئاً مُروِّعاً! أوه، أعتقد أنه فظيع».

قلـت، منهمـكاً في تنظيف ذراعهـا بمياه الجدول البـاردة: «ماذا قلتِ؟».

«هذا – هذا الأمر الوحشي كله».

قلـت، وأنا أنظر إلى الخدش الذي سبّبته أسنان الكلب: «يجب أنْ يُعالَج بالكيّ».

«إنــه خدش – إنه لا شيء! هل تستطيـع أنْ تزيل هذا عن ثوبي – أكاد أكره نفسي».

نظّفتُ ثوبها بمنديلي قدر استطاعتي، قائلاً:

«فقـط دعينـي أكويـه لك؛ يمكننـا أنْ نذهـب إلى مؤسسـة تربية الكلاب. وافقي – يجب أنْ تفعلي – لن أطمئن إلا إذا فعلتِ».

قالــت، وهي ترمينــي بنظرة: «أنت جادّ»، وظهـرتْ ابتسامة في عينيها الجميلتين القاتمتين.

«نعم – هيا بنا».

ضحكتْ: «ها، ها! تبدو عليك الجديّة الصارمة».

أمسك بذراعها، وابتعد معهــا. شبكتْ ذراعها بذراعي، ومالتْ عليّ.

قالت، وكأنها مُستمتعة: «وكأننا في قصة لورنا دون[16]».

قلتُ، مُشيراً إلى مسألة الكيّ: «لكنكِ ستدعينني أفعلها لك».

«افعــلْ؛ لكننــي سوف أشعــر –آه – لا أجرؤ علــى التفكير فيه. أحضر لي بعضاً من ثمار العليق تلك».

قطفــتُ بضع حفنات من ثمار التــوت البري، ثمار حمراء داكنة، شفافة. مسّدتها برقة على شفتيها ووجنتها، مُداعبة. ثم تمتمت لنفسها:

«لطالما أردتُ أنْ أضع ثمار التوت البري الحمراء في شعري».

كان الوشــاح الذي تضعه يُحيط بكتفيها؛ ورأسها عارياً، وشعرها الأســود، الناعم والقصــير والمنتشي، يضطرب جامحــاً بجدائل سائبة خفيفــة. أقحمَــتْ عيدان ثمار التــوت البري تحــت مشطها. لم يكن شعرها كثيفاً أو طويلاً بحيث يحملها. ثم نظرتْ إليّ، والحفنة الحمراء القانيــة تتوهج من خلال الضبــاب القاتم لخصلات شعرهــا، مُشرقة،

---

١٦ – لورنــا دون: روايــة رومانسيــة مــن تأليف الإنكليــزي ريتشــارد دودريدج بلاكمور. صدرت عام ١٨٦٩. – المترجم

قصة حب تجري أحداثها في القرن السابع عشر في بريطانيا ضمن إطار من الأحداث التاريخية المتشابكة.

واسعة العينين. نظرتُ إليها، وشعرت بالابتسامة تنطفئ داخل عينيها. ثـم التفتُّ وجررتُ غصناً ممتداً من اللبـلاب ذي الأوراق الذهبية من السياج، ولويته على شكل تويج من أجلها.

قلت: «خذي! أصبحتِ متوّجة».

رفعت رأسها، وارتعشت الضحكة في حنجرتها.

سألـتْ، حاشـدة سؤالها بـكل ما أوتيـت من شجاعـة وتهوُّر: «ماذا؟»، وكانت ترتعش في أعماق روحها.

«لسـتِ كلوى[١٧]، ولا باخوسيّـة[١٨]. لطالما تمركزتْ روحك في عينيكِ، روح رصينة، مُزعجة».

تلاشـى الضحك في الحال، ومن جديد أطلّتْ الجديّة الصارمة من عينيها وهي تنظر إليّ، مناشدة.

«أنـتِ أشبه بنساء برن–جونز[١٩]. ثمة دائماً ظلال مزعجة تحتشد أمام عينيك، وأنتِ تدللينها. تعتقدين أنْ لحم التفاحة لا شيء، لا شيء. لا تهتمـين إلا بالبـذور الأبديـة. لِمَ لا تختطفين تفاحتـكِ وتأكلينها، وترمين اللب؟».

---

١٧ – كلوى: عشيقة دافنيس مُلهِم الأدب الريفي في الميثولوجيا اليونانية. – المترجم

١٨ – باخوسية: نسبة إلى باخوس إله الخمر والمتع الحسّية. – المترجم

١٩ – إدوارد برن–جونـز (١٨٣٣ – ١٨٩٨): رسّـام إنكليزي من المدرسة ما قبل الرافائيليّة، ومُصمم لوحات على زجاج النوافذ والمنسوجات. – المترجم

نظـرت إليّ بحزن، دون فهم، ولكـن مؤمنة بأنني بحكمتي أقول الحقيقـة، كما آمنـت دائماً عندمـا أضعتُها في متاهة مـن الكلمات. انحنتْ، فسقط الإكليل عن شعرها، و لم تبقَ إلا حفنة من ثمار التوت. كان جـوز الزان ذو الغـلاف الوبريّ رباعيّ الشِّفـاه ينتثر حولنا على الأرض، وانتثر الجوز الصغير الطريـف الشبيه بالاهرامات بين أوراق الأشجار الساقطة المحمرّة. جمعتْ إميلي بعضاً منها.

قالـت: «أحـب جوز الـزان، لكنـه يجعلني أتوق مـن جديد إلى أيـام المدرسة حتـى أكاد أبكي. كم كنتُ أخرج بحثـاً عن جوز الزان قبـل الإطـار؛ وأنظمُه على شـكل قلادات قبل الغـداء؛ – وتحسدنني الأخريـات في اليـوم التـالي في المدرسة! حينئذٍ كانـت قلادات جوز الزان مصدر سرور، والآن السرور يعمّ فصل الخريف كله – ولا حزن. بعـد أنْ يكبر المرء لا تعود هناك مسرات صافية». أبقتْ رأسها منكّساً نحو الأرض وهي تتكلّم، وتابعت جمع الثمار.

سألتها: «هل عثرت على بعضها يحوي بذراً؟».

«ليسـ كثيراً – هنا – هنا توجـد اثنتان، ثلاثة. خُذها لك. كلا – لستُ مهتمة بها».

نزعـتُ عن أحدها غلافها البُنـي ذا القرون وأعطيتها لها. فتحتْ فمهـا قليـلاً لتأكلها، وهـي تنظر في عينـيّ. إنَّ بعض الناس بدل أنْ يجلبوا معهـم سُحُباً من المجـد، يجرّون معهم سُـحُبـاً من الحـزن؛ إنهـم مولـودون مع «موهبة الحزن»؛ يزعمـون أنَّ «الأحزان وحدها حقيقية؛ أنَّ ملائكة الحـزن الرمادية ذات الخمار تصنع ببطء الأشكال

الجميلــة؛ أنَّ الحزن هــو الجمال، وهو النعيم السامــي». تقرأ ذلك في عيونهــم، وفي نــبرة أصواتهــم. إميلــي كانت موهوبــة بالحزن. كان يفتنني، لكنه يدفعني إلى التمرّد.

سرنـا على الدرب المعشوشب، الناعم، الذي أضحى أملس، تحت أشجــار الزان العتيقة. ابتعد سفح التــل، المشوّش بالأشواك وبالعشب الخشــن. وسرعان ما ظهرتْ مؤسسة تربية الكلاب في الأفق، الحمراء القديمة التي كانت مسرحاً للعديد من الأحداث في زمن الشاعر اللورد بايــرون. كانت خاليــة في الوقت الراهن وتغزوهــا الأعشاب في كل مــكان. كانت نوافــذ الكوخ المــزوّدة بالقضبان رماديــة بفعل تراكم الغبار؛ و لم يعد الآن مــن حاجة لحماية النوافذ من الماشية، أو الكلاب أو الإنسان. أحد الأبنيــة الثلاثة كان مسكوناً. وثمة مياه صافية تقطر مــن خلال جدول صغير خشبي في جــرن حجري في الخارج بجوار الباب.

قلتُ لإميلي: «تعالي إلى هنا. دعيني أُثبّت ثوبكِ من الخلف».

سألــتْ، وهــي تنظر بسرعة خلف ظهرها وقــد احمرّت خجلاً، «اهو محلول؟».

بينمــا كنتُ منهمكاً في مهمتي، خرجــت فتاة من الكوخ حاملة إبريقاً أسود وكوباً لشــرب الشاي. أبدتْ دهشة شديدة من انهماكي بذلك العمل، حتى أنها نسيتْ أنْ تقوم بواجبها، ووقفت فاغرة الفم.

هتــفَ صوت مــن الداخل: «ســاره آنْ! ســاره آنْ ! هلا دخلتِ وأغلقتِ الباب؟».

قامت ساره آنْ بسرعة بصبّ وملء بضعة أكواب من الماء في الإبريق، ثم وضعت الوعاءين أرضاً، ووقفتْ تضم ذراعَيها العاريين لتُدفئهما. كان رداؤها الأساسي يتألّف من صدّارة رمادية وتنورة من الفانيلا الحمراء، بال ومتهرّئ؛ وشعرها الأسود يتدلى بخُصل جامحة على كتفيها.

قلت، مقترباً من الفتاة: «يجب أنْ ندخل إلى هنا». لكنها قامت على عجل بحمل الإبريق وهرعت إلى الدخول قائلة: «أوه، أمي-!».

جاءت امرأة إلى الباب. أحد ثدييها عارٍ، يتدلى من فوق بلوزتها التي كانت، كالقميص الرسمي، سائبة من فوق تنورتها. وشعرها ذو اللون البني المحمرّ الباهت أشعث بسبب النوم. وبتضاعيف تنورتها تشبّثَ صبي داكن البشرة يرتدي قميصاً قصيراً بصورة صادمة. حدّقَ إلينا بعينين واسعتين سوداوين، هما الجزء الوحيد من وجهه ليس ملوّثاً بالبيض والمربى. تفحّصتنا عيناها الزرقاوان بوهن. وأخبرتنا بطبيعة مهمتنا.

قالت: «ادخلا - ادخلا، ولكن لا تنتقدا المنزل. لقد استيقظ الأطفال تواً. اذهب إلى الداخل يا بيلي، لن أغيب».

دخلنا، مع الإبريق المنسي. كان المطبخ كبيراً، لكنه هزيل في موجوداته؛ ما عدا، في الواقع، الأطفال. كان أكبرهم سناً فتاة في الثانية عشرة أو نحوها، واقفة تحمِّص قطعة من اللحم المُقدَّد بيد، وترفع ثوبها باليد الأخرى. وعندما لُسِعَتْ اليد التي تحمل القطعة المُحمَّصة، نقلتها إلى اليد الأخرى، ولعقتْ الأصابع الحارة لتبرِّدها،

ثم أبعـدت ثوبها من جديد. وجلس صبي علـى حاجز من الفولاذ، يلتقـط السمن الـذي يقطر على قطعة مـن الخبز. «واحـدة، اثنتان، ثـلاث، أربع، خمس، ست قطرات» وأسـرع بقضم الزاوية اللذيذة، واستأنف المهمة باليد الأخرى. وعندما دخلنا حاول أنْ يُغطي رُكبتيه بقميصه، مما جعل السمن يسقط ويُهدَر. وطفل وليد بدين، من الجليّ أنه انتهى تواً من رضاعـة الثدي، استلقى يرفس على الأريكة، مُحتقن الوجـه، بينما صبي آخـر كان يُقحِم قطعة من الخبـز المدهون بالزبد في فمـه. اندفعـت الأم إلى الأريكة، أخرجت قطعـة الخبز مع الزبد، وأدخلـتْ إصبعها إلى بلعوم الطفل الوليد، ثـم رفعته عالياً، وأخذت تضربـه على ظهره، وبدا عليها الارتيـاح الشديد عندما بدأ يزعق. ثم سدّدتْ بضع صفعات قوية إلى المؤخرة العارية للمجرم. وراح يعوي، لكنه سكت فجأة عندما رآنا نضحك. وعلى قطعة الخيش المُستخدمة كبسـاط أمام الموقد جلست طفلة جميلة تغسل وجه دمية من خشب بالشـاي، وتُجففها بمنامتهـا. وعلى المائدة، جلس طفل على كرسي عـالٍ يمتصّ قطعة من اللحـم المُقدد، إلى أنْ جـرى الدهن على طول ذراعيـه الداكنين، ونزّ من خـلال أصابعه. وطفل أكبر سناً وقف على الأريكة الكبيرة التـي كان ظهرها مُغطى بجلد عجل، يعمل باجتهاد على صـبّ ما تبقّى في أكواب الشاي في وعـاء من الحليب. أبعدت الأم الحليب بحركة سريعـة، وأسرعت تلاحق الصبي، وفي أثناء ذلك كانت تحمل الطفل على ذراعها.

قالـت: «يمكنني أنْ أقتلك»، لكنـه كان قد اندسّ تحت الطاولة – وجلس برصانة غير مُبال.

سألت بعد أنْ أعادت الأم الطفل إلى ثديها: «هل يمكن – أنْ تقرضينني صنارة الحبك؟»).

سألت المرأة: «ساره آنْ، أين وضعتِ صنارة الحبك؟»، وأجفلت في الوقت نفسه، واضعة يدها على فم الطفل الذي يرضع. وعندما تلاقت عيوننا، قالت:

«لا يمكنك أنْ تتخيل كم يعض الطفل. ليس لديه أكثر من سنّين، ولكن كأنهما ست إبر»، وضمّت حاجبيها معاً، وزمّت شفتيها، قائلة للطفل: «يا ملعون! يا ملعون! لن تحصل عليه، كلا، إذا ظللتَ تعضّ أمك هكذا».

لدى دخولنا انقسم اهتمام الأسرة بيننا وبين الهموم الخاصة؛ – ما عدا، اللهم، أنَّ الطفل الذي يمتص اللحم المُقدد ظل يواصل المصّ، لا يُبدي حراكاً، طوال الوقت.

هتفت ساره آنْ بعد أن فتشت قليلاً: «سام، أين صنارة الحبك، طفح الكيل؟».

أجاب سام من تحت الطاولة: «لا أعلم».

قالت الأم، مُسددة نخسة بقدمها تحت الطاولة دون أنْ تنظر: «بل تعلم».

أصرّ سام: «لا أعلم».

اقترحت الأم أماكن مختلفة محتملة لاستكشافها، وأخيراً تم العثور

على صنارة الحبك في خلفية درج الطاولة، بين الشوك وسفافيد الشيّ الخشبية القديمة.

قالــت الأم موبخة بنبرة معتدلــة: «يجب أنْ أخبركم بمكان وجود كل شــيء». لكنَّ ساره آنْ لم تــولِ أمها انتباهــاً. كان قلبها ممزقاً على مــا حبكت، ثمرة جهودهــا؛ كان غطاء لليدين مــن الصوف الأحمر لوضعــه في الشتــاء؛ كانــت فتّاحة زجاجــات قد اخترقــت النسيج، وتشابكت كرة الصوف الأحمر مع السفافيد.

قالت الأم تشتكي: «كله بسببك، يا سام. أعلم أنه أنت وحروفك الأبجدية».

نعقَ صمويل، من تحت الطاولة، بنبرة رتابة شرسة:

الشين تعني الشيهم[٢٠] الذي يخز بقوة

ويقتل الأسد الجسور بوخزه «في لسانه».

أخذتْ الأم تهتز بضحك هادئ.

همستْ لنا - وله - بفخر: «والده علَّمه هذا - هو ألّفها».

«هيا سام، أخبرنا ماذا يعني حرف الشين؟».

نخرَ سام: «لن أفعل».

---

٢٠ - الشيهم: حيوان يُشبه القنفذ. - المترجم.

«هيا، لقد طبخت بطاً؛ وسوف أُعدُّ بودينغ دبس السكر».

سألتْ ساره آنْ بغضب: «اليوم؟».

ألـحّتْ الأم: «هيا، سام، يا بطتي».

قال سام بحزم: «ليس لدينا دبس السكر».

كانت الصنارة في النار؛ وقف الأطفال في المكان يراقبون.

سألتُ إميلي: «هل ستفعلين ذلك بنفسك؟».

هتفــت، بعينــين جاحظتين من الدهشــة: «أنا!»، وهــزّتْ رأسها برفض حاسم.

«إذنٍ سأقــوم أنا به». تناولــتُ الصنارة، حملتُها بمنديل. أمسكتُ بيدها وتفحّصت الجرح. ولكن عندما شاهدتْ الوهج الحارّ للصنارة، انتزعــت يدها بعيداً، ونظرتْ في عينــيّ، ضاحكة فيٍ خوف وخجل شبه هستيريّين. كنتُ في منتهى الجديّة والإصرار. فسلّمت لي يدها من جديد، وهي تعضّ علــى شفتها مُتخيّلة الألم، وتنظر إليّ. وبينما عينيّ تنظران في عينيها استجمعت الشجاعة؛ وعندما اضطررتُ إلى الانتباه إلى عملية الكيّ، ألقت نظرة إلى أسفل، ومع صرخة «آه!» حادّة انتهت بضحكة قصيرة، وضعت يديها خلف ظهرها، ونظرت من جديد إليّ بعينــين جاحظتين، وكلها ترتعش من فرط خوف الترقّب، والقليل من الخجل، وبضحك ينطوي على الكثير من المناشدة.

بدأ أحد الأطفال يبكي.

قلت، وأنا أرمي الصنارة التي بردت بسرعة إلى الموقد: «هذا لا يجوز».

وزّعت على البنات كل ما في حوزتي من بنسات - ثم أعطيتُ سام، الذي كان قد زحفَ خارجاً من مأواه تحت الطاولة، ست بنسات.

قال، مستديراً بعيداً عن قطعة النقد الصغيرة: «لن أقبل هذا».

«حسن - لم يعد في حوزتي بنسات، لذلك لن تحصل على أي شيء».

أعطيتُ الصبي الآخر مدية مخلعة الأوصال كنتُ أحملها في جيبي. رماني سام بنظرة شرسة، تواقة إلى الانتقام، والتقط «شوكة الشيهم» من طرفها الحامي. ثم رماها مع صرخة حنق، وقبضَ على كأس من الطاولة وأطاح به إلى المحظوظ جاك. تهشَّم على موقد النار، فانقضّتْ الأم على سام، لكنه أفلت منها. ناحت الفتاة، الفتاة الصغيرة، «أوه، هذا كأسي الوردي - كأسي الوردي». وفررنا من مشهد الفوضى الذي لم تكد إميلي تلاحظه. كانت أفكارها منصبّة على نفسها، وعليّ.

قالت بتواضع: «أنا جبانة رعديدة».

«ولكن لا حيلة لي في ذلك -» نظرت بتوسُّل.

قلتُ: «لا عليك».

«كأنَّ جلدي يهرب مني. أنت لا تعرف كيف شعرت».

«حسن – لا بأس».

« لم أستطع، حتى ولو كان الثمن حياتي».

قلت: «يا تُرى، هل كان هناك أي شيء يمكن أنْ يُزعج مصّاص اللحم المقُدد ذاك؟ إنه حتى لم يلتفت باتجاه ضجيج التحطُّم».

قالت، وهي تعضّ على طرف إصبعها متفكّرة: «كلا».

قاطع العويل الصادر من الخلفية المزيد من الحديث. وعندما تلفّتنا حولنا رأيناه يعدو مُسرعاً خلفنا على العشب المقصوص قصيراً، ويعوي علينا بعبارات الذم والسخرية: «يا ذيل الأرنب، يا ذيل الأرنب»، وساقاه الصغيرتان العاريتان تتحركان برشاقة، وقميصه القصير يُرفرفُ في هواء الصباح البارد. لحُسن الحظ، داس أخيراً على نبتة شائكة أو شوكة، ذلك أننا عندما التفتنا خلفنا من جديد لنعرف سبب صمته، كان يثبُ على ساقٍ واحدة، مُمسكاً بقدمه المجروحة بيديه.

الفصل السابع

ليتي تخرِّب ثمار العنب الصغيرة الذهبية

خــلال موســم سقــوط الأوراق كانت ليتي عنيدة جــداً. تفوهت بالكثير من الكلام المبتذل في حق الرجال، والحب، والزواج؛ وبّخت لــزلي وعارضـــت رغباته. وأخيراً نــأى بنفسه عنهــا. كانت قد قامت بزيارة الطاحونة مرات عدة، ولكنْ لأنها تخيّلتْ أنَّهم يرفعون الكلفة معهــا، باستقبالهم لها في أرضهم الوعرة كأنها واحدة منهم، ابتعدت عنهم. ومنذ وفاة والدها أصبحتْ قلقة؛ منذ أنْ ورثت ثروتها الصغيرة أصبحت متكــبرة، مُزدرية، ونيِّقة. نيِّقــة في كل الظروف؛ هي، التي طالمــا عاشت حياة مريحــة، خالية مــن الهموم، جلســت على حافة النافــذة تفكِّر، وأسنانها القوية تعضّ على منديلها إلى أنْ تمزّقَ وأصبح فيه ثقوب. لم تكن تبوح لي بأي شيء؛ وكانت تقرأ كل ما يتعلّق بالمرأة المُعاصرة.

بعــد ظهيرة أحد الأيــام سارت ليتي إلى إبرويتشــ، و لم يكن لزلي قــد زارنا منذ أسبوعــين. كان الجو كئيباً، ثابتاً. جرفــت الرياح ضباباً كثيفاً عبر التلال، وكانت الدروب مسودّة وعميقة بالوحل. وترهلت

أشجار الغابة متجهمة. كان يوماً جديراً بالمرء أنْ ينأى بنفسه عنه ويتجاهله قدر الإمكان. عزّزتُ النار وأسدلتُ الستائر وجعلتُ الغرفة في وضع مثاليّ. ثم رأيتُ ليتي قادمة بخُطى مُسرعة، وقامة منتصبة، على طول الدرب. عندما دخلتْ كانت متوردة الوجه.

قالت باقتضاب: «ألم تعدّ الشاي؟».

قلت: «لقد جلبتْ ريبيكا المصباح تواً».

خلعتْ ليتي معطفها وفروها ورمتهما على الأريكة. وتوجهت إلى المرآة، رفعتْ شعرها، الذي شوّشه الضباب، وحدّقتْ إلى نفسها بغطرسة. ثم استدارت بحركة سريعة، ونظرتْ إلى الطاولة العارية، وقرعتْ الجرس.

كان شيئاً نادر الحدوث أنْ نقرع الجرس من غرفة الطعام، حتى أنَّ ريبيكا توجّهتْ أولاً إلى باب الخروج. ثم ولجتْ الغرفة قائلة:

«هل قرعت الجرس؟».

قالت ليتي ببرود: «حسبتُ أنَّ الشاي بات جاهزاً». نظرتْ ريبيكا إليّ، ثم إليها، وأجابت:

«إنَّ الساعة لم تتجاوز الرابعة والنصف. يمكنني أنْ أجلبه».

جاءتْ أمي لدى سماعها قرقعة أكواب الشاي.

قالت لليتي التي كانت تحلّ رباط حذائها: «حسن، وهل كان المشوار ممتعاً؟».

كان الجواب: «لولا الطين».

«آه، أعتقد أنكِ تمنّيتِ لو أنكِ لزمت المنزل. يبدو حذاءك في حالة مزرية! - وثوبك أيضاً، أعلم هذا. دعيني أحمله إلى المطبخ».

قالت ليتـي: «دعي ريبيكا تأخذه» - لكنَّ أمي كانت قد غادرتْ الغرفة.

بعـد أنْ صبّتْ أمـي الشاي، جلسنا على الطاولـة يلفّنا الصمت. كان على طـرف ألسنتنا أنْ نسأل ليتي عمـا يُزعجها، لكننا كنا ذوي خبرة وأحجمنا. وبعد قليل قالت:

«أتعلمان، لقد قابلتُ لزلي تمبست».

قالت أمي بتردد: «أوه، وهل جاء معكِ؟».

«إنه لم ينظر إليّ».

هتفت أمـي بدهشة: «أوه!»، وكان تردد صدى صوتها فصيحاً؛ ثم، بعد برهة، استأنفت قائلة:

«لعله لم يرك».

سألتُها: «أم هل كان بريطانياً متحجّراً؟».

أعلنتْ ليتـي: «لقد رآني، وإلا لما قدَّمَ ذلك العرض الطفوليّ حول ابتهاجه بصُحبة مارغريت ريموند».

«لعله لم يكن عرضاً - ولا زال من الممكن أنه لم يرك».

«لقد شعرتُ في الحال أنه رآني؛ لقد رأيتُ حيويته الفائضة. لم يكن في حاجة إلى إزعاج نفسه، ما كنتُ سأسعى إليه».

قلت: «تبدين غاضبة جداً».

«في الحقيقة لستُ غاضبة. لكنه كان يعلم أنني سأضطر إلى سير كل تلك المسافة إلى المنزل، ويُصبح في وسعه أنْ يرتبط بمارغريت، التي لم يكن أمامها إلا نصف تلك المسافة».

«هل كان معه عربة؟».

«عربة يجرها كلب». قطّعتْ قطعة الخبز المُحمَّص إلى شرائح رفيعة بحركة قاسية. وانتظرنا بصبر.

«كان تصرفاً خسيساً منه، أليس كذلك، يا أمي؟».

«في الواقع، يا ابنتي، لقد أسأتِ معاملته».

«يا له من طفل! طفل خسيس، على شكل رجل! ما الرجال إلا أطفال كبار».

قالت أمي: «والفتيات، هل تعرفين ماذا يردن؟».

أضفتُ: «سِمة النضج».

قالت ليتي: «ومع ذلك، هو غنذور خسيس، وأنا أحتقره».

نهضت واقفة وأخذت تفرز بعض القُطَب. لم تكن ليتي تفعل ذلك إلا إذا كانت عكرة المزاج. ابتسمت أمي لي، وتنهدتْ، وانتقلت للحديث عن السيد غلادستون لترطيب الجو؛ كان كتابها المُفضَّل والمُقدَّس هو مؤلَّف مورلي «حياة غلادستون».

كان عليّ أن أحمل رسالة إلى هايكلوز إلى السيدة تمبست – من أمي، بخصوص إقامة سوق شعبية في الكنيسة. قلت لنفسي: «سوف أُحضِر لزلي معي في طريق عودتي».

كان الليل أسود وكريهاً. المصابيح في الطرقات من إيبرويتش وحتى نذرمير؛ جعل انعكاسُ ضوئها الضبابيّ الأصفر على صفحة المياه جحيمَ الليل البارد، والرطب، أشدّ قُبحاً.

كان لزلي وميري معاً في المكتبة – نصف مكتبة، ونصف مكتب لإدارة الأعمال؛ ويُستخدَم أيضاً كغرفة استراحة، لأنه يوحي بالألفة. كان لزلي يتمدد على أريكة كبيرة بجوار الموقد، حصيناً بين سُحُب الدخان الأزرق. وميري جاثمة على الدَّرَج، وعلى رُكبتيها مُجلّدٌ ضخم. نهضَ لزلي واقفاً وسط سحابته، تصافحنا، وحياني بكياسة، ثم اختفى من جديد. نفحتني ميري بابتسامة جذّابة، ابتسامة حانقة، قائلة:

«أوه، سيريل، أنا سعيدة جداً لمجيئك. إنني شديدة القلق، ولزلي يقول: إنه ليس طبّاخ مُعجّنات، على الرغم من أنَّني واثقة من أنني لا أريد له أنْ يكون كذلك، كل ما في الأمر أنه ليس في حاجة إلى أنْ يكون دبّاً».

«ما الأمر؟».

تجهّمتْ، وسددت للمجلد ضربة خفيفة وقالت:

«في الواقع، إنني أرغب كثيراً في أنْ أصنع بعضاً من التورتة الإسبانية الصغيرة اللذيذة التي تصنعها أمك، وطبعاً ميبل لا تعرف أي شيء عنها، وهي غير موجودة في كتابي عن الطبخ، وبحثتُ في الموسوعة صفحة بعد صفحة عن كل شيء تحت كلمة «إسبانيا»، وحتى الآن لم أعثر على أي شيء، ولا زال هناك خمسون صفحة أخرى، ولزلي يرفض أنْ يساعدني، على الرغم من أني أعاني من الصداع، لأنَّ أمراً يُشغل باله». نظرتْ إليّ مع تعبير يأس هزلي.

«هل تريدينها من أجل السوق الشعبية؟».

«نعم - غداً. الطباخ تكفّل بالباقي، أما أنا فقلبي مُعلَّق بهذه. ألا تعتقد أنها رائعة؟».

«بل رائعة وممتازة. ما رأيك أنْ أذهب وأطلب من أمي أنْ تصنعها».

«إنْ شئت. ولكن كلا، أوه كلا، لا يمكن أنْ تقطع كل تلك المسافة في مثل هذه الليلة الرهيبة. إننا ببساطة مُحاصَرين بالوحل. الرجلان كلاهما في الخارج - وليم ذهب ليُقابل والدي - وأمي أرسلتْ جورج ليحمل بعض الأشياء إلى مقرّ القس. ولا أستطيع أنْ أطلب ذلك من أية فتاة في ليلة كهذه. يجب أنْ أتخلّى عن الأمر - وعن تورتة التوت البري أيضاً - ليس في اليد حيلة. إنني بائسة جداً».

قلت: «اطلبي من لزلي».

أجابت، وهي تنظر إليه: «إنه شديد الغضب».

لم يتنازل ويُدلي بتعليق.

«ما رأيك، لزلي؟».

«ماذا؟».

«أنْ تذهب إلى وودسايد من أجلي؟».

«لِمَ؟».

«لتُحضِر وصفة حلوى. أرجوك، أنت فتى طيب».

«وأين الرجلان؟».

«كلاهما منشغلان – إنهما في الخارج».

«أرسلي إحدى الفتيات، إذن».

«في ليلة كهذه؟ مَنْ سيقبل؟».

«سيسي».

«لن أطلب منها. أليس هو خسيس، يا سيريل؟ الرجال كلهم أخسَّة».

قلت: «سوف أعود. ليس لدي أي شيء أقوم به في المنزل. أمي تقرأ، وليتي تحيك. الطقس لا يُلائمها، كما لا يُلائم لزلي».

قالت، تنظر إليّ برقّة: «ولكن هذا ليس عدلاً –». ثم نحّت المجلد الضخم جانباً، وهبطتْ الدرج.

قالت، وهي تضع يدها على كتفه: «ألا تذهب، يا لزلي؟».

قال، وهو ينهض كأنما على مضض: «يا للنساء! لا نهاية لطلباتهن ونزواتهن».

قالت بدفء: «كنتُ أعلم أنه سيذهب». وهرعت لكي تُحضر له معطفه. ارتدى أحد الكمّين ببطء، ثم الآخر، لكنه لم يرفع المعطف إلى كتفيه.

قالت، وهي تكافح لتقف على أطراف أصابع قدميها: «حقاً! أنت مخلوق ضخم! ألا تتابع الارتداء، أيها الطفل المشاغب؟».

قال: «أعطها كرسياً لتقف عليه».

هزّتْ ياقة المعطف بحِدّة، لكنه وقفَ كخروف، مُخدَّراً.

«لزلي، أنت شرير جداً. لا أستطيع أنْ أتابع، أيها الفتى الغبي».

تناولتُ المعطف وألبسته بالقوة.

قالت، وهي تناوله قلنسوته: «انتهينا، والآن لا تتأخّرا».

قال، بعد أنْ خرجنا: «يا لها من ليلة قذرة لعينة!».

قلت: «هي كذلك».

«إنَّ المدينة، أو أي مكان أفضل من جحيم الريف هذا».

«ها! هل استمتعت بوقتك؟».

باشر سرداً طويلاً لثلاثة أيام في المدينة الكبرى. أصغيتُ، و لم أسمع إلا القليل. الشيء الذي سمعته بوضوح أكبر كان صياح بعض طيور

الليل فوق نذرمير، والصياح العالي، الناحب، النكد لحيوان في الغابة. شعرتُ بالامتنان بعد أنْ صفقت الباب خلفي، ووقفت في ضياء الصالة.

هتفت أمي: «لزلي! أنا سعيدة برؤياك».

قال، ملتفتاً إلى ليتي، الجالسة وبين يديها الكثير من العمل، وتنكس رأسها بانهماك: «شكراً لك»

قالت، مادةً له يدها التي تضعُ فيها كشتباناً: «كما ترى لا أستطيع أنْ أنهض. جميل منك أنْ تأتي إلينا! لم نكن نعلم أنكَ عدت».

هتف: «ولكن!»، لكنه سكتْ.

تابعت بهدوء: «أعتقد أنك استمتعتَ بوقتك».

«إلى أقصى مدى. شكراً».

سناب، سناب، سناب؛ واصلت الصنارة الحياكة للمادة الجديدة. ثم، ودون أنْ ترفع بصرها، قالت:

«نعم، حتماً. تبدو عليك سيماء رجل كان يستمتع بوقته».

«ماذا تعنين؟».

«كأنك مُذنب – أم هل أقول مُحرَج. ألا تلاحظين هذا، يا أمي؟».

قالت أمي: «ألاحظ!».

ختمـت ليتي قائلة، ودائماً وهي منهمكـة في الحياكة: «أعتقد أنَّه يعني ألا نطرح عليه أسئلة».

ضحـك: كان الخيـط قد أفلت، وتحـاول أنْ تُقحِمه في الإبرة من جديد.

سأل بطريقة خرقاء: «ماذا كنتِ تفعلين في هذا الجو البائس؟».

«أوه، لقـد لزمنا المنزل كمنبوذتين. «بكَ دائماً، أحلم كحمقاء»— إلى آخره. أليس كذلك، يا أمي؟».

قالـت أمي: «حسن، لا أعلم. لقـد تخيّلناه بأشكال مختلفة للأسد وهو هناك».

قالـت ليتي: «من المؤسف أننا لا نستطيع أنْ نطلب منه أنْ يزأر لنا كما كان يفعل».

سأل: «كيف كان شكلها؟».

«مـا أدراني؟ بالاعتماد على صوتـك الحالي، تشبه يمامة رضيعة».
«صوت شنيع»

ضحك بانزعاج.

تابعت الحياكة، وفجأة بدأتْ تغني لنفسها:

«يا قطة، يا قطة، أين كنتِ؟

كنتُ في لندن لأقابل الملكة الرائعة:

يا قطة، يا قطة، ماذا فعلتِ هناك؟

لقد أخفتُ فأراً صغيراً كان تحت الدَّرَج».

ثم أضافت: «أعتقد أنَّ هذا ربما صحيح. مسكين الفأر! – لكنني أظنّ أنها ليست أسوأ. وإنْ كنتُ لا أظنك رأيتَ الملكة؟».

أجاب، متهكماً: «لم تكن موجودة في لندن».

قالت، وهي تتناول دبّوسين من بين أسنانها: «لا أعتقد أنكَ – لا أعتقد أنك تعني بذلك أنها كانت في إيبرويتش – أعني ملكتك؟».

أجاب بغضب: «لا أعلم أين كانت».

قالت، بعذوبة شديدة: «أوه! حسبتُ أنكَ ربما قابلتها في إيبرويتش. متى رجعت؟».

أجاب: «في الليلة الفائتة».

«أوه – لماذا لم تأتِ لترانا من قبل؟».

«كنتُ أزور المَرافق طوال النهار».

قالت ببراءة: «وأنا ذهبتُ إلى إيبرويتش».

«أحقاً!».

«نعـم. وأنـا شديـدة الغضب بسبب ذلـك. ظننـتُ أني سأراك. شعرت أنك في المنزل».

خاطت قليلاً، وراحت تراقب سراً وجهه المُحمرّ، ثم تابعت ببراءة: «نعم – شعرت أنكَ عدتَ. غريبٌ كيف ينتاب المرء أحياناً شعور بأنَّ شخصـاً ما قريب منـه؛ يتعاطف معه». وتابعت الحياكـة، ثم تناولت دبوساً من صدرهـا، وأصلحتْ عملها، كل ذلك من دون ارتياب في وجود أي مكر.

«حسبـتُ أني قـد أقابلك وأنا في الخارج»، فـترة صمت أخرى، وعمليـة إصلاح أخرى، وتناولتْ دبوساً من بين شفتيها – «لكنني لم أقابلك».

قال بسرعة: «كنتُ في المرفق حتى وقت متأخّر».

تابعت الحياكة بهدوء، بطريقة مُستفزة.

من جديد تناولت دبوساً من فمها، وثبّتت طيّة، وقالت برقّة:

«أيها الكذّاب الحقير».

كانت أمي قد غادرت الغرفة لكي تُحضِر كتاب وصفات الطبخ.

جلسَ على كرسي يرين عليه الصمـت بسبب إحساسه بالذنب. استمرت في الحياكة بسرعة وبلا أخطاء. استمر الصمت بضع لحظات. ثم تكلّم:

قــال: «لم أكنْ أعلــم أنكِ تريدينني من أجــل متعة نتف ريش هذا الغراب».

هتفــت، رافعــة رأسها للمــرة الأولى: «أردتكَ أنــت! مَنْ قال إني أردتكَ؟».

«لا أحد. إذا لم تريدينني يمكنني أنْ أرحل».

لم يكسر الصمت برهة إلا صوت الخياطة، ثم قالت عمداً:

«مَنْ دفعك إلى الاعتقاد أني أردتكَ؟».

«لا يهمني البتّة إنْ أردتني أم لم تريديني».

«يبــدو أنَّ هذا يُزعجك! ثم إياك أنْ تستخدم لغة سفيهة. هذه هي مزيّة القريبين من المرء والعزيزين عليه».

«أعتقد أنَّ هذا هو السبب في أنكِ أثرتِ الموضوع».

قالت، بغطرسة: «لا أتذكّر».

ضحــك متهكماً. «حسن – إنْ كنــتِ حانقة وساخرة حول هذا إلى هــذه الدرجة – «قال هذا بــتردُّد، متوقعاً الجــواب الناعم. لكنها رفضتْ أنْ تتكلَّم، وتابعت الحياكة. تململ، وحرّكَ قلنسوته بانزعاج، وتنهّد. أخيراً قال:

«حسن – هل انتهيتِ – هل انتهى ما بيننا إذن؟».

كانت تحظى بالتفوُّق التام، من ناحية أنها كانت منهمكة بعمل مُلفِت للنظر. كان في استطاعتها أنْ تُصلِح الثوب، تنظر إليه بفضول، وتُعيد ترتيبه، وتجلس وتباشر الخياطة قبل أنْ تُجيب. هذا الرجل المتواضع. أخيراً قالت:

«هذا ما ظننتُ بعد ظهيرة هذا اليوم».

«ولكن، يا إلهي، ليتي، ألا يمكنكِ أنْ تنسى الأمر؟».

«وبعد ذلك؟» «- أجفله جوابها».

أجاب: «حسن! انسِهِ».

«ثم؟» - قالتها بنعومة، برقّة. لبّى النداء ككلب صيد متحمّس. انتقل بسرعة إلى جوارها وهي جالسة تخيط، وقال، بصوت منخفض:

«أنتِ تحبينني قليلاً، أليس كذلك، ليتي؟».

«يعني» - كان ذلك نوعاً من الوعد المُعدَّل بلطف بالموافقة.

«لقد أسأتِ معاملتي، أنتِ تعلمين، ألم تفعلي؟ أنتِ تعلمين أنني - يعني، أحبكِ كثيراً».

«هذا أسلوب غريب للتعبير عنه». كان صوتها قد تحول الآن إلى التعنيف الرقيق، أعذب أنواع الاستسلام والغفران. مال إلى الأمام، وضمَّ وجهها بين يديه، وقبّلها، وتمتم:

«أنتِ مزعجة قليلاً».

تركت حياكتها في حجرها، ورفعت نظرها.

انبلج صباح اليوم التالي، الأحد، على نهار رطب وكئيب. تناولنا الإفطار في وقت متأخّر، وعند حوالي الساعة العاشرة وقفنا عند النافذة نطل على استحالة ذهابنا إلى الكنيسة.

كان يهطل رذاذ غزير من المطر، كستارة قذرة مُسدلة في وجه المشهد الطبيعي. كانت أوراق أبو خنجر على ممشى الحديقة قد تعفّنت في الصقيع، والأقراص الخضراء الزاهية أفسحت المجال لرايات الشتاء السوداء الأولى، المرفوعة فوق سوارٍ مترهلة، ضيّقة عند العنق. كانت رقعة الأرض التي تنمو عليها الأعشاب البرية منثورة بأوراق ساقطة، مُبللة وبرّاقة: بقع قرمزية من نباتات متسلقة، وكمية منجرفة ذهبية من نبات الزيزفون، وأوشحة بنيّة مُحمرَّة تحت أشجار الزان، وعلى مسافة إلى الخلف في الركن، جديلة سوداء من أوراق القيقب، ثقيلة من تخضّلها بالماء؛ كان ينبغي أن تكون بلون الليمون المشرق. أحياناً كانت إحدى تلك الأوراق السوداء الكبيرة ترتخي، وتهبط بخط متكسّر، مترنحة في رقصة الموت.

فجأة قالت ليتي: «انتهينا!».

رفعتُ نظري في الوقت المناسب لأرى غراباً يطوي جناحيه ويتشبّث بالغصن الأعلى من شجرة بهشيّة رمادية عجوز على حافة بقعة مكشوفة. رفرف جناحيه من جديد، ثم استعاد توازنه، ثم انطوى على نفسه عالياً في استسلام أسود في وجه الطقس البغيض.

قالت ليتي بفظاظة: «لماذا استقرّ ذلك البائس العجوز فوق أنوفنا مباشرة، فقط لكي يُشيع الوعد بالحزن».

سألتُ «لكِ أم لي؟».

«إنه ينظر إليّ، كما أرى».

ألمحتُ «تستطيعين أنْ تري البؤبؤ الخبيث لعينه من هذه المسافة».

أجابت، مُصممة على اعتبار فأله السيئ موجهاً إليها: «أنا رأيته أولاً.

واحد للحزن، اثنان للفرح،

ثلاثة للرسالة، أربعة للفتى،

خمسة للفضّة، ستة للذهب،

وسبعة لسرٍّ لا يُفشى أبداً.

قلتُ أواسيها: «يمكنكِ أنْ تراهني مُقدَّماً على أنه مجرد رسول. قريباً سيأتي ثلاثة آخرون، وسوف يُصبح لديك أربعة».

قالت: «هل تعلم، الأمر غريب جداً، ولكن كلما لاحظتُ بوضوح وجود غراب، ينتابني نوع ما من الحزن».

سألتُ «وعندما تشاهدين أربعة؟».

أجابت: «كان ينبغي أنْ تسمع العجوز السيدة واغستاف. إنها تؤكد على أنَّ غراباً عجوزاً في شجرة التفاح عندهم ظل ينعق كل يوم على مدى أسبوع قبل حادثة غرق جيري».

علّقتُ: «إنه حزن ثقيل عليها».

«أوه، وذرفت دموعاً حرَّة. وأنا أيضاً رغبتُ في البكاء، ولكن لسبب ما ضحكت. وعبّرتْ عن أملها في أنْ يكون قد ذهب إلى الجنة – ولكن – كم أكره كلمة «ولكن» – إنها دائماً تعلق في الأفكار».

ألححتُ: «ولكن، جيري!».

«أوه، رفعت جبينها وأخذتْ الدموع تقطر من أنفها. لابد أنَّ سيب كان عجوزاً مزعجاً. لا أفهم لماذا تتزوج النساء مثلِ هذا النوع من الرجال. لقد فرحتُ كثيراً عندما سمعتُ أنَّ السكّير العجوز البائس قد انحاز عن الطريق ووقع في القنال».

أسدلت الستارة السميكة على النافذة، واستقرت عندها، وضعت خدها على حافتها، لتتقي زجاج النافذة البارد. هزّت الرياح الرمادية الرطبة الأشجار شبه العارية، التي تساقط أوراقها وهي تلمع بتجهُّم. حتى الجذوع كانت مسودَّة، وتقطر كالمطر الهاطل غزيراً.

حوّمَ غرابان آخران هابطان من السماء كورقتين من أوراق شجر القيقب سوداء حلّقتا عالياً. انساباً إلى أسفل وتشبّثا بالأشجار أمام المنزل، ومكثا بالقرب من سابقيهما العجوزين. راقبتهما ليتي، بقدرٍ من الاستمتاعٍ، وشيءٍ من الكآبة. انجرفَ أحدها. حوَّم وأخذ يُكافح الرياح، مرتفعاً، ويجتهد في التقدم في وجه التيار الرطب العاتي.

قلت: «ها قد وصل الرابع».

لم تُجِب بل واصلت المراقبة. صارع الطائر ببطولة، لكنَّ الرياح دفعته بعيداً، أمالته، وأمسكت به من تحت جناحيه العريضَين وهبطتْ به. انساب في طيرانٍ متوازن نحو الجدول، ممتداً وساكناً، وكأنه مُثبَّت ولا حيلة له. حزنتُ لأجله. وللأسف ارتفع اثنان من رفاقه فجرفتهما الرياح بعيداً ولحقا به. وحده القبيح الأول بقيَ ثابتاً على هيكل نبات البهشية الذاوي، الرمادي الضارب إلى الفضي.

علّقتُ: «لن يقول حتى» ليس بعد الآن «[٢١]».

أجابت ليتي: «إنه أكثر عقلانية». بدت حزينة قليلاً. ثم أردفت: «الأفضل قول: «ليس بعد الآن» على قول «إلى الأبد»».

سألت: «لماذا؟».

«أوه، لا أعلم. أحبّ عبارة» «إلى الأبد».

كانت متيقّنة في قرارة نفسها من أنَّ لزلي سوف يأتي – أما الآن فبدأ الشك يُساورها: – كانت الأمور مُربكة جداً.

قرع جرس المطبخ؛ فقفزتْ واقفة. ذهبتُ لأفتح الباب. دخلَ. فرمته بنظرة رضا مُشرقة. رآها، وفهم.

---

٢١ – الإشارة هنا إلى قصيدة «الغراب» لإدغار ألن بو، التي يُردِّد فيها الغراب عبارة «ليس بعد الآن». – المترجم

قال بهدوء: «لقد دعتْ هيلين بعض الناس إلى المنزل – لقد تصرّفتُ بفظاظة بتركي لهم الآن».

قالت أمي: «ما أفظع هذا اليوم!».

«أوه، إنه مُخيف! إنَّ وجهك أحمر جداً، ليتي! ماذا كنتِ تفعلين؟».

«كنتُ أنظر إلى نار الموقد».

«وماذا رأيتِ؟».

«صوراً غير واضحة – لا شيء».

ضحك. ران الصمت علينا برهة.

تمتم: «هل كنتِ تتوقعين وصولي؟».

«نعم – كنتُ أعلم أنك قادم».

تُرِكا وحدهما. اقترب منها وأحاط كتفها بذراعه، وهي واقفة ومِرفق ذراعها يستند إلى رف المدفأة.

ناشدها بنعومة: «أنت تريدينني حقاً».

تمتمت: «نعم».

ضمّها بين ذراعيه وقبّلها مرات عدّة، مرة بعد أخرى، حتى انقطعت أنفاسها فرفعت يدها وأبعدتْ وجهها عنه.

قــال، ضاحــكاً في عينيهــا: «يا لك مــن عشيقة صغــيرة باردة – أنتِ عصفورة حييّة». لاحــظ أنَّ دموعها بدأتْ تتجمَّع، سابحة على جفنيها، ولكن دون أنْ تسقط.

«لماذا، يا حبيبتي، يا عزيزتي – لماذا!» – وقرَّبَ وجهه من وجهها، وتناول دموعها بخدّه:

قال، بكل رقّة، وحنوّ: «أنا متأكّد من أنكِ تُحبينني».

غمغمَ: «تعلمــين أنَّ في استطاعتي فعلاً أنْ أشعر بالدموع تتجمع صاعــدة من قلبك وحنجرتك. إنه تجمُّــع مؤلم جداً، يا حبيبتي. ها أنا ذا – تستطيعين أنْ تفعلي بي ما تشائين».

بقيــا صامتين بعضَ الوقت. وبعــد فترة، بالأحرى فــترة طويلة، ارتقــتْ إلى الطابق العِلوي والتقتْ بأمــي – وبعد بضع دقائق سمعتُ أمي تذهب إليه.

جلستُ بجوار النافذة أراقبُ السُحب المنخفضة تتدحرج وتترنح عابــرة، وكأنَّها تجــرف كل شيء معها – حتى أنــا شعرتُ بأني فقدتُ جوهري، انفصلتُ عن الأشياء المادية وعن أرض الحياة اليومية الصلبة المُداســة. إلى الأمــام، دائمــاً إلى الأمــام، ولا أعلم إلى أيــن، ولا لماذا، الرياح، والسُحب، والمطر والطيور وأوراق الأشجار، كل شيء يُدوِّم متقدِّماً – لماذا؟

طــوال ذلك الوقت بقيَ الغراب العجــوز جالساً لا يأتي بحركة، على الرغم من أنَّ الغيوم تُدمدم، وتتصدَّع وتتراكم، ومن أنَّ الأشجار تنحني، ويرتعش زجاج النوافذ بسبب المياه الجارية عليه. ثم اكتشفتُ

أنَّ المطـر قد توقَّف؛ وأنَّ شُعاعاً واهنـاً أصفرَ من نور الشمس، يُضيء بعض أشجـار الدردار الضخمة القريبة حتى بـدتْ أشبه بثمار ليمون ناضجة تتدلّى. نظر الغراب إليّ – كنتُ متيقّناً من أنه نظر إليّ.

سألتُه: «ما رأيك في هذا كله؟».

تأمّلنـي بامتعاضـ، وبعدم خـوف هائل، أنا الطائـر شبه المُجنَّح، المُبهم، التافه، ولكن البغيض. أعتقد أنه كان يكرهني.

قلـت: «ولكن، إنْ كان في وسـع الغراب أنْ يُجيـب[٢٢]، فلِم لا تستطيع أنت؟».

أشـاح بنظره بضجـر بعيداً. ومـع ذلك أزعجه تحديقـي. التفتَ بانزعـاج؛ نهضَ، ورفرف جناحيه وكأنما ينوي أنْ يطير، ثم استقرَّ من جديد متحدياً.

قلت: «أنت عديم الفائدة، إنك لا تساعدني حتى ولو بكلمة».

بقـيَ جالساً ببـلادة غير آبه. ثـم سمعتُ طيور الزقـزاق الشامي في المرج تصيـح، وتصيح. وكأنها تناشد العاصفـة، وأيضاً تشجبها. كانت تطير مندفعة في الريح، لكنها لا تني تتذمر منها. كانت تستمتع بالكفـاح، وتنعيه بعويل عنيـف، تتخلله نبرة ابتهـاج. طيور الزقزاق الشامـي كلها صاحت، صاحت تحكي الحكاية نفسها، «مرير، مرير، الصـراع – عبثـاً، عبثاً، عبثاً» – وطوال الوقـت تتمايل على أجنحتها العريضة، مستمتعة.

---

٢٢ – مرة أخرى يُشير لورنس إلى غراب قصيدة إدغار ألن بو. – المترجم

قلت للغراب: «أتسمع، إنها تحاول، وتجده مريراً، لكنها لا تتخلّى عنه، وتجلس ساكنة مثلك، أيتها الجثّة العجوز».

لم يتحمّــل هذا. نهضَ متحدياً، ورفرف بجناحيه، وانطلق مُحلّقاً، وأطلقَ مرة واحدة صيحة «كاو» منذرة بالشؤم. وسرعان ما غاب عن الأنظار.

اكتشفتُ أنني أشعر ببرد شديد، فهبطتُ إلى الطابق السُّفلي.

قــال لزلي، وهــو يُدير خصلة شعر حول إصبعــه، واحدة من تلك الخصل السائبة التي دائماً تتراقص متحررة من الشعر الأسير:

«انظــري كم شعرك مولع بي؛ انظري كيف ينضفر حول إصبعي. أتعلمــين أنَّ شعــرك – الضــوء الذي يتخللــه يُشبــه – أوه – زهرة زر الذهب تحت أشعة الشمس».

أجابتْ: «إنه مثلي – لا يُحب القيود».

«عيــبٌ عليــه إنْ كان – هكــذا، يُلامــس وجهــي – بكثير من – ويجعلني أدندن كالموسيقى».

«تأدّبْ! والآن اهدأ، وسأخبرك بنوع الموسيقى التي تُصدِر».

«أوه – حسن – أخبريني».

«إنهــا أشبه بتغريــد السّمنة والشحرور، في المســاء، الذي يُخيف أزهــار شقار الأحــراج الصغيرة الشاحبــة، فتركض لاهثــة وتنساب

مندفعة مباشرة إلى جدراننا. أشبه برنين أزهار الأجراس عندما يسكنها النحل؛ أشبه بهيبومينس[٢٣]، منقطع الأنفاس، يضحك لأنه فاز».

قبّلها بإعجابٍ مُنتشٍ.

أضافت: «موسيقى الزواج، يا سيدي».

سألها بخفّة: «أي نوع من التفاح الذهبي رميتُ؟».

هتفت، بشبه سخرية: «ماذا!».

أجـاب، يرنو بحبٍ إليها: «أتلانتا هــذه، أتلانتا هذه - أعتقد أنها تلكّأت أخيراً عن عمد».

هتفـت، ضاحكــة، ومُستسلمة لمداعبتــه: «إذن فهمت. إذن كان أنــت - إنَّ تفاحات عقبيك القويين - تفاحــات عينيك - التفاحات التي قضَمتْها حوّاء - هي التي تفوقتْ عليّ - هه!».

«بالضبــط - أنتِ بارعة، أنتِ فريدة. وأنا فزتُ، فزتُ بالتفاحات الناضجــة لوجنتيك، وثدييك، وقبضتــيّ يديك - لا يمكنها أنْ يمنعاني - و - واستــدارة جسدك كلها ودفئك ونعومتك - لقد فزتُ بكِ، يا ليتي».

---

٢٣ - هيبومينــس، أو ميلانيــون: في الأساطير الإغريقيــة؛ الشاب الذي تغلّب على أتلانتــا، التي لا يمكن لأحــد أنْ يسبقها في الجري، بأنْ أغواهــا بثلاث تفاحات من الذهــب غاية في الجمال ولا يمكن مقاومة جمالها فشتّــت انتباهها، وسبقها وتغلّبَ عليها بالحيلة. - المترجم

أومأت برأسها موافقة بخبث، قائلة:

«كل هذه – هذه – نعم».

«كل شيء – لقد اعترفتْ – كل شيء».

«أوه! – ولكن دعني أتنفَّس. هل كنتَ تطالب بكل شيء؟».

«نعم – وأنتِ وهبته إليّ».

«ليس الآن. هل تقول كل شيء؟».

«كل ذرّة».

«ولكن – والآن اسمع –».

«هل أشحتُ ببصري؟».

«بعينك الداخلية. لنفرض الآن أننا ملاكان –».

«أوه، يا إلهي – ملاك قذر!».

«حسن – لا تقاطعني – لنفرض أنني ملاك – مثل «العذراء المباركة»».

«بصدر دافئ!».

«لا تكن أحمق – لنفرض أنني «عذراء مباركة «وأنتَ ترفس أوراق شجر الزان البُنّي في الأسفل وتفكر».

«إلأمَ ترمين؟».

«فهل ستفكر – بأفكار تشبه الصلوات؟».

« لَمَ تسألين هذا السؤال بحق الله؟ أوه – أعتقد أنني سأسبّ – هه؟».

«كلا – أقصى ما يمكن لروحك الهزيلة أنْ تصل إليه، هو أنْ تتلو صلوات عطِرة –».

«دعكِ من الأرواح الهزيلة، ليتي! أنا لستُ من النوع الروحاني. إنني لا أطيق لوحات ما قبل–الرفائيليّة. أنتِ – أنتِ لستِ إحدى لوحات برن–جونز – أنتِ لوحة لألبرت مور[٢٤] (انظر اللوحة). أعتقد أنَّ تأثير لمسة دافئة لجسد ناعم أقوى من أية صلاة. سوف أصلّي مع القبلات».

---

٢٤ – ألبرت مور (١٨٤١ – ١٨٩٣): رسام إنكليزي. معروف برسمه لسيدات نحيلات على خلفية من الرفاهية الكلاسيكية البائدة.



«وإذا لم تستطع؟».

«سوف أنتظر حتى يحين وقت الصلاة من جديد. وحقّ الله، إنني أفضّل أنْ تشعر ذراعاي بأنهما ممتلئتان بك؛ أفضّل أنْ ألمس تينك الشفتين الحمراوين - أيتها البخيلة! - على أنْ أتلو تراتيل معك في أية جنّة».

«أخشى أنكَ لن تتلو تراتيل معي في الجنة».

«حسن - أنتِ لي هنا - نعم، أنتِ لي الآن».

«ما حياتنا إلا فجرٌ ذاوٍ؟».

«كذّابة! - حسن، أنتِ نعتني بهذا! ثم، لا يهمني؛ Carpe diem (استمتعي بما يُتاح لكِ)، يا برعم الورد، يا ظبيتي. في الظبية سِمة جميلة من كارمن. «حان وقت مغادرة أمه، وخوض المغامرة في عناق دافئ». مسكين العجوز هوراس - لقد نسيته».

«إذن مسكين العجوز هوراس».

«ها! ها! - حسن، أنا لن أنساكِ أنتِ. ما معنى هذه النظرة في عينيك؟».

«ما معناها؟».

«كلا - أنتِ أخبريني. أنتِ مُزعجة جداً، لا سبيل إلى سبر أعماقك».

«يمكنكَ أنْ تسبر أعماق قُبلة –».

«سوف أفعل – سوف أفعل –».

بعد قليل سألها:

«متى سنُعلن خطوبتنا رسمياً، ليتي؟».

«أوه، انتظر حتى عيد الميلاد – إلى أنْ أبلغ الواحدة والعشرين».

«أي حوالي ثلاثة أشهر! ولِمَ بحقّ الله –!».

«لن يُشكّل ذلك أي فرق. سوف أكون عندئذٍ قادرة على انتقائك بكامل حريتي».

«فلتكن ثلاثة أشهر!».

«سوف أعتبرك خطيبي – لا يهمني باقي الناس».

«كنتُ أحسب أننا سنتزوج بعد ثلاثة أشهر».

«آه – نتزوج على عَجَل –. ولكن ماذا ستقول أمك؟».

«تقول! أوه، سوف تقول إنه أول عمل حكيم أقوم به. سوف تكونين زوجة صالحة، يا ليتي، قادرة على التسلية، وما إلى ذلك».

«سوف ترفرف بتألُّق».

«سوف نفعل».

«كلا – أنـت الذي سيكون العـثّ – وأنا سأرسم لك جناحين – بغبـار الأجنحة ذات الألـوان البهيجة. ثم عندما تفقـد غبار ألوانك، عندمـا تقترب أكثر مما ينبغي مـن الضوء، أو عندما تراوغ شبكة فراشة – يختفـي دوري – أنـت لا تقـدر على الطيران – أنـا – وا حسرتاه علـيّ! مـاذا سيحدث لغبـار الأجنحـة عندما يحفّ العـث بجناحيه بشبكة فراشة؟».

«إلامَ ترمـين من وراء كل هذه الثرثرة؟ أنتِ لا تعلمين الآن، أليس كذلك؟».

«كلا – لا أعلم».

«إذن ارتاحي. دعيني أتأمّل نفسي في مرآة عينيك».

«" نرسيس ، نرسيس ! أتـرى نفسـك بوضوح ؟ هـل الصورة تُرضي غرورك ؟ – أم أنها نهر مُضطرب ، يشوّه قسماتك الجميلة ؟».

«أنا – إنني أشبّهك بنرسيس – الشاب الجميل، العذب».

«أنـا لا أرى أي شيء. أشعر فقط بنظراتك – أنتِ تضحكين مني – ما الذي تُخفينه هناك – أية مزحة ؟»

«كوني جديّة – أرجوك».

«سيكون ذلك خطِراً. سوف يقتلك، وأنا – يجب –».

«ماذا!».

«سأبقى كما أنا الآن – جديّة».

بدا فخوراً، مُعتقداً أنها تشير إلى جديّة حبّها.

×××

في الغابة دمدمت الريح وزأرتْ بهدير أجش فوق الرؤوس، ولكن لم يُسمـع نَفَس بين السرخس الحزين. وبين حـين وآخر كانت تسقط قطـرة مطر من الأشجـار؛ وانزلقتُ على الـدروب الرطبة. خطّطتْ جذوعَ الأشجار الرمادية شرائطُ سوداء حيث سال الماء، وانقلب نبات السرخس، وانكسرت صفوفه. انزلقـتُ على الدرب المنحدر المؤدي إلى البوابة، وخرجت من الغابة.

تقدمـتْ حشودٌ من السُّحب صفوفاً عـبر صفحة السماء، مُثقلة، تكاد تحفّ بنبـات الجولق في الأرض المشاع. كانت الريح باردة تُثبط الهمـة، والأرضـ تجهش مـع كل خطـوة، والجدول مترعـاً، يجري مدوّماً، مُسرعاً، يُحدِّثُ نفسه، بنبرة صوت منهمكة ومنكبّة. اسودَّتْ الغيوم؛ فشعـرت بالمطر. رحت أركض، لا آبه للطين، واندفعت نحو مزرعة الدجاج.

كان الأطفال يرسمون، وفي الحال طلبوا مساعدتي.

قالـت الأم، بهدوء، ذلك أننا كنا بعد ظهـيرة يوم أحد: «إميلي – وجـورج – هما في الغرفة الأماميـة». أرضيتُ الصِّغـار؛ قلت بضع كلمات للأم، وجلستُ لأخلع قبقابي.

في الصالـون، كان الأب نائماً، ضخمـاً ومرتاحاً، على الأريكة. وكانـت إميلي تكتب علـى الطاولة – أسرعتْ بإخفـاء الأوراق حالما دخلـت. كان جـورج جالسـاً بجوار الموقـد، قرأ. رفـع بصره لدى دخـولي، وكنـتُ أحبّ الطريقـة التي ينظر بهـا إليّ، وتلكـؤ ترحيبه الهادئ «مرحباً!». كانت عيناه بليغتين بجمال – بليغتين كقُبلة.

تحادثنـا بهمهمـة منخفضـة، لأنَّ الوالد كان نائمـاً، نوماً عميقاً، ووجهه المُسمرّ ساكناً كثمرة إجاص على الجدار. ساعة الحائط نفسها أبطـأتْ حركتهـا، بنبضٍ واهن. تجمعنا حـول موقد النـار، وتحدثنا بهـدوء، لا على التعيـين - مكتفين بالاستمتاع برنـين أصواتنا، رنين هامس، مُهدهِد - ثلاثي من حب ممتنّ، هادئ.

أخيراً نهضَ جورج، وترك كتابه - نظر إلى والده - وخرج.

من الحظيرة تناهى صوت مضغ آلة فرم اللفت. كانت بقايا اللفت الهشّـة تنتثر بهـدوء وتتراكم مُشكلـة كومة من الذهـب تتنامى تحت الآلة. إنَّ رائحة البقايا، الحادّة والحلوة، تُعيد إليَّ ذِكرى مشاعر العديد من ليالي الشتاء، عندما تتكسَّر آثار الحوافر المتجمدة في الفناء، ويكون بـرج الجوزاء جهة الجنوب؛ عندما تكـون الصداقة في أفضل حالات غموضها.

هتفت: «تقطيع يوم الأحد!».

«الوالد لم يقُـم بهذا بالأمس؛ هذا عمله؛ وأنا لم ألاحظ ذلك. في الواقع - إنَّ الوالد دائماً ينسى - إنه لا يحب أنْ يُضطر إلى العمل بعد الظهيرة، الآن».

تململـتْ الماشيـة في مرابطها؛ قعقعت السلاسـل حول الأعمدة؛ وسعلت بقرة بصوت عـالٍ. بعد أنْ انتهى جورج من الفرم، وساد ما يكفي مـن الهدوء ليُتيح الكلام، وبينما هو ينشـر الطبقات الأولى من القطـع واللفت والجريش - دخلتْ إميلـي مندفعة، وشعرها الحريريّ

مُضطـرب، وعيناهـا متوهجتان - لتدعوهما لتنـاول الشاي قبل بدء عمليـة حلب الأبقار. كانـت العادة تقضي ببدء عمليـة حلب الأبقار يـوم الأحد قبل تناول الشاي - لكنَّ جـورج تخلّى عنها دون ندم - وكذلـك أراد والـده، وكان والده هـو السيـد، ولا يُناقَش في شؤون المزرعة، مهما اختلفتَ معه.

كان اليـوم الأخير من شهر تشرين أول شديـد الكآبة؛ وحلَّ الليل قبـل أوانه. تناولنا الشاي على ضوء المصباح،بمرح، والوالد يُشيع جو الارتياح على ضوء المصباح الأصفر. ولم يكن شاي يوم الأحد يكتمل مـن دون زائر؛ كانوا دائماً يُعلنون أنه بوجودي يكتمل. وكنتُ أحبّ أنْ أسمعهم يقولون هذا. ابتسمتُ، مبتهجاً بهدوء وأنا أنظر في كوب الشاي بينما الوالد يقول:

«إنَّ وجـود سيريـل معنا مـع شاي يـوم الأحد يبـدو مناسباً، بل طبيعياً».

كان يكـره كثيراً أنْ يقطع حبل مسـرة تناول شاي يوم الأحد على ضـوء المصباح؛ لذلك رفـع بصره مع نظـرة شبه مُناشِـدة عندما دفع جورج كرسيه إلى الخلف وقال: إنه يعتقد أنَّ عليه أنْ يُباشِر العمل.

قـال الوالد بنـبرة صوت معتدلـة، استرضائيـة: «سألحق بك بعد قليل».

المصباح مُعلَّق على جدار الحظيرة، يُضيء بنور خافت الجزء السفلي مـن المبنى، حيث نتـفٌ من القش والغبار الأبيضـ تملأ التجاويف بين

حجارة البناء، حيث قطع اللفت المجعدة تنشر أشعة برتقالية على الجهة الشمالية من الأرضية؛ وكان السقف الشامخ،بما عليه من أعشاش السنونو تحت القرميد، غائباً في عمق الظل، والزوايا يملؤها الظلام، مُختبئة، شبه مختبئة، والقش، والمفرمة، وحاويات التخزين. سطع الضوء على طول الممرات أمام المرابط، يتلألأ على الخطوم الرطبة للماشية، وعلى الكلس الذي يُبيِّض الجدران.

كان جورج يطفر مرحاً؛ لكنني أردتُ أنْ أُبلغه رسالتي. بعد أنْ انتهى من الإطعام، وجلس أخيراً لكي يُباشر عملية الحلب، قلت:

«لقد أخبرتُكَ أنَّ لزلي تمبست كان في منزلنا عندما أتيتُ».

جلس والدلو بين رُكبتيه، ويداه على ضرع البقرة، يوشك أنْ يباشر الحلب. رفع بصره مُستفهماً.

قلت: «إنهما الآن في حُكم المَخطوبَين».

لم يُشِح ببصره بعيداً، لكنه لم يعُد ينظر إليّ. جلس، كمَنْ يُصغي إلى ضجيج يتناهى من مكان بعيد، وعيناه مُثبّتتان. ثم أحنى رأسه، وأسنده إلى خاصرة البقرة، وكأنه سيباشر الحلب. لكنه لم يفعل. التفتت البقرة وتململت بانزعاج. وبدأ باستدرار الحليب، ثم أخذ يحلب بحركة آليّة. راقبتُ حركة يديه تُبطئان حركتهما، مستغرقاً في التفكير – ثم توقفتا.

«أحقاً وافقتْ؟».

أومأتُ برأسي إيجاباً.

«وما رأي والدتك؟».

«إنها مسرورة».

باشر الحلب من جديد. تململت البقرة متضايقة، مُنقّلة قوائمها. رماها بنظرة حانقة، وتابع الحلب. ثم تململت من جديد، وقد أضحت شديدة الاضطراب، وأخذت تؤرجح ذيلها في وجهه.

صرخ «اثبتي!» وضربها على فخذها. وبدا أنها جبُنَتْ كامرأة مضروبة. سبّها، وواصل الحلب. في تلك الليلة لم تُنتج الكثير؛ كانت حروناً جداً؛ تناول المقعد الذي كان يجلس عليه وضربها به بقوة؛ سمعتُ المقعد يضرب عظمة كفلها البارزة. بعد ذلك سكنتْ حركتها، ولكن سرعان ما توقف إدرارها من الحليب.

عندما نهضَ واقفاً، بقيَ ساكناً برهة ثم انتقل إلى البقرة التالية، وحسبتُ أنه سيتكلّم. ولكن في تلك اللحظة جاء الوالد حاملاً دلوه. نظر إلى السقيفة، وضحك بطريقته الناضجة، الممتعة، قال:

«إذن، أنت مُراقب اليوم، يا سيريل - ظننتُ أنكَ ستكون قد حلبت الآن بقرة أو اثنتين لأجلي».

قلت «لا، إنَّ الأحد هو يوم راحة - والحلب يُؤلم اليدين».

قال، بأسلوبه الناضج، «إنكَ فقط في حاجة إلى مزيد من التدريب. وأنت يا جورج، أهذا كل ما حصلتَ عليه من جوليا؟».

«هذا هو».

«همم - قريباً سينضب ضرعها. جوليا، أيتها العجوز، إياكِ أنْ تُصبحي عجفاء».

بعد مغادرته، بدا الهواء أشدّ برودة، وسط سكون السقيفة. وسمعتُ صوته الطلِق وهو يقول من السقيفة التالية: «انتبهي، يا فتاتي»، ثم قرع دفقات الحليب القوية على الدلو.

قال جورج، يبدو همجياً: «إنه يقضي وقتاً ممتعاً». ضحكت. لكنه ظل ينتظر.

قلت: «أراكَ متيقّناً من أنَّ ليتي ستقبله».

أجاب: «أعتقد ذلك، ثم إنها اتخذتْ قرارها بهذا الشأن. لم يكن هاماً - ما أرادتْ - في أعماقها».

قلت: «أنت؟».

«لو لم يكن لُقطة - ومضموناً - لما كانت -».

قلت: «أنت!».

«لقد كانت خائفة - انظر كيف استدارت وابتعدت -».

قلت: «عنك؟».

«أودّ لو أشدّها إليّ حتى تصرخ».

قلت: «كان ينبغي أنْ تفعل هذا من قبل، وتحتفظ بها».

«إنهـا – إنهـا أشبه بامرأة، أو بقطة – تهرع نحو وسائل الراحة – إنها تعقد صفقة رابحة. النساء كلهن تجارٌ».

«لا تُعمِّم، لا يجوز».

«إنها أشبه بعاهرة –».

«هذا ابتذال! أعتقد أنها تحبّه».

أجفل، ونظر إليّ بطريقة غريبة. بدا صبيانياً في شكّه وفي ارتباكه.

«إنها، ماذا –؟».

«تحبّه – بصدق».

تمتم: «كانت ستحبني أكثر»، واستدار ليبدأ الحلب. تركتُه وذهبتُ لأتحدث مع والده. بعد أنْ انتهى هذا الأخير من حلب أربع أبقار، كان لا يزال مصباح جورج يشعّ في السقيفة الأخرى.

ذهبـتُ فوجدته يباشر البقرة الخامسـة، والأخيرة. وبعد أنْ انتهى منها بعـد وقت طويل وضع دلوه أرضاً، وتقـدَّمَ من المسكينة جوليا، وقف يحكّ لهـا ظهرها، ومؤخر رأسها، وخطمهـا، ناظراً في عينها الكبيرة، المُجفلة ومُتمتماً: كانت خائفة؛ هزّت رأسها بقوة، وسدّدتْ ضربة قوية بقرنها إلى خدّه.

قـال بحـزن، وهو يدعك وجهـه، وينظـر إليّ بعينيـه الداكنتين، الجدّيتين: «لا يمكن فهمه».

« لم أكنْ أعلم أبداً أنه لا يمكن فهمه. لم أفكر في ذلك أبداً – إلى أنْ –. ولكن كما تعلم، يا سيريل، هي التي دفعتني».

ضحكتُ من مظهره المُثير بشفقة.

الفصل الثامن

صخب عيد الميلاد

خــلال الجزء الأخــير من شهر تشرين الثاني وبدايــة كانون الأول، لزمــت المنزل، على مــدى بضعة أسابيــع، بسبب الــبرد. وأخيراً حلَّ صقيع نقّى الهــواء وجفّفَ الطين. وفي يوم السبــت الثاني قبل حلول عيــد الميلاد تحوَّل وجــه العالم؛ نهضتْ أشجار باسقــة، فضيّة، رماديّة بلون اللؤلؤ شاحبة في وجه سماء زرقاء باهتة، كأشجار في جنّةٍ نادرة، شاحبــة؛ بــدا كأنَّ الغابة برمّتها قد تحجّرتْ بالرخــام والفضة والثلج؛ وأوراق البهشية وأوراق الوردية الطويلة تأطّرت وتوشّت بزخرفة من خطوط دقيقة مُشجَّرة.

عندمــا حــلَّ الليل صافيــاً، وبرّاقاً، مــع قمرٍ بين الصقيــع، تمرّدتُ على حجرتي، وعلى المنــزل. لم يعُد الضباب والطقس شديد الرطوبة يُحبِّبانني بالتزام المنزل؛ وفي هــذه الليلة حتى لمعان تشكيلات الحديد الصغيرة النائية تكاد لا تُــرى، ذلك أنّ الغيوم المنخفضة زالت، ونجومٌ شاحبة تلألأت من خلف القمر.

كانت ليتي تمكث معي؛ لقد عاد لزلي من جديد إلى لندن. حاولتْ أنْ تتذمَّر بأسلوب أخويّ عندما قلتُ إنني سأخرج.

قلت: «فقط حتى الطاحونة». ثم تلكَّأتْ قليلاً – قالت إنها هي أيضاً ستخرج. أعتقد أني نظرتُ إليها بفضول، لأنها قالت:

«أوه – إذا أردتَ أنْ تخرج وحدك!».

قلتُ، مبتسماً بيني وبين نفسي: «تعالي – تعالي – نعم، تعالي!».

كانت ليتي في مزاجها الحيوي القديم. ركضتْ، واثبة فوق الأماكن الوعرة، ضاحكة، متحدثة مع نفسها بالفرنسية. وصلنا إلى المطحنة. لم ينبح غيب. فتحتُ البوابة الخارجية وتسللنا برفق إلى غرفة غسل الأواني الرحبة والمظلمة، متلصّصين إلى داخل المطبخ من خلال شقٍ في الباب.

كانت الأم جالسة بجوار موقد النار، حيث حوض استحمام مملوء حتى منتصفه بماء مع صابون، وعند قدميها جلس ديفيد، الذي كان قد انتهى تواً من استحمامه، يُدفئ قدميه الكبيرتين الحافيتين بجوار النار. كانت الأم تدعك برفق شَعره الأشقر الجميل حتى أصبح أشبه بسحابة. كانت مولي تمشِّط خصل شعرها البنّي، جالسة بجوار والدها، الذي كان يقرأ على مقعد الموقد بصوت عالٍ صادر عن القلب، وبإحكامٍ طريف. وعلى الطاولة جلستْ إميلي وجورج: كانت تقوم بسرعة بانتقاء كومة من الزبيب الأصفر الصغير، وهو ينتزع، ببطء، مُنكّس الرأس، بذور الزبيب الكبير. وواظب ديفيد على مدّ يده ليلعب مع

قطـة ناعسة – مُقاطِعاً دعـك أمه. لم يكن يُسمع غـير صوت الوالد، المفعـم بالحماس؛ وأخشى أنهـم لم يكونوا كلهـم يُصغـون بانتبآه. قعقعت مزلاج الباب ودخلت.

هتف جورج: «ليتي!».

صرخت إميلي: «سيريل!».

صاح ديفيد: «سيريل، أووريه! ه».

رحَّبـتْ بي ست عيـون بنيّة كبيرة مستديرة مـن الدهشة. انهالوا علـيّ بوابل مـن الأسئلـة، واستمتعنا بذلـك. وأخيراً استقـروا وساد الهدوء من جديد.

قالت ليتي، التي كانت قد خلعت قبعتها ونزعت فروها ومعطفها: «نعم، أنا دخيلة، ولكنكم لا ترونني كثيراً، أليس كذلك؟ قد آتي على فترات، هه؟».

أجابـتْ الأم: «يُسعدنا جـداً أنْ تفعلي. إننا لا نسمع طوال النهار إلا ضجيـج الفرم – لا نشاهد إلا الضبـاب والأوراق الميتة. إنني ممتنة لسماع صوت جديد».

سألتْ إميلي بنعومة: «هل سيريل حقاً أفضل حالاً، يا ليتي؟».

«إنه صبي مُدلّل – أعتقد أنه يبقى مريضاً قليلاً لكي نُدلّله. دعيني أساعدك – دعيني أُقشّر التفاح – نعم، نعم – سأفعل».

اقتربــتْ من الطاولة، وشغلتْ مكاناً جانبياً وأخذت تقشّر التفاح. لم يكن جورج قد كلّمها. فقالت:

«لــن أساعدك – يا جورج، لأنني لا أحبّ أنْ أشعر باللزوجة على أصابعي، ولأنني أحبّ أنْ أراك مُدجّناً جداً».

«إذن سوف تستمتعــين بالمشهد مدة طويلة، ذلك أنَّ هذه الأشياء لا حصر لها».

«يجب أنْ تأكل واحدة الآن ومن ثم – أنا دائماً أفعل».

«إذا أكلتُ واحدة فينبغي أنْ آكل الكثير».

«إذن يمكنك أنْ تعطني خاصتك».

ناولها حفنة من دون أنْ يتكلَّم.

«هــذا كثــير، وأمك تراقبنا. دعني أولاً أنهي هــذه التفاحة. ها قد انتهيت، لم أكسر شريط القشرة!».

نهضتْ واقفة، حاملة شريطاً طويلاً لولبياً من القشر.

«كم مرة يجب أنْ آهزّه، سيدة ساكستون؟».

«ثلاث مرات – لكنها ليست عشيّة عيد كل القديسين».

«لا عليك! انظري! – «وأخذت تهزّ شريط القشور الأخضر بعناية فوق رأسها ثلاث مرات، وتركته يسقط في الثالثة. وثبت القطة عليه، لكنَّ مولي أبعدتها من جديد.

هتفت ليتي، وقد احمرّت خجلاً: «ما هذا؟».

قال الأب: «إنه حرف G»، وغمز ضاحكاً – وسدّدت الأم نظرة حادة إليه.

قال ديفيد بسذاجة: «إنه لا شيء»، ناسياً ارتباكه وهو بالقميص في حضور سيدة. علّقتْ مولي بطريقتها الهادئة:

«قد تكون «hess» – إنْ كنتِ لا تُحسنين الكتابة».

أضفت: «أو حرف L». نظرتْ ليتي إليّ بغطرسة، وكنتُ غاضباً.

سألتْ: «ما رأيكِ، إميلي؟».

قالت إميلي: «كلا، كل ما في الأمر أنكِ ترين الحرف الصحيح».

قال لها جورج: «أخبرينا ما هو الحرف الصحيح؟».

هتفت ليتي: « أنا! مَن يستطيع أنْ ينظر في بذور الزمن؟».

قلتُ: «إنهم أولئك الذين نثروها وراقبوا نموها».

رمتْ بالقشر إلى النار، وضحكت ضحكة قصيرة وتابعت عملها.

مالت السيدة ساكستون نحو ابنتها وقالت بخفوت، لكي لا يسمعها، أنَّ جورج كان ينزع لب الزبيب.

قالت إميلي بحدّة: «جورج! إنكَ لا تترك إلاّ القشرة الخارجية».

هو أيضــاً غضِب. قال بهدوء، وهو يتنــاول حفنة من الثمر الذي كان قد قطفه ووضعها في فمه، «وسوف يُسعده أنْ يملأ بطنه بالقشور التي أكلها الخنزير». انتزعت إميلي الوعاء بعيداً عنه.

قالت: «إنه سيّء جداً!».

قالــت ليتي: «خُذ»، وناولته تفاحة كانت قد قشّرتها. «يمكنك أنْ تأكل تفاحة، أيها الجشع».

أخذها ونظــر إليها. ثم تلألأت ابتسامة خبيثة متكونة حول عينيه - وهو يقول:

«إذا أعطيتني التفاحة، فإلى مَنْ ستُعطين القشر؟».

قالــت: إلى الخنزيــر !، كما لــو أنها لم تفهــم إلا إشارته الأولى إلى الابن المعجزة. وضع التفاحة على الطاولة.

قالت: «ألا تريدها؟».

قــال، بطريقة هزلية، وكأنه يمزح: «أماه، إنها تُعطيني التفاحة كما فعلتْ حواء».

وبسرعــة البرق، انتزعتْ التفاحة منه، وأخفتها داخل ثوبها برهة، وهي تنظر إليه بعينين متسعتين، ومن ثم أطاحتْ بها إلى النار. أخطأتْ، فمال الوالد إلى الأمام والتقطها عن الحاجب الحديدي، قائلاً:

«يمكن للخنازير أيضــاً أنْ يحصلوا عليه. أنت بطيء، يا جورج - عندما تقدم سيدة لك شيئاً لستَ مُضطراً إلى احتقاره».

هتفت، ضاحكة هـذه المرة على هوآها، وبصخب: «A ce qu'il parait»(كما يبدو).

سـألَ الوالد، وهو يضحك بشكل مكشوف: «هل هي تغازل، يا إميلي؟».

قالت إميلي: «إنها تتكلّم بسرعة كبيرة».

كان جـورج مُسترخيـاً على الأريكـة، ويدآه في جيبـيّ بنطلونه القصير.

قالـت ليتي بإشراق: «علينا أنْ ننهي هـذا الزبيب قبل أي شيء، يا إميلي. انظري كم هو حيوان كسول».

قالت إميلي، ساخرة: «إنه يحب راحته».

تابعت ليتي: «إنه مِثال القناعة – قناعة صلبة، صحيّة، رشيقة –». وبينمـا كان جالساً هكـذا، ورأسه مستند إلى نهايـة مقعد الموقد، بلا معطـف، وعنقه الأحمر في حالـة راحة، بدا حقاً أنـه مرتاح بصورة رائعة.

قال ببلادة: «أنا لستُ مستعداً لإزعاج نفسي».

«كلا – أنـت وأنـا – نحن لا نشبه سيريـل. إننا لا نحرق جسدينا بتفكيرنا – أو بمشاعرنا، أليس كذلك؟».

قال، ناظراً إليها بلا مبالاة من تحت رموش عينيه، ورأسه مائل إلى الخلف: «كلنا في الهوا سوا».

واصلتْ ليتي تقشير التفاح ونزع البذور منه - ثم تناولت الزبيب. في تلك الأثناء، كانت إميلي تجعل المنزل يُدوّي وهي تُقطِّع الشحم في وعاءٍ خشبيّ. كان الأطفال قد باتوا مستعدين للنوم. قبّلونا جميعاً قُبلة «النوم الهانئ» - ما عدا جورج. وأخيراً ذهبوا، برفقة أمهم. تركت إميلي سكين التقطيع، وتنهّدتْ لأنَّ ذراعها كانت تؤلمها، كما اعتقدت. استمر التقطيع مدة طويلة، بينما الوالد يقرأ، وليتي تعمل، وجورج جالس بشكل منحرف يُراقب. وعندما بات اللحم المفروم جآهزاً أخيراً أصبحنا جميعاً بلا عمل. ساعدت ليتي في تنظيف المكان - ثم جلستْ - تكلّمت قليلاً بمشقّة - ثم قفزت واقفة وقالت:

«أوه، إنني شديدة الحماس ولا أستطيع أنْ ألزم السكون - أصبح عيد الميلاد وشيكاً - دعونا نعزف شيئاً».

قالت إميلي: «رقصة؟».

«رقصة - رقصة».

فجأةً استقام في جلسته ونهض واقفاً

قال: «هيا بنا!».

رفسَ خفّه ونزعه، غير مُبالٍ بالثقوب التي تملأ الجورب الذي يرتدي، وأبعد الكرسي. مدَّ ذراعه لها - فاستجابت وهي تضحك، وانسابا معاً، يرقصان في أرجاء المطبخ الفسيح المُبلَّط بسرعة مذهلة. كانت خطواتها الرشيقة السريعة تتبع قفزاته؛ كان في المستطاع سماع الربتْ السريع لأطراف أصابع قدميها بوضوح أشدّ من الضرب المكبوت لقدميه اللتين ترتديان الجورب. وانضممنا أنا وإميلي

إليهما. كانــت حركات إميلي بطيئــة بطبيعتها، لكننــا رقصنا بسرعة كبيرة. عندما أجلستُها على الكرسي كنتُ أشعر بالحرّ وأتصبب عرقاً، وكانت تلهثُ. أما همــا فاستمرا في الدوران والرقص، رقصا ورقصا إلى أنْ أُصِبــتُ بالــدوار، إلى أنْ ضحك الوالد وهتف بــأنَّ عليهما أنْ يتوقفــا. لكنَّ جــورج تابع الرقص؛ وانتفضَ شَعرهــا وانحلّ، وانهمر بكتلــة كبــيرة على امتداد ظهرهــا؛ وبدأتْ تجرّ قدميها جــرّاً؛ كان في الإمــكان سمــاع حفيفهما الخفيــف على الأرضيــة؛ كانت تلهث – رأيــتُ شفتيها تتمتمان بشيء له، تناشده أنْ يتوقف؛ كان يضحك بفمٍ مفتــوح، ممسكاً بهــا بإحكام، ورقص معها مرتــين حول المكان وهوَ كذلك. ثم سقــطَ بقوة على الأريكة، وجرّها إلى جواره. كانت عيناه متوهجتــين كجمرتين؛ وكان يلهث بشهقات، وشَعــره مُبللٌ ويلمع. استلقــت علــى الأريكة، وذراعــه يُحيط بها، لا تأتــي بحركة؛ كانت منهكــة تماماً. وانتثر شَعرها جامحاً عبر وجهها. كانت إميلي قلقة؛ قال والدها، مع ظلٍ من قلق:

«لقد بالغتما – إنها حماقة شديدة».

عندمــا استعادت أنفاسها أخيراً وحياتها، نهضتْ واقفة، وبدأتْ، وهي تضحك بطريقة غريبة، ترفع شَعرها. ولجتْ غرفة الأواني حيث توجــد فرشاة للشعــر وأمشاط، وتبعتهــا إميلي حاملــة شمعة. عندما رجعتْ، كانت قد استعــادتْ أناقتها من جديد، مع شحوبٍ حلَّ محل التــورُّد، ومع بقعة عــرَق كبيرة على الحزام الجلــدي حيث كانت يده تُمســك بها، رفع بصره إليها مــن موقعه على الأريكة، مع نظرة انتصار غريبة، مبتسماً.

قالــت: «أيها الحيوان الضخم»، لكنَّ صوتهــا لم يكن خشناً مثل كلماتها. تنهد تنهيداً عميقاً، واعتدل في جلسته، وضحك بهدوء.

قال: «مرة أخرى؟».

«هلاّ رقصتَ معي أنا؟».

«بكل سرور».

«تعالَ إذن – رقصة مينويتْ».

«لا أعرفها».

«ومع ذلك، يجب أنْ ترقصها. هيا».

انتصبَ واقفــاً، وسار نحوها. علَّمته الخطــوات، بل وجرَّته جراً في رقصة الفالس. كان شيئاً سخيفاً جداً. وعندما انتهت أجلسته على مقعده، ثم مسحتْ يديها بمنديــل، لأنَّ قميصه، حيث استقرّت يدآها على كتفيه، كان رطباً، وشكرته.

قال «أتمنى أنْ تكوني استمتعت».

أجابت: «كثيراً جداً».

«لقد جعلتني أبدو أحمق – لا شك في هذا».

«هــل تعتقد أنكَ يمكن أنْ تبدو أحمق؟ في الواقع أنت ساخر! Ca marche. بعبارة أخرى، لقد تحسّنت. لكنها رقصة ممتعة».

نظر إليها، وأسدل جفنيه، و لم يقُل شيئاً.

ضحكتْ. «آه، حسن، البعض خُلِقَ ليرقص المنيويت، والبعض الآخر لـ –».

أجاب: «– لحماقة أقلّ».

«آه – أنت تسميها حماقة لأنكَ لا تُحسن أداءها. من ناحيتي، أنا أحبها – لذلك –».

«وأنا لا أُحسن أداءها؟».

«وهل تُحسن؟ هل تُحسنها؟ أنت لم تُخلق لذلك».

قال، وهو يُشعل غليونه وكأنَّ الحديث لم يُثِر آهتمامه: «يُشبه ما قاله كلارنس ماكفادن»

«نعم – من زمان لم نُغن ذلك!»

أراد كلارنس ماكفادن أنْ يرقص

لكنَّ قدميه لم تتدربا على ذلك...

أتذكّر أننا رقصناها بعد الانتهاء من حصاد أحد محاصيل الذُّرة – أمضينا وقتاً ممتعاً. إنني لم أفكر فيك من قبل كشبيه لكلارنس. أمر غريب جداً. بالمناسبة – ألن تأتي إلى حفلنا في عيد الميلاد؟».

«متى؟ مَنْ سيأتي؟».

«في اليوم السادس والعشرين – أوه! – فقط العجائز – أليس – توم – سميث – فاني – أولئك القوم من هايكلوس».

«وماذا ستفعلين؟».

«سأغني ألغازاً تحزيرية – وأرقص قليلاً – أي شيء تشاء».

«وترقصين البولكا؟».

«والمنيويت أيضاً – والفالس. تعال لنرقص الفاليتا، يا سيريل».

جعلتنــي أرقص الفاليتــا، والمنيويت، والمــازوركا، ورقصت هي بأناقة، ولكن مع قليل من تفاخُر كارمن – بحيويتها وتهورها. وعندما انتهينا، قال الوالد:

«جميــل جداً – جميل جداً، حقاً! إنهما يبــدوان جميلَين، أليسا كذلك، يا جورج؟ ألا ليت الشباب يعود يوماً».

قال جورج، ضاحكاً بمرارة: «مثلي أنا –».

قالــت إميلــي، بطريقتها المُناشِــدة، التي كانت تزعــج ليتي كثيراً: «يجب أنْ تعلّمني إياها – ذات يوم، يا سيريل».

قالت هذه الأخيرة بسرعة: «لِمَ لا تسألينني؟».

«حسن – لكنكِ غالباً لا تأتين إلى هنا».

«أنا هنا الآن. هيا –»، ولوحت بيدها بغطرسة رافضة المحاولة.

كمــا سبق أنْ قلت، كانت ليتي تبلغ حوالي ستة أقدام طولاً، لدنة، لكــنَّ تكوينهــا متماســك، وجميل بالفطــرة؛ في وِقفتهــا وحركاتها

المتناسقة يتبدّى التعاطُف المُرهف لروح الفنان. أما الأخرى فأقصر قامة، وأثقل بكثير. ترى في كل حركاتها فيض طبيعتها الانفعاليّة. كانت ترتعش بالمشاعر؛ يتغلّب عليها الانفعال ويُخرّبها، ذلك أنَّ عقلها ليس قوياً، وليس قلبها خال من الهموم؛ كانت ذات طبيعة كئيبة وضعيفة؛ تعلم أنها بلا حولٍ في خضم مشاعرها، يُضاف إلى عثرات حظها انعدام تام في ثقتها في نفسها.

بينما كانتا ترقصان معاً، أعني ليتي وإميلي، بدا التبايُن الصارخ بينهما. كانت رشاقة أختي وحركتها الشِعرية والجميلة رائعتين؛ أما الأخرى فلا تستطيع أنْ تتحكَّم في حركاتها، بل لا تني تُكرر الخطأ نفسه مراراً. أمسكتْ بيد ليتي بقوة، ورفعتْ بصرها بعينين ملؤهما المهانة والرعب من فشلها المتواصل، والرغبة اليائسة، المرتعشة، والشديدة في النجاح. وإظهارُ ذلك، شرحه، زاد الطين بلَّة. فحالما أخذتْ ترتعش وهي على شفا الحركة، أعمآها الرعب من ألا تتمكن من الرقص كما ينبغي، ولم تكن تعي إلا أنها يجب أنْ تفعل شيئاً - وهي في حالة اضطراب شديد. وأخيراً سكتتْ ليتي عن الكلام، واكتفت بالانسياب معها مع توالي الرقصات كيفما اتفق. هذه الطريقة كانت أكثر نجاحاً. فما دامت إميلي لا تفكّر في حركاتها، كانت تتمتع برشاقة حرة، ضخمة؛ وقد تبدّى الانسياب والإيقاع والسرعة من خلال أحاسيسها وليس من خلال عقلها.

كان وقت العشاء قد حان. هبطتْ الأم فترة وجيزة، وتحدثنا بهدوء، حديثاً لا على التعيين. لم تنطق ليتي بأية كلمة عن خطبتها، ولا بالإيحاء. جعلتْ الأمر يبدو وكأنَّ الأمور باقية على حالها، على الرغم

من أنني واثق من أنها اكتشفتْ أنني أخبرتُ جورج. لقد أصرّتْ على أنْ علينا أنْ نتظآهر بأننا نجهل أمر ارتباطها.

بعد تناول وجبة العشـاء، عندما بتنا جآهزين للمغادرة إلى المنزل، قالت له ليتي:

«بالمناسبة – يجب أنْ ترسل إلينا بعض نبات الدبق من أجل الحفل – عليـه الكثير من الثمـار، كما تعلم. هل هناك الكثير من الثمار على نبات الدبق هذا العام؟».

أجـاب جورج: «لا أعلـم – لم أنظر أبداً. سوف نذهب ونرى – إن شئت».

«ولكن هل ستخرج في هذا الجو البارد؟».

انتعل جزمتـه، وارتدى معطفه، وأحاط عنقـه بلفاع. كان القمر الوليـد قد غـاب. كان الظـلام شديد الحلكـة – وتماوجـت النجوم المائعة. ملأنا الليل الهائل بالمهابة. تشبّثتْ ليتي بذراعي، وتمسّكت بها بإحكام. تقدَّمنا لكي يفتح البوابة. خرجنا إلى الحديقة الأمامية، ومنها عـبر الجسـر المكسو بطبقة مـن الأعشاب، الذي يتدفق مـن تحته سيل بـارد، انتقالاً إلى منحـدر الضفة العريض. لم نتبـيَّن إلا أشجار التفاح العجـوز العجفاء تميـل علينا. أحنينا رؤوسنا لكـي نتجنب الأغصان، وتبعنا جورج. تردَّد برهة، قائلاً:

«فلنرَ – أعتقد أنهما هناك – شجرتا الدبق».

من جديد تبع ذلك صمت.

قال: «نعم، ها هما!».

اقتربنا وأمعنّا النظر في الشجرتين العجوزين. لم نر إلا شجيرة داكنة تحمل ثمار الدبق بين أغصانها. وبدأتْ ليتي تضحك.

قالت: «هل جئتما لكي نُحصي عدد ثمار الدبق؟ إنني حتى لا أرى الثمار».

مالت إلى الأمام ونحو الأعلى لكي تنفذ داخل الظلام؛ هو أيضاً دقق النظر، شاعراً بأنفاسها على وجنته، فاستدار، رأى شحوب وجهها قريباً من وجهه وشعر بالتوهج القاتم لعينيها. ضمّها بين ذراعيه، وطبع على شفتيها قُبلة. ثم، بعد أنْ حرّرها، أشاح بوجهه، قائلاً شيئاً غير متناسق حول ذهابه لإحضار فانوس من أجل الرؤية. ظلّت واقفة وظهرها له، وتظاهرت بأنها تتحسّس بحثاً عن ثمار الدبق. وسرعان ما رأيتُ تأرجُح مصباح الأعاصير في الأسفل.

قلت: «إنه يُحضِر الفانوس».

عندما ارتقى المنحدر، قال، بصوت غريب وخافت:

«الآن نستطيع أنْ نرى».

اقترب، ورفع الفانوس، بحيث أضاء وجهيهما معاً، والأشكال الغريبة لأغصان الأشجار، وكانت شُجيرة الدبق غريبة الشكل لا تحمل إلا القليل من الثمار المتناثرة. وبدل أنْ ينظرا إلى الثمار نظر

كلٌّ منهما في عينيّ الآخر؛ ومضَ جفناه، واحمرّ خجلاً، في الضوء الأصفر للفانوس وبدا متقداً ووسيماً؛ نظر إلى أعلى مُضطرباً وقال: «هناك الكثير من الثمار».

في حقيقة الأمر لم يكن هناك إلا أقلّ القليل.

فرفعت نظرها، وتمتمت موافقة. بدا كأنَّ الضوء يجمعهما في كون واحد، في عالم آخر منفصل عن الليل الذي كنتُ أقف فيه. رفع يده وقصم غُصيناً من نبات الدبق، يحمل ثماراً، وقدّمه لها. ومن جديد تبادلت عيونهما النظرات. دسّت الدبق بين تضاعيف ثوبها الفرو، ونظرت إلى صدرها. بقيا ساكنَين، في مركز الضوء، والفانوس مرفوع؛ كان اللفاع الأحمر والأسود الذي يُحيط بارتخاء عنقه يُضفي عليه مظهراً فخماً، نبيلاً. أخفضَ الفانوس وقال، متظآهراً بأنه يتكلّم بنبرة طبيعية:

«نعم – هناك الكثير منها هذا العام».

أجابت، مُشيحة بوجهها بعيداً وكاسرة السِّحر أخيراً: «سوف تعطني بعضاً منها».

«متى سأقطعها؟» – مشى بخطى واسعة بجوارها، ملوحاً بالفانوس، ونحن نهبط أسفل الضفة ونتجه صوب المنزل. وصل حتى الجداول دون أنْ ينطق كلمة أخرى. ثم ودّعنا متمنياً لنا ليلة هانئة. عندما أنار لها الطريق على الدرج الحجري لم تتناول ذراعي ونحن نسير إلى المنزل.

علـى مدى الأسبوعَـين التاليين كنا منهمكـين في الاستعداد لعيد الميـلاد، نبحث في الغابـة على نبات البهشية الأشـد حُمرة، ونقطف أينع أنواع اللبلاب عن الأشجار. كان يتنآهى إلينا من المزارع المجاورة زعيق الخنازير القاسي، ولاحقـاً، في الأمسيات، تنبعث رائحة فطائر لحم الخنزير. وكان يصل إلى أسماعنا من مكان بعيد على الطريق العامة وقع قوائم الجياد الحادّ مُسرعة تحمل معدات عيد الميلاد.

هنـاك كانت عربات الباعة الجوالين تندفـع مارة متجهة إلى آهالي القـرى الذين يتوقعون وصولهـا، مترعة بكميـات ضخمة من نبات الدبق الخفيف الأجنبي، مُبهجة.بما تحمل من برتقال يطل من الصناديق، وتفـاح قرمزي مُقحَـم، وفوضى عارمة من الدواجـن الميتة، الباردة. كان الباعـة الجوالون يُلوحـون بسياطهم بانتصار، والجيـاد الصغيرة تقعقع بشجاعة تحت أشجار القيقب، منطلقة نحو عيد الميلاد.

مـع اقتراب مساء يوم الرابع والعشريـن، وبينما الغبار يتصاعد من تحت عربة خشب البندق، كنتُ أسير مع ليتي. كانت فوضى الأغصان فـوق الرؤوس تأسر بشباكهـا سماءً حمراء قانية. وجـذوع الأشجار تزداد قتامة – حتى تكاد تغدو زرقاء اللون.

في أثناء سيرنا على درب العربات قابلنا صبيين، في الخامسة عشرة أو السادسـة عشرة من العمر، ملابسهمـا مُرقّعة بقطع كبيرة من الفرو القطنـيَ الخشن؛ ويُحيطان عنقيهما بلفاعـين مُنقَّطين، وملآ جيوبهما بزجاجـات قصديرية مملـوءة بالشاي، وبالمقابِض البيضـاء لحقيبتيهما الخفيفتين المُنقّطتين.

قالت ليتي: «عجباً! أذآهبان إلى العمل في ليلة عيد الميلاد؟».

قال الأكبر سناً: «هذا واضح، أليس كذلك؟».

«ومتى سترجعان؟».

«عند حوالي الساعة الثانية والنصف».

«من صباح يوم الميلاد!».

قلت: «سوف تتمكنان من تقصّي الملائكة والنجم».

قال الأصغر سناً، وهو يضحك: «سوف يعتقدان أننا مجرد صبيين صغيرين قذرين».

أضاف الأكبر سناً: «سوف تظهر وتختفي قبل أنْ نصل إلى القمة – ولن تغامر بالهبوط إلى المنخفض».

قال الآخر: «إذا حدث هذا، يُستحسن تجاوزها، سوف أعطيها جزءاً من فطيرتي».

قال الأكبر سناً متجهماً: «هيا بنا».

تابعا طريقهما، يخوضان في الوحل بجزمتيهما الثقيلتين.

هتفتُ وراءهما: «عيد ميلاد مجيد!».

أجاب الأكبر سناً: «في الصباح».

قال الأصغر سناً: «وأنتما أيضاً»، وبدأ يغني مع نبرة تبجُّح:

«في الحقول يقيمون مع قطعانهم.

يرقدون على الأرض المُبلّلة بالندى –».

قالت ليتي: «تصور، هذان الصبيان يعملان عندي!».

كنا جميعاً ذاهبين إلى الحفل المُقام في هايكلوز. وتصادفَ أنْ ولجتُ المطبخ عند حوالي الساعة السابعة والنصف. كان ضوء المصباح قد أُخفِض، وريبيكا جالسة في الظل. وعلى الطاولة، تحت ضوء المصباح، رأيتُ آنية زهور من الزجاج تضم خمساً أو ستاً من ورود عيد الميلاد فائقة الجمال.

قلت: «مرحباً، بيكا، مَنْ أرسل لك هذه؟».

أجابت ريبيكا من أعماق الظل، مع لمسة دموع في صوتها: «إنها لم تُرسَل».

«كيف! أنا لم أرها قط في الحديقة».

«ربما لا. لكنني راقبتها على مدى الأسابيع الثلاثة الأخيرة، واحتفظتُ بها تحت غطاء من الزجاج».

«من أجل عيد الميلاد؟ ما أجملها. حسبتُ أنَّ أحدهم أرسلها إليك».

أجابت ريبيكا: «وكأنَّ أحداً سبق وأرسل لي، أو سيرسل لي».

«ولِمَ لا – ما الأمر؟».

«لا شيء. مَنْ أكون أنا، حتى ينتابني أي أمر! أنا لا أحد – لم أكنْ، ولن أكون. وأنا أتقدّم في السن أيضاً».

«أنتِ منزعجة، يا بيكي».

«ماذا يهم إنْ كنتُ كذلك؟ ما وزن مشاعري؟ إنها حزمة من الأزهار التافهة كالتي يقصّها البستاني دون أنْ يخطر في باله أنني أفضّلها كالتي آهتممتُ بها خلال تلك الأسابيع الثلاثة. يمكنني أنْ ألزم المنزل لأكون في صحبة أزهاري – لا أحد يريدها».

تذكرتُ أنَّ ليتي كانت تتزين بأزهار من البيت الزجاجي؛ كانت متحمسة ومبتهجة لفكرة إقامة حفل في هايكلوز؛ أكاد أتخيّل جوابها السريع: «أوه كلا شكراً لك يا ريبيكا. لدي رذاذ عطر أُرسِل إليّ –».

قلت: «لا عليك، بيكي. إنها متحمسة هذه الليلة».

«وأنا سريعة النسيان».

«كلنا كذلك، يا بيكي – tant mieux (هكذا أفضل بكثير)».

في هايكلوز أثارت ليتي بعض الحركة. ومن بين أجراس الريف الصغيرة، كانت هي بلا جدال الأبرز. كانت متلألئة، تتحرك وكأنها تمثل على المسرح. كان لزلي منتشياً، مستعرضاً إعجابه، فخوراً لأنه

شديـد الافتتـان. وعندما تقابلا تبـادلا النظرات، كلآهمـا منتصران، ومتحمســان، يرمي كل منهمـا الآخر بنظرات خبيثـة ملتهبة. كانت ليتي تستمتع بعرضها العام أيّما استمتاع؛ إلى درجة أشعلتْ حباً مشبوباً لـه. وكان تجاوبه رائعاً. في تلك الأثنـاء، جلست سيدة المنزل صاحبة الشـرف جانباً، متباهية وضخمة، مع أمي تستشير سيادتها حول المرأة الضئيلـة المحبوبة المذكورة آنفاً، التـي ابتسمتْ ساخرة وراقبت ليتي. كانت حفلة رائعة؛ كانت متألقة، كانت مُبهرة.

رقصــتُ مع عدد من السيدات، وشرّفنــي أنْ أُقبّل كلاًّ منهن تحت ثمرة الدبق – ولكن اثنتين منهن بادرتا بتقبيلي أولاً، وقد تم ذلك بأشد مظاهر التهذيب الصحيح.

قالت مس ووكي بخبث: «أنت ذئب. أعتقد أنك ذئب –rodeur des femmes (زيـر نسـاء) حقيقي – وتبدو وديعـاً كالحمل أيضاً – ظريف».

«حتى ثغائي يُذكّرك بحيوان ميري الأليف».

«لكنكَ لست حيواني الأليف – على ى الأقلّ – من حُسن حظك أنَّ حبيبي غولود لا يسمعك –».

قلت: «إنْ كان ضخم الجثة –».

«هـو كذلك حقـاً؛ ضخم. أنا خطيبتـه، بصـورة أو بأخرى. لا يعرف المرء كيف يفعل هذه الأشياء، أليس كذلك؟».

قلت: «لم يكن في وسعي أنْ أتكلّم عن خبرة».

«يا لقسوتك! أعتقد أنني شعرت بجو عيد الميلاد، وكنتُ توّاً أقرأ لميترلنك – إنه ضخم حقاً».

سألت: «مَنْ؟».

«أوه – أقصد هو، طبعاً. خطيبي غولود. لا حيلة لي في الإعجاب بالرجال المائلين قليلاً إلى الضخامة. من سوء الحظ أنهم لا يستطيعون أنْ يرقصوا».

قلت: «ربما من حسن الحظ».

«أرى أنك تكرهه. من المؤسف أنني لم أفكّر في سؤاله إنْ كان قد رقص – قبل –».

«أكان ذلك ترك أثراً بليغاً عليك؟».

«حسن – في الواقع – إنَّ المرأة تشعر بالحرية أكثر إذا رقصت مع رجال مهذبين حقاً ليست متزوجة منهم».

«ولِمَ لا؟».

«أوه – لأنه لا يمكنها أنْ تتزوج إلا واحداً –».

«طبعاً».

«ها هو – إنه آتٍ من أجلي! أوه، فرانك، إنك تتركني عُرضة للرحمات الرقيقة للعالم الشاسع. حسبتُ أنك نسيتني، يا عزيزي».

أجاب غولود، البدين الضخم صاحب الوجه الطفولي الأملس: «هـذا ما كنتُ أقوله لنفسي». ابتسم ابتسامة عريضة، ولا أحد أدرك القصد مما قال.

رجعنا بالسيارة إلى المنزل في صباح يوم الميلاد الباكر. ليتي، المتلفعة بعباءتها طلباً للدفء، كانت قد تمشّت قليلاً مع حبيبها وسط الشجيرات. كانت لا تزال متألقة، مُشرقة في حركاتها. وكاد هو، عندما ألقى عليها تحية الوداع، أنْ يكون جميلاً في كياسته ونبرة صوته المخفضة المنغَّمة. كدتُ أنا نفسي أحبه. كانت تبدي ولعاً شديداً به. وعندما اقتربنا من البوابة حيث يتفرَّع الدرب الخاص عن الطريق العامة، سمعنا جون يقول: «شكراً لكم» - وعندما نظرنا أبعد رأينا أصحابنا الفتية عائدين من المنجم. بدا شكلهم شديد الغرابة في الليل الحالك عندما وقع عليهم ضوء مصباح الشارع، مُظهراً إيآهم كالجن، ومبقعين بندف الثلج. هتفوا لنا بحبور يتمنون عيداً سعيداً، فمالت ليتي ولوحت لهم بيدها، وهتفوا: «هوووراى!» ومع هتافهم حلّ عيد الميلاد.

الفصل التاسع

ليتي تبلغ سن الرشد

في اليــوم التــالي ليــوم الميلاد بلغت ليتــي سن الحاديــة والعشرين. أيقظتنــي في الصباح وهي تصرخ في رعب. هنــاك هطل غزيز للثلج، مُضاعِفــاً ضياء الصباح البارد، مُذهلاً الشفــق البطيء. كانت البحيرة سوداء اللون كالعينين المفتوحتين لجثّة؛ والغابة كانت سوداء على وجه جثّــة. قفز أرنب، متخبطاً من شدّة الذعر؛ واستقرت طيور صغيرة في العمق، وطــارت مُثيرة رفيفاً مُغبراً، شديدة الخوف من خِداع الأرض العالمي. كان الثلج بعمق ثماني عشرة بوصة، وتراكم في بعض الأماكن.

قالت ليتي متأسية: «لن يأتوا أبداً!»، ذلك أنه كان يوم الحفلة التي ستُقيمها.

قلت: «في كل الأحوال – لزلي سيأتي».

هتفت: «شخص واحد!».

قلت: «هذا الواحد هــو كل شيء، أليس كذلك؟ وجورج سيأتي

حتمـاً فأنـا لم أره منذ أسبوعـين. يقولون إنه لم يظهـر في أية ليلة منذ أسبوعين».

«ولِمَ لا؟».

«لا أعلم».

ذهبـت ليتـي لتسأل ريبيـكا للمرة الخمسين إنْ كانـت تظن أنهم سيأتون. على أية حال، جاء عون المرأة الممتاز.

لم يكـن قـد مرّ أكثر مـن عشر دقائـق عندما وصل لـزلي، متورد الوجـه، مُشرق العينـين، يضحك كطفل. سُمِـع في الشرفة الكثير من وطء الأقـدام، وارتطام كساء الساقين بعصـاه، وبكاء ليتي يتنآهى من المطبخ لـدى عِلمها بالشخص الذي وصـل، وأجوبة مرحة، بصوت عـال تصدر عن الشرفة تطلب منها أنْ تأتي وترى. فأتت، ورحبت به بفيض من المشاعر.

قال وهو يُقبّلها: «ها، امرأتي الصغيرة! إنني أُعلنك امرأة. انظري إلى نفسـك في الكأس الآن -»، ففعلتْ - ثـم سألها ضاحكاً: «ماذا ترين؟».

«أراك أنت - في قمة المرح، تنظر إليّ».

«آه ولكـن انظـري إلى نفسك. ها أنت! إننـي أعلن أنكِ تخافين عينيك أكثر من خوفك من عينيّ، أليس كذلك؟».

قالت: «أنا كذلك»، وقبّلها بنشوة.

قال: «إنه عيد مولدك».

أجابت: «أعلم».

«وأنا أعلم. وقد وعدتني بشيء».

سألتْ: «ما هو؟».

«هـا هو – انظـري إنْ كان يُعجبـك «– وأعطآهـا علبة صغيرة. فتحتها، وزلقتْ الخاتم غريزياً في إصبعها. قام بحركة تعبِّر عن السرور. رفعت مظرها، وضحكت منه حتى انقطعت أنفاسها.

قال: «والآن!»، بنبرة ختاميّة.

«آه!» هتفت بصوت عال، منتش.

ضمّها بين ذراعيه.

بعد قليل، عندما عادا إلى الحديث العقلاني، قالت:

«أتعتقد أنَّهم سيأتون إلى حفلتي؟».

«آمل ألا يفعلوا – بحق الله!».

«ولكن – أوه، نعم! لقد أنجزنا كل الترتيبات».

«ما آهمية هذا! عشرة آلاف شخص حاضر هنا اليوم –».

«ليسـوا عشرة آلاف – إنهم فقط خمسة أشخاص أو ستة. سأُجن إذا لم يحضروا».

«أتريدينهم؟».

«لقد طلبنا منهم الحضور – وكل الاستعدادات تمت – ولكن أرغب حقاً في أنْ نحتفل معاً ذات يوم».

«ولكن اليوم – اللعنة على كل شيء، يا ليتي!».

«لكنني أريد حفلتي اليوم. ألا تعتقد أنهم سيأتون؟».

«لن يأتوا إذا كان لديهم أي حس!».

«يمكنك أنْ تساعدني –»، وتجهمت.

«حسن، سأفعل –! وأنت مُصممة على ملء المنزل بالناس اليوم؟».

«أنت تعلم أننا نصبو إلى ذلك – إلى حفلتي. على أية حال – أنا متيقنة من أنَّ توم سميث سيأتي – وأنا شبه متيقنة من أنَّ إميلي ساكستون ستأتي».

عضَّ على شاربه غيظاً، وأخيراً قال:

«إذن يُستحسن أنْ أُرسل جون لإبلاغ الجماعة».

«ألن يُسبب ذلك إزعاجاً؟».

«لا إزعاج على الإطلاق».

قالت، وهي تُدير الخاتم حول إصبعها: «أتعلم، إنَّ هذا يجعلني

أشعـر وكأنني أضعه حول إصبعي من أجل تذكُّر أمرٍ ما. إنه بصورة ما يُلازم وعيي طوال الوقت».

قال: «على أية حال، أنا لدي أنتِ».

بعـد العشاء، عندما أصبحنا وحدنا، جلسـتْ ليتي على الطاولة، تعبث بخاتمها بعصبية.

قالت بشيء من الرثاء: «إنه جميل، أليس كذلك يا أمي؟».

أجابت أمي: «نعم، جميل جداً. لطالما أُعجِبتُ بلزلي».

«لكنني أشعر به ثقيلاً – إنه يُثير أعصابي. أريد أنْ أخلعه».

«أنتِ تشبهينني، إنني أبداً لم أحب لبس الخواتم. لقد كرهت خاتم زواجي طوال شهور».

«أحقاً، يا أمي؟».

«لقد تمنيت أنْ أخلعه وأرميه بعيداً. ولكن بعد فترة قصيرة تعوّدتُ عليه».

«أنا سعيدة لأنَّ هذا ليس خاتم زواج».

قلت: «لزلي يقول إنه يُعادله».

«آه، حسـن، نعم! ولكن مع ذلك الأمر مختلف –»، وتضع حجر الخـاتم الكريم أسفل إصبعها، ونظـرتْ إلى الخاتم الذهبي العادي – ثم أعادته بسرعة إلى موضعه، قائلة:

«يسعدني أنه ليس كذلك – حتى الآن. إنني أبدأ بالشعور بأنني امرأة، أمٌّ صغيرة – أشعر اليوم بأنني أصبحت راشدة».

فجأة نهضتْ أمي واقفة، وتقدّمت لتقبّل ليتي بحرارة.

قالت: «دعوني أقبّل ابنتي قبلة الوداع»، وكان صوتها مخنوقاً بالدموع. تعلّقت ليتي بأمي، وأخذت تجهش قليلاً بالبكاء، وهي تغوص في حضنها. ثم رفعت وجهها الذي كان مُخضلاً بالدموع، وقبّلت أمي وهي تغمغم:

«كلا، يا أمي – كلا – كـ –!».

عند حوالي الساعة الثالثة وصلت العربة مع لزلي وميري. كنتُ مع ليتي في الطابق العلوي، وسمعتُ وقع خطى ميري ترتقي إلى أختي.

«أوه، ليتي، إنه شديد الحماس، لا تتصورين مقدارها. لقد أخذني معه لكي نشتريه – دعيني أرآه في يدك. أعتقد أنه غاية في الجمال. هيا، دعيني أساعدك في تصفيف شعرك – إنه كتلة من اللفافات صغيرة – سوف يبدو رائعاً. إنَّ لديك شعراً جميلاً حقاً – إنه ينبض بالحياة – من المؤسف أنْ تلويه وتلفّيه هكذا. ليت شعري أطول قليلاً – على الرغم من أنه حقاً أفضل لهذه الصرعة – ألا يعجبك؟ – إنه «شيك» جداً – أعتقد أنَّ هذه الانتفاخات ساحرة – إنه طويل بالنسبة إليها – لكنه سيبدو خلاباً. حقاً، إنَّ عينيّ، وحاجبيّ، ورموشي هي أفضل قسمات وجهي، ألا تعتقدين؟».

واصلت ميري، ذلك المخلوق الصغير الممتع، والفاتن، ثرثرتها.

وهبطتُ إلى الطابق السفلي.

عندما دخلتُ الغرفة أجفل لزلي، ولكن عندما وجد أنني وحدي، عاد يميل إلى الأمام، مُريحاً ذراعيه على رُكبتيه، ومتأملاً النار.

سأل: «ما الذي تفعل بحق الشيطان؟».

«ترتدي ملابسها».

«إذن سنبقى منتظرين. أليس المدعوون القادمون مزعجين جداً؟».

«في الواقع، في المعتاد نقضي وقتاً ممتعاً».

«أوه – لا بأس بالأمر كله – أنت وأنا لسنا متفقين».

قلت وأنا أضحك: «هذا صحيح».

«يـا الله، يا سيريل، أنت لا تعـرف معنى أنْ تكون عاشقاً. لم يكن يخطر في بالي – ما كنتُ لأصدق أنني سأكون هكذا. عندما لا يكون في أعلى دمك، يكون في قعره: – «الفتاة، الفتاة».

وحدّق إلى النار.

«كأنه يضغطك، يضغط عليك. لا يتركك وشأنك لحظة واحدة».

من جديد يغرق في التأمّل.

«ثم، فجأة، تتذكر كيف قبّلتكَ، وإذا بدمك يلتهب كالنار».

يتفكّر من جديد برهة - أو بالأحرى، يبدو أنه يتغلب على أحاسيسه بعنف.

قال: «أتعلم، لا أعتقد أنها تحبني كما أحبها».

قلت: «أتريد منها أنْ تحبك؟».

«لا أعلم. ربما لا - ولكن - مع ذلك لا أعتقد أنها تكنّ لي -».

هنا أشعل سيجارة ليُهدِّئ من غليان مشاعره، وساد الصمت فترة. ثم هبطت الفتاتان. سمعنا ثرثرتهما الخفيفة. ودخلتْ ليتي الغرفة. فقفز واقفاً وأخذ يستعرضها. كانت ترتدي ثوباً من الحرير الناعم بلون القشدة؛ وكان عنقها عارياً تماماً؛ وشعرها، كما وعدت ميري، مذهلاً؛ كانت تضحك بعصبية. أصبحت دافئة، كزهرة تحت أشعة الشمس، وسط توهُّج إعجابه. تقدَّم وقبّلها.

قال: «أنت رائعة!».

اكتفتْ بالضحك كجواب. ابتعد معها إلى الأريكة الكبيرة، وجعلها تجلس إلى جواره. كانت هي متسآهلة وهو متوهج. أمسك بيدها ونظر إليها، ثم إلى خاتمه الذي تضعه.

غمغم: «يبدو جميلاً!».

أجابت: «أي شيء كان سيبدو كذلك».

«ماذا تعنين - حتى الياقوت الأزرق والألماس - لأنني لا أعلم؟».

«ولا أنا. الأزرق يوحي بالأمل، لأنَّ سبيرانزا[٢٥] في قصيدة «Fairy Queen» كانت تضع تاجاً أزرق – والألماس يوحي – بالصفاء النقي لطبيعتي».

«تعنين، تلألؤه وصلابته – أنت سيدة صغيرة صعبة. ولكن لِمَ الأمل؟».

«لمَ؟ – بدون أي سبب، كغالبية الأشياء. كلا، هذا غير صحيح. الأملَ[٢٦]! أوه – إنها معصوبة العينين – تحضن قيثارة سخيفة بلا أوتار. أتساءل لِمَ لم ترمِي قيثارتها من طرف القفاز، وترفع المنديل عن عينيها، وتُلقي نظرة حولها! ولكن طبعاً هي امرأة – ومرتبطة برجل. أتعلمْ أنني أؤمن بأنَّ غالبية النساء يستطعن أنْ يختلسن النظر أسفل أنوفهن من تحت منديل الأمل الذي عصبن به عيونهن. يمكنهن أنْ ينزعن القناع كله – لكنهن لا يفعلن، أولائي العزيزات».

«لا أصدِّق أنك تعرفين عما تتكلمين، وأنا واثق من هذا. إنَّ الياقوت الأزرق ذكّرني بعينيك – ثم – أليس «الأزرق يُحافظ على الإيمان»؟ أنا أذكر شيئاً عنه».

قالت، وهي تخلع الخاتم: «خُذ، يجب أنْ تضعه في إصبعك أنت، أيها المُخلِص، لكي تتذكرني دائماً».

---

٢٥ – اسلبرانزا: بالإسبانية يعني الأمل.

٢٦ – الأمل باللغة التصويرية يُشار إليه بالإنكليزية على أنه أنثى كما سيبدو في الأسطر التالية. – المترجم

«احتفظـي به، احتفظي به. إنــه يُمسِك بك أسرع من تلك الحسناء المربوطة إلى شجرة في لوحة ميليه - أعتقد أنها لميليه».

جلست تهتز من فرط الضحك.

«يـا لها من مقارنة! مَنْ سيكون الفارسـ الشجاع الذي سينقذني - سِراً - من الخلف؟».

أجاب: «آه، لا يهم. أنت لا تحتاجين إلى إنقاذ، أليس كذلك؟».

أجابت، لتغيظه: «ليس الآن».

استمـرا في الحديـث مـدة نصـف ساعـة، مُعبرَين عـن نفسيهما بالنظرات والإيماءات السريعة، وتقارُب حار حميم. خرجت النبرات الساخرة من صوت ليتي، وتبادلا الغزل.

جرّتني ميري بعيداً إلى غرفة الطعام، لتركهما وحدهما.

×××

إنَّ ميري خادمة صغيرة فاتنة ظهورها يعني الترتيب، ووجهها ينم عـن طيبة صغيرة واثقة. شعرها فاحم، ويمتـد إلى أسفل عنقها بلفائف متموجـة. لا تتكلَّف اللجـوء إلى الموضة في تسريحه، وفي العموم هي متأخرة عن ركب الموضة في الملبس. والحق هي قيّمة أشبه ببرعم نصف متفتّح، مُحافِظة، مملوءة بالآداب الاجتماعية، وبالتسامُح الرقيق. والآن تبتسـم لي بابتهاج دافـئ للعلاقـة الرومانسية التي أسبغـت عليها تواً بركتهـا، لكنَّ احتشامها لا يسمح بقول أي شـيء. تلفّتت حولها في الغرفة، وأطلّت من النافذة، وعلّقت:

«لطالما أحببت وودسايد، إنها مريحة – فيها شيء – أوه – مُطمئن – حقاً – إنه يُريحني – لقد كنتُ أقرأ مؤلفات مكسيم غوركي».

قلت: «لا ينبغي أنْ تفعلي».

«البابا يقرأها – لكنني لا أحبها – لن أقرأ المزيد منها. أنا أحب وودسايد – إنها تجعلك تشعر – بأنك حقاً في بيتك – إنها تُهدِّئ الأعصاب كما تفعل غابة عتيقة. تبدو مناسبة – الحياة لائقة هنا – وليست مزعجة –».

قلت: «فقط لحم صحيّ حيّ».

«كلا، ليس هذا ما أقصد، لأنَّ الإنسان يشعر – أوه، وكأنَّ العالم عجوز وطيب، وليس عجوزاً وشريراً».

قلت: «إنه شاب وجامح وشرير».

«كلا – ولكن هنا، أنت، ولوتي، ولزلي، وأنا – إنه ممتع جداً بالنسبة إلينا، ويبدو طبيعياً جداً وطيباً. إنَّ وودسايد مكان عجوز جداً، وعذب جداً ورائق – إنه مُطمئن».

قلت: «نعم، نحن فقط نعيش، لا شيء غير عادي، لا شيء قاس ومتطرف – فقط عادي – كيمامة في برج اليمام».

«أوه! – يمام! – إنه شديد – شديد التهافُت».

«إنه طائر صغير لطيف – اليمام. أنت تشبه أحدها، تُحيط عنقك بعصابة سوداء. أنت يمامة سلحفاة، وليتي حمامة الغابة».

«أليست ليتي رائعة؟ ما أشد حيويتها – ما أشد براعتها! ليت لي قوتها – إنها تسير قُدُماً بإباء على الطريق الصحيحة – أعتقد أنها ممتازة».

ضحكت وأنا أرآها شديدة الحماس في التعبير عن إعجابها بأختي. إنَّ ميري روح صغيرة جديّة ورقيقة. وذهبتْ إلى النافذة. قبّلتُها، وقطفتُ ثمرتين من نبات الدبق. صنعتُ لها عشاً في الستائر الثقيلة، فجلست فيه تطل على الثلج.

قالت بتأمُّل: «منظر جميل. لا بدّ أنَّ الذين يكتبون مثل مكسيم غوركي هم مرضى».

قلت: «إنهم يعيشون في المدينة».

«نعم – ولكن انظر إلى أدب هاردي – إنَّ الحياة فيه تبدو فظيعة – وهي ليست هكذا، أليس كذلك؟».

«إذا لم تشعري بها، فليست كذلك – إذا لم ترِها. أنا عن نفسي لا أرآها».

«إنها جميلة وكأنها الجنة».

«لعلها جنّة شعب الإسكيمو. ونحن الملائكة، هه؟ وأنا الملاك الأكبر».

«كلا، أنت رجل تافه، عابث. هل هذا –؟ ما هذا الشيء الذي يتحرك بين الأشجار؟».

قلت «أحدهم قادم».

XXX

كان رجلاً ضخم الجثة، صلباً، يقترب بفضول من خلال الشجيرات.

هتفت ميري «أليست مشيته غريبة؟». وقد كانت كذلك. عندما أصبح قريباً بالقدر الكافي وجدنا أنه ينتعل حذاءً هندياً مُخصصاً للسير على الثلج. صاءت[٢٧] ميري، وضحكتْ، وصاءت، وعادت لتختبئ من جديد بين تضاعيف الستائر وهي تضحك. كان وجهه شديد الاحمرار، وبدا أنَّه يشعر بحرارة شديدة، وهو يجرّ الشِراك الضخمة، ويمشي بخطى ثقيلة على الثلج؛ كان جسمه يتدحرج بصورة هزلية جداً. ذهبتُ إلى الباب وأدخلته، بينما وقفت ميري تداعب وجهها بيديها لتُزيل آثار ضحكها.

قبض على يدي بقفاز كبير جداً وثقيل، الذي مسح به بعد ذلك العرق عن جبينه.

قال: «حسن، بيردسال، أيها العجوز، كيف الأحوال؟ يا الله، إنني لا أشعر بالحر! لكنها فكرة جيدة – «وعرضَ عليّ حذاءه المُخصص للثلج.

«ممتاز! أليس كذلك؟ لقد أتيت كهندي شجاع –» شدّد على حرف الجيم ومطّ الألف بشكل هائل – «شججججاااع».

---

٢٧ – صاءت: أصدرت صوتاً رفيعاً وحاداً.

تابع «لكنني لم أقو على مقاومته».

«أتذكر الحفل الذي أقمته في العام الفائت - وجاءت الفتيات؟ على درب الحرب[٢٨]، هه؟». زمَّ شفتيه الطفوليتين، وحكَّ ذقنه البدينة.

بعد أنْ خلع معطفه، والدثار الذي يحمي ياقته، بالإضافة إلى نفض رقائق الثلج، الذي اعتبرته ريبيكا آهانة موجهة إليها - أجلسَ جسمه البدين، الحارّ على أحد الكراسي، وتابع بنزع واقي حذائه الطويل الرقبة. ثم انتعل خِفّ الرقص، وقُدته إلى الطابق العِلوي.

تابع: «يا إلهي، كنتُ أنطلق هنا بخفّة كطائر سنونو!» - ونظرتُ إلى بدانته.

«لم أقابل أحداً، على الرغم من أنه كانت لديهم جرّافة ثلج على الطريق. لقد رأيتُ آثار دواليب عربة على درب العربات، فخمّنتُ أنَّ آل تمبست حاضرون. فحشرت ليتي أنفها داخل مخلاة تمبست - ولم تترك المجال لأحد، ذلك - أنَّ بعض النسوة كان مذاقهن كمذاق الرَّمْ - لكنهن يُشبهن الغربان، ويلجأن إلى التمويه - لا ألومهن - كل ما في الأمر أنهن لا يترك مجالاً لغيرهم. أعتقد أنَّ مادي هيويت قادمة؟».

غامرت بقول شيء عن الثلج.

---

٢٨ - درب الحرب: الدرب التي كان الهنود يسلكونها عندما يمضون إلى القتال. - المترجم

قال: «ستأتي، حتى لو كان متراكماً حتى العنق. لقد رأتني أمها ماراً».

تابع الآهتمام بمظهره. وأخبرتُه أنَّ لزلي أرسل العربة لإحضار أليس ومادي. فصفع ساقيه البدينتين، وهتف:

«مس غول – أشمّ رائحة كبريت! يا بيرسال، يا صديقي العزيز، أرى المرح قادماً. مادي، والعاصفة الصغيرة الحييّة، و –»، وهمس بيتاً من كلمات أغنية في مسرحية غنائية بصوت منخفض.

خلال ذلك كله كان قد قام بترتيب صدرته ذات لونيّ الكريما والأرجواني:

«فتاة صغيرة قرنفلية اللون صنعته لأجلي – ثمرة خوخ صغيرة ناضجة حقاً – مُقطعة بصورة أو بأخرى» – رتّبَ ربطة عنقه – وأخرج خاتمين، واحد كبير ومنقوش، والآخر رائع مُرصّع بالألماس، ووضعهما في إصبعيه الأبيضين السمينين؛ ومرّر أصابعه برقّة خلال شَعره، الذي تموج نحو الخلف بطريقة تدل على قدر من قلة الذوق – وأصبح على ما يرام وبلا حيوية؛ وأبرز علبة تحتوي قرنفلاً بلون الكريم مع لون أخضر مناسب؛ وضمّخ نفسه بمنديل من حرير، ونفضَ الغبار عن حذائه ذي الجلد المدبوغ؛ وأخيراً، زمّ شفتيه واستعرض نفسه بافتتان ضافٍ في المرآة. ثم أصبح مستعداً للتقدُّم.

«ما كان يمكن أنْ أنسى هذا اليوم يا ليتي. ما كنتُ لأدع بلوتو العجوز والمجموعة كلها تُثنيني عن المجيء. لقد جئت على جناح

السرعـة إلى هنـا «كال شجحجحجـااع «على متن حذاء الثلـج كهياواثا القادمة إلى مينيهآها[٢٩]».

قالت ميري برقة: «آه - تلك كانت مجاعة».

قال: «وهذه وليمة، وليمة باذخة، يا مس تمبست»، منحنياً لميري، التي ضحكتْ.

سألتْ أمي «أرى أنك جلبت معك بعض الموسيقى؟».

قال، ناطقاً كلماته بلفظ مُبالَغ، وهي خدعة أخذها من غنائه، كما أعتقد:

«أرى أنـكِ في أبهى حُللك، يـا تمبست. «آهي رقيقة بقدر ما هي جميلة؟»».

«مَنْ؟».

زمَّ ويل قسمات وجهه الحسّي والأملس الذي بدا أنه لم يحتج مرة إلى الحلاقة. وخرجت ليتي مع ميري، لدى سماع رنين جرس الباب.

هتـف وليم: «إنها حورية من الجنة! يا الله، أكاد أنتهي! إنها زهرة

---

٢٩ - هياواثا ومينيهاها: قصيدة ملحمية رومانسية «أغنية هياواثا «للشاعر الأميركي هـنري وادزوورث لونغفيلـو (١٨٠٧ - ١٨٨٢). اعتمد الشاعـر في تأليفها على وثائق وأساطير هندية، وتحكي عن البطل الهندي هياواثا وحبيبته مينيهاها، بالإضافة إلى حكايـة تأسيسه للمجتمع الهندي السليـم، وأخيراً إلى هدايته للدين المسيحي. - المترجم

لوتوس! - ولكن أليس هذا الخاتم الذي تضعه هو خاتمكَ يا تمبست؟».

قال لزلي: «لا تتدخل».

قلت: «ولا تتصرف بحمق».

قال ويل متشدقاً: «أوه، أوووه؟ إذن يجب أنْ نشيح بوجوهنا! Le bel homme sans merci! (الرجل الوسيم المُجرد من الرحمة)[٣٠]».

تنهد من أعماقه، ومرّر أصابعه خلال شَعره، مُبقياً في أثناء ذلك إحدى عينيه على نفسه في المرآة. ثم عدّلَ من وضع خاتميه وذهب إلى جهاز البيانو. في أول الأمر اكتفى بعزف بعض النغمات السريعة ببراعة. ثم استعرض النوتات الموسيقية، وانتقى مجموعة من أغاني تشايكوفسكي. وباشر في عزف الافتتاحية الطويلة لإحدى الأغاني، لم تعجبه، فاختار أخرى، سيرينادا دون جوان. وأخيراً بدأ يغني.

إنَّ صوته هو تينور جميل، أرقّ، وأكثر طلاوة، وأقلّ قوة وحِدّة من صوت لزلي. والآن ارتفع لكي يُسمَع في الطابق العِلوي. وبينما الغناء السلِس يتدفق، فُتِحَ الباب. رقّقَ وليم من نغماته، وغنى بـ dolce (عذوبة)، لكنه لم يتلفّت حوله.

هتفت أليس، وهي تشد على يديها معاً وتُحدق إلى عتبة الباب العليا كعذراء مباركة: «نشوة! - جوقة من الملائكة».

---

٣٠ - صاغ هذه الجملة ساخراً على غرار عنوان قصيدة الشاعر كيتس La belle dame sans merci

(السيدة الجميلة المُجردة من الرحمة) - المترجم

تمتمت مادي، الواقفة إلى جوارها تنخرط في ميثولوجآها الخاص: «برسيفون – أوروبا –».

ضغطت أليس يديها المشدودتين معاً على صدرها في نشوة مع ارتفاع نبرة الأنغام.

«أمسكيني يا مادي، وإلا اندفعت لأفنى بين ذراعيّ تلك الفاتنة»، وتعلّقتْ بمادي. انتهت الأغنية، واستدار ويل.

قال: «آهدئي، ميس غال. آمل ألا تكوني قد بالغتِ في التأثُّر».

«أوه – كيف تقول لي: آهدئي «– كيف يمكن للوحش الهائج أنْ يهدأ!».

قال ويل: «أنا أرثي لحالك».

أجابت أليس: «أنت سبب مشكلتي، يا عزيزي».

قالت مادي: «لم يخطر في بالي أنكَ ستأتي».

قال ويل: «لقد جئت على جناح السرعة كهندي «شجججاااع»، كاندفاع هياثاوا إلى أحضان مينيهآها. كنتُ أعلم أنك ستأتين».

ابتسمت مادي بتكلُّف وقالت: «أتعلم، يُبهجني كثيراً أنْ أُصغي إلى عزف البيانو. لقد مرَّ عام منذ أنْ رأيتك آخر مرة. كيف وصلتَ إلى هنا؟».

قــال: «أتيتُ على متن حذاء الثلج. كهنــدي حقيقي – جئت من كندا – إنه رائع».

هتفــت أليســ: «أوه – آووو – هيا انتعله وأرنا – هيا! – هيا افعل من أجلنا، يا عزيزي بيل!».

قال: «فلنخرج إلى البرد والممشى المتجمد – بلا خوف»، والتفتَ ليتحدث مع مادي. وجلست أليس تثرثر مع أمي. وسرعان ما جاء توم سميــث، وجلس بجوار ميري؛ جلس بهــدوء ناظراً عبر نظارته بعينيه البنّيتين الحادّتين، مترعاً بالازدراء لوليم، وبالريبة من لزلي وليتي.

بعــد قليــل، وصل جورج وإميلــي. كانا متوترين. وبعــد أنْ بدّلا قبقابيهما، ونزعت إميلي قِماطهــا[٣١] البنيّ الورقي، ونزع هو قماطه الجلــدي، لم يكونــا متلهفَين لولــوج غرفة الجلوس. وقــد دُهِشت – وكذلك إميلي – لرؤيتي له ينتعل حذاء الرقص.

كانــت إميلي، التي تورّد وجهها بفعل الهــواء البارد، ترتدي ثوباً أحمــر بلون النبيــذ، يُناسب جمالها المُــترف. وكانت ملابس جورج كلهــا مُفصّلــة – في هذه النقطــة كان متميزاً، بسبــب حيائه النسبي. كان يرتدي سترة، وربطة عنق قاتمة. والرجال الآخرون كانوا يرتدون ملابس السهرة.

قدناهمــا إلى غرفة الجلوس، حيث لم يكــن المصباح مُضاءً، وكان توهج نار الموقد يُصبح جلياً عند الغسق. كنا قد أزلنا السجادة – كانت

---

٣١ – الطماق: كساء للساق.

الأرضيــة مصقولة كلها – وأُبعدت بعض قطع الأثاث – بحيث بدتْ الغرفة واسعة وفسيحة.

وعــمَّ التصافُح بالأيدي، وجلس القادمــون الجُدد بجوار الموقد. بــادرت الأم بفتــح الحديث – ثم أُضيئت الشمــوع التي على البيانو، وعزف ويل لنا. إنه عازف ممتاز، مُفعم بالرقيّ وبالشِعر. شيء مُذهل، وهــذه حقيقة. خرجت الأم لتُشرف على إعــداد الشاي، وبعد قليل، اقتربــت ليتي مــن إميلي وجورج، وبعــد أنْ قرَّبتْ كرسيــاً منخفضاً، جلســتْ لتتحدث معهما. وقــف لزلي في نافذة المشربيــة، مُطلاً على المــرج حيث يزداد الثلــج زُرقة باطّــراد والسماء تكاد تكــون قرمزية اللون.

وضعت ليتي يديها على حِجر إميلي وقالت بنعومة: «اســمعي – هل تحبيــن الأمر؟».

قالت إميلي مستفهمة: «ماذا! أنْ أكون مخطوبة؟».

قالت ليتي: «أنا راشدة، كما تعلمين».

«إنــه جميل، أليس كذلــك. أتسمحين لي أنْ أجرّبــه؟ نعم، أنا لم أضع خاتماً أبداً. ها هو، إنه يرفض أنْ ينزلق عبر برجمتي – كلا أعتقد أنــه لــن يمرّ. أليست يداي حمراوين؟ – إنه مــن البرد – نعم، إنه ضيّق جداً عليّ. أنا مُعجبة به حقاً».

جلــس جورج يراقب عبث الأيــدي الأربعة في حجر أخته، يدان تتحركان شديدتا البياض ومذهلتان في ضوء الغسق، واليدان الأُخريان

حمراوان، عِظامهمــا كبيرة، تبدوان عصبيتين، تُصدران أحياناً ومضاً بفعل وهج الغسق أو من ضوء الشموع.

قالــت، بصوت منخفض جداً: «يجــب أنْ تهنئينــي»، وكانت الاثنتان تعلمان أنها تتحدث عنه.

قالت إميلي: «آه، نعم، آهنئك».

قالت، وهي تلتفت إليه وكان صامتاً: «وأنت؟».

سأل: «ماذا تريدين مني أنْ أقول؟».

«قُل ما تشاء».

«ذات يوم، بعد أنْ أفكر في الأمر».

«وجبــات بائتــة!»، وضحكت ليتي، موقظة تهكــم أليس القديم على بُطئه.

هتــفَ مُستفهمــاً، وقد رفع بصــره فجأة لدى سماعــه سخريتها، «مــاذا؟». كانت تعلم أنه يُخادع؛ وضعت الخاتم في إصبعها وانتقلتْ عــبر الغرفــة إلى لزلي، أحاطت كتفــه بذراعها، ومالت عليــه برأسها، مغمغمــة له بنعومــة. وكان، المسكــين، مبتهجاً بوجودهــا، لأنها في الغالب لا تكشف عن ولعها.

انتقلنــا إلى الداخل لنتناول الشاي. نشر المصباح الأصفر ذو الظِلّة أشعتــه برقّة علــى الطاولة، حيــث تفتّحت ورود عيــد الميلاد بشكل كامل بين أوراق خضراء قاتمة اللون؛ وشعّت أواني الصيني والفضيات

والأطباق الملوَّنة بصورة ممتعــة. كان المرح والإشراق يعم بيننا جميعاً؛ ومَنْ لا يكــون كذلك، وهو جالس حول طاولــة حسنة التنسيق، مع صحبــة من الشبان، والثلــج يهطل في الخارج. شعــر جورج بالحرج عندما لاحظ وجود يديه على الطاولة، أما نحن الباقون فكنا مستمتعين بوقتنا أيّما استمتاع.

سرعان ما انتقل الحديث بشكل حتمي إلى موضوع الزواج.

سألت ميري الصغيرة: «ولكن ما رأيك في الأمر، سيد سميث؟».

أجاب بصوتــه الصارّ الغريب: «لم يتكوّن بعد. إنَّ زواجي يكمن في حل المُستقبل الذي لم يُحلَّل بعد - عندما أنتهي من التحليل سوف أخبرك».

«ولكن ما رأيك فيه -؟».

قــال ويل بانكروفــت: «أتذكرين يا ليتي تلك الفتــاة ذات الشعر الأحمر التي كانت معنا على مقعد الدراسة في الكلية؟ كانت متزوجة من العجوز كريفن من قسم الفيزياء».

قالت ليتي: «أتمنى لها السعادة معه! ألم تكن حبيبتك السابقة؟».

أجــاب مُبتسمــاً «مــن بــين الأخريــات. ألا تذكرين أنــكِ كنتِ إحداهن؛ كان لك دورك».

هتفــت ليتي: «كم كانــت مزحة ممتعة! كنا نلــج المنطقة المُشجّرة في أوقات العشاء. ومكثتَ نصف خريف أحد الأعوام. أتذكر عندما

أقمنـــا حفلاً موسيقياً، أنت وأنا، وفرانـــك ويشو، في قاعة المُحاضرات الصغيرة؟».

تابع ويل «عندمـــا كان Prinny رجلاً عجوزاً، يمدحك. وفي تلك الليلـــة اصطحبك ويشو إلى المحطة – وأرســـل العجوز غيتيم لإحضار مركبة أجرة وواكبك حتى ركبتها، بكل فخامة – لم يحدث مثل ذلك من قبل. لقد فاز بك ويشو العزيز مقابل تلك العربة، ألم يفعل؟».

صرخـــت ليتي: «أوه، كم تبجّحت! وكنتُم جميعاً في أعلى الدَّرج تحدقـــون بإعجاب! لكنَّ فرانك ويشو لم يكـــن شاباً لطيفاً، على الرغم من أنه كان يعزف على الكمان بصورة جميلة. لم أحبّ عينيه –».

أضـــاف ويل: «كلا، لم يدُم طويـــلاً، أليس كذلك؟ – لكنها كانت مدة كافية ليحلّ محلي. ألم نقضِ وقتاً ممتعاً في الجامعة؟».

قالـــت ليتـــي: «لا بأس بها. تتســـم بالحماقة. أخشـــى أنني هدرتُ السنوات الثلاث التي أمضيتها هناك».

قال لزلي، مبتسماً: «أعتقد أنكِ حوّلتِ الساعات المُشرقة إلى هدف عظيم».

سُرّ لـــدى تذكّره كم كان التـــودُّد إليها ممتعاً، بمـــا أنَّ التودُّد لم يكن مؤذياً، وكل ما فعله أنه دعـــم مجد غزوته الختامية.

×××

بعـــد انتهائنـــا من شرب الشـــاي، انتقلنا إلى غرفـــة الجلوس. كانت مُظلمة، لولا ضياء نار الموقد. وتم اكتشاف نبات الدبق، وفرحنا لذلك.

هتفت أليس: «جورجي، سيبيل، سيبيل، جورجي، تعالا وقبّلاني».

تقدَّم ويل لكي يتشرف بفعل ذلك، فهرعت إليّ، قائلة: «ابتعد، أيها الأحمق البدين - احتفظ ببضاعتك. والآن جورجي يا عزيزي، تعال وقبّلني، لأنّه ليس لديك أحد غيري، لا أحد. هل ترغب في الهروب، مثل جورجي بورغي فطيرة التفاح[٣٢]؟ لن أبكي، حتماً لن أبكي، إنْ كنتَ قبيحاً».

أمسكتُ به وقبّلته على كلا وجنتيه، وهي تقول بنعومة: «لا تكن جدياً هكذا، أيها الفتى العجوز - ابتهج، أنت فتى طيب».

أشعلنا المصباح، واُقتُرِحَتْ لعبة التمثيلية التحزيرية[٣٣]. خرج كلٌّ من لزلي وليتي، وويل ومادي وأليس ليلعبوا. كان المشهد الأول هو هروب إلى غريتنا غرين[٣٤] - حيث تمثل أليس دور خادم، وهو دور أبدعت في أدائه كشخصية. وكان يتسم بالضجيج العالي وبأنه مُضحك جداً. وكان لزلي في أحسن حالاته. وكانت المشاهدة ممتعة،

---

٣٢ - هذا مطلع أغنية للأطفال تقول: جورجي بورغي فطيرة التفاح / قبَّل الفتيات وجعلهن يبكين / وعندما خرج الفتيان ليلعبوا / هرب منهم جورجي بورغي. - المترجم

٣٣ - التمثيلية التحزيرية: يقوم أحدهم بتمثيل مشهد دون كلام وعلى الباقين أنْ يعرفوا ما هو. - المترجم

٣٤ - غريتنا غرين: هي قرية صغيرة على الشاطئ الغربي من اسكتلندا. وهي مشهورة من خلال كثرة الأعراس التي تُقام فيها لعرسان هاربين. وقد صُنع فيلم صامت في عام ١٩١٥ (ضاعت نسخته) عن قصة للكاتبة غريس ليفينغستون فرنيس تدور حول إحدى حالات هرب العرسان إلى غريتنا غرين. - المترجم

وازدادت حيويتـه، وفاضـ بالحركـة. وأصبحتْ ليتي أكـثر هدوءاً. وفي المشهد التالي، الذي مثّلـوه كميلودراما مؤثّرة، تحولتْ إلى مأساة صغـيرة بأدائها المفعم بالمرارة. ثم خرجـوا، وأرسلت لنا ليتي قُبلة عبر الأثير من باب الخروج.

هتفت ميري، موجهة كلامها إلى توم: «أليس تمثيلها رائعاً؟».

قال: «واقعي بكل معنى الكلمة».

قالت الأم: «إنها دائماً تُحسن أداء كل دور».

قالــت إميلي: «أنا أعتقد أنَّ في استطاعتها أنْ تقوم بدور في الحياة وتُحسن أداءه».

أجابــت الأم: «أعتقد هــذا. أحياناً تقف أمام المــرآة لترى نفسها وهي تمثّل».

قالت ميري: «ثم ماذا؟».

أجابــت أمي، وهــي ترسم ابتسامة ذات مغـزى: «تشعر باليأس، وتنتظر إلى أنْ تنتهي النوبة».

دخل الممثلان من جديد. ظلت ليتي تقوم بدور ثانوي. ومثّل لزلي بصــورة رائعة؛ وكان تفوقه مُذهلاً. وعــلا التصفيق - لكننا لم نخمّن الكلمة. ثم ضحكا وأخبرانا بها. وهتفنا طلباً للمزيد.

قالــت ليتي للزلي: «ابدأ، يا عزيزي، وأنا سأساعد في إعداد الغرفة

مـن أجل الرقص. أريد أنْ أشاهـدك - إنني مُتعبة - إنـه شيء شديد الإثارة - إميلي سوف تأخذ مكاني».

وذهبتْ ميري مع توم، وأنا وأمي لعبنا البريدج في إحدى الزوايا. قالـت ليتي إنها تريـد أنْ تعرض على جورج بعض الصور الجديدة، وانحنيـا فوق إضبارة لبعض الوقت. ثم طلبت منـه أنْ يُساعدها في تنظيف الغرفة استعداداً للرقص.

قالت له: «حسن، أمامك وقت للتفكير».

أجاب: «وقت قصير. ماذا سأقول؟».

«أخبرني بما كنتَ تفكر».

أجاب، وهو يبتسم بحمق: «في الواقع - فيك -».

سألت، بمغامرة: «من أية ناحية؟».

أجاب: «فيك، وكيف كنتِ في الجامعة».

«أوه، لقد أمضيتُ وقتاً ممتعاً. كان حولي الكثير من الشبان. وكنتُ معجبة بهم جميعاً، إلى أنْ اكتشفتُ أنهم لا يتصفون بأي شيء مميَّز؛ ثم أضجروني».

قال يضحك: «مساكين أولئك الشبان! هل كانوا متشابهين؟».

أجابت: «كلهم صورة واحدة، ولا زالوا».

قال، مبتسماً «خسارة. حظكِ عاثر».

سألته: «و لِمَ؟».

أجاب «لم يعد لديك أحد تحبينه -».

«أنت شديد التهكُّم. أنت تحجز مكاناً واحداً».

أجـاب، مبتسماً: «أحقـاً؟ لكنكِ تُطلقين الأعـيرة النارية القوية في الهواء، ومن ثم تقولين أنها كلها خُلّبية - ما عدا واحد، طبعاً».

سألتْ، بسخرية: «أنت؟ أوه، أنت دائماً تتأخّر».

اقتطـف عنها بمـرارة: ««كلام بائـت!» لكنكِ كنـتِ تعلمين أنني أحبك. تعلمين هذا جيداً».

أجابـت: «هـذا في الماضـي. شكراً لـك - فليكن أفضـل في المرة القادمة».

قال: «أنتِ التي تأخرت - أنتِ التي جعلتني».

أجابت، مبتسمة: «وهكذا تنتقل من الرد المفصَّل إلى الرد المباشَر».

يُصرّ، وقد ازداد حماسه: «أترين - أنتِ تصدينني». وكجواب عليه مدت يدها وأرته الخاتم. ابتسمت بهدوء تام. حدّقَ إليها بغضب محتدم.

قالـت: «هلا جمعـت البُسُـط والمقاعد معـاً ووضعتهـم في ذلك الركن؟».

استدار ليفعل ذلـك، لكنه عاد فنظر إليها، وقال، بنغمات صوت منخفضة مشبوبة:

«أنت أبداً لم تضعيني في حسبانك. كنتُ صِفراً طوال الوقت».

أجابت بهدوء: «في الواقع – هناك كرسي سوف يكون في الطريق»؛ لكنَّ وجهها تضرج، وأطرقت. أشاحت بوجهها، وجرَّ ملء ذراعين من البُسُط إلى الركن.

عندما جاء الممثلان، كانت ليتي تنقل مزهرية. وبينما هما يمثلان، جلست تتفرج، وتبتسم، وتصفق بيديها. وعندما انتهت اللعبة اقترب لزلي وهمس لها، فقبّلته على فمه في غفلة منه، ففرح وانتشى أكثر من أي وقت سبق. ثم خرجا ليستعدا للمشهد التالي.

لم يرجع جورج إليها إلى أنْ دعته ليساعدها. كان التورُّد قد علا وجنتيها.

قالت، بعصبية، لعجزها عن مقاومة غواية الاشتراك في هذه اللعبة المُحرّمة: «كيف عرفت أنك لستَ في حسباني؟».

ضحك، ولبرهة من الزمن لم يعثر على جواب يُدلي به.

قال: «أعرف! كنتِ تعلمين أنَّ في وسعك أنْ تحصلي عليّ في أي يوم، و لم تأبهي».

أجابت بسخرية: «إذن أنت تتصرف وِفقاً للنمط التقليدي».

قال: «ولكن في الواقع، أنت التي بدأتِ ذلك. أنت لعبتِ معي، وأريتني أشياء كثيرة جداً – وأوقات الصباح تلك – عندما كنت أربط حزم الذُّرة، وعندما كنتُ أجمع ثمار التفاح، وعندما كنتُ أجهز

حـزم القش - كنت تأتين حينئذٍ - لا يمكـن أنْ أنسى أوقات الصباح تلك - لن تعود الأمور أبداً إلى ما كانت عليه - لقد أيقظتِ حياتي - إنني أتخيّل أموراً لا يمكن أنْ أقوم بها».

«آه! - أنا شديدة الأسف، أنا آسفة جداً».

«لا داعي لذلك! - لا تقولي هذا. ولكن ماذا عني؟».

سألت بإجفال: «مـاذا؟».. ابتسم من جديد؛ لقد شعر بالموقف، وكان مُبالغاً قليلاً، ولكن بجديّة تامة.

قـال: «في الواقـع، أنـتِ تُثيرينـي - ثـم تتركينني ضائعـاً. ماذا سأفعل؟».

أجابت: «أنت رجل».

ضحك قال بامتعاض: «وما معنى هذا؟».

أجابت: «تستطيع أنْ تتابع حياتك - كما تشاء».

قال: «أوه، حسن، سوف نرى».

سألت، بشيء من القلق: «ألا تعتقد ذلك؟».

أجاب:«لا أعلم - سوف نرى».

خرجـا حاملين بعض الأغراض. في الردهة، التفتت إليه، قائلة مع انكسار في صوتها: «أوه، أنا شديدة الأسف - أنا آسفة جداً».

قال، بصوت منخفض جداً وناعم -: «لا عليك - لا عليك».

سمعـتْ ضحك أولئك الذين يستعدون للعبة التمثيلية التحزيرية. فتقدّمتْه وولجتْ غرفة الجلوس، قائلة بصوت عال:

«الآن أعتقد أنَّ كل شيء بات جاهزاً - نستطيع أنْ نجلس الآن».

بعد أنْ أدّى الممثلان المشهد الأخير، اقترب لزلي وطالب بها.

«والآن، يا مدام - هل أنت سعيدة بعودتي؟».

قالت: «أنا كذلك. لا تتركني مرة أخرى، أتسمع؟».

أجاب: «لن أفعل»، وجرّها إلى جواره. ثم استأنف: «لقد تركتُ منديلي في غرفة الطعام»؛ وخرجا معاً.

منحتني أمي الإذن بأنْ أنقل إلى الرجال السماح لهم بالتدخين.

قالـت ميري لتوم «أتعلم، إنني مندهشـة لأنَّ عالِماً يُدخّن. أليـس ذلك هدراً

للوقت؟».

قال: «تعالي واشعلي سيجارتي».

أجابت: «كلا، دع العِلم يُشعلها لك».

«العِلـم يفعل هذا - آه، لكـنَّ العِلم لا شيء من دون فتاة تحثّه على الفعل - نعم - تعالي - ولكن لا تحرقي أنفي النفيس».

هتفت أليس «مسكين جورج! ألا يريد ملاكاً مُساعداً؟».

كان شبه مُضطجع على الأريكة الكبيرة.

أجاب: «أريد. هيا، كوني علبة مرهمي المُهدِّئ. إنَّ عيدان الكبريت كلها مُنتثرة».

«سوف أقدح لك أحدها بعقب حذائي، ما رأيك؟ والآن، انهض، وإلا جلستُ على رُكبتك لكي أصل إليك».

«عزيزتي المسكينة - سوف يشعر بالترف» وجثمت الفتاة الشجاعة على رُكبته.

«ماذا لو أحرقت شعر سبلتيك - فهل ستُرسل سفينة حربية؟ آوو - آوو - جميل! - أنت تبدو جميلاً حقاً - أليس مُقرفاً بصورة جميلة؟».

سألها، مبتسماً بشكل غريب: «أتحسدينني؟».

«بلا-ريب!».

قال، برقّة تقريباً: «يؤسفني أنْ أحرمك من هذا».

«دخّن معي».

قدَّم لها السيجارة من بين شفتيه. دُهِشَتْ، وتصاعد إحساسها بالإثارة بفعل نبرة صوته الرقيقة. تناولت السيجارة.

قالت: «سوف أصبح عِجْلة - كالسيدة دوز».

قال: «لا تسمّي نفسك بقرة».

هتفت: «شيء مُقرف - دعني أذهب».

أجاب، وهو يُمسك بها: «كلا - أنت تناسبينني - لا تذهبي».

«إذن لا بدّ أنـك كبرتَ[٣٥]. أوه - يا لليدان الكبيرتان - اتركني. ليتي، تعالي واقرصيه».

سألت أختي «ما الأمر؟».

«يرفض أنْ يُفلتني».

أجابت ليتي «سيكون أول مَنْ يملّ».

تم إطـلاق سـراح أليس، لكنها لم تتحرك. جلسـتْ مُقطّبة الجبين تجرب تدخـين سيجارته. نفخـتْ مقادير ضئيلة رفيعـة من الدخان، وفكّرت في ذلك؛ ثم أرسلت مقداراً ضئيلاً من الدخان من منخريها، وعركت أنفها.

قالت: «ليست ممتعة كما تبدو».

ضحك منها باستمتاع ذكوري.

قالت، وهي تداعب ذقنه: «فتى ظريف».

---

٣٥ - استخدمـت صيغـة الفعـل بشـكل خاطـئ، بـدل أنْ تقـول: you have grown، قالت: growed، من باب المزاح. - المترجم

غمغم بغموض: «أحقاً؟».

هتفت: «خدّك!»، ولكمت أُذنه. ثم قالت: «أوه يا مسكين[٣٦]!»، وقبّلته.

استدارت لتغمز بعينها أمي وليتي، فوجدت الثانية جالسة في موضعها السابق مع لزلي، اثنان على كرسي واحد. كان يعبث بذراعها؛ يُمسك به ويُداعبه.

قال، وهو يُقبّل الساعد: «أليس جميلاً؟ دافئ ومع ذلك ناصع البياض. أيو[٣٧] – إنه يُذكرني بأيو».

غمغمت أليس لجورج: «ها هو شخص آخر يتحدث عن العجول».

قال لزلي، بصوت منخفض، «أتذكرين ذلك الرجل في ميريمه الذي أراد أنْ يعضّ زوجته ويتذوّق دمها؟».

قالت ليتي: «أنا أذكر. هل لديك أنت أيضاً خصلة حيوانية؟».

ضحك: «ربما. أتمنى أنْ يكون أولئك القوم قد رحلوا. إنَّ شعرك مُرسَل على عنقك – لكنه يبدو جميلاً هكذا –».

---

٣٦ – مرة أخرى نطقتها بشكل مشوه من باب المداعبة، فبدل أنْ تقول poor thing، قالت pore fing. – المترجم

٣٧ – أيو: في الأساطير اليونانية؛ أحبّها زيوس فتحولت إلى عجلة على يد زيوس أو هيرا. – المترجم

كانت أليس، المتهكّمة، قد حلّتْ أزرار سِوار الرسغ الثخين المُرتاحَ بكسل على رُكبتها، ورفعت كمَّه إلى أعلى قليلاً.

قالت: «آه! ما أجملها من ذراع، سمراء كرغيفِ خُبزَ أكثر مما ينبغي!».

راقبها مُبتسماً.

أضافت: «وصلبة كحجر الآجر».

تشدق قائلاً: «أتعجبك؟».

قالت مع تشديد: «كلا» بنبرة صوت تعني «نعم». «إنها تُسبب لي القشعريرة». فابتسم من جديد.

طابقت يديها الصغيرتين الشاحبتين الشبيهتين بزهرتين على يديه.

استلقى على ظهره ناظراً إليهما بفضول.

سألتْ، متهكمة، بشبه حزن: «هل تشعر كأنَّ يديك ممتلئتان بالفضّة؟».

أجاب برفق: «بل بأفضل من هذا».

تهكمت قائلة: «وبأنَّ قلبك ممتلئ بالذهب؟».

أجاب باقتضاب: «أوه اللعنة!».

نظرتْ أليس إليه مُستفهمة.

سألتْ: «وهل أنا ذبابة ضخمة تطنّ على نافذتك لتسليك؟».

ضحك.

قالت، وهي تنزلق وتغادره: «وداعاً».

قال: «لا تذهبي» – ولكن بعد فوات الأوان.

×××

كان اقتحام أليس المفاجئ للحفل الهادئ، العاطفي، أشبه بتسليط ضوء خفيف على ديك نائم. انتفضَ الجميع واقفين وأرادوا أنْ يفعلوا شيئاً. وهتفوا داعين إلى الرقص.

«إميلي – اعزفي فالسا – لا أظنكَ تمانع، أليس كذلك يا جورج؟ ماذا! ألا ترقص، يا توم؟ أوه ميري!».

احتجّت ميري: «لا مانع لدي، ليتي».

قال جورج مبتسماً: «ارقصي معي، يا أليس، وسيريل سيرقص مع الآنسة تمبست».

قالت أليس: «عظيم! – هيا – ارقصوا أو موتوا!».

باشرنا الرقص. رأيتُ ليتي تراقب، فتلفّتُ حولي. كان جورج يرقص مع أليس، بلا حماس، ويضحك على ملاحظاتها. لم تكن ليتي

تُصغي إلى ما كان عشيقها يقول لها؛ كانت تراقب الزوج الضاحكَين. وفي الختام ذهبت إلى جورج.

قالت: «عجباً! أراك تستطيع –»

قال: «أظننتِ أنني لا أستطيع؟ لقد وعدتِ برقص المينيويت والفيليتا معي – أتذكرين؟».

«نعم».

«أتذكرين؟».

«نعم. ولكن».

«لقد ذهبتُ إلى نوتنغهام وتعلّمت».

«لماذا – أمن أجل هذا؟ – حسن، لـزلي، فلنرقص المازوركا. هلا عزفتها، إميلي؟ – نعم، إنها سهلة جداً. توم، تبدو غاية في السعادة بحديثك مع الأم».

رقصنا المازوركا مع الشريك نفسه. فعلنا بأفضل مما توقعت – من دون الكثير من الارتباك – ولكن بتصلُّب. لكنه كان يتحرك بهدوء على إيقاع الرقصة، يضحك ويتكلّم طوال الوقت كلاماً مُجرّداً مع أليس.

ثم هتفت ليتي من أجل تبديل الشركاء، ورقصا الفاليتا. كان في ابتسامته مسحة من الانتصار.

قال: «ألا تهنئينني؟».

أجابت: «أنا مندهشة».

«وأنا كذلك. لكنني أهنئ نفسي».

«أحقاً؟ حسن، وأنا أُهنئك».

«شكراً! أخيراً بدأتِ».

سألت «ماذا؟».

«تؤمنين بي؟».

ناشدته بحزن: «لا تباشر الكلام من جديد، لا شيء أساسي».

سأل: «هل تحبين الرقص معي؟».

أجابت: «اصمت الآن - هذا حقيقي».

«وحقّ الله يا ليتي أنت تُضحكينني!».

قالت: «أحقاً؟ - ماذا لو تزوجتَ من أليس - قريباً».

«أنا - أليس! - كفاك ليتي! ثم، إنني لا أمتلك من متاع الدنيا غير مائة جنيه، وليس أمامي أي أمل في النجاح. لهذا السبب - في الواقع - لن أتزوج أحداً - إلا إذا كان معها مال».

«أنا معي ألفين أو أكثر قليلاً».

قال، مبتسماً: «أحقاً؟ سيكون حالي أفضل بكثير».

قالت، وهي تميل عليه: «أنت مختلف اليوم».

أجـاب: «أحقاً؟ هـذا لأنَّ الأشياء تغـيَّرت أيضـاً». إنها مستقرة بصورة ما الآن – في الوقت الحاضر على الأقلّ.

قالـت، مبتسمـة: «لا تنسَ الخطوتين هـذه المرة»، ثـم أضافت بجديّة: «أترى، لا حيلة لي».

«كلا، لِمَ لا؟».

قالت: «الأشياء! لقد نشأتُ على أنْ أتوقّع هذا – الجميع يتوقعونه – على المرء أنْ يفعل ما يتوقعه الناس منه – ولا حيلة له في ذلك. نحن جميعاً لا حيلة لنا، كلنا حجارة شطرنج».

اتفق معها، ولكن مع شك. «آه».

قالت: «أتساءل إلى أين سينتهي الأمر؟».

هتف: «ليتي!»، وشدّت يده عليها.

«لا – لا تقُـل أي شـيء – لا فائدة الآن، لقـد فات الأوان. انتهى الأمـر؛ وما انتهى، انقضى. إذا تكلّمتَ أكثر، سوف أقول: إنني مُتعبة وأتوقف عن الرقص. لا تتفوه بأية كلمة أخرى».

لم يفعـل – علـى الأقـل ليس لهـا. انتهت الرقصة. ثـم رقص مع

مــيري التي تحدثت معه بشكل مُبهِج. في أثناء رقص الفالس مع ميري استعاد روحه المرحة. ظل شديد الحيوية ما تبقى من السهرة، ومُذهلاً، ومتهــوراً. وعلى مائــدة العشاء أكل من الأصنــاف كلها، وأسرف في شرب النبيذ.

«تناول المزيد من الديك الرومي، سيد ساكستون».

«شكراً لك – ولكن هلا أعطيتني بعضاً من ذلك الشيء الذي في الهلام البنيّ، من فضلك؟ إنه جديد عليّ».

«تناول شيئاً من كعكة الترايفل، يا جورج؟».

«سأفعل – أنت جوهرة».

«وأنت ستُصبح كذلك – حجر توباز أصفر بحلول الغد!».

«آه! الغد لا زال بعيداً!».

بعد انتهاء وجبة العشاء، هتفت أليس:

«عزيــزي جــورج – هل انتهيــت؟ – لا تمُتْ ميتــة ملك – الملك جون – لا يمكنني الاستغناء عنك، يا حبوبي».

«أأنتِ مولعة بي إلى هذه الدرجة؟».

«أنــا كذلــك – أواه! أنا مستعــدة أنْ أرمي أفضــل قبعة لدي ليوم الأحد تحت دواليب عربة الحليب، حقاً!».

«كلا؛ بـل ارم نفسـك إلى داخل عربة الحليـب - ذات يوم أحد، وأنا أقودها».

قالت إميلي: «نعم - تعالي وزورينا».

«ما ألطفك! غـداً لن ترغب في رؤيتي، جورج يا عزيزي، لذلك سآتي. ألا تتمنى أنْ يصنع أبي تونو بنغاي[٣٨]؟ ألن تتزوجني حينئذٍ؟».

قال: «أتزوجك».

عندما وصلت العربة، وغادر كل من أليس، ومادي، وتوم وويل، وودّعـت أليس ليتـي وداعاً مُطوّلاً - وأرسلت عـبر الهواء العديد من القُبل لجورج - ووعدت بأنْ تحبّه حباً حقيقياً مُخلصاً - ورحلت.

تلكأ جورج وإميلي قليلاً.

الآن بدت الغرفة خالية وهادئة، وبدا أنَّ الضحك كله قد اختفى. لقد تلاشى الحديث؛ و لم يبق غير الارتباك.

أخيراً قال جورج بنـبرة ثقيلة: «حسن، كاد النهار ينقضي - قريباً سيحلّ الغد. أشعر بأنني ثمل قليلاً! لقد أمضينا وقتاً ممتعاً هذه الليلة».

قالت ليتي: «أنا سعيدة».

انتعلا حذاءيهما وواقيا سيقانهما، وتدثّرا جيداً، ووقفا في الردهة.

---

٣٨ - تونو - بنغاي: عنوان رواية للكاتب هـ ج ويلز. وتونو - بنغاي في الرواية هو اسم دواء يخترعه البطل ويجمع ثروة من بيعه. - المترجم

قال جورج: «يجب أنْ نذهب قبل أنْ تدق الساعة - كما حدث مع سندريلا - انظري إلى حذائي الزجاجي - «وأشار إلى قبقاب الرقص. «منتصف الليل، الملابس المتهرئة، الهروب. مناسب جداً. سوف أُسمي نفسي سندريلا التي لا تتلاءم. أعتقد أنني ثمل قليلاً - يبدو العالم مُضحكاً».

أطللنا إلى الخارج على الشحوب المُخيف للتلال خلف نذرمير.
«الوداع، ليتي؛ الوداع».

خرجا إلى الثلج الذي كان يُحدّق شاحباً ومُخيفاً من أعماق الغابة السوداء.

هتف من قلب الظلام: «الوداع». صفق لزلي الباب، وجرّ ليتي بعيداً إلى داخل غرفة الجلوس. وصلنا هدير رضاه المتذبذب، وهو يُغمغم لها، ويضحك بصوت منخفض. ثم رفس باب الغرفة ليُغلقه. بدأتْ ليتي تضحك وتتهكم وتتكلّم بصوت عالي النبرة. بدا مزيج هدير ضحكهم غريباً ومتنافراً. ثم خبا صوتها.

جلستْ ميري عند البيانو الصغير - الموضوع في غرفة الجلوس - تضرب وتقعقع أنغاماً نشازاً، وتشوّه ألحاناً قديمة. كانت قعقعة مثُيرة للحزن وسط بقايا الوليمة المنبوذة، ولكن كانت تشعر بعواطف جياشة، وتستمتع بها.

إنها فجوة فاصلة بين هذا اليوم والغد، فجوة موحشة، يجلس المرء فيها وينظر إلى الكوميديا الكئيبة للأيام الماضية، والتراجيديات الحزينة

لأيام الغد القادمة، بنظرة جوفاء، ويفوته لذع هذا اليوم الواقعي.

عادت العربة.

هتفت ميري: «لزلي، لزلي، لقد وصل جون، تعال!».

لا جواب.

«لزلي - جون ينتظر في الثلج».

«حسن».

«ولكن يجب أنْ تأتي في الحال».. توجهت إلى الباب وتكلمت معه. ثم خرج يبدو عليه الارتباك، والغضب من مقاطعته. تبعته ليتي، وهي ترتّب شَعرها. لم تضحك وبدا عليها الاضطراب، كما تفعل معظم الفتيات في مناسبات مشابهة؛ وبدت شديدة التعب.

أخيراً انتزع لزلي نفسه عنها، وبعد المزيد من مرات العودة لتبادل قبلات الوداع، استقلّ العربة، التي كانت متوقفة وسط بركة من الضوء الأصفر، مُبهمة ومُلطّخة بالظلال، وانطلق، هاتفاً بشيء عن الغد.

الجزء الثاني



الفصل الأول

أزهار غريبة وتبرعُمٌ جديد غريب

بقـيَ بســاط الشتاء ممتداً علــى وجه الأرض مــدة طويلة. ثم خرج الرجال مــن مناجم تمبست، واريل وشركاه للإضــراب في قضية إعادة النظـر في نظام العمل في أعماق الأرض. لم تكــن المحنة خطيرة، لأنَّ الرجــال في العموم حكماء وعلى خُلُق، ولكن كان هناك اكتئاب على وجـه الريف، والبعض عانى بشــدّة. وفي كل مكان، على طول الأزقة وفي الشــوارع، تسكعــت جماعات من الرجــال، عاطلين عن العمل ومُبتئســين. ومرت الأسابيع، ووكلاء اتحــاد أصحاب المناجم يعقدون اجتماعات واسعة، والقساوسة يعقدون جلسات صلاة، لكنَّ الإضراب استمر؛ بلا راحة. وكان دائماً جرس المنادي يقرع في الشارع؛ ودائماً خــدم الشركــة يوزعــون البيانــات، لتوضيح القضيــة، ودائمــاً الناس يتحدثــون ويملؤون الأشهر بالاستياء المرير، ثم اليائس. والمدارس تقدم وجبــات إفطار، والكنائس المحلية توزع الحســاء، والأثرياء من الناس يقدمون حفلات الشاي - وكان الأطفال يستمتعون بذلك. أما نحن، الذيــن نعرف وجوه الرجال العجائز وعلائــم الفاقة على النساء، فكنا نتنفّس الجو العام البارد، المُحبِط المشحون بالحزن والمشاكل.

استمر الجــو الموحل بإصرار في غابة المقاطعة ومطاردها[٣٩]. دافع أنّابــل ببطولة عن لعبته. أحد الرجــال كان في المنزل بساق واحدة من المُفتَرَضــ أنه جُرِح بسقوطه على أحد الطرقات الزلقة - لكن السبب كان وقوعــه في فخ مُخصص للبشر في الغابة. ثم ألقى أنّابل القبض على رجلين، وحُكِم عليهما بالسجن شهرين.

على كلا بوابتيّ نُزل هايكلوز - على جانبنا وعلى جانب إيبرويتش النائــي - أُلصِقَتْ ملاحظات تقــول إنَّ المتعدّين على الممرات أو على الأراضي المُحيطة سيكونون عُرضــة للعقاب. تلك المُلصقات سرعان ما طُمِسَتْ بالوحل، وأُلصِقَتْ أخرى مكانها.

نظــر المتسكعون على الطريق بجوار ندرمير بغضب إلى ليتي لدى مرورها، وهي بفروها الأسود الذي كان لزلي قد أهداها إياه، وكانت تعليقاتهــم لاذعة. وقد سمعتها، واحترقــت في قلبها. لقد ورثت عن أمــي وجهات النظــر الديموقراطية، وكانــت الآن تناقشها بحرارة مع حبيبها.

ثــم حاولتْ أنْ تتحدث مع لزلي عن الإضراب. أصغى إليها بترفُّع معتــدل، وابتســم، وقال إنهــا لا تعرف شيئــاً. إنَّ النســاء يُسرعن في الاستنتــاج من أول لمسة من المشاعر؛ أما الرجال فيجب أنْ ينظروا إلى الأمر من نواحيه كلها، ومن ثم يتخذوا قراراً - ليس متسرّعاً ومتهوراً - بــل قــرارات حذرة، وبعد تدبّرٍ طويل. لا يمكن أنْ نتوقّع من النساء أنْ تفهم مثل هذه الأمور، فمجال الأعمال ليس من اختصاصهن؛ في

---

٣٩ - المطارد؛ جمع مطردة: أرض مُخصصة لصيد صغار الطرائد. - المترجم.

الواقع، إنَّ مهمتهن هـي أسمى من مجال الأعمال – إلى آخره. ولسوء الحظ كانت ليتي هي المرأة غير المناسبة لمثل هذه المعاملة.

قالت «هكذا إذن!»، بنبرة ختامية هادئة، ويائسة.

«هيـا الآن، أنـت تتفهمين، أليس كذلـك، يا مينيهاهـا، يا مائي الضاحـك – إذن اضحكي مـن جديد، يا حبيبتـي، ولا تقلقي حول هذه الأشياء. لن نتحدث عنها بعد الآن، هه؟».

«أبداً».

«أبـداً – هـذا صحيح – أنـت حكيمة كملاك. تعـالي إلى هنا – بووه، الغابة كثيفة وموحشة! انظري، لا يوجد في العا لم كله إلا نحن، وأنت سمائي وأرضي!».

«وجحيمك؟».

«آه – إنْ كنـتِ بـاردة جـداً – ما أشد برودتـك! – عندما تبدين هكذا تسري فيّ رعشة قصيرة – وأنا دائماً حامي – ليتي!».

«ماذا تقصد؟».

«مـا أقسـاك! قبّلينـي – الآن – كلا، لا أريـد وجنتـك – قبّليني بنفسك. لِمَ لا تقولين شيئاً؟».

«لِمَ؟ مـا فائـدة قول أي شـيء عندما لا يكون لديـك شيء فوريّ تقوله؟».

«أراكِ تأذّيتِ!».

أجابت «يبدو أنها ستُثلج اليوم».

×××

ولكــن، أخيراً بدأ الشتــاء يُلملمُ أشلاءه، وينهضــ، وينجرف مع أثوابه الحزينة إلى الشمال.

كان الإضراب قد انتهى، وتوصل الرجال إلى تسوية. كانت طريقة رقيقة في إخبارهم أنهم هُزِموا. لكنّ الإضراب انتهى.

رفرفت الطيور بأجنحتها وانطلقت باندفاع؛ ونفض العسيل على شجر البندق عنه تصلُّب الشتاء، ملوّحاً بشرّابات رقيقة. وطوال النهار كانت تُصدر صفيراً طويلاً، عذباً، من بين الأكمات؛ ولاحقاً، صراخاً ضاحكاً، عالياً لانتصار الطيور من الأفْنَان[٤٠].

أتذكّر أحد الأيام كان فيه نهد التلال يجيش بآخر تنهيدة استيقاظ سريعة، والعيون الزرقاء للمياه تنفتح براقة. وعبر السماوات اللامتناهية لشهر آذار تشكّلت كتلٌ عظيمة مدوَّرة من الغيوم ظلّت تُبحر بفخامة طــوال النهار، يتوجها إشعاع أبيض، خففــت من حِدّته ظلال باهتة، عابــرة وكأنَّ جماعات مــن الملائكة تمر برفق؛ ترتــدي ظلالاً حريرية مسترخيــة كظلال نهد ممتلئ وأبيض. كانت الغيوم طوال النهار تتقدم إلى غايتهــا الشاسعة، وتشبّثــتُ بالأرض تواقاً ونزقــاً. تناولت فرشاة

٤٠ – الفَنَن؛ جمعها أفنان: غصن الشجر المستقيم.

وحاولت أنْ أرسمها، ثم انفجرت غضباً من نفسي. وتمنيتُ لو أنَّ شيئاً ما في الوادي البريّ كله حيث تسافر ظلال الغيوم كالحجيج يُناديني كي أخرج من وحدتي الراسخة. وخلال عظمة النهار الأبيض والأزرق كلها، تابعت كتل الغيوم العائمة انسيابها البطيء، وتركتني مُهمَلاً.

عند المساء، كانت قد رحلت جميعاً، والسماء الخاوية، كفقاعة زرقاء فوقنا، تحتشد على حوافها البراقة الشاحبة.

جاء لزلي، وطلب من خطيبته أنْ تخرج معه، تحت الفقاعة الرائعة التي تزداد عتمة. عرضتْ عليّ أنْ أرافقها، ولكي أهرب من نفسي، وافقت.

كان الجو دافئاً في مأوى الغابة وفي فجوات التلال الرابضة. ولكن فوق أكتاف التلال المنحدرة انسابت الرياح، هامسة الحُمرة في وجوهنا.

قالت ليتي، أثناء هبوطنا إلى الجدول: «أحضر لي بعضاً من عسيلات جار الماء تلك، يا لزلي».

«نعم، تلك، المتدلية فوق الجدول. إنها متوردة كدماء نقية تتدفق تحت الجلد. انظر، شرابات قرمزية وذهبية! «وأشارتْ إلى عسيلات شجر البندق المغبرّة ممتزجة مع جار الماء على صدرها. ثم اقتطفت من قصيدة كريستينا روزيتي «عيد ميلاد».

تابعت: «أنا سعيدة لأنك أتيت لتأخذني في نزهة. أليست ستريلي

ميل جميلة؟ أشبه بعنقود من البرتقال والفطر القرمزي في لوحة خيالية. أتعلم، لم أزرها، كلا، منذ وقت طويل جداً. هلا عرّجنا الآن؟».

«إذا فعلنا سيكون ضوء النهار قد ولّى. إنها الخامسة والنصف – زيادة على ذلك! لقد رأيته – الابن – في صباح يوم قريب».

«أين؟».

«كان ينقل السماد – فعجّلت بالمرور».

«ألم يُكلّمك – ألم تنظري إليه؟».

«كلا، لم يقُل شيئاً. ألقيتُ عليه نظرة سريعة – لم يتغيَّر، بلون الآجر – بليد. انتبه إلى ذلك الحجر – إنه يهتز. أنا سعيدة لأنك تنتعل حذاءً طويل الرقبة وقوياً».

«لأنك ترينني أنتعله في المعتاد –».

وقفت متوازنة برهة على حجر كبير، جدول الربيع النضر يُسرع نحوها، متعمقاً، ينزلق من حولها.

سألتْ: «إذن، ألن تعرّج وتزورهم؟».

أجاب: «كلا. أحبّ أنْ أصغي إلى خرير الجدول، وأنتِ؟».

«آه، نعم – إنه مملوء بالموسيقى».

قال، بنزق وإذعان: «هلا تابعنا الطريق؟».

دخلت ووجدت إميلي تضع بعض الخبز في الفرن.

قلت: «هيا نخرج لنتمشّى».

«الآن؟ دعني أخبر أمي - كنتُ مشتاقة -».

ركضت وارتدت معطفها الرمادي الطويل واعتمرت قلنسوتها الصوفية الحمراء. أثناء هبوطنا إلى الفناء، نادى جورج عليّ.

هتفت «سأعود».

جاء إلى بوابة الفناء ليواكب رحيلنا. عندما خرجنا إلى الدرب، شاهدنا ليتي واقفة على القضيب العلوي للمرقى[٤١]، تتوازن بوضع يدها على رأس لزلي. ورأتنا، ورأت جورج، ولوحت لنا بيدها. كان لزلي يرفع بصره إليها قلقاً. ولوحت من جديد، ثم سمعناها تضحك، وتأمره بحماس أنْ يقفَ ثابتاً، ويُثبّتها وهي تلتفت. واستدارت وقفزت برفرفة عظيمة، كطائر كبير ينطلق، من أعلى العارضة إلى الأرض ومن ثم إلى ذراعيه. ثم ارتقينا التل شديد الانحدار - الضفة المُشمسة، التي كانت ذات يوم تسطع باللون الأصفر من حقول القمح، وأضحت الآن عبارة عن صفوف بالية متماوجة من الأشواك ترتع بينها الأرانب. تجاوزنا الأكواخ الصغيرة في الغور المحفور في التل، وبلغنا الأراضي المرتفعة التي تشرف عبر ليسسترشر على تشارنوود إلى اليسار، وبعيداً داخل قمة الجبل المدوّرة في ديربيشير مباشرة في المقدمة ونحو اليمين.

---

٤١ - المرقى: قطعة الخشب أو الحديد المستعرضة لعبور سياج أو جدار. - المترجم.

الطريق العلوية يُغطيها العشب كلها، لم تعُد تُطرَق منذ زمن بعيد. وكانت تمتد من آبي إلى هول؛ أما الآن فإنها تنتهي فجأة عند سفح التل. عند منتصف المسافة تقع مزرعة وايت هاوس، بدَرَجِها الأخضر المتجه على أعلى الذي يتهرّأ من الخارج. كم من سيدة ارتقته وركبت باتجاه فيل بلفوار – أما الآن فيتولى أمر المزرعة أحد العمال.

وصلنا إلى مقلع الحجارة، ونظرنا داخل الكلاسات[٤٢].

قال لزلي: «فلنلج الغابة مباشرة بعيداً عن المقلع. أنا لم أدخلها منذ أنْ كنت صغيراً».

قالت إميلي: «هذا تعدٍّ».

وهكذا تابعنا بمحاذاة الجدول المُسرع، الذي انهمر وسط استعجاله عبر مسقط صغير، دون أنْ ينظر ولو مرة على أزهار الربيع التي تومض على طول ضفّتيه. انعطفنا جانباً، وارتقينا التل من خلال الغابة. كانت عساليج خضراء من نبات زئبق الكلب منتشرة على التربة الحمراء. ووصلنا إلى أعلى المنحدر، حيث تخفّ كثافة الغابة. وأثناء حديثي مع إميلي كنتُ أعي بصورة مبهمة وجود بياض على امتداد الأرض. هتفت مندهشة، فاكتشفتُ أنني كنتُ أمشي، في أوائل ظلال الغسق، على كتل من زهر اللبن الثلجي المتساقط. كانت أشجار البندق قليلة، ولا تنهض إلا هنا وهناك شجرة سنديان. كانت الأرض كلها مكسوة ببياض اللبن الثلجي، كحبّات المنّ مبعثرة على الأرض الحمراء، وعلى

٤٢ – الكلاسات؛ جمع كلاسة: الأتون الذي يُحرق فيه الحجر الكلسي لتحويله إلى كلس. – المترجم

كتـل الأوراق الخضراء–الرمادية. كانت هناك وهـدة صغيرة عميقة، حـادة الانحـدار كحافة كأس، ونِثـار أبيض من الأزهـار على امتداد المسافـة إلى أسفل، مـع أزهار بيضاء تبدو شاحبـة في أول الظل الممتد في القـاع. كانت التربـة حمراء ودافئة، تـبرز منها الأجـزاء الخضراء القائمة والنضرة من أزهار الجريسـ، ومزخرفة بعناقيد خضراء–رمادية من الوريقات، وبالعديد من الأزهـار الصغيرة البيضاء. وفوقها عالياً، فـوق الزخرفة التشجيرية لشجـر البندق، تتشابك أشجـار السنديان غريبة الأطوار تحت شمس الغروب. وفي الأسفل، في الظلال الأولى، تتدلى حشود من الأزهار البيضـاء الصغيرة، شديدة الصمت والحزن؛ وكأنـه اجتماع قدسي لأشياء بريّة نقيّة، لا حصر لها، وهشّة، ومنطوية بخنوع في ضـوء المساء. ومجموعـات أزهار أخـرى سعيدة؛ حشود بربرية فخمة من أزهار الجريسـ، وجماعات من زهر الربيع العطري برؤوسه المرخـة، وحتى شقائق نعمان الغابة الخفيفـة والمتمايلة؛ لكنَّ اللبن الثلجي حزين وغامض. لقد فقدنا معناه. إنه لا ينتمي إلينا، نحن الذين نفسده. مالت الفتاتان بينها، ولمستاها بأصابعهما، بحركة ترمز إلى التـوق الذي تملّكني. هذه الأزهار الصغيرة المقهورة، المنطوية على نفسها في الغسق، حزينة كأصدقاء صغار بائسين لحوريات الغابة.

قالـت ليتـي بصوت منخفضـ، وهي تلمسـ بأصابعهـا البيضاء الأزهار، وسقط فروها الأسود عليها: «ما الذي تعنيه، في اعتقادك؟».

قال لزلي: «ليس هناك منها الكثير هذا العام».

قالت أميلي لي: «إنها تذكّرني بنبات الدبق، الذي ليس لنا، مع أننا نتزين به».

كررت ليتي القول: «ماذا في اعتقادك تقول - ما الذي تدفعك إلى التفكير فيه، يا سيريل؟».

«لا أعلم. إنَّ إميلي تقول إنها تنتمي إلى ديانة قديمة همجية منسية. لعلها رمز الدموع، بالنسبة إلى قبائل بدائية تحمل مشاعر غريبة جاءت قبلنا».

قالت ليتي: «بل إلى أكثر من الدموع، أكثر من دموع، إنها شديدة السكون. وكأنها تنتمي إلى ديانة قديمة، فقدناها. إنها تُخيفني».

سأل لزلي: «ما الذي تخشينه؟».

أجابت: «لو كنتُ أعلم، لما خفت. انظر إلى كل هذه الكمية من اللبن الثلجي»- كانت منضمة معاً على شكل نمش غريب، غامض بين الأوراق الداكنة - «انظر إليها - منغلقة، متراجعة، عاجزة. إنها تنتمي إلى ثقافة فقدناها، فقدتها وأحتاج إليها. إنني خائفة. تبدو أشبه بشيء يكمن في القدر. أتعتقد، يا سيريل، أنّه يمكن أنْ نفقد الأشياء وتزول عن وجه الأرض - كحيوان الماستودون[٤٣]، وتلك المخلوقات الفظيعة القديمة - بل أشياء تهمنا - كالحِكمة؟».

قلت «هذا ضد عقيدتي».

قالت «إنني أؤمن بأنني فقدتُ شيئاً».

قال لزلي: «هيا، لا تهتمي بالخرافات. تعالي معي إلى قعر هذا

٤٣ - الماستودون: حيوان بائد يُشبه الفيل.

الكأس، وانظري كم هو شديد الغرابة منظر السماء مزركشة بالأغصان كغطاء مُخرَّم بالزخارف».

نهضتْ وتبعته إلى أسفل الجانب شديد الانحدار للحفرة، وهي تصرخ: «آه، أنت تطأ الأزهار».

قال: «كلا، إنني شديد الحرص».

جلسا معاً على شجرة ساقطة في القعر. مالت إلى الأمام، وأصابعها البيضاء تتجول بين المسافات الرمادية المُظلّلة للأوراق، تنتزع، كأنما بطقسٍ ما، أزهاراً هنا وهناك. لم يتمكن من رؤية وجهها.

سأل بنعومة: «هل تحبينني؟».

اعتدلت في جلستها ونظرتْ إليه، وضحكت بصورة غريبة. أجابت، بصوت غريب: «أنت؟ – أنت لا تبدو لي حقيقياً».

بقيا جالسين هكذا بعض الوقت، كلاهما منحنيان في صمت. «طفرت» العصافير من بعض الأكمات، ورفعت إميلي بصرها بإجفال عظيم عندما قال صوت هادئ، متهكم، فوقهما:

«إنه كهف يمام، وحق الله هو كذلك! لقد أدهشني عندما سمعت هديلاً، وها هما الطائران. هيا، أيها العشاق، إنه المكان الخطأ للضرب بالمناقير والهديل وسط هذا اللبن الثلجي. اعطياني اسميكما، هيا».

أجاب لزلي من الأسفل، وقد قفز من شدة الغضب، «اغرب من هنا، أيها الأحمق!».

التفتنا نحن الأربعة باتجاه الحارس. كان يقفُ على حافة الضوء، مبهماً؛ شكل شامخ، قوي، يُهددنا. لم يتحرك، بل نظر إلينا كنسخة شريرة من إله الغابات، وقال:

«شيء جميل - جميل جداً! اثنان - واثنان يساوي أربعة. هذا صحيح، اثنان واثنان يساوي أربعة. هيا، هيا اخرجا من سرير الزوجية هذا، ودعوني ألقي نظرة عليكما».

أجاب لزلي، وهو ينهض واقفاً ويساعد ليتي في وضع فرائها: «ألا تستخدم عينيك، أيها الأحمق. على أية حال تستطيع أنْ تميِّز أنَّ هناك سيدات محترمات هنا».

«أنا شديد الأسف، يا سيدي! لا يمكن التمييز بين السيدة المحترمة والمرأة من هذه المسافة عند الغسق. مَنْ قد تكون، يا سيدي؟».

«اغرب! هيا، يا ليتي، لم يعُد في إمكانك أنْ تبقي هنا بعد الآن».

ارتقيا إلى النور.

«أوه، أنا شديد الأسف، سيد تمبست - عندما تنظر إلى رجل في الأسفل يبدو مختلفاً. حسبت أنكما بعض الشبان الحمقى جاؤوا إلى هنا ليعبثوا -».

هتف لزلي: «لعنك الله - اخرس! - عذراً منك، ليتي. هلا أمسكتِ بذراعي؟».

بدا الاثنان غاية في الأناقة. كانت ليتي ترتدي معطفاً طويلاً يليق على جسمها؛ وتعتمر قبعة صغيرة يندفع ريشها باشرة نحو الخلف مع شعرها.

نظر الحارس إليهما. ثم ابتسم وأخذ يهبط الوهد بخطوات واسعة، ثم عاد، قائلاً: «في الواقع، يمكن للسيدة أيضاً أنْ تأخذ قفازها».

أخذته منه، وهي تهز كتفيها للزلي. ثم انطلقت وقالت:

«دعني أُحضر زهوري».

ركضت نحو حفنة من زهر اللبن الثلجي يكمن بين جذور الأشجار. وراقبناها جميعاً.

قال أنّابل: «أسف لارتكابي ذلك الخطأ - عن السيدة المحترمة. لكنني نسيت كيف يبدو شكل إحداهن - ما عدا شكل بنات المحترم، اللواتي لا يخرجن في الليل أبداً».

«أعتقد أنك لم تر الكثير منهن - إلا إذا -! هل سبق لك أنْ كنتَ سائساً؟».

«ليس سائساً بل عريساً[٤٤]، يا سيدي، ولكن أعتقد أنني أفضّل أنْ أسوس حصاناً على أنْ أسوس سيدة، لأنني ذقت الأمرّين - عن إذنك يا سيدي».

«أنت تستحق ذلك - دون أدنى شك».

«فهمت - وأتمنى لك حظاً أفضل، يا سيدي. لكنَّ المرء يكون رجلاً أكثر وهو هنا في الغابة منه وهو في صالون سيدة، في اعتقادي».

---

٤٤ - هنا تشابه في الألفاظ: فكلمة groom تعني سائس خيل، وكلمة bridegroom (عريس) تعني حرفياً سائس العروس. - المترجم

ضحك لزلي، مستمتعاً بتسليته مع الحارس الفكه، «صالون سيدة!».

«أوه، نعم «هلا دخلت إلى صالوني »[٤٥].

«أنت أذكى من أنْ تكون حارساً».

«أوه، نعم يا سيدي – لقد خضعت ذات يوم لسلطان سيدة. لكنني أفضّل أنْ أراقب الأرانب والطيور؛ فمن الأسهل تربية الصغار في الأوجرة منها في المدينة».

قلت: «إنها ملكك، أليست كذلك؟».

«أنت تعرفها، أليس كذلك، يا سيدي؟ أليست مخلوقات صغيرة وظريفة؟ – أليست حفنة جميلة من الحيوانات؟ – طبيعية كأبناء عرس – هذا ما قلت إنهم يجب أنْ يكونوا – أنْ ينشؤوا كمجموعة من جراء الثعالب، تجري على هواها».

كانت إميلي قد انضمت إلى ليتي، وبقيتا بمعزل عن الرجل الذي كرهتاه غريزياً.

قلت «وذات يوم، سوف تقع في الفخ».

---

٤٥ – مطلع قصيدة للشاعرة ميري هويت (١٧٩٩ – ١٨٨٨): وتحكي عن عنكبوت خبيث يُحاول أنْ يوقع ذبابة في شباكه: «هلا دخلتِ إلى صالوني؟ قال العنكبوت للذبابة»– المترجم

أجاب، مكشراً: «إنها فطرية – يمكنها أنْ تعيل نفسها كالحيوانات البرية».

أدلى لزلي بالمختصر المفيد «أنت لا تقوم بواجبك، في اعتقادي».

ضحك الرجل.

«واجبات الوالدين! – أخبرني، أنا في حاجة إليها. لدي تسعة – أي ثمانية، وواحدة ليست بعيدة جداً. إنها حسنة التربية، ولها حبيب – طفل كل سنتين – أصبحوا تسعة في أربعة عشر عاماً – لقد أحسنَت عملاً، أليس كذلك؟».

«أعتقد أنك أسأت التصرف».

«أنا – لِمَ؟ هذا طبيعي! عندما يكون الرجل أكثر من طبيعي يُصبح شيطاناً. أنا أقول، كن حيواناً جيداً، سواء أكنت رجلاً أم امرأة. وأنت، يا سيدي، حيوان ذكر طبيعي جيد؛ والسيدة التي هناك – أنثى – هذا مناسب – طالما أنك تستمتع بالأمر».

«وماذا بعد ذلك؟».

«تصرّف كالحيوانات. إنني أراقب أطفالي – أتركهم يكبرون. إنهم على قدر من الجمال، حقاً – إنَّ كلاً منهم يبدو كقضيب غضّ. لن أعلّمهم أنْ يلوثوا أنفسهم بالتصرفات الطائشة – قدر استطاعتي. يمكنهم أنْ يكونوا أحراراً كالطيور، وأبناء عرس، أو الأفاعي السامة، أو السناجب، ما داموا لن يكونوا عفناً إنسانياً، هذا ما أرى».

قال لزلي: «هذه إحدى وجهات النظر من الأمور».

«آه. انظر إلى المرأتين تنظران إلينا. إنني شيء يقع بين الثور ودودتين ملتصقتين معاً. أترى ذلك العصفور! «ويرفع صوته لكي تسمعه الفتاتان». جميل، أليس كذلك؟ ما فائدته؟ - ما فائدة ارتداؤك بذلة فخمة وبرم شاربك، يا سيدي! ما فائدته، بالمعنى العميق! ها - أخبر امرأة ألا تأتي إلى الغابة إلا بعد أنْ يُصبح في استطاعتها أنْ تنظر إلى الأشياء الطبيعية - فقد ترى شيئاً - أسعدت مساءً، يا سيدي».

يمشي مبتعداً داخل الظلام.

قال لزلي بعد أنْ ينضمّ من جديد إلى ليتي: «إنه خشن، ذلك الرجل، لكنه شخصية فريدة».

أجابت: «إنه يُسبب لي القشعريرة. ومع ذلك يُثير الاهتمام. أعتقد أنَّ لديه تاريخاً حافلاً».

قالت إميلي «يبدو مفتقراً إلى شيء ما».

علّقَ لزلي، رافضاً السؤال: «إنه صاحب بُنية هائلة، لكنه قاسي القلب - بلا روح».

وافقت إميلي «كلا. لا روح - ويُقيم بين أزهار اللبن».

استغرقت ليتي في التفكير، وابتسمت.

مع ذلك، كانت أمسية جميلة، مع غيوم حمراء، متفرقة جهة

الغـرب. القمر في السماء كان يعود بحزن إلى الشرق. وحولنا امتدتْ غابـات قرمزية، ملوّنة المدى. والأرض القريبـة، البرية، المُخرَّبة بدت حزينة وغريبة تحت حُمرة الشفق الباهتة. كانت أرض الدرب المكسوة بالعشب نضرة ومرنة.

قالـت ليتي: «فلنركض!»، فأمسك بعضنا بأيـدي البعض الآخر وتسابقنا بجموح، مع ضحك مرفرف يقطع الأنفاس، إلى أنْ أصبحنا سعداء ونسينا كل شيء. وعندما توقفنا هتفنا في وقت واحد «قفوا!».

قالت ليتي: «طفل!».

قلت: «في الأوجرة».

وأسرعنا قُدُماً. صدر عن المنزل صراخ مجنون وأنين أطفال، وهتاف مهستر عن امرأة.

«ذلك الشيطان الصغير - ذلك الشيطان الصغير - تلك الشيطانة - تلك الشيطانة!»، وكان ذلك مصحوباً بالصوت الأجوف لضربات وجحيم من العويـل. فاندفعنا إلى الداخل، ووجدنا المرأة في حالة من الهسـترة المسعورة تضـرب طفلاً بمقلاة مطليـة. وكان الطفل متكوماً حــول نفسه كقنفذ صغير - وقد أمسكت به المرأة من قدمه، وانهالت بالمقـلاة المقعرة كالمدرس بالضرب على كتفـه وظهره. واستلقى تحت وهــج الموقد يعـوي، بينما باقــي الأطفال، الموزعـون في مجموعات، وضـوء الموقد يقفـز متلألئاً على دموعهم وأفواههـم الفاغرة، يبكون أيضـاً. كانـت الأم في حالة هستريـا، وشعرها ينهمـر على وجهها،

وعيناهــا مُثبتتان في تحديق ينم عن غضــب مُجهَد. كانت ذراعها تهبط وترتفع على طولها كشراع طاحونة هواء. فأسرعت إلى الإمساك بها. وعندمــا لم يعــد في إمكان المرأة أنْ تضــرب، أسقطت المقلاة من يدها الفاقدة أعصابها، وترنحتْ، ترتجف، لتقع على الأريكة. بدت مرهقة ومنهكة بصورة يائسة – وأخذت تشدّ على يديها وترخيهما باستمرار. وقامــت إميلي بتهدئــة روع الأطفال، بينما قامت ليتــي بتهدئة الأم، ضامّة يديها القاسيتين، المُشقّتين، وهي تهزّها جيئة وذهاباً. وبالتدريج هدأتْ الأم، وجلست تحدق أمامها؛ ثم بدأت تعبث بلا هدف بالحلي في إصبع ليتي.

كانــت إميلي تغسل وجنــة فتاة صغيرة، التي رفعــت من عقيرتها باكيــة عندما رأتْ نقطــة دم على ثوبها. لكنها سرعــان ما هدأتْ هي أيضــاً، وتمكنــت إميلي مــن إفراغ آخــر أداة للعقاب من المــاء وأخيراً أشعلت المصباح.

عــثرتُ على سام تحــت الطاولة داخل ركام صغــير. مددتُ يدي نحوه، فتلوّى مبتعداً، كعظــاءة، داخل الممر. وبعد قليل رأيته في أحد الأركان، مستلــق يهمس بصرخات خافتة من فرط الألم. قطعتُ عليه خــط التراجُع وأمسكتُ به، وحملته وهو يُصارع إلى المطبخ. ثم، بعد أنْ أرهقه الألم، استسلم.

جرّدناه مــن ملابسه، فوجدنــا جسمه الأبيضــ الجميل وقد غدا شاحبــاً وتغطيــه الرضوض. بدأت الأم تجهش بالبــكاء من جديد، مع جوقــة الأطفال. حاولــت الفتيات أنْ يُخففن من البــكاء، بينما كنتُ

أدهن جسد الصبي الصامت، المُجفل، بالزبد. ثم أخذته أمه بين ذراعيها، وهي تقبّله بشغف، وتبكي بحرقة. واستسلم الصبي للقُبل - ثم بدأ هو أيضاً بالنشيج، إلى أنْ أخذ جسمه الصغير كله يهتز. وتعانقا معاً، الأم المسكينة الشعثاء والصبي شبه العاري، وظلا يبكيان على حالهما. ثم حملته إلى السرير، وقامت الفتيات بمساعدة الصِغار الآخرين في ارتداء مناماتهم، وسرعان ما ران السكون على المنزل.

قالت الأم بحزن: «إنني عاجزة عن التعامل معهم. لقد كبروا و لم تعد لدي طاقة - لا أدري ماذا أفعل بهم. وليس لدي زوج يُعينني - كلا - إنه لا يأبه لأمري أبداً - أبداً - كل ما يفعله هو أنْ يرمي بقذارته عليّ».

قالت ليتي، وهي تجعل الصبي النحيل يقف على قدميه وترفع طرف منامته التي يجرها خلفه: «آه، يا حبيبي، أتريد أنْ تذهب إلى أمك - اذهب إذن - آه!».

مشى الطفل، الضئيل والوسيم الذي لم يتجاوز عمره ستة عشر شهراً، بخطوات متعثرة نحو أمه، ملوّحاً بيديه وهو يمشي، وضاحكاً، بينما عيناه الكبيرتان الكستنائيتان تتوهجان بالسرور. أمسكت به أمه، وأبعدت الشعر الحريري عن جبينه، ووضعت وجنته على وجنتها.

قالت: «آه! هذا لديه أب غريب الأطوار، لا يشبه أي رجل آخر، كلا، يا صغيري. إنه مجرد من الإحساس ليهتم بأحد، ليس لديه، ياحمامتي - كلا - إنه يعيش كالغريب بين لحمه ودمه».

كانت الفتاة ذات الجرح في خدها قد وجدت العزاء عند لزلي.

كانت جالسة على ركبته، ترنو إليه بعينين زرقاوين رصينتين، وزاد من رصانتها ميل رأسها المستدير، الذي كان شعره الأسود قد قُصَّ قصيراً.

«هـذا طباشيري، نعم هـو لي، وأخي سام يقول إنـه ليس كذلك وألوانـه كلها زالـت، لذلك لـن أعطيه إيـاه»- كانت تقبض بيدها الصغيـرة البدينة على قطعة من الطباشـير الأحمر. «أبي أعطاني إياها، لكي ألون وجه دميتي بالأحمر، على الخشب - سأريك».

تلـوّت نحو الأسفل وبعـد أنْ أمسكتْ بطـرف رداء نومها بيد، مشـت إلى إحـدى الزوايـا التـي تكومـت فيهـا أغراض للأطفال، وأخرجت منها شكل لامرأة قبيحـة محفورة بالخشب، وأحضرتها إلى لزلي. كان وجه الشيء مُخططاً باللون الأحمر.

«ها هي، دميتي، صنعها لي والدي - اسمها ليدي ميما».

قالـت ليتي «أحقـاً؟ وهذان خداهـا؟ إنها ليست جميلـة، أليس كذلك؟».

«أوم - بل جميلة. أبي يقول إنها جميلة كالليدي».

«وهو الذي أعطاك أحمر شفتيها؟».

«أحمر شفتيها!» وأومأت برأسها.

«ولن تسمحي لسام بأخذها؟».

«كلا - وأمي قالت، «لا تعطها له»- فعضني».

«ماذا سيقول والدك؟».

«أبي؟»

تدخلتْ الأم «سوف يضحك، ويقول إنَّ العض أفضل من القبلة».

قال لزلي مُشفقاً: «حيوان!».

«كلا، لكنــه لا يؤذهم أبــداً – ولا أنا. لكنه لا يشبه أي رجل آخر – إنه لا يمنعهم عن شيء. لقد أصبح غريباً عنى اليوم أكثر مما كان يوم قابلته للمرة الأولى».

سألتْ ليتي: «وأين كان ذلك؟».

«عندمــا كنتُ حسنــاء في الملهى – وكان وافــداً جديداً – وسيماً ومحترماً، إلى آخره! وحتى الآن هو يُحسن القراءة والكتابة كسيد محترم – لكنّه لا يُكلمني – أوه كلا – لستُ بالنسبة إليه إلا عاهرة قذرة – إنه يتعــالى عليّ، ويتعــالى على أولاده. الرحمة يــا رب، سوف يحضر في الحال. تعالوا إلى هنا!».

دفعــت الأطفــال إلى الإيــواء إلى السرير، وكنســت الأرض نحو إحــدى الزوايا، وبدأتْ تعد المائــدة. كان المفرش نظيفاً، ووضعت له ملعقة من الفضة في الطبق.

عندما خرجنا من المنزل كان يقترب. رأيتُ بنيته الضخمة وهو يمر من الباب، والمراة الولود، الضخمة، تتنقّل في أرجاء الغرفة.

«مرحباً، يا بروسربابين[٤٦] – أكان لديك زوار؟».

«أنــا لم أدعُهم – لقد دخلوا عندمــا سمعوا صراخ الأطفال. أنا لم أُشجعهم –».

---

٤٦ – بروسربابين: في الأساطير الرومانية: ملكة العالم السفلي. – المترجم.

هرعنا نبتعد داخل الظلام.

قالت ليتي بمرارة: «آه، دائماً المرأة هي التي تتحمل العبء».

قالت إميلي: «لو أنه ساعدها – أما كانت امرأة محترمة الآن – رائعة؟ لكنها تمزقت. الرجال بهائم – والزواج يفتح لهم المجال ليكونوا كذلك».

أجاب لزلي: «أوه لا ينبغي أنْ تعتبري هذا مثالاً منصِفاً للزواج. فكري في نفسك وفيّ، ما مينيهاها».

«آه».

«أوه – ما قصدت أنْ أقول – ما رأيك في أنْ نأخذ غريميد مقر القس القديم؟».

هتفت ليتي: «إنه مكان قديم جميل!»، وكنا قد ابتعدنا و لم نسمعها.

أخذنا نتعثّر ونحن نسير على الدرب الوعر. كان القمر مشرقاً، ووطأنا بخوف الظلال التي رمتها الأشجار، لأنها كانت حالكة السواد وضخمة. وكان شعاع القمر يُبرز غصناً أبيض رقيقاً كانت الأرانب قد قضمته حتى جرّدته في الشتاء القاسي. وخرجنا من الغابة إلى السموات المفتوحة. الجهة الشمالية من السماء كانت مملوءة بدفق من الضوء الأخضر؛ في المقدمة، يستلقي برج الجوزاء جلياً على سريره، ومن بعده القمر.

قالت إميلي: «عندما ترتفع أضواء الشمال ينتابني شعور غريب – شبه مُخيف – إنها تملأك بالرهبة، أليس كذلك؟».

قلت: «نعم، إنها تدفعك إلى التساؤل، والتأمُّل، وتوقُّع شيء ما».

قالت برقّة: «ماذا تتوقع؟»، ورفعت بصرها، ورأتني أبتسم، فأطرقت من جديد، وهي تعض شفتها.

عندما وصلنا إلى مفترق الطرق، ناشدتهم إميلي أنْ يلجوا المطحنة – قليلاً – فوافقت ليتي.

كانت نافذة المطبخ غير مغطاة، والستارة، كالمعتاد، ليست مُسدلة. استرقنا النظر من خلال أغصان شجرة صريمة الجدي المتبرعمة. كان جورج وأليس جالسين على الطاولة يلعبان الشطرنج؛ والأم ترفو المعطف، والأب، كالمعتاد، يقرأ. كانت أليس تتكلم بهدوء، وكان جورج منكباً على المباراة، وذراعاه موضوعتين على الطاولة.

أصدرنا ضجيجاً عند الباب، ودخلنا. نهضَ جورج واقفاً بحركة ثقيلة، وصافحنا، ثم عاد إلى الجلوس.

قالت أليس: «مرحبا، ليتي بيردسال، أصبحتِ شخصاً غريباً. هل أنت منهمكة إلى هذه الدرجة في خطبتك؟».

أضاف الوالد بطريقته المرحة: «نعم – لم نعُد نراها كثيراً».

«ثم أليست أنيقة، بقبعتها الجميلة وفرائها وأزهار اللبن الثلجي. انظر إليها، يا جورج، نحن لم نلاحظ من قبل كم هي أنيقة».

رفع بصره، ونظر إلى مظهرها وإلى أزهارها، ولكن ليس إلى وجهها:

قال: «نعم، إنها أنيقة»، وعاد إلى مباراة الشطرنج.

قالت ليتي، وهي تداعب بأصابعها الأزهار التي تزين صدرها: «كنا نجمع أزهار اللبن الثلجي».

قالت أليس، وهي تمد يدها: «إنها جميلة – أعطني بعضها، من فضلك». أعطتها ليتي أزهارها.

قال جورج عن عمد: «كش مات!».

أجابت خصمه «كفاك! لدي بعض أزهار اللبن الثلجي – أليست تناسبني، أنا الروح الصغيرة والبريئة؟ ليتي ترفض أنْ تضعها – إنها ليست خانعة ومتواضعة وبريئة مثلي. أتريد بعضها؟».

«إنْ شئت – لِمَ؟».

«لتجميلك، طبعاً، ولكي تجعلك تبدو خنوعاً صغيراً وبريئاً».

قال: «أنت في حالة كش مات».

«أين يمكن أنْ تضعها؟ – ليس هناك إلا قميصك. أو! هاك! ثبّتت بضع زهرات على شعره الأسود المشوّش – انظري، ليتي، أليس جميلاً؟».

ضحكتْ ليتي ضحكاً قصيراً متكلفاً:

قالت: «إنه أشبه ببطم Bottom ذو رأس الحمار[٤٧]».

«إذن أنـا تيتانيـا – ألا أصلح أنْ أكـون ملكة الجن الجميلة، يا بطم المتنمّر؟ – ومَنْ هو أوبيرون الغيور؟».

قالت إميلي: «إنه يُذكّرني بذلك الرجل في مسرحية «هيدا غابلر» -المُتوَّج بأوراق الكرمة- أوه نعم، أوراق كرمة».

سـأل جورج، دون أنْ يُلاحظ الزهر الذي في شعره: «كيف حال التواء مفصل فرسك، يا سيد تمبست؟».

«أوه – سوف تتحسن حالها قريباً، شكراً لك».

قـال الوالد: «آه – لقـد أخبرني جورج عن هذا»، وفتح حديثاً مع لزلي.

قالـت أليس، بعد أنْ عادت إلى مباراة الشطرنج: «إذن تطلب مني أنْ أكشّ، يا جورج؟». عقدت بين حاجبيها وأمعنت في التفكير:

قالـت: «بوووه! الحل سريع!»- وحرّكتْ قطعتها، وقالت بلهجة المنتصر، «والآن، يا سيدي!».

استعرضـ اللعبة، ثم قام بحركة بعد تدبُّـر. فانقضّت أليس عليه؛ وبقفزة من فرسها هتفت «كش!».

---

٤٧ – الإشـارة هنا وفي الأسطر التالية من الحـوار إلى مسرحية وليم شكسبير «حلم ليلة صيف»، حيث يقوم ملك الجان، أوبيرون، في ثورة من الغيرة من زوجته، تيتانيا، بإعطائهـا عقاراً سحرياً يجعلها تقع في غرام مسخ له رأس حمار، اسمه نيك بوطم. – المترجم.

قال: «لم أرها – قد تفوزين في المباراة الآن».

«لقد هُزِمتَ، يا بنيّ! – إياك أنْ تشمت بامرأة بعد الآن. قُضيَ عليك – مع زهر في شعرك!».

وضع يده على رأسه، وأخذ يتحسس بين شعره، ورمى بالزهر على الطاولة.

قالت الأم، وهي تلج الغرفة من الملبنة: «أتصدقون –!».

سألنا كلنا «ماذا؟».

«القط نيكي بن كان يتبرز وأكل القماش القطني. نعم! وعندما ذهبت لأزيل القذارة، كان نيكي بن يتلع ويمسح الزبد عن شاربه».

ضحك جورج من كل قلبه وبصوت عال. ظل يضحك إلى أنْ ناله التعب. راقبته ليتي متسائلة متى سينتهي.

شهق «أتخيل شعوره بينما نصف ياردة من الموسلين تزحف داخل حلقه».

ذلك الضحك لم يكن لائقاً. وانغمس في نوبة ضحك أخرى. وأليس ضحكت أيضاً – من السهل الإصابة بعدوى الضحك. ثم ضحك الوالد – ثم دخل نيكي بن، بخطى تدعو إلى الرثاء – وعدنا نهدر من جديد بالضحك، إلى أنْ اهتزت عوارض السقف. وحدها ليتي بدت أنها تنتظر النهاية بنزق. مسح جورج الطاولة بذراعيه العاريين، فسقط تثار الأزهار الصغيرة على الأرض.

هتفت ليتي: «أوه – خسارة!».

قال، متلفتاً حوله: «ماذا؟ أزهارك؟ أتشعرين بالأسف عليها؟ – أنت حساسة أكثر مما ينبغي؛ أليست كذلك، يا سيريل؟».

قلت: «لطالما كانت كذلك – على الحيوان الأعجم وعلى الأشياء».

قالت أليس: «ألا تتمنى لو كنت حيواناً صغيراً أعجم، يا جورجي؟».

ابتسم، مُنحياً البيادق جانباً.

قالت ليتي للزلي: «ألا نرحل، يا عزيزي؟».

أجاب، ناهضاً بخفّة: «إنْ كنت جاهزة».

قالت بكآبة: «أنا مُتعبة».

أخذ يُغدق عليها عبارات الغزل الصغيرة والرقيقة.

سأل: «هل بالغتِ في المشي؟».

«كلا، ليس الأمر هكذا. كلا – السبب هو زهر اللبن الثلجي، والرجل، والأطفال – وكل شيء. إنني أشعر فقط ببعض الإرهاق».

قبّلتْ أليس، وإميلي، والأم.

قالت: «تصبحين على خير، أليس. ليس خطئي أننا أصبحنا

غرباء. أتعلمين – حقاً – أنا لم أتغيَّر – حقاً. أنتِ فقط تتخيلين، ولكن أعود فأقول ماذا في وسعي أنْ أفعل؟».

ودّعت جورج، ونظرت إليه من خلال ارتعاش دموع مكبوتة.

كان جورج متورداً قليلاً من انتصاره على ليتي. ذهبت إلى منزلها مع دموع انهمرتْ من عينيها لم يعلم حبيبها بأمره؛ وفي المزرعة اشترك جورج مع أليس في الضحك.

واكبنا أليس إلى منزلها في إيبر ويتش – «كقرد صغير نضر يتدلى من غصنين» حسب تعبيرها، عندما أخذنا نؤرجحها على أذرعنا. وضحكنا وتفوهنا بأشياء كثيرة فظيعة. أراد جورج أنْ يُقبّلها عند الفراق، لكنها نقرتْ تحت ذقنه وقالت «ظريف!»، كما يفعل المرء مع طائر كاناري. ثم ضحكتْ وهي تضع لسانها بين أسنانها، وهرعت إلى الداخل.

قال: «إنها شيطانة صغيرة».

طرقنا الدرب الطويل إلى المنزل بجوار غريميد، ومررنا بالمدارس المُظلمة.

قال: «هيا، دعنا ندخل نُزُل رام، ونزور قريبتي ميغ».

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما اجتاز بي الطريق ومنه إلى الممر المفروش بالرمل الخاص بالنُّزل الصغير. كان المكان في أيام عم جورج الأكبرمزرعة ذات اهمية، لكنَّ أحوالها تدهورتْ منذ وفاته، في ظل إدارة أرملة وخادم يقوم بأعمال شتى. وساعدتْ العمة الكبرى

العجوز ودعمتها حفيدةٌ كبرى رائعة، وكان أقرباء ميغ كلهم يُقيمون في كاليفورنيا، فمكثتْ الفتاة، المبهجة والنحيلة ذات الرابعة والعشرين ربيعاً، بجوار جدّتها.

بينما كنا نطأ الممر بخطى صارّة، برز رأس بيل الأحمر من البار، وقال عندما تعرّفَ إلى جورج:

«مساء الخير - تعال - هنا لم ينم أحد بعد».

«تقدّمنا، وفتحنا باب المطبخ. كانت العمة الكبرى جالسة على أريكتها الصغيرة، ذات الظهر المستدير، ترشف مشروب قبل النوم».

هتفت، بصوتها البرِم: «جورج، يا بنيّ! لا أصدق أنه أنت. لابد أنك قادم من أجل اجتماع، وإلا ما الذي أتى بك إلى هنا إنْ لم يكن لتراني؟».

قال: «كلا، أنا لم آتِ لأراك، ولا لشيء آخر. أين ميغ؟».

«آه! - ها - ها - آه! أتقول ميغ؟ أتيت لتراني؟ - ها - أين ميغ! - ومَنْ هذا الشاب؟».

تم التعريف بي بصورة رسمية، وصافحت يد السيدة العجوز الباردة وبارزة العروق.

علّقت، وهي تهز قلنسوتها بما عليها من أزهار إبرة الراعي القرمزية بحزن، «يبدو أنَّ هذا هو المرجَّح: تعال، اجلس، تبدو طويلاً جداً».

جلست على الأريكة، على وسائد مغطاة بمربعات حمراء وزرقاء. كانت الغرفة شديدة الحرارة، وأخذت أحدق حولي بانزعاج. جلست

العجوز تمعن النظر إلى الفراغ، متأملة. كانت قسمات وجهها قاسية، ولا صدر لها، ترتدي ثوباً أسود يشبه الدرع، وتضع دبوساً ضخماً من الذهب المشغول على التخريم المُحيط بعنقها.

سمعنا فوقنا وطء خطوات ثقيلة وسريعة.

علّقت العجوز، خارجة من حالة الفتور: «ها هي قادمة». هبطت الخطوات إلى الطابق السفلي - مسرعة، ثم حذرة عند المنعطف. ظهرت ميغ عند ممر الباب. أجفلت مع دهشة، قائلة:

«في الواقع، لقد سمعت وجود شخص، ولكن لم يخطر لي أنه أنت»، كانت وجنتاها اللامعتان لا تزالان متوردتين، وابتسمت بطريقتها النضرة، والصريحة. أعتقد أنني لم أر أبداً امرأة تفوقها في السحر الجسدي؛ كان كل منحنى فيها وكل حركة تتصف بفتنة شهوانية؛ والمرء لايصغي إلى الكلمات التي تخرج من بين شفتيها، بل يراقبُ الحركة الناضجة لتينك الثمرتين الحمراوين.

«أحضري لهم بعض الويسكي يا ميغ - ألا ترغبان في الشرب؟».

رفضتُ بحزم، لكنني لم أتمكن من الفرار.

أعلنت العجوز «كلا، لن أقبل رفضك. هل يعجبك؟ - اطلب ما تشاء وسوف تناله».

لم أقُل شيئاً.

أعلنت مُضيفتي «قدّمي له نبيذ كلاريت، مع أنه ليس من الجيد الإيواء إلى السرير بعد شربه»- وشربنا كلاريت.

خرجت ميغ من جديد لتسأل عن الإغلاق. تنهدت العمة الكبرى، وتنهدت من جديد، من دون أي سبب مفهوم غير الويسكي.

أنّتْ «لطيف منك أنْ تأتي لتراني الآن، لأنه لن تُتاح لأحد منكم فرصة أخرى لكي يأتي - كلا - لم يبقَ مني غير قلنسوتي -» وهزّت ذلك الرأس الذي يحمل زهر إبرة الراعي، وتساءلتُ أي قدر ساخر تركها وراءه.

أضافت، بعد بضع تنهدات: «وأنا مُضطرة إلى قول إنني سأكون ممتنّة إذا متّ».

تعب الجسد ذاك كان مؤثّراً. لكنّ الحقيقة القاسية هي أنَّ السيدة العجوز كانت تتشبّث بالحياة كتشبُّث قملة بمؤخرة خنزير. لقد أعلنت نفسها، بوهن، ولكن بتشديد، وهي تحتضر، أنها «أفضل قليلاً - أفضل قليلاً. غداً سأنهض».

تابعت: «كان ينبغي أنْ أموت قبل الآن، لولا هذه الفتاة المباركة -لا أستطيع أنْ أتحمل فكرة تركها هنا- هيا اشرب، يا ولدي، اشرب- كلا، لا زلت شاباً، وهذا مجرد ملء كشتبان».

قبلت الويسكي مفضلاً إياه على المشروب اللاذع.

تابعت العمة الكبرى: «نعم، لا يمكنني أنْ أرحل بسلام إلا بعد أنْ تستقري - وهذه مسألة اختيار. ليس من الحكمة فصلها من العمل».

تنشقت، والتفتت بازدراء نحو كأسها. كشّر جورج وبدا عليه

الارتبـاك؛ وعندمـا ابتلع جرعة مـن الويسكي قعقعـت في حنجرته. أزعج الصوت السيدة العجوز.

قالـت: «هذا قد يكون مُخيفـاً في الاجتماع. إنـه لا يُضيف أدنى مقدار من الشجاعة فيك».

التفتـت من جديد إلى كأسها مع تنشق. تجهمت بغضب، وملأت كأسه حتى منتصفه من المشروب، وشربت من جديد.

«إنني أجرؤ على المراهنة على أنك لم تُقبّل فتاة في حياتك - هذا لا يجوز»- ورمت بالقطرات الأخيرة من مشروبها إلى بلعومها النحيل.

جاءت ميغ على طول الممر.

قالت «هيا، يا جدتي. أنا متأكّدة من أنَّ الوقت قد حان لتأوي إلى السرير - هيا».

«اجلسي واشربي قليلاً من هذا - لا يأتينا ضيوف في كل ليلة».

«كلا، دعيني أرافقك إلى السرير - أنا متأكّدة من أنك مستعدة».

«أقـول اجلسـي هنا، وخذي جرعـة من البورت. هيـا - كفاك ثرثرة».

أحضرتْ ميغ المزيد مـن الكؤوس وإناء خمر. أفسحت مكاناً لها بينـي وبين جورج. وشربنـا كلنا نبيذ بورت. وقامـت ميغ، الساذجة والـلا واعيـة، على خدمتنـا بصـورة لذيـذة. عندما تضحـك تلمع

وجنتاهـا كالساتان، ما عـدا عندما تمنع غمازتاها تشـكل الظل. عنقها الرقيـق، الأسمر كان عارياً وفاتناً. فجأة التفتت نحو جورج عندما طرح عليها سؤالاً، ووجـدا وجهيهما شديدي القُرب. فقبّلها، وعندما نفرت متراجعة، قفز وقبّل عنقها بحرارة.

هتفـت العجوز مبتهجة، وقبضت على كأسها من النبيذ، «لا - لا - دي - دا - ٠ لا - دي - دا - دي - دا».

هتفت: «هيا - فلنشرب! كلنا معاً - فلنشرب في صحته!».

قرعنـا نحن الأربعة الكؤوس وشربنـا. صبّ جورج النبيذ في قدح، وشربـه دفعة واحدة. كان يزداد إثـارة، وبدأت طاقته كلها وشغفه اللذان في المعتاد يلجمهما بحذره وبغريزته بالالتهاب.

قـال، وهو يرفع قدحه: «في صحتك، يا عمتي! في صحة ما تريدين - كما تعلمين!».

هتفـت: «أعلم أنَّ هذا كان يُثير الحماس في أي منكم. ولا أحد يريد أنْ يتحمس. سوف أقبلكم كما أنتم. هذه صفقة. في صحتكم، جميعاً».

قال، قبل أنْ يضع شفتيه على الكأس: «صفقة».

قالت ميغ: «أي صفقة هذه؟».

ضحكـت العجوز بصـوت عال وغمزت لجورج الـذي، ولا تزال شفتـاه مبللتـين بالنبيـذ، نهضـ وقبّل ميغ مـع فرقعة، قائـلاً: «ها هو - توقيعي».

مسحت ميغ وجهها بمئزر كبير، وبدت منزعجة.

وناشدت جدتها: «ألن تأتي، يا جدتي؟».

«آه، تريـد أنْ تبعدني – ما قولك يا جورج – امرأة عويصة، أليس كذلك؟».

«لا أريد أنْ أذهب، يا عمتي، لا أريد أنْ أُجبر على الرحيل».

نخـرت العجـوز «هس – كفـى. نعم، أنت بطيئـة، ولا شك في هذا! هات شمعة، ميغ، أنا مستعدة».

جلبتْ ميـغ شمعداناً نحاسياً لغرفة النـوم. وأحضر بيل النقود في علبة من التنك، ووضعه بين يدي العجوز.

قالت للخادم القبيح والذابل: «اذهب إلى سريرك يا فتى»، فجلس في الركن وخلع حذاءه ذا الرقبة الطويلة.

قالـت العجوز: «تعـال وقبّلني قبلة المساء، يـا جورج»– وعندما فعـل همسـتْ له في أذنه، وعلـى الأثر ضحك بصـوت عالٍ. صبّت الويسكي في كأسها ونادت على الخادم كي يأتي ويشربه. ثم، نهضت بتثاقُـل، واتّكأتْ على ميـغ وارتقتا إلى الطابق العلـوي. كانت امرأة ضخمـة الجثة، وهذا واضح، أما الآن فشكلهـا غير المتناسق، وقامتها المكسورة، بدتا مثيرتين للشفقة إلى جوار شكل ميغ البهيّ. سمعناهما ترتقيـان لـدَرَج ببطء، وعناء. جلس جورج وهو يشـد شاربه مع شبه ابتسامـة؛ كانـت عيناه تشعـان بتلك النظـرة الصبيانيـة الخاصة التي

يرسمها عندما يختبر أحاسيس جديدة وملؤها الشك. ثم صبّ لنفسه المزيد من الويسكي.

قلت أحثّه: «يكفي هذا».

أجاب، مُستمتعاً بالشرب طفل مُدلل وهو يضحك، «و لِمَ!».

بيل، الذي كان قد جلس بعض الوقت ينظر إلى الثقب في جوربه، جرع ما في كأسه حتى آخر قطرة، ومع «تصبحون على خير» حزينة، ارتقى إلى الطابق العلوي بخطوات تصرّ.

سرعان ما هبطتْ ميغ، ونهضتُ وقلت إننا يجب أنْ نرحل.

قالت، وهي واقفة تنتظر بانزعاج، «سوف أرافقك وأوصد الباب خلفك».

نهض جورج واقفاً. قبض على حافة الطاولة لكي يتوازن؛ ثم حقق توازنه، وقال، وعيناه على ميغ:

وهنا أومأ برأسه إليها: «تعالي إلى هنا، أريد أنْ أطلب منك شيئاً».

نظرتْ إليه، نصف مبتسمة، ونصف مرتابة. أحاطها بذراعيه ونظر عميقاً في عينيها، ووجهه شديد القرب من وجهها وقال:

«هيا نتبادل القُبل».

سلّمت له فمها دون أية مُقاومة، وهي تنظر إليه بإمعان بعينيها البنّيتين البرّاقتين. قبّلها، وشدّها بقوة إليه.

قال: «سوف أتزوجك».

أجابت، بنعومة، نصف سعيدة، ونصف مرتابة: «افعل!».

كرر قائلاً، ضاغطاً إياها أكثر عليه: «سأفعل وأكثر».

مشيت على طول الممـر، ووقفتُ في ممر الباب المفتوح أطلّ على الليل. بـدا أنه مرّ وقت طويل. ثم سمعتُ صوتـاً رفيعاً لامرأة عجوز عند أعلى الدَّرَج:

«ميغ! ميغ! اتركيه يرحل الآن. هيا».

وسـط الصمت الـذي تلا كانت هناك غمغمـة أصوات، ومن ثم وصلا إلى الممر.

صـرخ الصوت كغول من المناطق العليا، «تصبح على خير يا فتى، وحظاً سعيداً لك!».

قبّل خطيبته قبلة وداع سريعة عند الباب.

أجابـت، بنعومـة، وهـي تراقبه يبتعـد، «تصبح علـى خير». ثم سمعناها ترتج الأقفال الثقيلة.

باشر بالقول: «أتعلم»، وحاول أنْ يتنحنح. كانت حنجرته خشنة ومختنقة من فرط الإثارة. حاول من جديد:

«أتعلم – إنها – إنها ممتازة».

لم أُجِبْ، لكنه لم ينتبه.

قال فجأة: «اللعنة! لِمَ تركتها ترحل!».

تابعنا السير في صمت - خفّتْ حماسته قليلاً.

«إنها الطريقة التي تميل بجسمها - وانعطافاته وهي واقفة. عندما تنظر إليها - تشعر - كما تعلم».

أعتقد أنني كنتُ أعلم، ولكن لم يكن ضرورياً الجهر بهذا.

«أتعلم - إذا ما حدث وحلمت في الليل - بالنساء - كما تعلم - دائماً أرى ميغ؛ تظهر شديدة النعومة، وتنعطف بجسمها -».

بدأتْ قدماه بالتدريج تُبطئ في حركتها. عندما وصلنا إلى المكان الذي تتقاطع عنده سكة قطار منجم الفحم مع الطريق، تعثّر، ووثب نحو الأمام، وبالكاد استعاد توازنه. أمسكته من ذراعه.

قال: «يا إلهي، يا سيريل، أأنا سكران؟».

قلت: «ليس بالضبط».

تمتم: «كلا، لا يمكن أنْ أكون كذلك».

لكنَّ قدميه أبطأتا من جديد، وبدأ يترنح من جانب إلى جانب. أمسكته من ذراعه. تمتم بغضب - ثم، استرخى من جديد، وتمتم، بطريقة متخلفة:

«أنا - أشعر بأنني سأسقط وأستغرق في النوم».

على طول الطريق الصامت، الميت، وخلال ظلام الغابة المتباين،

شققنا طريقنا وتعثّرنا. كان ثقيل الوزن ومن الصعب توجيهه. وعندما وصلنا أخيراً إلى الجدول خضنا في مياهه. وحثثته على المشي بثبات وهدوء عبر الفناء. وبذل أقصى جهده، وولجنا المزرعة بثبات معقول. سقط بكل ثقله على الأريكة، ومال إلى الأمام لكي يحل واقي ساقيه. ووسط هذه العملية استغرق في النوم، وخشيتُ أنْ يسقط نحو الأمام على رأسه. فقمت بالنيابة عنه بنزع الواقي وخلعت عنه حذاءه ذا الرقبة الطويلة وياقة قميصه. ثم، بينما كنتُ أدفعه وأهزّه لكي يفيق ويخلع عنه معطفه، سمعتُ صريراً على الدَّرَج، فغاص قلبي لأنني حسبتُ أنها أمه. لكنها كانت إميلي، بمنامتها البيضاء الطويلة. نظرتْ إلينا بعينيها الواسعتين السوداوين من فرط الرعب، وهمست: «ما الأمر؟».

هززتُ رأسي نفياً ونظرتُ إليه. كان رأسه قد تدلى من جديد على صدره.

سألتْ، وقد أصبح صوتها مسموعاً، وخطراً: «أهو جريح؟». رفع رأسه، ونظر إليها بعينين ثقيلتين، غاضبتين.

قالت بحيرة وخوف حادّين: «جورج!». وضاقت عيناه بتعبير شرير.

همست، وهي تنكمش مبتعدة، وتنظر إليّ: «أهو سكران؟ أتركته يسكر – أنت؟».

أومأتُ إيجاباً. أنا أيضاً كنتُ غاضباً كذلك!.

هذا الهمس الصافر أثــار أعصابه، وأعصابي. شددته من معطفه. فزمجر بتنافُر، وسبّ. حبست أنفاسها. فرماها بنظرة حادة، وخشيتُ أنْ يستيقظ ويثور غضباً.

همســتُ لها: «اصعدي إلى الطابق العلوي!». وجدتُ أنه يتنفّس بصعوبة، وأنَّ عروق رقبته تنتفخ. وشعرت بالحنق لعصيانها أمري.

قلــت بشراسة: «اذهبي فوراً»، فذهبــت، ولا تزال مترددة وتنظر خلفها.

كنــتُ قد نزعت عنه معطفــه وصدريته، لكــي أجعله يغوص من جديــد في حماقته بينما أنزع عنه حــذاءه ذا الرقبة الطويلة. ثم أنهضته ليقف على قدميه، ومشيــت خلفه، مُجبراً إياه على ارتقاء الدَّرَج ببطء. أشعلت شمعة في غرفة نومه. لم يصدر أي صوت من الغرف الأخرى. فجردتــه من ملابســه، ووضعته أخيراً في سريره، بصــورة أو بأخرى. غطيتــه ووضعت فوقه بطانية جلد العجــل، لأنَّ الليل كان بارداً. وفي الحــال تقريباً بدأ يتنفســ بعمق. قلبته على جنبــه، وأرحت رأسه على الوسادة. بدا، وهو نائم، أشبه بصبي مُتعب.

وقفــتُ ساكناً، وقــد شعرت الآن بأنني وحــدي، وتلفّتُ حولي. ارتفعــت حتى السقف المنخفض أعمدة محفورة من خشب الماهوغاني القاتم؛ كان هناك كرسي بجــوار السرير، ودولاب صغير أصفر اللون مــن الأدراج بجوار النافذة، وهما كل ما يوجــد من قطع الأثاث، ما عدا بساط جلد العجــل الممدود على الأرض. لاحظتُ وجود كتاب في الأدراج، نسخــة من «رباعيات الخيام» كانت ليتي قد أعطته إياها

عندما كانت تقرأ الخيّام، كتاب صغير بشلن مزود بصور توضيحية ملونة.

أطفأتُ الشمعة، بعد أنْ نظرتُ إليه من جديد. وعندما كنتُ أتسلّل إلى منبسط الدرج، أطلّت إميلي من غرفتها، هامسة، «هل أوى إلى السرير؟».

أومأتُ برأسي إيجاباً، متمنياً لها ليلة هانئة همساً. ثم عدتُ إلى المنزل، مُرهقاً.

بعد تلك الليلة في المزرعة، تقاربتْ ليتي ولزلي أكثر. غاصاً على فترات في دوامة جدول الغرام الصغير، يمرحان وينجرفان معاً ويفترقان. لم يكن راضياً وبذل أقصى جهده لتقريبها منه، صاغرة. واستسلمتْ تدريجياً، خضعت له. وتدثرتْ معه بستارة الحاضر الآمنة، وجلسا كطفلَين يلعبان خلف ستائر سرير قديم. وأوصدت دونهما المشاهد النائية كلها، كما يفرش العربي خيمته ويقهر لغز الصحراء ومداها. كذلك عاشت بمرح في خيمة المباهج والأخيلة الحاضرة الصغيرة.

على فترات، فقط على فترات، كانت تُبرِزُ رأسها من خيمتها إلى المدى الممتد. ثم تجلس وتستغرق في قراءة الكتب، لا شيء يستطيع أنْ يُشتت انتباهها؛ أو تجلس في غرفتها تطل من النافذة على مدى ساعات طوال. وبررت سلوكها بإصابتها بالصداع؛ وأمها قالت إنه الكبد؛ وهو أعلن، غاضباً كطفل مُدلل حُرِمَ من رغبته، أنه تقلّب المزاج وسوء طبع.

الفصل الثاني

شبحٌ في الربيع

مع حلول الربيع جاءت المشاكل. فقد أعلن آل ساكستون أنَّ الأرانب التهمت الضيعة. وفجأة، في نوبة من اليأس، اشترى الأب بندقية. وعلى الرغم من عِلمه أنَّ سكواير لن تسمح ولو للحظة بإطلاق الرصاص على تلك النعمة، الأرانب، إلا أنه خرج في صباح باكر أول يوم بارد وبدأ يُطلق النار. في أول الأمر أخاف الحيوانات، وجذب أنابل إلى مسرح الحدث؛ وبعد أنْ تلطخت يداه بالدماء من استعمال السلاح، أشاع الخراب بين حشود الحيوانات ذات الفرو، وجلب إلى المنزل حوالي ثمانية أو تسعة أزواج منها.

أُعجبَ جورج كلياً بهذا الإجراء؛ بل ابتهج؛ لكنه لم يُبادر أبداً إلى القيام بمثله، أو حتى إلى حثّ والده عليه. لقد تكهن بحدوث مشاكل، وبوقوع خسارة ممكنة للمزرعة. وقد انزعج قليلاً لفكرة أنَّ عليهم أنْ يبحثوا عن مكان آخر، لكنه أرجأ التفكير في اليوم المشئوم إلى أنْ يأتي حينه. كان هناك ثأر راسخ بين الطاحونة والحارس، أنّابل. هذا الأخير يعتني بأرانبه:

قــال: «اعتبِرهـم حيوانات مؤذية! أما أنــا فأعرف نوعاً واحداً من الحيوانــات المؤذية – وهــي الحيوانات الناطقة». وهكــذا سخّر نفسه لإعاقة قاتلي الأرانب ومُضايقتهم.

في ذلك الوقت تقريبــاً تعرَّفتُ على الحارس. الناس كلهم كرهوه – وبالنسبة إلى أهالي القرى كان شيطان الغابات. بعض عمال المناجم كانــوا قــد أقسموا علــى الانتقام منه لأنــه تسبّــب في التزامهم بغاية. لكنــه كان بالنسبة إليّ صاحــب جاذبيّــة طاغية؛ ببنيته الجسدية الهائلة، ونشاطه وحيويته العظيمين، ووجهه ذو البشرة السمراء، الكئيب.

كان يحمل فكرة واحدة في رأسه: – إنَّ الحضارة برمتها هي فِطر العفن الملوّن. كان يكره أية دلالة على الثقافة. وقد فزتُ باحترامه بعد ظهــيرة أحد الأيام عندما وجدني أتعدّى على الغابة لأنني كنتُ أراقبُ بعض اليرقات وهي تنهش في جثّة أرنب. وقادنا ذلك إلى فتح حديث عــن الحيــاة. كان مادياً قلبــاً وقالباً – يحتقر الديــن ومظاهر التصوف كلها. يُمضي أيامه نائماً، أو يصنع أفخاخاً معقدة لأبناء عرس وللناس، أو يُركّــب بندقيــة، أو يقوم ببعضــ الأعمال الحراجيــة جديرة بهاو، ويقطــع شجرة، ويُقطّعهــا إلى زنود لاستخدامهــا في القاعة الرئيسة، ويزرع أشجاراً صغيرة. وعندمــا يلجأ إلى التفكير، يتأمّل في انحطاط البشرية – في انحــدار الجنس البشري نحو الحماقة والضعف والعفن. وكان شعــاره: «كــن حيواناً جيــداً، صادقاً مع غريزتــك الحيوانية». ومــع هذا كله، كان في أعماقه شديد التعاسة – وجعلني أنا أيضاً أشعر بالتعاسة. وهذه القدرة على التعبير عن تعاسته، في اعتقادي، هي التي قرّبتنــي بصورة مــا إلى قلبه. عاملني كما يُعامــل أبٌ مُحبّ ابنه الرقيق؛

ولاحظتُ أنه يحب أنْ يضع يده على كتفي أو رُكبتي في أثناء حديثنا؛ ومع ذلـك، كان يطرح علـيّ أسئلة، ويحتفظ بأفـكاره ليُخبرني بها، ويؤمن في معرفتي كأي قندلفت[٤٨].

وذات مساء في أوائل شهر نيسان، ذهبتُ إلى غابة مقلع الحجارة، بحثـاً عن أنّابل. لكنـني لم أعثر عليه في الغابة. فغـادرت أرض البرية ورحــت أمشي بمُحــازاة الجدار الأحمر القديم لمطبــخ الحديقة، وعلى طول الدرب الرئيس حتى وصلت الكنيسة المتهدمة القائمة عالياً على منحــدر على جانب الطريـق، حيث تشق الأشجار نفقـاً في الظلام، وكآبـة الطريــق العامة تُجفِـل المسافرين عنــد الظهيرة. وفجــأة تطغى الأشجــار الضخمــة الناميــة على الضفــاف على كل شــيء عند تلك النقطــة من الطريق الشاسعــة، والغموض يُفسِد كنيســة هول، سوداء وكئيبة تطل على الرأس المنكمش للمسافر.

الــدرب المعشوشب المؤدي إلى فناء الكنيسة كان لا يزال مسدوداً بــالأوراق الميتــة. الكنيسة مهجــورة. ولدى اقترابي طــار بوم بهدوء خارجــاً من الــبرج الأســود. كان العشب ينمــو بغزارة علــى العتبة. دفعــت الباب لأفتحــه، طاحناً نحو الخلف ركاماً مــن الجص الساقط والقمامــة، وولجتُ المكان. في الغسق كانت صفوف مقاعد الكنيسة تميل بفوضى مخيفة، وكتب الصلاة سقطت عن رفوفها، وانتثرت على الأرضـ في الغبار والبقايا، مزّقتها الجرذان والطيور. الطيور تندفع في ظــلام السقف. نظرت عالياً. في الجزء العلوي من مهوى البرج رأيت

---

٤٨ - القندلفت: مساعد الكاهن في أداء القدّاس.

الناقوس متدلياً. انحنيت والتقطتُ قطعة من الجص من بين فوضى عارمة من الريش، والأعشاش المكسورة، ورفات طيور ميتة. رحت أرمي قطعاً من الجص فوق رأسي نحو القنطرة إلى أنْ أصابت إحداها الناقوس، «فضجَّ» بنغمة احتجاج واهنة. وتناهت خشخشة العديد من العصافير كالأرواح. ثم قرعت الناقوس من جديد، فتحركت فوقي أشكالٌ غامضة مع صراخ الفزع، وسقط شيء ما بقوة. ارتعشتُ في المكان المُظلم، الذي يفوح برائحة الشر، وهرعتُ خارجاً من الباب. شددتُ على يديّ ارتياحاً وسروراً عندما شاهدتُ السماء فوقي ترتعش مع آخر الأضواء المتلألئة، وآخر حُمرة لغروب الشمس من خلف جذوع أشجار الطقسوس. جرعت الهواء النقي المتلألئ بضجيج طيور الشحرور والسُّمنة وهي تنشد ألحانها المشرقة والقوية.

رحت أتسكع إلى مكان شواهد القبور، من حيث تبرز، وملتُ لأنظر إلى كنيسة هول في الأسفل، حيث نوافذ واسعة تعكس ضوءاً أصفر على بلاط الفناء، وبركة السمك الصغيرة. ثمة درَج حجري يهبط من المقبرة إلى الفناء، بين درابزين حجري لا زالت أعمدته الرمادية المنقورة شامخة بجمال وسموّ، ومكسوة بالأشنة. ومهوى الدرج المملوء باللبلاب وبالورد المتعرش - لا يمكن اجتيازه. كان السرخس ينتشر في أرجاء بقعة الموقف المربعة الكبيرة، في منتصف طريق الهبوط عند منعطف الدَّرَج.

في الأرض الخلفية التابعة لهول أجفل طاووس، انتقل مُرفرفاً من المسطبة إلى فناء الكنيسة. ثم عبرَ وقعُ خطى ثقيلة الأرضَ المُبلّطة. إنه الحارس. صفّرت الصفير الذي يعرف، فقطع مسار طريقه خلال

أغصان الورد الوحشي أعلى الدرج. رفرف الطاووس خلفي، وانتقل إلى عنق ملاك قديم منحن، خشن و قاتم، ملاك كفَّ عن الحزن على لوسي الضائعة منذ زمن بعيد، ومات هو أيضاً. حنى الطائر عنقه المُبهج وأخذ ينظر حوله. ثم رفع رأسه وزعق. مزّق الصياح حرم الغسق المُظلم. بدا العشب الرمادي القديم كأنه يتحرك، وتخيّلت الورد المختنق والبنفسج من تحته يستيقظون يشهقون من الخوف.

نظر الحارس إليّ وابتسم. أومأ برأسه نحو الطاووس، قائلاً:

«اصغِ إلى هذا الشيء الملعون!».

من جديد رفع الطائر رأسه المتوَّج وأطلقَ صراخاً، وفي الوقت نفسه استدار بحركة خرقاء على ساقيه القبيحتين، بحيث عرضَ علينا كامل ثراء ذيله يتلألأ كجدول من النجوم الملونة يمر على الوجه الغارق للملاك.

«يا للأحمق المتكبر! - انظر إليه! يجثم على الملاك، أيضاً، وكأنه قاعدة للتفاهة. هذه هي روح المرأة - أو الشيطان».

صمت بعض الوقت، وراقبنا الطائر الكبير يتحرك باضطراب أمامنا في الغسق.

قال: «هذا هو بالضبط روح السيدة المحترمة، روح، روحها. اللعنة على هذا الشيء، وهو جاثم على ذلك الملاك القديم. أودّ لو ألوي عنقه».

مـن جديد زعق الطائر، وتنقّل بحركة خرقاء على ساقيه؛ بدا كأنه يمـد منقاره نحونا ساخراً. التقط أنّابـل كتلة من الطبقة العليا من التربة وأطاح بها نحو الطائر، قائلاً:

«اخرج، أيها الشيطان الزاعق! يا إلهي» وضحك. «لابد أنَّ هناك الكثـير من القلوب تتلوى تحت هذا المكان»- ووطأ على أحد القبور، «عندما تسمع هذا التجديف».

رفسـ قطعة أخرى من التربة عن القبر ورماها على الطائر. رفرفَ الطاووس مبتعداً، فوق الأجداث، وإلى أسفل المسطبات.

قال: «فقط انظر! لقد لوّث الوحش البائس ذلك الملاك. إنه امرأة حتى آخر رمق، أؤكد لك، كتلة من الغرور والزعيق والنجس».

جلس على أحد الأقواس وأشعل غليونه. ولكن قبل أنْ تمر دقيقتان على التدخين، انطفأ من جديد. لم أكن قد رأيته في مثل تلك الحالة من الاضطراب.

قلـت: «الكنيسة عفنة. أعتقد أنهم قريباً سيقفون هكذا في أرجاء البلد كله – مع طواويس يتمشون في أفنية المقابر».

تمتم: «نعم»، دون أنْ ينتبه إليّ.

قلت، وأنا أنهض: «الحجر بارد».

هـو أيضاً نهضَ واقفاً، ومـطّ ذراعيه وكأنه مُتعب. كان الظلام قد عمّ، ما عدا القمر الذائب المتكئ على جهة الشرق.

قلت: «إنها ليلة رائقة جداً. ألا تلاحظ عبق البنفسج؟».

«نعم! القمر يبدو أشبه بامرأة حبلى. أتساءل ما الذي وضعه الزمن في بطنه».

قلت: «أنت؟ أنت لا تتوقع أي شيء مُثير، أليس كذلك؟».

«مُثير؟ – كلا – إثارته لا تزيد عن الإثارة التي يُحدثها هذا المكان العتيق والعفن – فليتعفّن – أوه، يا إلهي! – إنني كمنزل جيد، بُنيَ وانتهى بناؤه، ثم تُرِكَ ليتهدم من جديد دون أنْ يسكنه أحد».

«لِمَ – ما الأمر – حقاً؟».

ضحك بمرارة، قائلاً: «تعال واجلس».

قادني إلى مقعد بجوار الباب الشمالي، يقع بين صفين من المقاعد، في مكان شديد السواد والصمت. جلسنا، ووضع بندقيته بعناية إلى جواره، ولزم السكون التام، مفكّراً.

أخيراً، قال: «ما الأمر؟ – لا داعي – أنا سأخبرك. ذهبتُ إلى كمبريدج – والدي كان تاجر خنازير – توفي مفلساً بينما كنتُ في الجامعة، و لم أتمكن من نيل شهادتي. أقنعوني بأنْ أُصبح قساً، وهكذا أصبحت».

ذهبت وأنا مساعد خوري إلى مكان صغير في ليسسترشير – موقع جميل، سكانه قليلون، مع كنيسة قديمة رائعة، ومنزل كبير ومرفّه للقس. لم يكن لدي الكثير من العمل، وكان الكاهن – وهو ابن إيرل

- كريماً. أعارني حصاناً وكان يرسلني إلى الصيد أسوة بالآخرين. وأنا دائماً أفكر في ذلك المكان تفوح منه رائحة أزهار صريمة الجدي عندما يكــون العشب مُخضلاً بالماء صباحاً. كان رائعاً، واستمتعت في الإقامة هنــاك، وأديتُ عمل الأبرشية على أكمل وجه. أعتقد أنني كنتُ جيداً جداً.

«كانــت تــتردد على الكاهن قريبــة له في موسم الصيــد - اسمها ليــدي كريستابل، ليدي بكل معنى الكلمــة. في العام الثاني لوجودي هناك جاءت في شهر حزيــران، لم يكن هناك الكثير من الناس، لذلك كانــت تتحــدث معي - حينئذٍ كنــتُ متعوداً على القــراءة - وكانت تتظاهــر بأنها حمقاء وجاهلة، وتجعلني أكلمها عــن أشياء، وأحدثها، وكنــتُ متحمساً. كنا نلعــب التنس لذلك معاً، ونركــب الخيل معاً، وأجــذف القارب معهــا في النهر. قالت إننا في البريــة وفي وسعنا أنْ نفعــل ما نشاء. جعلتنــي أرتدي القمصان القطنيــة والملابس الناعمة. كانــت رائعة وصريحــة وغير متزمتة - كنــتُ أجدها فاتنــة. وكانت تمكث طوال الصيف. كنتُ أقابلها في الحديقة في الصباح الباكر لدى عودتــي من السباحة في النهر - كان قــد أصبح نقياً وعميقاً عن عمد - كانــت تحمــر خجلاً وتجعلني أمشي معها. أتذكــر أنني كنت أقفُ وأُجفف نفسي على الضفة عارياً حيث يمكنها أنْ تراني - كنتُ مدلهاً بحبها - وهي كانت أشد تدلهاً مني».

«ذات مــرة ذهبنــا إلى كهــوف في ديربيشير، فكانــت تبتعد عن الآخرين، وتتسكع، ولعبنا ما يشبه الغمّيضة مع المجموعة. وظنوا أننا رحلنــا، فخرجوا وارتجــوا الباب. ثم تظاهرت بأنهــا خائفة وتشبّثت

بـي، وقالت ماذا سيظنون، ودفنت وجهها في معطفي. فضممتُها إليّ وقبّلتُهـا، وفعلنا ذلك بشكل جيد. اكتشفـتُ لاحقاً – في الواقع هي التـي أخبرتني – أنها أخذت تلك الفكرة من رواية فرنسية رخيصة – قصة الشاب الفقير الرومانسية. وكنتُ أنا الشاب الفقير».

«وتزوجنا. ومنحتني عملاً في الأبرشية، وانتقلنا للعيش في منزلها الريفـي. لم تكـن تسمح لي بأنْ أغيـب عن ناظريها. يـا إلهي! – كنا زوجـاً يهيم كل منـا بحب الآخر – كانـت تفضّل أنْ تنظـر إليّ على ضـوء جماليّ. بالنسبة إليها كنتُ تمثالاً إغريقياً، بوركت: كروتون، أو هرقـل، لا أدري ماذا! كانت مُغالية في استقلالها برأيها – وقد تركتها تفعل ما تشاء بي».

«وشيئـاً فشيئاً ملّتْ – شبعت مني تماماً بعد ثلاث سنوات. حينئذٍ كنتُ رياضيّ البنية – كما أنا الآن».

وعرضـ أمامي ذراعه، وطلب منـي أنْ أختبر عضلاته. وذُهلت. كاد اللحم الصلب يملأ كُمَّ قميصه.

تابـع قائلاً: «نعم، أنت لا تعرف ماذا يعنـي أنْ تفوز بفخر التمتّع بجسـد كجسدي. لكنها رفضـت أنْ تُنجب أطفـالاً –كلا، لا تريد – قالـت: إنها لا تجرؤ علـى فعل ذلك. كان هذا أساس الخلاف بيننا في أول الأمـر. لكنها هـدأتْ، وإذا كنتَ لا تعـرف الافتخار بجسد كجسـدي فلن تعرف المهانة التي تعرَّضتُ لها. حاولت أنْ أعترض – فأظهـرت الدهشة المباشرة بكل بساطـة. و لم أتمكن من نسيان ذهولها ذاك».

«وبـدأتْ تُصبح روحانية. وحـاز أحد الشعراء علـى اهتمامها، وبدأتْ تتكلّف الإعجاب بيرن–جونز[٤٩] – أو ووترهاوس[٥٠] – بل كان ووترهاوسـ – كانت أقـرب شبهاً بإحدى نسائـه – أعتقد أنها كانت ليـدي شالوت[٥١]. على أية حـال، أصبحت روحانية، وكنتُ حيوانها – son animal – son boeuf (ثورها). وتحمّلت هذا الوضع على مدى نحو عام. بعد ذلك لبست بعض ملابس الخدم ورحلت».

«وشوهـدتُ في فرنسا – ثـم في أستراليا – علـى الرغم من أنني لم أغـادر إنكلـترا. كان من المفترضـ أنني مُتّ في البريـة. وتزوجتْ مـن أحد الشبـان. ثم تم إثبات أنني مُتْ، وقـرأتُ نعياً صغيراً عني في إحدى الصحف النسائية التي كانت تشترك فيها. كتبته بنفسها – كان بمثابة إنذار للصبايا الأخريات المحترمات لئلا يقعن في حبائل «الشبان الفقراء» المقبولين».

«ثم ماتـت. لديهم نسخة من الصحيفة – صحيفتها – في المطبخ في الأسفـل، وهي مملوءة بالصـور، حتى بصـوري القديمة – «زواج فاشل بائس». إنني أشعر كأنني، بصورة ما، أنا أيضاً انتهيت. حسبتُ

٤٩ – إدوارد بيرن–جونـز (١٨٣٣ – ١٨٩٨): رسام إنكليزي، ينتمي إلى المدرسة ما قبل رافائيلية، ومُصمم نوافذ بزجاج ملوَّن ومنسوجات. – المترجم

٥٠ – جون وليم ووترهاوس (١٨٤٩ – ١٩١٧) رسام بريطاني، ينتمي إلى المدرسة آنفـة الذكر في المادة السابقة. كان يستمد مواضيـع لوحاته من الميثولوجيا الإغريقية ومن أساطير الملك آرثر. – المترجم

٥١ – «ليـدي شالـوت»: عنوان قصيدة للشاعـر الإنكليزي ألفريـد لورد تنيسون (١٨٠٩ – ١٨٩٢)، وأيضـاً عنـوان لوحـة للرسـام ووترهاوسـ، الـذي استمـد موضوعها من تلك القصيدة.

أننـي سأصبح رجلاً في منتصف العمر، صلبـاً، وهنا أشعر بمرارة كما كنتُ وأنا في السادسة والعشرين، وأتكلَّم كما كنتُ أفعل حينئذٍ.

ثمـة أمر آخـر – لقد أنجبت بعض الأطفال، وهم من سلالة نادرة. لقد كنتُ حيواناً قوياً قبل أي شيء، وأنجبتُ بعض الأطفال».

جلسـ ينظر عالياً إلى القمـر الكبير يسبح بـين الأغصان السوداء لشجر الطقسوس.

تمتمتُ: «إذن ماتت – طاووسك المسكين!».

نهضَ واقفـاً، ولا زال ينظر إلى السماء، وتمطّـى من جديد. كان صاحـب قامة هائلـة ظهرت ككتلـة من السـواد أمام ضيـاء القمر، وذراعاه ممدودان واسعاً.

قال: «أعتقد أنَّ الخطأ لم يكن بصورة كاملة خطاها وحدها».

اقترحتُ «فلنقُل، طاووساً أبيض».

ضحك.

قال: «اذهـب إلى المنزل سالكاً الطريق العالية، من فضلك! أعتقد أنَّ هناك شيئاً في الغابة السفلى».

أجبت، مع ارتعاشة خوف: «حسن».

قلـت، وأنا أنهض: «نعم». مددتُ يدي من قلب الظل. أنا نفسي ذُهِلـتُ مـن التعاطُف الأبيض الـذي بدا أنها تعبِّر عنـه، وهي ممدودة نحوه تحت ضياء القمر. قبضَ عليها، وتمسّك بي برهة، ثم رحل.

×××

غـادرتُ باحة الكنيسـة شاعراً بامتعاض نكد مـن القبور المبعثرة

المشوشة لا حياة فيها وتسد الطريق. كان الهواء ثقيلاً على التنفُّس، والجو مُخيفاً تحت ظلال الأشجار الضخمة. وفرحتُ لدى خروجي إلى الدرب البيضاء العارية، ورؤيتي أضواء النحاس التي تُرسلها عاكسات مصابيح عربة خيل وسماعي الثرثرة المُحببة للحوافر وهي تخبّ نحوي. أصبحت وحدي بعد مرورها.

فوق التل، وقفَ وجه القمر المتورد فوق ذرى الأشجار مباشرة، شديد الفخامة، والنأي – لكنه بارز. التفتُّ بحركة ودود مُفاجئة نحو شبكة من أغصان الدردار منتشرة فوق رأسي، مُنقّطة بعناقيد رقيقة فاتنة. قفزتُ وجررتُ خصلة ناعمة جميلة نحو وجهي لأستأنس بصُحبتها؛ ولدى مروري، ظللتُ أمدّ يدي إلى أعلى لألمس تلك الرقّة المُبرعمة للأشجار. كانت الغابة ترسل أنفاساً عطرة، بتعاطُف مُرهف.

رقَّقت أشجار التنوب ملمسها لأجلي، واستيقظت أشجار الأرزيّة من سُباتها الشتوي العقيم، ومدّت أصابع مخملية لتُداعبني في أثناء مروري. وحدها أغصان الدردار النظيفة، الجرداء، وقفت كرمز لانضباط الحياة. نظرتُ نحو أسفل إلى الظلام حيث ملأت الأشجار مقلع الحجارة وأعماق الوادي، وبدا أنَّ العالم، موطني، أصبح من جديد غريباً.

×××

بعد الحديث الذي فتحه أنّابل معي بحوالي أربعة أيام أو خمسة في فناء الكنيسة، خرجت من جديد أبحثُ عنه. كان صباح يوم أحد. وكانت غابة أشجار الأرزيّة تطفو بنُضرة صافية، غنائية، وبعض

الـورود تنتثر بيضاء على الحافة تحت الأغصان الخارجية. كان صباحاً صافيـاً، عندما تبدأ حياة العالم المُستـترة بالتبخُّر من جديد في الهواء. ارتفـع الدخان من الكوخ أزرقَ في وجـه الأشجار، وأصفر برّاقاً في وجـه صفحة السماء. بـدا أنَّ النار قـد أُضرِمت تـواً، وتدفق دخان الخشب.

ظهـر سام خـارج المنـزل، وتلفّت حولـه. ثم ارتقى جـرن الماء لكي يحصل على مشهد عـام أفضل. ومن الواضح أنه لم يرضَ عنه، فأولاني قليلاً من انتباهه، ثم قفز هابطاً وقطع سفح التل ركضاً متجهاً إلى الغابـة. قلت في نفسي: «إنه ذاهـب إلى والده»، وتركتُ الدرب لأتبعه إلى أسفل التل عبر المرج القفر، كاسراً سيقان شوك العام السابق المُبيضّة وأنا أمشي، وأتعثّر بجحور الأرانب. وصل الجدار الممتد على طول حافة المقلع، وفي الحال أصبح فوقه.

عندمـا وصلت إلى المـكان، شعرت بالارتباك، ذلـك أنَّ جانب المقلع انهـار مباشرة بدءاً بالسياج الحجـري مسافة عشرين إلى ثلاثين قدمـاً، وتكـوّمَ على شكل حجارة خالية من المـلاط. تلفّتُ حولي – لم يكـن هناك غير الظـلام المحض يمتد إلى أسفل سفـح التل، ويُحدد الدرب حتـى هذه البقعة، وكان الجدار مُثلّمـاً بعلامات من الأحذية الثقيلة ذات الرقبة الطويلة. ثم نظرتْ من جديد إلى أسفل سفح المقلع، فرأيـت – كيـف لم أرها من قبل؟ حجـارة بارزة مُشكّلـة دَرَجاً غير مستـو، كالذي يُرى في سياجات ديربيشير. وجـدتُ إنَّ هذا الدَرَج قـد أُحسِنَ استخدامه، لذلك وثقت به ورحـت أهبط، متشبثاً بوجه جدار المقلع. وحالما وصلـت إلى أسفل، سُررتُ من نفسي لاكتشافي

هذه الوسيلة المجهولة واستخدامي لها، وأثار الحارس إعجابي بعنايته وبراعتــه، وكان قد ثبّــت الحجارة الطويلة ووتّدهــا على شكل ركام متقلقل.

كان الجو حاراً في المقلع: هناك بدت أشعة الشمس كأنها اشتدت وأصبحــت أكثر عذوبة؛ هنــاك كانت الأكوام الصغــيرة من النفايات التي كساها العشب تتوهج بأزهار البنفسج المبكرة جداً؛ وكان الشرر ينطلــق على قطع الــوزّال، وبين الحجارة كان ريشــ حشيشة السعال فضــيّ اللــون. ها هنــا كان الربيع قــد استيقظ وجلس، وحــلَّ شعره المتلألئ، وفتح عينيه القرمزيتين.

اجتــزت أرض المقلع، وهبطــتُ إلى حيث يجري الجدول مخرخراً حكاية على مسمع الورد والأشجار المتبرعمة. أجفلتني قرقعة الحجارة الخفيفة وأنا أتجول بين الأشياء النضرة.

قلت لنفسي، مقترباً لأرى: «ما الذي يفعله ذلك الوغد الصغير؟». وصلــتُ إلى الطرف المقابل مــن المقلع: وهناك، علــى الجانب الأكثر رطوبة، نمت الشجـيرات ملاصقة للجدار الذي كان أعلى من الجدار المقابــل، على الرغم من أنه عبارة عــن ركام شبيه من الحجارة الجافة. وبينمــا كنتُ أقترب سمعت خربشة وقرقعة حجــارة، والنخر النشط لســام وهو يكدّ بينهــا. كان مُستــتراً خلف شجيرة كبــيرة من عسيل الصنوبر، كلــه أصفر اللون، ويطنّ بالنحل، وغنــي بالرائحة العطرة. عندما ظهر ضحكتُ إذ رأيته يكدّ وينخر بين ركام الحجارة الكبير التي سقطــت على شكل كتلة من سفح المقلــع، ركام من الحجارة والتراب

والخُضـرة المسحوقة. كانت هناك فجوة عارية واسعة في جدار المقلع. وبصورة ما، أثارت جدّية الصبي الكادّة قلقي، وهرعت إليه.

سمعنـي، وبعـد أنْ تلفّت حوله، بوجهه الأحمـر من شدّة العزم، وعينيه الواسعتين من الرعب، هتف، بلهجة آمرة:

«ارفعها – ارفعها!».

فجـأة اضطرب وجيب قلبي حتى كاد يخنقني. رأيتُ يد الحارس وهو مُلقـى بين الحجـارة. وباشرت بإبعـاد الحجـارة، وعملنا بعض الوقـت دون أنْ ننطق كلمـة واحدة. ثم قبضت علـى ذراع الحارس وحاولتُ أنْ أُخرجه جراً. لكنني لم أتمكن.

الصبي قال، وهو يجتهد بحركة مسعورة: «ارفعها عنه!».

عندما أخرجناه أدركتُ على الفور أنه ميت، وجلستُ أرتجف من فرط الجهد. كان هناك جرح كبير مسحوق على جانب الرأس. وضع سام وجهه على صدر والده وأخذ يشمّ حوله ككلب، ليستشعر الحياة فيه. نظر الطفل إليّ:

قال، وكان صوته الصغير خشناً من الخوف والقلق: «لن ينهض».

هـزززتُ رأسـي نفياً. ثم بـدأ الصبي يئـن. حـاول أنْ يُغلق شفتيه اللتـين كانتا ترسمـان تعبير الألم والمـوت، وكشفتا عـن الأسنان؛ ثم حامت أصابعه حـول العينين، اللتين كانتا مفتوحتين واسعاً، زائغتين، ولاحظتُ أنه كان يرتجف يودّ لو يلمسهما ويُعيدهما إلى الحياة.

قال: «إنه ليس نائماً، لأنَّ عينيه مفتوحتان - انظر!».

لم أتحمّل رعب استجواب الطفل. فرفعته لأحمله وأبتعد، لكنه صارع وكافح ليتحرر.

صرخ مسعوراً: «اجعله ينهض - اجعله ينهض»، فاضطررتُ إلى تركه.

وهرع إلى الرجل الميت، هاتفاً، «أبي! أبي!» وشدّه من كتفيه؛ ثم جلس، مذهولاً من مشهد الجرح؛ مدَّ إصبعه لكي يلمسه، وارتجف.

قلت: «ابتعد».

سأل، مُشيراً إلى الجرح: «أهذا هو السبب؟». غطّيتُ الوجه بمنديل كبير من الحرير.

قلت: «والآن، إذا لم تلمسه سوف يستغرق في النوم - فاجلس بهدوء ريثما أذهب وأُحضِر شخصاً. هل تريد أنت أنْ تهرع إلى هول؟».

هزَّ رأسه نفياً. أدركتُ أنه لا يرغب. فأمرته من جديد ألا يلمس والده، بل يتركه ساكناً حتى أعود. راقبني وأنا أبتعد، لكنه لم يتحرك من مكان جلوسه على الحجارة بجوار الرجل الميت، على الرغم من عِلمي أنه مملوء بالرعب لأنه تُرِكَ وحيداً.

توجهتُ ركضاً إلى هول - لم أجرؤ على الذهاب إلى كينيلز. وسرعات ما رجعت مع مالك الأرض وثلاثة من الرجال. بينما

كنتُ أتقدمهم، رأيتُ الطفل يرفع زاوية المنديل ليسترق النظر ويرى إنْ كانت العينان مُغمضتين في حالة نوم. ثم سمعنا، فأجفل بعنف. عندما أزلنا الغطاء، وشاهد الوجه مع عبير الرعب دون تغيير، نظر إليّ نظرة لم أنسها أبداً.

كرر مالك الأرض قائلاً: «حالة مريعة – حالة فظيعة! حالة فظيعة. لقد قلتُ له من البداية أنَّ الحجارة قد تسقط عندما كان يرتقيها، فقال إنه ثبّتها بعناية. ولكن لا شيء مؤكَّد، لا شيء ثابت. يكفي أنْ يقطع نصف المسافة إلى أعلى – نعم – حتى ينهار الجدار كله عليه. حالة فظيعة، حقاً؛ حادثة رهيبة!».

قرروا بعد التحقيق أنَّ الموت وقع نتيجة سوء حظ. ولكن انتشرت إشاعات غامضة في القرية تقول إنه نتيجة عمل انتقامي استهدف الحارس.

×××

قرروا أنْ يدفنوه في فناء كنيستنا في غريميد تحت أشجار الزان؛ نزولاً عند رغبة الأرملة، ولا يمكن رفض طلبها وهي في مثل حالتها.

كان يوماً رائعاً من أوائل الربيع عندما رحتُ أراقب من بين الأشجار موكب الجنازة هابطاً سفح التل. كان الهواء في الأعالي منضفراً مع موسيقى القبّرات، وعالمي برمّته متحمساً للتفكير في الصيف. كانت شقائق النعمان الغضّة والشاحبة قد نهضتْ بفعل رياح الغابة القوية، وتحت أشجار الكستناء، عندما تصادف أنْ شقت

الشمس الحارة طريقها، أشرقت شموس صغيرة جديدة، وتوهجت بضوء حقيقيّ. سرت في كل مكان الإثارة والسرعة، كما تشعر المرأة عندما تحبل. بدت شجرة صفصاف قائمة في موقع مناسب أشبه بغيمة ذهبية شاحبة من فجر صيفي؛ في الجزء الأقرب وضعت على كل غُصين قبعة من الفرو[٥٢] الذهبي الجميل، وكان يصدر عنها طنين النحل، كأي شُجيرة ذهبية مقدسة، تعبِّر عن سرورها عبر طنين النحل الذي يدل على الإثارة، وبالعطر الدافئ. صاحت الطيور ومرت مندفعة في كل اتجاه؛ انطلقت جذلة مع خصل العشب المتدفقة، أو كتل من الصوف، غائصة في المساحات المظلمة من الغابة، ثم خرجت من جديد إلى السماء الزرقاء.

عبر صبي الحقل قادماً من مزرعة في الأسفل مع كلب يخبّ خلفه - كلب، كلا، بل خروف، يضجّ بالحركة، أسود القوائم يخبّ على حوافره، وذيله يتمايل خلفه. كانا متوجهين نحو الأمهات في الأرض المشاع، اللواتي كنَّ يتنقّلن كسُحُبٍ رمادية صغيرة بين الوزّال القاتم.

لا يسعني إلا أنْ أنسى، وأشارك العصفور المغرِّد انتصاره، عندما يعبر كالومض ماراً مع كتلة من زغب شجيرة علّيق. سوف يغطي الطحلب الذي يكسو الأرض، وسوف يتغلغل في شعر الأبقار الأحمر بصورة جميلة. إنها جائزة، إنها نشوة أنْ تستطيع القبض عليه في اللحظة المناسبة، على مرمى حجر من العش.

---

٥٢ - القبعة المُشار إليها هنا هي كالتي نراها على رؤوس الحرس البريطاني، على سبيل المثال. - المترجم.

آه، لكنَّ الدرّج هازِئ، يصدح بصوته من على السياج! يضعُ صدره على الطين، ويشكّله بدفء من أجل البيض الفيروزي - بيض أزرق، أزرق، بل أشدّه زُرقة، يتجمّع بالقرب من الصدر وحوله، حول الصدر وتحته، الذي يحضن ما يحتوي. يجب أنْ ترى النشوة المشرقة في عينيّ الدرُّج الجالس في عشه، بسبب ملمس البيض المستدير على صدره!

ما أسرع أنثى طائر الصعو - آملة ألا أراها تندفع داخل الشجيرة المنخفضة. إنني أبتهج لمراقبتها رُغماً عن إرادتها الصغيرة الخجول. لكنَّ الطيور كلها نهضتْ بسرعة الأجنحة، ورحلت. الهواء يحف به الهياج. لا توجد قُبّرة واحدة في السماء، ولا واحدة؛ السماء خالية من الأجنحة أو من النقاط المتلألئة -.

إلى أنْ يأتي الرُّسُل - إلى أنْ يرفرف الرُّسُل كالأشباح في الهواء البرّاق، باكين، مولولين، مهتاجين إلى الأبد. يرتفعون وينخفضون ويدورون ويدورون، وتبكي طيور أبو طيط برفرفتها البطيئة وتشتكي، وترفع صدورها العريضة حزينة. وفجأة تنحدر إلى الأرض، ومن ثم في موجة أخرى من الأسى والاحتجاج، تعود فترتفع، مُقدِّمة صدورها البيضاء اللامعة لأشعة الشمس، لكي تُنكرها في ظل أسود، ثم تلألؤ من النُّضرة، وطوال الوقت تصرخ وتصرخ يأساً.

طيور التدرُّج تخاف وتختبئ، تركض مندفعة داخل السياج. ويُضطر الديك اللامبالي إلى الطيران على عجل، وينشر جناحيه الواسعين، وينطلق إلى أمان الغابة.

يُجيب صراخُ على طيور أبو طيط، يُرجّع أعلى وأقوى صدى حزنها، عويل يُسكِتُ الطيور. يأتي الرجال عبر جبين التل، ببطء، ومالك الأرض العجوز يمشي طويلاً ومُستقيم القامة في المقدمة، وستة رجال منحنون يحملون التابوت على أكتافهم، ويمشون بخطى ثقيلة وبحذر، يرزحون تحت وطأة الثقل الهائل للتابون الأبيض اللامع؛ ستة رجال في الخلف، منزعجون، في انتظار أنْ يأتي دورهم لحمل العبء. يمكنك أنْ ترى المناديل الحمراء معصوبة حول نحورهم، ومقدمة قمصانهم زرقاء وبيضاء تظهر بين الصدريات المفتوحة. التابوت مصنوع من خشب جديد غير مصقول، يلمع ويتلألأ تحت ضوء القمر؛ الرجال الذين يحملونه يتذكرون حياتهم كلها بعد أنْ يشموا رائحة خشب الدردار الجديد والدافئ.

من جديد تنطلق صرخة عالية من أعلى التل. لقد تبعتهم المرأة حتى تلك المسافة البعيدة، المرأة الضخمة، عديمة الشكل، تصرخ بأعلى صوتها خلف التابوت في أثناء هبوطه التل، والأطفال المتشبثون بأذيالها يبكون بعنف، والمرأة الأخرى لا تُسكتهم، بل تميل عليهم، لكنها لا تشكّل جزءاً من المجموعة. يُخيف البكاء الطيور، والأرانب؛ والحملان تركض مبتعدة إلى أمهاتها. لكنّ طيور أبو طيط لا تخاف، بل تفاقمُ أنغامها من جو الحزن؛ إنها تدور خلف التابوت الأبيض، المتراجع، تدور حول المرأة؛ إنها هي التي «تندب» دائماً أحزان هذا العالم. إنها كالقساوسة بأروابهم، سوداء أكثر منها بيضاء، تعبّر عن الأسى أكثر من الأمل، تتقدم دون توقف وتدور وتدور، تستدير، وترتفع، وتهبط، ودائماً تصرخ بنبرة أسى حزين، مُكررة مقاطعها الأخيرة كاللكنات المكسورة لليأس.

الحاملون غاصوا أخيراً بين المُنحدرَين المرتفعَين، وغابوا عن الأنظار. المرأة الضخمة لا تستطيع أنْ تراهم، ومع ذلك تقفُ لتنظر. يجب أنْ تذهب إلى المنزل، لم يبقَ هناك أي شيء.

لقد أراحوا التابوت على دعائم البوابة، والحاملون يُجففون العرق عن جباههم. إنهم يضعون أيديهم على أكتافهم حيث كان الثقل يرزح.

الستة الآخرون يضعون الدثار على أكتافهم، وإذا بالفتاة تأتي مع إبريق، وقدرٍ أزرق اللون. مالك الأرض يشرب أولاً، ويملأ الكأس للباقين. في تلك الأثناء تتراجع الفتاة إلى الخلف تحت السياج، بعيداً عن التابوت الذي تفوح منه رائحة خشب الدردار الجديد. بعين مخيلتها ترى الرجل موصد عليه هناك في ظلام دامس، بينما أشعة الشمس كلها تتدفق في الخارج، وتقبض على صدرها من الرعب. يجب أنْ تستدير وتحف بين أوراق البنفسج لأنها لا ترى الأزهار. ثم تعود إلى وعيها، وهي ترتجف، وتقطف بضع زهرات وتستنشق رائحتها بنهم إلى داخل روحها، طلباً للعزاء. يضع الرجال القدور بجوارها، ويشكرونها، ويُصدر مالك الأرض الأمر. يرفع الحاملون الحمل من جديد، وتُقعقع أغصان شجر الدردار على طول الخشب الأبيض الأجوف، وعناقيد أزهار الدردار الحمراء المُثيرة للشفقة تنساب على طوله وكأنها تهمس له متعاطفة - «نحن أسفون جداً، جداً -»؛ دائماً البراعم المتعاطفة تميل وهي بكامل امتلائها بالحياة لكي تواسي الرجل الغامض المُغلق عليه في الداخل. تقول الفتاة في نفسها «لعله يسمعها، ويستغرق بهدوء في النوم». تنفض الدموع عن عينيها

لتسقط على الأرض، ثم تحمل قدورها، وتهبط ببطء، عبر الجداول.

بعد قليل، نهضتُ بدوري وهبطتُ التل الممتد أحمر ترين عليه السكينة، بينما الدخان الأزرق يرتفع مرحاً ولا مبالٍ كعهده دائماً. وعلى الجانب المقابل من الوادي رأيتُ حصانين يحنيان رأسيهما ببطء عبر الأرض المُراحة. كان هناك رجل ينادي عليهما بين فينة وأخرى برنين صوت ملأني بالاشتياق إلى أنْ أتبع جيادي عبر الأرض المُراحة، وسط الوادي الساكن، الموحش، الذي تغمره أشعة الشمس والنسيان الأبدي. لقد نسي النهار منذ الآن. كانت المياه زرقاء وبيضاء وتصقل الظلال باللون القاتم؛ سبح طائرا تمّ مارّين عبر صورة الأشجار المنعكسة بجمال مُبهج مثالي. كانت الكآبة التي عبرتْ قد اختفتْ. راقبت طائر التمّ بجناحيه المكشكشين يتقدم منتفخاً نحو الأمام؛ راقبتُ رفيقته النحيلة تذهب لتسترق النظر في الزوايا وتحت أكمات الشجيرات؛ رأيتُه يمر من بين الشجيرات، ليحظى بمشهد كامل، مُديراً رأسه نحوي بفخامة، إلى أنْ اشتقتُ إلى رشقه بالقشور الفارغة لأزهار العام الفائت، حشيشة القنطريون وشيخ الربيع. كنتُ شديد الكسل، والتفتُّ بدل ذلك إلى البستان.

هناك كان النرجس البري يرفع رؤوسه ويرمي نحو الخلف خصلهِ الصفراء. وعند أسفل كل شجرة قديمة رمادية ومائلة نمت فصيلة من الأزهار، بعضها متفتّح بامتلاء بهيّ، وبعضها ترفع رؤوسها قليلاً، لتعرض قسمات متواضعة وعذبة، وأخرى لا تزال تُخفي وجوهها، مائلة نحو الأمام تتأمل بارزة من بين الأوراق الطويلة المرحة الخضراء والرمادية؛ تمنيتُ لو أُحسِن لغتها، أنْ أتحدث معها بوضوح.

فـوق الرؤوس، هـزت الأشجار شعرها بأصابـع مرفوعة لتواجه الشمس، مُزيَّنة ببراعم بيضاء وجميلة كثديّ حورية ماء.

بـدأتُ أُصبح غاية في السعادة. توهجت أقراص حشيشة السعال وضحكـت في صحبـة مرحـة على طـول الدرب؛ داعبـت الوجوه المخملية، وضحكتُ أيضاً، وشممتُ عبق أوراق الكشمش السوداء، المشحونة بذكريات الطفولة.

كان المنـزل هادئاً وراضياً عن نفســه؛ سكنته الأشباح من جديد؛ لكـنَّ الأشباح جاءت فقط لتستمتع مرة أخرى بالمكان الدافئ، حاملة بين أذرعها أشعة الشمس وتنثرها عبر عتمة الغرف الكئيبة.

الفصل الثالث

مفارقة اللحظات المُلهَمة

في اليــوم التالي بعد الجنــازة، تصادف أنْ رأيــت نُسخاً من لوحة «أتالانتــا» لأوبري بيردسلــي[٥٣]، وتزيــين أسفل غــلاف «سالومه» وغيرهــا. جلستُ أتأملها وقفــزت روحي من بين أضلعي نحو الشيء الجديــد. كنتُ محتــاراً، أتساءل، أحقــد، مفتوناً. أطلــتُ النظر، لكنَّ عقلــي، أو روحي، لم تتوصــل إلى أي حالة من الترابط المنطقي. كنتُ مفتوناً ومهزوماً، ومع ذلك مملوءاً بالعناد والمقاومة.

كانــت ليتي في الخارج، لذلــك، وعلى الرغم مــن أنه كان وقت العشاء، بل لأنه وقت العشاء، أخذت الكتاب وذهبتُ إلى الطاحونة.

كانت وجبة العشاء قد انتهت؛ وعبق الراوند المطبوخ يعم الغرفة. ذهبــتُ مباشرة إلى إميلي التي كانت تسترخي على كرسيها، ووضعت صورة «سالومه» أمامها.

---

٥٣ - أوبــري فينسنت بيردسلــي (١٨٧٢ - ١٨٩٨): رسام للرســوم التوضيحية والتزيينيــة، خاصــة باللونين الأبيضــ والأسود. وضــع رسوماً لمسرحيــة «سالومه» لأوسكار وايلد، ولقصيدة «اغتصاب خصلة الشعر» لبوب وغيرها. - المترجم

قلت: «انظري، انظري هنا!».

نظرتْ؛ كانت حسيرة، فأخذت تمعن النظر. كنتُ أتوق إلى سماع رأيها. أخيراً التفتت ببطء ونظرت إليّ، منكمشة، متسائلة.

قلت: «ما قولك؟».

أجابت، بهدوء: «أليست – مخيفة!».

«كلا! – ولِمَ؟».

«إنها تجعلك تشعر – لِمَ أحضرتها؟».

«أردتُ أنْ تريها».

كنتُ أشعر بالارتياح أصلاً، لملاحظتي أنها هي أيضاً وقعت في أسرها.

جاء جورج ومال من فوق كتفي، وشعرت بدفئه الثقيل.

تشدق قائلاً، بشبه استمتاع: «يا إلهي!». وتجمع الأطفال حولنا ليتفرجوا، فأغلقت إميلي الكتاب.

«سوف أتأخّر – أسرع، يا ديف!» وذهبت لتغسل يديها قبل أنْ تغادر إلى المدرسة.

سأل جورج، ماداً يده إلى الكتاب: «هلا أعطيتنيه، من فضلك؟». ناولته إياه، فجلس ليتفرج على الرسوم. وعندما زحفت مولي مقتربة لتتفرج، صاح بها بغضب يأمرها بالابتعاد. تجهمت، ووضعت قبعتها على خصل شعر البنيّ الشعث. دخلت إميلي مستعدة للذهاب إلى المدرسة.

قالت: «أنا ذاهبة – إلى اللقاء»، وانتظرت بتردُّد. تحركتُ لأتناول قلنسوتي. رفع نظره حاملاً في عينيه تعبيراً جديداً، وقال:

«أأنت ذاهب؟ – انتظر قليلاً – أنا قادم».

انتظرتْ.

قالت إميلي بمرارة: «أوه، حسناً – إلى اللقاء»، وغادرت.

بعد أنْ اكتفى من النظر نهضَ وخرجنا. أبقى إصبعه موضوعاً بين صفحات الكتاب وهو يحمله. توجه نحو الأرض المُراحة دون أنْ يتفوه بكلمة. وهناك جلس على ركام، متكئاً بظهره على شجرة بهشية، وقال، بهدوء شديد:

«لا داعي للعجلة الآن –» وعل الأثر تابع تفحّصه للرسوم.

أخيراً قال: «أتعلم، أنا أريدها».

أجفلتُ للهذه الملاحظة التي ليست في محلها، وقالت: «مَنْ؟».

«ليتي. لقد حصلنا على إشعار، أتعلم هذا؟».

انتفضتُ واقفاً وهذه المرة مذهولاً.

«إشعار بالمغادرة؟ – ما السبب؟».

«الأرانب، في اعتقادي. أتمنى أنْ تقبل بي، يا سيريل».

كررت: «لتغادر ستريلي ميل!».

«بالضبط – وأنا سعيد بذلك. ولكن أتعتقد أنها ستقبلني، يا سيريل؟».

«شيء مؤسف! وإلى أين ستذهب؟ وتجلس هناك تمزح -!».

«أنــا لا أمزح. دعك مــن الإشعار اللعين. إنني أريدها أكثر من أي شيء في العالم - وكلما أمعنتُ النظر في تلك الخطوط العارية، رغبتُ فيها أكثر. إنه نوع من الشعور القوي اللذيذ، كتلك الخطوط المنحنية. لا أعلم ماذا أقول - ولكن هل تعتقد أنها ستقبلني؟ هل شاهدتْ هذه الرسوم؟».

«كلا».

«لــو شاهدَتْهــا فقد تقبلني - أعنــي أنَّ شعورهــا سيكون واضحاً وحاداً».

«سوف أعرضها عليها وأرى».

«إننــي أفكــر في الأمر - منــذ أنْ أستلــم والدي ذلــك الإشعار. وكأنَّ الأرضــ سُحِبَت من تحت أقدامنــا. لم أشعر مرة في حياتي بمثل ذلــك الضياع. ثم بدأتُ أفكّر فيهــا، إنْ كانت ستقبلني - ولكن ليس بوضــوح، إلى أنْ أريتني هذه الرسومات. يجــب أنْ أحصل عليها إنْ كان في استطاعتــي ذلــك - ويجــب أنْ أحصل على شــيء ما. شيء مرعــب أنْ يُصبح الدرب فجأة ضبابياً، والعالم كله في كل مكان، ولا يتبقَّ لك مكان تذهب إليه. يجب أنْ أحصل على شيء يقيني وسريعاً، وإلا سأشعر كأنني يجب أنْ أسقط من مكان ما وأؤذي نفسي. سوف أسألها».

نظرتُ إليه وهو متمــدد هناك تحت شجرة البهشية، يحمل وجهاً حالماً وصبيانياً، بصورة غريبة جداً.

قلت: «ستسأل ليتي؟ متى - كيف؟».

«يجب أنْ أسألها بسرعة، ما دمتُ أشعر وكأنَّ كل شيء قد ضاع، وكنتُ كالشبح. أعتقد أنني أبدو كالمجنون».

نظر إليّ، وانسدل شفناه الثقيلان على عينيه وكأنه كان يشرب، أو كأنه مُتعب.

قال: «أهي في المنزل؟».

«كلا، لقد ذهبت إلى نوتنغهام، ستعود إلى المنزل قبل هبوط الظلام».

«سوف أراها حينئذٍ. أتشم عبق البنفسج؟».

أجبتُ بأنني لا أشم شيئاً. كان متيقناً من أنه يشمه، وبدا عليه الاضطراب إلى أنْ برّر الإحساس. فنهضَ واقفاً، باسترخاء تام، وسار على طول المنحدر، يبحث بدقّة عن الأزهار.

«كنت أعلم أنني أستطيع. البيضاء!».

جلس وقطف ثلاث زهرات، وقرّبها من منخريه، واستنشق عبيرها. ثم وضعها على فمه، ورأيتُ أسنانه البيضاء القوية تسحقها. مضغها قليلاً دون أنْ يتكلّم؛ ثم بصقها، وجمع المزيد منها.

قال: «هي أيضاً تذكّرني بها»، ولوى قطعة من ساق صريمة الجدي ولواها ولواها وأعطانيها.

ابتسمت وقلت: «أهذه هي، زهرة بنفسج بيضاء؟».

«أعطها لها، واطلب منها أنْ تأتي لتقابلني حالما يبدأ الظلام بالهبوط على الغابة»

«وإذا رفضت؟».

«سوف تقبل».

«وإذا لم تكن موجودة في المنزل؟».

«تعال وأخبرني».

عاد إلى الاستلقاء ورأسه بين أوراق البنفسج الخضراء، قائلاً:

«يجب أنْ أعمل، لأنَّ الأمر كله يعتمد على التقييم. ولكن لا يهمني».

ظل ينظر إليّ قليلاً. ثم قال:

«لا أعتقد أنه سوف يتبقّى لي أكثر من عشرين جنيهاً بعد البيع - ولكن في حوزتها الكثير من المال نبدأ به - إذا قبِلتني - في كندا. يمكنني أنْ أصبح ثرياً - ويمكنها أنْ تحصل - على ما تريد - أنا متأكد من أنها ستحصل على ما تريد».

لقد اعتبر ذلك كله وبكل هدوء أنه مفهوم. وكنتُ أتسلى بصورة ما.

سأل: «أي ثوب سترتدي عندما ستأتي لمقابلتي؟».

«لا أعلم. أعتقد أنه الثوب نفسه الذي ارتدته عندما ذهبت إلى نوتنغهام - أشبه بزي بلون ذهبي على بني مع معطف ضيق. لمَ؟»

«كنتُ أفكر كيف ستبدو».

سألتُ: «لماذا تستبق الأمور؟».

أجاب: «ولكن كيف يمكن أنْ أظهر في أحسن حالاتي؟».

«أنت؟ كما أنت بالضبط - كلا، البس ذلك المعطف الناعم العتيق - لا أكثر». ابتسمت وأنا أقول له هذا، لكنه كان غاية في الجديّة.

«ألا أرتدي ملابسي الجديدة؟».

«كلا - أنت تريد أنْ تترك عنقك عارياً».

وضع يده على نحره، وقال بسذاجة:

«أحقاً؟»- وأعجبه هذا.

ثم ظلَّ ينظر حالماً إلى الشجرة. تركته، وذهبتُ لأتمشى حول الحقول بحثاً عن الأزهار وأعشاش الطيور.

عندما رجعت، كانت الساعة قد قاربت الرابعة. نهضَ واقفاً وتمطّى. أخرج ساعة يده.

تشدق قائلاً: «يا رب العالمين، لقد تمددتُ هناك طوال بعد الظهيرة. لم أكن أعلم أنَّ في استطاعتي أنْ أفعل ذلك. أين كنت؟ مع كل هذا الاضطراب، كما ترى. لقد تركت أزهار البنفسج - إليك، خذها، من فضلك؛ وأخبرها: سوف آتي مع بداية حلول الظلام.

أشعــر كأنني شخص آخــر – أو في الحقيقة أنني نفســي. آمل ألا أعي الأشياء الأخرى – كما تعلم، كعهدي دائماً – قبل ذلك الحين».

«و لِمَ لا؟».

«أوه، لا أعلــم – إننــي فقط أشعــر كأنَّ في استطاعتــي أنْ أتكلّم مباشــرة ودون تحضير – كالطيور، دون أنْ أعرف ما النغمة التالية التي ستصدر عني».

عندما هممت بالرحيل قال:

«هــات، اترك لي هــذا الكتاب – سوف يُيقينــي في هذه الحالة – أعنــي أنني لست كما كنــت بالأمس، وذلك الكتــاب سوف يُبقيني هكــذا. لعلها نوبة تشاؤم – أحياناً أمرّ بها، إذا وقع أمر استثنائي. إذن موعدنا عندما يحل الظلام!».

×××

عندمــا ولجتُ المنــزل لم تكن ليتي قد رجعــت. وضعت البنفسج في مزهريــة صغيرة علــى الطاولة. تذكّــرتُ أنه أراد منهــا أنْ تشاهد الرسومات – ربما لهذا السبب احتفظ بها.

عادت عند حوالي السادسة – على متن سيارة مع ميري. لكنَّ هذه الأخــيرة لم تترجل. خرجتُ لأقدم يد المساعــدة في حمل الرزم. فقد كانت ليتي قد باشرت في شراء الأغراض؛ كان موعد الزفاف قد تحدّد في شهر تموز.

سرعـــان مـــا امتـــلأت الغرفة بالأغراضــ: مفرش طاولـــة، ملابس داخلية، قطــع حريرية وأخرى مُخرّمة، عيّنات مـــن السجاد والستائر، مجموعـــة كاملـــة من الأشيـــاء البراقـــة والمتوهجة. كانت ليتـــي غاية في السعادة. لم تكن تقو على الانتظار ريثما تخلع قبعتها، وأخذت تدور وتحل الرزم، وتفتحها، وطوال الوقت تتكلّم مع أمها.

«انظـــري، أيتها المرأة الصغيرة. لقد اشتريـــت تنورة جاهزة الصنع - أليســـت جميلـــة! اسمعـــي!» وأخـــذت تمسّدها بيديهـــا. «سوف تُصـــدر حفيفاً راقياً! فرو-فرو! لكنَّ تـــدرُّج لونه فاتن، أليس كذلك، ولا تجديـــن فيه أي شيء متكتّل أو غير مُتقـــن». ووضعت رباط التنورة حول خصرها، ومدّت ساقهـــا، ونظرت إلى أسفل، قائلة: «إنه الطول المناسب بالضبط، أليس كذلك، أيتها المرأة الصغيرة؟ - ويقولون: إنني طويلـــة القامة - إنه أُعجوبة. ألا تتمنين لو أنـــه لك، أيتها الصغيرة؟ - أوه، لـــن تعترفي بهـــذا، نعم أنت تتمنين أنْ تظهـــري بأفضل حلّة كأية امرأة - ولهذا اشتريـــتُ لك هذه القطعة من الحرير - أليست جميلة؟ - لا حاجة إلى أنْ تقولي إنَّ فيها الكثير من الخزامى، هذا غير صحيح. والآن!»، ثنتها نحو الأعلـــى ووضعتها على ذقن أمي. «إنها تليق بك بشكل جميل - أليس كذلك؟ ألا تحبينها، يا حلوة؟ يبدو أنك لا تحبينها أبـــداً، وأنا متأكدة من أنهـــا تليق بك - تجعلك تبدين أصغر سناً بكثير. ليتك لست قديمة الطراز في أفكارك. أنت تحبينها، أليس كذلك؟».

«طبعـــاً تُعجبني - كنتُ فقط أفكر كم أنت شخص مُسرف عندما يتعلق الأمر بالمشتروات. أنت تعلمين أنه لا ينبغي أنْ تظلي دائماً -».

«اهدئي – اهدئي، يا حلوة، لا تكوني مُشاغبة وواعظة. إنَّ التبضُّع أمر لذيذ. في المرة التالية سترافقينني، ما رأيك؟ أوه، كم استمتعت – ولكن كنت أتمنى لو أتيت معي – إنَّ ميري تأخذ كل شيء، إنها سهلة الإرضاء جداً – أما أنا فأحب أنْ أشتري الجيد – أوه، ما أروع هذا! – ولا زال هناك الكثير. أوه، أرأيت غطاء الوسادة هذا – هذه هي الألوان التي أريد لتلك الغرفة – الذهبي والكهرماني–».

كانت تلك بداية سيئة. راقبتُ الظلال تزداد حلكة باطراد على طول البريق، تُخفِتُ تلألؤ المياه. راقبتُ النضج الذهبي يهبط على الغرب، وظننت أنَّ اللقاء لن يتم. ولكن أخيراً، دخلت ليتي بسرعة وهي تتنهد، قائلة إنها متعبة.

قالت الأم: «تعال إلى غرفة الطعام واشرب فنجاناً من الشاي. عندما دخلت طلبت من ريبيكا أنْ تعد الهريسة».

«حسن، أعتقد أنَّ ليزلي سوف يحضر لاحقاً – عند حوالي الثامنة والنصف، كما قال. هل أُريه ما اشتريت؟».

«ليس هناك ما ينبغي للرجل أنْ يراه».

«يجب أنْ أبدّل ملابسي، وأنا واثقة من أنني لا أريد تابعاً. ريبيكا، اذهبي وتفرجي على ما أحضرت – في الغرفة الأخرى – وأنتِ، بيكي، هل لك أنْ تطوها من أجلي، من فضلك، وتضعيها على سريري؟».

حالما خرجت، قال ليتي:

سوف تستمتع فعل ذلك، أليس كذلك، يا أمي، إنها أشياء جميلة حقاً! أترين أنني في حاجة إلى ثوب، يا أمي؟».

«استمتعي – وافعلي ما تشائين».

«أعتقد أنني سأفعل؛ إنه لا يحب بلوزات وتنانير المساء؛ ويكره الحزام. سوف أرتدي

ثوب الكشمير القديم ذي لون الكريم؛ إنه يبدو جميلاً الآن بعد أنْ زينته بتخريماته جديدة. أليست رائحة هذا البنفسج ذكية؟ – مَنْ أحضر؟».

«سيريل أحضره».

قلت: «لقد أرسلها جورج إليك».

«حسن، سوف أرتقي إلى أعلى وأخلع ثوبي. الرجال لا يستحقون العناء!».

قالت الأم: «إنه عناء تحبينه كثيراً».

«أوه، أحقاً؟ يا له من أخ!» وهرعت ترتقي الدَّرَج.

كانت الشمس حمراء خلف هايكلوز. ركعتُ على عتبة النافذة وابتسمت في وجه القدر والناس الذين يتخيلون أنَّ ثمة حالات غريبة تقترب من الحقائق الداخلية. هبطت الشمس مباشرة خلف أشجار الأرز، بدقة وأيضاً، كما بدا وأنا أراقب، بسرعة انخفضت خلف الأشجار، خلف حافة التل.

قلت لنفسي: «يجب أنْ أذهب وأُخبره بأنها لن تأتي».

لكنني رحت أتحرك بعصبية في أرجاء الغرفة، كارهاً أنْ أغادر. هبطت ليتي، مرتدية ثوباً أبيض - أو كريم - بياقة واسعة. عادت من جديد بهجة للنظر ونضرة، ولا يزال هناك قبس من إثارة بعد الظهيرة.

قالت، وهي تلقي نظرة سريعة إلى نفسها في المرآة: «سوف أتزين ببعض من هذا البنفسج»، ومن ثم تناولت الزهر من الماء، وجفّفته، وثبّتته على تخريم الثوب.

قالت مبتسمة، ناقلة نظرها مني إلى انعكاس صورتها التي كانت كضياء في الغرفة المُعتمة، «ألا نبدو أنا وليتي جميلتين هذه الليلة؟».

قلت: «وهذا يُذكّرني بأنَّ جورج ساكستون يرغب في لقائك هذا المساء».

«لِمَ؟».

«لا أعلم. لقد تلقوا إشعاراً بترك المزرعة، وأعتقد أنه تنتابه بعض المشاعر العاطفية».

«أوه، حسن - ألن يأتي إلى هنا؟».

«قال إنه يود أنْ تقابليه على مسافة قليلة في الغابة».

«أقال هذا! أوه، حقاً! حسن، طبعاً لا أستطيع».

«طبعاً لا - إنْ كنتِ لا ترغبين. وبالمناسبة، أنت تتزينين بالبنفسج الذي أرسله إليك».

«أحقـاً – فليكـن، لـن يُغيِّر هذا شيئـاً. ولكن ما سبـب رغبته في لقائي؟».

«لا أعلم، أؤكد لك».

ألقتْ نظرة سريعة على نفسها في المرآة، ومن ثم على ساعة الحائط.

علّقـت: «فلنرَ. إنَّ الساعة لم تتجـاوز الثامنة إلا ربع. ثلاثة أرباع الساعـة –! ولكـن ماذا يمكن أنْ يريد مني؟ – أنـا لم أواجه شيئاً كهذا من قبل».

علّقت متهكماً: «أمر مُذهل، أليس كذلك؟».

«نعم «وألقت نظرة إلى نفسها في المرآة:

«لا أستطيع أنْ أذهب وأنا هكذا».

«حسن، إذن لا تستطيعين».

«ثـم – إنَّ الظلام يكاد يحل، سـوف تستحيل الرؤية في الظلام، أليس كذلك؟».

«سيحل فوراً».

«حسن، سوف أذهب إلى آخر الحديقة، وأنتظر لحظة واحدة فقط – اركُض واجلب وشـاح الحرير ذاك من خزانة الملابس – عجّل، ما دام هناك بعض الضوء»

أسرعت وجلبتُ الوشاح. فوضعته بعناية وتناسُق على رأسها.

خرجنـا، ومشينا على طول ممـر الحديقة. ليتي ترفع أطراف أذيال ثوبهـا بعناية بعيداً عن الأرض. وعندليب بـدأ يغرد في الغسق: تابعنا المسـير في صمت حتـى شجيرات الوردية، التـي أضحت الآن تحمل براعم زهرية.

قالت: «لا يمكن أنْ ألج الغابة».

تعالي إلى قمة التل- ودرنا حول الشجيرات القائمة.

كان جـورج في الانتظار. وعلى الفور رأيتُ أنه لم يعُد الآن واثقاً مـن نفسه. أسقطـت ليتي أطـراف ثوبها ومشت نحـوه. كان يقفُ مرتبـكاً في انتظارها، واعياً لمظهره المضحك. مـدت يدها بشيء من الفخامة:

قالت: «أترى، لقد أتيتُ».

«نعـم – حسبـتُ أنك لـن تفعلي – ربمـا «– نظر إليهـا، وفجأة اكتسبَ بالشجاعة:

«كنـتِ تجربين ارتداء الثوب الأبيض – إنك، إنك تبدين جميلة – وإنْ كان ليس مثل –»

«ماذا؟ – مَنْ أيضاً؟».

«لا أحـد آخـر – فقط أنـا – حسن كنتُ – كنـتُ أفكر في الأمر بطريقة مختلفة – مثل اللواتي يظهرن في بعض الصور».

ابتسمتْ بإشراقٍ رقيق، وسألتْ مُستمتعة: «وكيف أختلف؟».

«إنهن لا يرتدين مثل هذا القماش الناعم - بل أكثر بساطة».

«ولكن ألا أبدو جميلة جداً بكل هذا القماش الناعم، كما سمّيته؟» - وهزّتْ الحرير وأبعدته عن ابتساماتها.

«أوه، نعم - أفضل من تلك الأجساد العارية».

«أنت ظريف هذه الليلة - لماذا طلبت مقابلتي - لتودعني؟».

«أودعك؟».

«نعم - أنت راحل، كما يقول سيريل. أنا شديدة الأسف - تخيَّل وجود أشخاص غرباء فظيعين في الطاحونة! ولكن أنا أيضاً سوف أرحل قريباً. نحن جميعاً مغادرون كما ترى، لقد أصبحنا راشدين الآن»- ظلت مُمسكة بذراعي.

«نعم».

«وإلى أين ستذهب - إلى كندا؟ ستستقر هناك وتُصبح شيخاً جليلاً هادئاً»؟؟

«لا أعلم».

«لا أظنك أسفاً على رحيلك، أليس كذلك؟».

«كلا. أنا سعيد».

«سعيد برحيلك عنا جميعاً».

«أعتقد ذلك – أنا مُضطر».

«آه، القدر – القدر! إنه يفصلك سواء أحببت أم لم تحب».

«ماذا؟».

«أعني، كما ترى، أنت مُضطر إلى الرحيل. لا ينبغي أنْ أبقى هنا – الجو يزداد برودة. متى سترحل؟».

«لا أعلم».

«إذن ليس قريباً».

«لا أعلم».

«إذن فقد أراك من جديد؟».

«لا أعلم».

«أوه، نعم، سأراك. حسن، يجب أنْ أذهب. هل أودعك الآن؟ – أليس هذا ما أردتَ؟».

«أنْ أودّعكِ؟».

«نعم».

«كلا – ليس هذا ما أردت – لقد أردت، أردت أنْ أطلب منك–».

هتفت «ماذا؟».

«كمــا تعلمــين، يا ليتــي، الآن انتهت حياتنا القديمــة، كلها – كم أريدك – أنْ تنطلقي مع – ما يُشبه بداية حياة، وأريد منك».

«ولكــن ماذا في وسعــي أنْ أفعل – أستطيع فقط أنْ أكون عائقاً – أية مساعدة أستطيع أنْ أقدم؟».

«كان ينبغي أنْ أشعر كأنَّني اتخذت قراري – وكأنَّ في استطاعتي أنْ أفعــل شيئاً بوضوح. والآن أصبح كل شيء ضبابياً – لم أعد أعرف ما هي الخطوة التالية التي يجب أنْ أتخذ».

«ولو استطعت – فماذا حينئذٍ؟».

«لو استطعت لكنتِ ذهبتِ فوراً».

«إلى أين؟».

«أوه – يجب أنْ أشتري مزرعة في كندا –».

«حسن، أليس من الأفضل أنْ تشتريها أولاً لتتيقّن –؟».

«ليس لديّ المال».

«أوه! – إذن أردتني من أجل –؟».

«أنا فقط أردتكِ، فقط أردتك. كنتُ مستعداً أنْ أعطيك –».

«ماذا؟».

«ستحصلين عليّ – ستحصلين عليّ كلي، وعلى كل ما أردت».

«على كل ما دفعتُ ثمنه – صفقة جيدة! كلا، أوه كلا، يا جورج، بعد إذنك. إنَّ هذه إحدى أشد لياليّ وقاحة. لا أقصد بالمعنى الحرفي. ولكنك تعلم أنَّ هذا مستحيل – انظر كم أنا ثابتة – إنه مستحيل تماماً، ماذا ترى؟».

«أعتقد ذلك».

«أنت تعلم أنه كذلك – انظر إليّ الآن، وقُل إنه ليس مستحيلاً – زوجة مزارع – معك في كندا».

«نعم – لم أتوقع أنْ تحبي ذلك. نعم، أرى أنه أمر مستحيل. لكنني فكرت فيه، وشعرت كأنني يجب أنْ أحصل عليك. بل يجب أنْ أحصل عليك... نعم، لا ينفع الاستمرار في الحلم. أعتقد أنها المرة الأولى، وسوف تكون الأخيرة. نعم، إنه مستحيل. والآن عقدتُ عزمي».

«وماذا ستفعل؟».

«لن أرحل إلى كندا».

«أوه، ينبغي ألا تفعل – يجب أنْ لا تقوم بأي عمل متهور».

«كلا – سوف أتزوج».

«أحقاً؟ أوه، أنا سعيدة. لقد حسبت – أنك – أنك مولع –.

ولكنــك لست كذلــك – أعني بنفســك. – أنا سعيدة جــداً. نعم – تزوج!».

«حسن، سأفعل – بما أنك أنت– ».

قالت ليتي: «نعم، هذا أفضل. لكنني حسبت أنك –» وابتسمت له بتأنيب حزين.

أجاب، مبتسماً بجدية: «أهذا ما ظننتِ؟».

همست: «نعم». وقفا يتبادلان النظرات.

قام بحركة تقدُّم متهورة نحوها. لكنها تراجعت قليلاً، تتفحصه.

قــال، ماداً يده: «إذن – سوف أراك من جديد في وقت ما – فإلى اللقاء».

سمعنــا وقع أقــدام يسحق الحصــى. وقف لزلي علــى أعلى التل. عندما سمعته ليتي تراخت إلى حالة من اللباقة الماكرة، وقالت لجورج:

«أنــا شديدة الأسف لأنك سترحــل – سوف تنهار الحياة القديمة. قلــتَ أنك ستراني من جديد –» تركــت يدها مستقرة في يده لحظة أو اثنتين.

أجــاب جورج: «نعم، أسعدتِ مساءً »– ثم استدار. وقفت برهة الوقفــة الجميلة، المتراخية نفسها، تراقبه، ثم استدارت ببطء. بدا كأنها لا تلاحظ وجود لزلي.

سألها: «مَنْ هذا الذي كنتِ تتحدثين معه؟».

أجابت بصورة خارجة عـن الموضوع، وكأنها حتى حينئذٍ بدت أنها لا تلاحظ: «لقد ذهب الآن».

«كأنه يُزعجك – ذهابه – مَنْ هذا؟».

«هو! – أوه، – ولَوْ إنه جورج ساكستون».

«أوه، هذا!».

«نعم».

«وماذا أراد؟».

«آه؟ ماذا أراد؟ أوه، لا شيء».

«مجـرد لقاء – في الفترة الفاصلـة، آه!» – قال هذا وهو يضحك، مُعبراً عن انزعاجه بتسامُح مازح.

قالت: «أشعر بالأسف الشديد».

«علام؟».

«أوه – دعنـا مـن الحديث عنه – فلنتحدث في أمر آخر. لا أتحمل الحديث – عنه».

أجـاب: «حسن» – وبعد فـترة وجيزة من الصمت المُربك، قال: «وكيف كان الوقت الذي أمضيته في نوتنغهام».

«أوه، وقتاً ممتعاً».

«سوف تستمتعين في المحال التجارية من الآن وحتى - شهر تموز. سوف نذهب في وقت ما لزيارتها معاً».

«حسن».

«يبدو من كلامك أنك لا ترغبين في اصطحابي. هل أصبحتُ منذ الآن عائقاً في طريق حملة تبضعك، وكأنني زوج عجوز؟».

«أعتقد أنك ستكون كذلك».

«هذا لطف منك! ولِمَ؟».

«أوه، لا أعلم».

«بل تعلمين».

«أوه، أعتقد أنك سوف تتسكع».

«إنَّ تنشئتي راقية جداً».

«لقد أضاءت ريبيكا مصباح الرواق».

«نعم، إنَّ الظلام يزداد حلكة. لقد أتيت إلى هنا باكراً. ولم أسمع منك كلمة واحدة طيبة على ذلك».

«لم ألاحظ. ثمة ضوء في غرفة الطعام، سوف ندخل إلى هناك».

ولجا غرفة الطعام. وقفت هي بجوار البيانو ونزعت عنها الوشاح بعناية. ثم تمشّتْ برهة بلا هدف في أرجاء الغرفة.

قال، مَشيراً إلى مكان الجلوس على الأريكة الطويلة إلى جواره:

«ألن تأتين وتجلسين؟».

قالت، وهي تتمشى بلا هدف نحو البيانو، «ليس الآن». جلست وبــدأتْ تعزف عشوائياً، مــن الذاكرة. ثم بذلك العمــل الأكثر إثارة للغضب – عزفت ألحاناً مرافقة للأغاني، مع شذر من الغناء حيث على الصوت انْ يطغى.

بعد قليل قاطعها قائلاً: «أنا أقول، يا ليتي...».

أجابت، ولا زالت تعزف: «نعم».

«إنه ليس ممتعاً كثيراً...».

«أحقاً؟»– واستمرت في العزف.

«ولا مسلياً...».

لم تُجب. تحمّل أكثر قليلاً، ثم قال:

«إلى متى سيستمر هذا، يا ليتي؟».

«ماذا؟».

«ذلك النوع من الأعمال...».

«تعني البيانو؟ – سأتوقف عن العزف إذا لم يكن يُعجبك».

لكنها لم تتوقف.

«نعم – وكل ذلك العزف الجاف».

«لا أفهم».

«ألا تفهمين؟ – أنت تُضجرينني».

ثم تابعتْ العزف: إذا بنيتُ عالماً لك، يا حبيبتي.

صرخ: «أقول، توقفي، فوراً!».

عزفت اللحن حتى آخره، وببطء شديد أغلقت غطاء البيانو.

قال: «هيا – تعالي واجلسي».

«كلا، لا أريد – أفضّل أنْ أتابع العزف».

«إذن هيا وتابعي عزفك اللعين، وسأذهب إلى حيث أجد ما هو أكثر تسلية».

«يجب أنْ يعجبك».

لم يُعجِب، فاستدارت ببطء على المقعد، وفتحتْ غطاء البيانو، ووضعت أصابعها على المفاتيح. لدى سماعه النغمات نهض واقفاً، وقال: «إذن أنا ذاهب».

قالت، من خلال النغمات الهادئة لـ Meine Ruh ist hin (لقد تلاشى سلامي)[٥٤]: «لا زال الوقت مبكراً – لماذا؟».

---

٥٤ – بيت من أغنية «غريتشن على المغزل» لفرانز شوبرت Op 2، D 118، أخذ موضوعها من مسرحية «فاوست» لغوته. – المترجم

وقف يعضّ على شفته. ثم ناشدها مرة أخرى.

«ليتي!».

«نعم؟».

«ألن تكفّي - وتكوني - لطيفة؟».

«لطيفة؟».

«أنت عذاب مرح. ما الذي يُزعجك الآن؟».

«كلا، لستُ أنا المنزعجة».

«يسعدني أنْ أسمع هذا - فماذا تسمي نفسك؟».

«أنا؟ لا شيء».

«أوه، حسن، إذن أنا ذاهب».

«أيجب أنْ تفعل؟ - أنت مبكر جداً هذه الليلة؟».

لم يذهب، واستمرت في العزف أكثر فأكثر بنعومة، وفتور، وبلا هدف. مرة واحدة رفعت رأسها لتتكلّم، لكنها لم تقُل أي شيء.

«اسمعي! ماذا تعنين بهذا؟»، قال ذلك دفعة واحدة، حتى أنها أجفلتْ وهزّت البيانو.

استمرت في العزف على هواها بضع لحظات أخرى قبل أنْ تُجيب، ثم قالت:

«كم أنت قلق!».

«أعتقد أنك تريدين أنْ تزيحيني من الطريق لكي تتكلمي بشكل

عاطفــي عن بائع الحليــب ذاك. لا داعي لإزعــاج نفسك. تستطيعين أنْ تتكلّمــي في حضوري. أو أذهب وأدعك في سلام. سوف أذهب وأستدعيه من أجلك، إنْ شئت - إذا كان هذا ما تريدين -».

دارت ببطء على مقعد البيانو ونظرت إليه، مع ابتسامة خفيفة.

قالت: «هذا تصرّف طيب جداً منك!».

شدَّ على قبضتيه وصرَّ أسنانه من شدّة الحنق.

باشر بالقول، رافعاً قبضتيه بطريقة مُعبّرة: «أنت تعذبينني قليلاً-». ابتسمــت. استــدار بسرعة، وضرب عــدداً من القبعــات وأوقعها عن الحامل في الرواق، وصفع الباب بقوة، ورحل.

تابعــت ليتي العزف بعض الوقت، وبعد ذلك صعدت إلى غرفتها الخاصة.

×××

لم يرجــع لزلي إلينا في اليــوم التالي، ولا اليوم الذي بعده. في اليوم الأول جــاءت مــيري وأخبرتنا بأنه رحــل إلى يركشــير ليُعاين المناجم الجديــدة التــي انهارت هنــاك، وأنَّ من المُرجّــح أنْ يغيــب أسبوعاً أو نحــوه. تلك الزيارات المتعلقة بالعمل إلى الشمال كانت تتكرر كثيراً. والشركة، التــي كان السيد تمبست مديرها ومالــك الأسهم الأساسي فيهــا، كانت تفتتــح مناجم جديــدة هامة في المقاطعــة الأخرى، لأنَّ

العـروق[٥٥] أصبحـت تُستهلَك و لم تعُد مُربحة. وقـد تقرر أنْ يعيش لـزلي في يوركشير بعد أنْ يتزوج، لكي يُشرِف على الأعمال الجديدة. في أول الأمر رفض الفكرة، لكنه لاحقاً بدا أنه استحسنها أكثر.

في فـترة غيابه أصبحت ليتي متقلبة المزاج وحادة الطِباع. لم تأت على ذِكر جـورج والطاحونة؛ في الحقيقة، لقـد حافظت على أفضل مظاهر سلوكها كسيدة محترمة متكبرة.

في مساء اليوم الرابع من غياب لزلي كنا في الحديقة. كانت الأشجار «تلفـظ أوراقاً فرحـة». كانت أمي في وسط حديقتهـا، ترفع الوجوه الكالحـة عن زهرة الربيـع الأذينيّة لكي تنظر إلى الشفـاه المخملية، أو تنزع برفق أعشاباً ضارة غضّة عن التربة السوداء. كانت طيور الدرّج تصيـح وتصخب في كل كان، وشجرة السفرجل الياباني تتوهج على الجدار مع تكثُّف الضوء؛ وشرّابات أزهار الكرز البيضاء تتأرجح برفق في وجه النسيم.

قالـت ليتي، وهي تتمشى عبر العشب لكي تعبث بأزهار الفرجل الياباني: «ماذا سأفعل، يا أمي؟ ماذا سأفعل؟ – ليس لدي ما أقوم به».

«بنيتـي – ماذا تريدين أنْ تفعلي؟ طوال النهار وأنـت تتسكعين – اذهبي وزوري أحداً».

«الطريق إلى إيبرويتش طويلة».

---

٥٥ – العروق: المقصود بها عروق المعادن النفيسة في المناجم، كالذهب. – المترجم

«أحقاً؟ إذن اذهبي إلى مكان أقرب».

أخـذت ليتي تتحرك غاضبـة بسبب عجزها القلـق، الوقح، عن اتخاذ قرار.

قالـت: «لا أعرف ماذا أفعل. وفي أيام مهدورة كهذه أشعر كأنني لم أعِش أبداً. أتمنى لو أننا لم نُدفَن في هذه الحفرة الصغيرة الميتة - ليتنا كنـا أقرب إلى المدينة - شـيء كريه ألا تعتمـدي إلّا على شخصين أو ثلاثة من أجل - من أجل - من أجل استمتاعك بالحياة».

«لا حيلـة لـدي، يا عزيزتي - يجـب أنْ تفعلي شيئـاً ما من أجل نفسك».

«وماذا في وسعي أنْ أفعل؟ - إنني لا أُحسن عمل أي شيء».

«إذن لو كنتُ مكانك لأويت إلى السرير».

«لـن أفعـل هذا - بعـد أنْ خلّفت جثة يوم مهـدور ورائي. أشعر كأنني أقوم بعمل يائس».

قالت الأم: «حسناً جداً، إذن، قومي به، وانجزيه».

«أوه، لا فائـدة مـن التحـدث معـك - لا أريـد -» وأشاحـت بوجهها، ومشـت إلى اللوريستينوس، وبدأتْ تنزع ثمـاره الطويلة والحمـراء. توقعت أنْ تهـدر الأمسية بغضبها. وفجـأة لاحظتُ أنها وقفت لا تُبدي حراكاً. كان السبب هدير سيارة تمر مسرعة أسفل التل نحو نذرمير - هدير خفيف، سريع الإيقاع. أصغيتُ بدوري. شعرت

بالهبوط المترنح للسيارة على سفح التل الوعر. ورأينا الغبار يندفع خلفها من بين أشجار. رفعت ليتي رأسها وأصغت بتوقُّع. اندفعت السيارة على طول حافة نذرمير – ثم سمعنا صرير المكابح، مع إبطاء السيارة وتوقفها، وخلال لحظة ومع صوت خفقان سريع، كانت تجتاز بوابات وتهدر على طول الممر، وتخترق الغابة، نحونا. وقفت ليتي بوجنتين متوردتين وعينين برّاقتين. ثم اقتربت من الشجيرات التي تحدّ المرج من المساحة المُحصّاة أمام المنزل، وهي تراقب. جاءت سيارة مسرعة من خلال الأشجار. كانت سيارة لزلي الصغيرة التي يستعملها في قضاء شؤون المزرعة – الآن أضحت بيضاء بسبب الغبار. فجأة ضغط لزلي على المكابح، وتوقف فجأة أمام المنزل. ترجل إلى الأرض. وأخذ يترنح قليلاً، بسبب شعوره بالدوار وإصابته بالتشنّج من طول فترة القيادة. كانت طبقة كثيفة من الغبار قد غطت سترة القيادة والقلنسوة.

نادته ليتي: «لزلي!»– وطارت إليه. ضمّها بين ذراعيه، وتصاعدت سحابة من الغبار حولهما. قبّلها، ووقفا برهة لا يأتيان بأية حركة. رفعت نظرها إلى وجهه – ثم حرّرتْ ذراعيها لكي تنزع عنه نظارة السيارة التي تشوه منظره. وبعد أنْ تأمّلته برهة، برقّة، قبّلته من جديد. أرخى ذراعيه عنها، وقالت، بصوت مُفعم بالحنان:

«أنت ترتجف، يا عزيزي».

«بسبب القيادة، أنا لم أتوقف أبداً».

أدخلته إلى المنزل دون مزيد من الكلام.

«كـم أنت شاحب – اسمع، استلقِ علـى الأريكة – لا عليك من الغبـار. حسن، سأحضر لك أحد معاطف سيريل. أوه، أمي، لقد قطع كل تلك الأميال من دون توقف – اجعليه يستلقي».

هرعـت وأحضرت له سـترة، ووضعت الوسائـد حوله، وجعلته يستلقي علـى الأريكة. ثم خلعت عنه حـذاءه طويل الرقبة ووضعت خفـاً في قدميه. تمدد يراقبها طول الوقت؛ كان شاحباً من فرط التعب والإثارة.

قال «أتسـاءل إنْ كنتُ سأُتّهم بالقيادة بسرعـة فائقة – أكاد أشعر بالطريق لا زال قادماً نحوي».

«لِمَ كنتَ متهوراً هكذا؟».

«لقـد شعرتُ بأنني سأُجـن إذا لم آت – إذا لم أتهور. لم أكن أعلم كيف ستستقبلينني، يا ليتي – عندما قلتُ – ما قلت».

ابتسمت له برقّة، وهو يستلقي مرتاحاً، يستعيد قِواه، وينظر إليها.

«مـن قبيل المعجزة أننـي لم أرتكب عملاً يائسـاً – لقد أصبحت كالمجنـون منـذ أنْ قلت – أوه، ليتي، كم كنـتُ أحمق لعيناً وبائساً – كان يمكـن أنْ أمـزّق نفسي إلى نصفَين. كل مـا فعلت منذ ذلك الحين أننـي سببت وشعرت بالحنق من نفسي. أشعر وكأنني خرجتُ تواً من الجحيـم. لا تعلمين كم أنا ممتن، يا ليتـي، لأنك لم – أوه، تنقلبي عليّ بسبب ما قلتُ».

اقتربت منه وجلست بجواره، تزيح الشعر عن جبينه، تقبّله، بأسلوب رقيق، يستدرّ الدموع، وحركاتها مندفعة، وكأنما بتأنيب ذات لا تعترف به، لكنها يجب أنْ تُسكته بإغداق الرقّة. جذبها إليه، وبقيا هادئين بعض الوقت، إلى أنْ هبط الظلام.

عكّر صفوهما ضجيج أمها وهي تتململ في الغرفة المجاورة. نهضت ليتي واقفة، وهو أيضاً نهض عن الأريكة.

قال: «أعتقد أنني يجب أنْ أذهب إلى المنزل لأستحم وأتهيّأ -» ثم أضاف بنبرة تُظهر بجلاء عدم رغبته في الرحيل، «وإنْ كنتُ سأُضطر إلى العودة في الصباح - لا أعلم ماذا سيقولون».

قالت: «على أية حال، يمكنك أنْ تغتسل هنا -».

«ولكن يجب أنْ أخلع هذه الملابس - وأريد أنْ أستحم».

«تستطيع أنْ تفعل - يمكن أنْ ترتدي بعضاً من ملابس سيريل - والماء الحار، أعلم. على أية حال، يمكنك أنْ تمكث حتى العشاء -».

«إن كنتُ سأرحل فيجب أنْ أرحل سريعاً - وإلا غضبوا، إذا تأخرت؛ - ليست لديهم أية فكرة أنني أتيتُ إلى هنا؛ - إنهم لا يتوقعون ظهوري قبل يوم الإثنين أو الثلاثاء القادم -».

«ربما في استطاعتك أنْ تنزل هنا - لا داعي إلى أنْ يعلموا».

تبادلا النظرات بعيون واسعة، مبتسمة - كطفلين على شفا أنْ يرتكبا متعة مسروقة.

«أوه، ولكن ماذا ستعتقد أمك! – كلا، سوف أذهب».

«لن تعترض البتة».

«أوه، ولكن –».

«سوف أسألها».

لقد أراد أنْ يمكث أكثر مما تمنت بكثير، لذلك كانت هي التي قضت على مقاومته وانتصرتْ.

رفعت أمي حاجبيها، وقالت بهدوء شديد:

«يُستحسن أنْ يذهب إلى بيته – وأنْ يكون صادقاً».

«ولكن انظري كيف يشعر – سوف يُضطر إلى إخبارهم... تصوري شعوره! إنَّ الخطأ في نهاية المطاف هو في الحقيقة خطئي. لا تكوني عنيدة وخسيسة وضيقة الأفق، يا ماموشكا».

«ليس في الأمر خِسّة وضيق أُفُق –».

هتفت ليتي ساخرة: «أوه، كلام، كلام –!».

قالت الأم، وقد غضبت قليلاً من سخرية ليتي: «يمكنه حتماً أنْ يبقى إذا أراد».

«حسن، يا Mutterchen – وكوني لطيفة، أرجوك!».

خرجت ليتي مع شيء من نفاد الصبر جراء معرضة أمي، لكنَّ لزلي، مع ذلك، مكث.

خلال لحظات كانت ليتي فوق في غرفة النوم الإضافية، تعدّها وترتّبها، وكانت ريبيكا تهرع لجلب زجاجات الماء الساخن، وتهبط إلى أسفل مسرعة مع مفارش السرير النظيفة. واستولت ليتي على عجل على أفضل ما لديّ من فراشٍ - كانت قد أهدتنيها - وأخذت طقم البيجاما من أرقّ وأرقى أنواع الفانيلا - واكتشفتْ فرشاة أسنان جديدة - وانتقت مجموعات من قمصاني ومناديلي وملابسي الداخلية - ودلّتني على أفضل بذلة لدي لأعيرها له. وفي العموم كنتُ مندهشاً، وربما منزعجاً قليلاً، من حُسن انتباهها الاستثنائي وعنايتها المفرطة.

هبط ليتناول طعام العشاء، ويستحم، ويمشط شعره، ويتألّق. أكل بنهم وبدا كأنه يشع بدفء الراحة الجسدية والاستمتاع. وعاد التورّد إلى وجهه، واتخذ هيئة الاستقلال، والحزم القديمة. لم أتذكر أنه ظهر بمظهر أشد وسامة، وجاذبية، من تلك المناسبة. كان يكتنفه نوع خاص من الدفء، توهج خاص دعم كلامه، وضحكه، وحركاته؛ كان صاحب الشخصية الطاغية وشعرنا بالسرور لمجرد وجوده. لكنَّ أمي لم تتمكن من التخلُّص من جمودها، وسرعان ما نهضت بعد العشاء، قائلة: إنها ستُنهي كتابة رسالتها في الغرفة المجاورة، متمنية له ليلة هانئة، كأنها تتمنى ألا تراه بعد الآن. كانت غمامة تلك البرودة القليلة من أرقّها وأسرعها في التلاشي. وتكلم وضحك بمرح أكثر من أي مناسبة سابقة، وكان متباهياً بحركاته، رافعاً رأسه بشموخ، متخذاً

وِقفـات صغـيرة تكشف عن صلابة صـدره العريض، وجمـال بُنيته الجسديـة حسنة التدريـب. تركتهما عند البيانـو؛ كان جالساً يتظاهر بالعـزف، وطـوال الوقت يرفع بصـره إليها، وهي واقفـة ويدها على كتفه.

XXX

في الصبـاح نهضَ باكـراً، في السادسة كان في الطابـق السُّفلي منكباً على سيارتـه. وعندما هبطت إلى أسفل وجدته شديد الانهماك والهدوء.

قـال: «أعلـم أنني مصدر إزعـاج فظيع، ولكن يجـب أنْ أنطلق باكراً».

جاءت ريبيكا وأعدَّت طعام الإفطار، تناولناه نحن الاثنين وحدنا. كان مملاً وصامتاً بصورة مُلفتة.

قلـت: «أمر عجيب ألا تستيقظ ليتي لتتناول الإفطار معك - إنها مهووسة بالاستيقاظ باكراً - بنقائه ووعوده وما إلى ذلك».

قطع نصيبه من الخبز بعصبية، وشرب بعض القهوة وكأنه غاضب، مُثيراً الضجيج في حنجرته وهو يبتلع.

أجـاب، وهو يمسـح شاربه على عجل: «أعتقـد أنَّ الوقت مبكر جـداً بالنسبـة إليها». كانت غرفـة نوم ليتي تقع فـوق غرفة المكتب، حيث مدت ريبيكا مائدة الإفطار، وبدا أنه يُصغي بين حين وآخر ترقّباً

لمجيئهـا، مُعلّقاً الشوكة والسكين في الهواء في أثناء ذلك. ثم يستأنف تناول وجبته من جديد.

عندمـا همَّ بوضع منديل الطعام على الطاولـة، فُتِحَ الباب. فلملم شتـات نفسـه، واستدار بحـدّة. كانـت الأم. عندمـا تكلمت معه، ارتعشت تقاسيم وجهه راسمة قليلاً من التجهُّم، تراوح بين الارتياح، والخيبة.

قال: «يجب أنْ أرحل الآن - شكراً جزيلاً لك - يا أمي».

«أنـت فتى متهـور. أتسـاءل لِمَ لم تنزل ليتي. أنـا متأكّدة من أنها استيقظت».

أجاب: «نعم، نعم، لقد سمعتها. لعلها تتهندم. يجب أنْ أنطلق».

«سوف أناديها».

«كلا - لا تزعجيها - سوف تأتي إذا أرادت -».

لكنَّ الأم كانت قد نادت من أسفل الدَّرَج.

«ليتي، ليتي - إنه راحل».

قالت ليتي: «حسن»، وبعد دقيقة أخرى نزلت إلى الطابق السُفلي. كانت ترتـدي ثوباً قاتماً، متزمتاً، وكانت شاحبة قليلاً. لم تنظر إلى أيٍ منا، لكنها وجّهت عينيها جانباً.

قالـت، مادة وجنتها لـه، «وداعـاً». قبّلها، متمتمـاً: «وداعاً، يا حبيبتي».

وقـف عند ممر الباب برهـة، ناظراً إليها بعينـين متوسلتين. أبقتْ وجهها نصـف منحرف، ولم تنظـر إليه، بل وقفـت شاحبة وباردة، تعضّ على شفتها السُّفلى. أشـاح بوجهه بحدّة بحركة تعبِّر عن خيبة شديـدة، وأدار مُحرك السيارة حتى التحـرك، وركبها، وقادها بسرعة مبتعداً.

وقفـت ليتي شاحبة ومُبهمـة بضع لحظات. ثم ولجت إلى الداخل لتتنـاول إفطارهـا وجلسـتْ تعبث بطعامهـا، مُبقية رأسهـا منكّساً، ووجهها مُستتراً.

في غضون أقلّ من ساعة عاد من جديد، قائلاً إنه نسيَ شيئاً. فهرع إلى الطابق العِلوي، ومن ثم، بعد تردُّد، ولج الغرفة التي كانت ليتي لا تزال تجلس فيها على إحدى الطاولات.

قال: «كان يجب أنْ أعود».

رفعـت إليـه وجههـا، ولكن أبقـت عينيها منحرفتـين، تنظر من النافذة. كانت متوردة.

سألت: «ما الذي نسيته؟».

أجاب: «نسيت علبة سجائري».

ساد صمت مُربك.

أضاف: «ولكن يجب أنْ أنطلق».

أجابت: «نعم، أعتقد ذلك».

بعد فترة صمت، سأل:

«ألا ترافقينني على الممر؟».

نهضتْ دون أنْ تجيب. تناول وشاحاً وأحاطها به بعناية. وسمحت له بذلك. سارا في صمت في الحديقة.

تلعثم قائلاً: «أأنت – أنت – أنت غاضبة مني؟».

فجأة ظهرت الدموع في عينيها.

قالت، مُشيحة بوجهها عنه: «لِمَ رجعت؟». نظر إليها.

تردد وهو يقول: «كنتُ أعلم أنك غاضبة – و –».

قالت باندفاع: «لِمَ لم ترحل؟». نكس رأسه ولزم الصمت.

قال متلعثماً: «لا أفهم سبب – سبب المشكلة بيننا، يا ليتي». قامت بإيماءة اشمئزاز سريعة بيدها، وعلى الأثر، لدى رؤيتها يدها، قامت بإخفائها من جديد بسرعة في طيات ثوبها.

كافحت وهي تقول «أنت تجعل يديّ – حتى يديّ تتنصلان مني».

نظر إلى قبضة يدها المشدودة بين تضاعيف ثوبها.

باشر بالقول، باضطراب شديد: «ولكن –».

قالت، بنبرة صوت منخفضة، منفعلة: «أؤكد لك، لا أتحمّل مرأى حتى يديّ».

«ولكن حتماً لا حاجة، يا ليتي – إنْ كنت تحبينني –».

بدا أنها أجفلتْ. انتظر، محتاراً وبائساً.

استأنف قائلاً، وهو ينظر إليها مُناشداً: «وسوف نتزوج، أليس كذلك؟».

تململت، وهتفت:

«أوه، لِمَ لا ترحل؟ لِمَ رجعت؟».

سأل: «ألا تقبلينني قبل أنْ أذهب؟».

وقفت بوجه منحرف، ولم تُجِب. كان جبينه يرتعش بتجهّم الحيرة.

قال: «ليتي!».

لم تتحرك أو تُجب، ولكنها بقيت واقفة مُشيحة وجهها بشكل كامل، بحيث أنه لم يرَ إلا خط منحنى وجنتها. وبعد برهة انتظار، احمرّ وجهه، واستدار بسرعة وأدار مُحرك سيارته حتى هدر. وسرعان ما كان يُسابق الريح بين الأشجار.

الفصل الرابع

قبّلها عندما تكون يانعة بالبكاء

كان يوم الأحد الذي تلا زيارة لزلي. كنا قد أمضينا أسبوعاً بائساً، لزم الجميع خلاله الصمت وخيَّمت التعاسة.

على الرغم من أنَّ الربيع قد حلّ، لم يلاحظ أحد حضوره. وقد تبدّى لي بعد ذلك أنني شاهدت تحول صفوف أشجار الحور كلها تنبجس فجأة إلى التوهج القرمزي الداكن، مع ارتعاش من الأحمر الدموي حيث تسرّبت الشمس من بين أوراق الأشجار؛ أنني عثرت على مهود عالية تضع فيها طيور التمّ بيضها بجوار المياه؛ أنني شاهدت أزهار النرجس البري تميل من جدران منزل القارب الخشبية التي ينمو عليها الطحلب، وكلها، الطحلب، والنرجس، والماء، تنتثر عليها أوشحة ورديّة من براعم شجر الدردار؛ أنني كسرت مراوح شجر القيقب الدلبي نصف المفروشة، وشاهدتُ السحابة البيضاء لأزهار برقوق السياج تتحول إلى اللون الرمادي الفضي أمام سماء المساء: لكنني لم أكن قد وعيت ذلك، و لم أكن أحتفظ بأية صور حيّة للربيع من الأسبوع المُهمَل.

كانت أمسية يوم أحد، بُعيد موعد شرب الشاي، عندما قالت ليتي لي فجأة:

«تعالي معي إلى ستريلي ميل».

ذُهِلت، لكنني رضختُ لها دون استفسار.

علـى العتبة سمعنا فتيات يُثرثــرن، وفي الحال رحّبَ صوت أليس بنا:

«مرحباً، سيبيــل، حبيبي! مرحباً، ليتي! ادخــلا، عندنا جمع من الآلهة. ادخلا، أنتما تجعلان الجلسة صحيحة. أنت جونو، وهذه ميغ، وهــي فينوس، وأنا - فليخــبرني أحد، مَنْ أنا، أخــبروني بسرعة- هل قلــت مينرفــا، عزيزي سيبيل؟ حســن يجب أنْ تقــول، إذن! والآن يا باريــس، أسرع. إنه يرتدي ملابس يوم الأحد لكي يصطحبنا في نزهة - يا إلهي، كم يستغرق من وقت! استعدي باحمرار وجهك، ميغ - والآن ليتــي، تبدين متغطرسة، وأنا أبدو حكيمة. أتساءل إنْ كان يريد مني أنْ أذهب وأربط له ربطة عنقه. أوه، يا للفخامة - من أين حصلت على غطاء ظهر الكرسي هذا؟».

قــال جورج مُشيراً إلى ربطة عنقه: «مــن نوتنغهام - ألا يُعجبك؟ مرحبا، ليتي - هل أتيت؟».

قالــت أليس: «نعم، إنه اجتماع الآلهــة. ألديك تلك التفاحة؟ إنْ كانت معك، أعطنيها».

«أية تفاحة؟».

«أوه، أيتهـا الحمقاء، ثقافته محدودة! إنها تفاحة باريس – ألا ترين أننا أتينا لكي يتم اختيارنا؟».

«أوه، حسن – ليس لدي أية تفاحة – لقد أكلت تفاحتي».

«أليس مملاً – إنه أشبه بغلي مغنيزيوم تم غليه أسبوعاً كاملاً. هل ستصحبنا كلنا إلى الكنيسة إذن؟».

«إنْ شئت».

«هيا بنا، إذن. أين مقام الحب؟ انظر إلى ليتي كيف تبدو مصعوقة. إنني أُشفق على الفتاة المسكينة – تعتقد أنَّ الحب يأتي على هواك».

استفهم جورج: «أقلت حب؟».

«نعم، هذا ما قلت، أليس كذلك، يا ميغ؟ وأنت قلت» حب «أيضاً، ألم تقُل؟».

ضحكت ميغ، التي كانت شديدة التورُّد ومرتبكة، «لا أعرف ما هو».

«Amor est titilatio» – «الحب يُدغدغ»– هذا هو – هذا هو، أليس كذلك، يا سيبيل؟».

«ما أدراني».

«طبعـاً لا تدري، أيهـا العجوز. دع الأمر للفتيـات. أترى كيف تبدو ليتي العارفة – ويا إلهي، ليتي، أنت متجهمة».

يلمِّح جورج، من فوق نظارتيه الأنفية الجديدة، «إنه الحب».

«أراهـن على أنه» degustasse sat est «– أليس كذلك، ليتي؟ «تكفـي لعقة واحدة» – «واللعنة على مَنْ يبكي أولاً: توقف، يكفي! «– أيُّها تعجبك؟ ولكن ألن تصحبنا إلى الكنيسة، جورج يا عزيزي – واحدة واحدة، أم كلنا دفعة واحدة؟».

سأل: «ماذا تريدين مني أنْ أفعل، ميغ؟».

«أوه، أنا لا فرق عندي».

«وما رأيك أنت، يا ليتي؟».

«أنا لن أذهب إلى الكنيسة».

قالـت إميلـي بشيء من النـزق: «فلنتمشَّ في مكان مـا – ولنبدأ الآن». لم يُعجبها هذا الهراء.

قالت إميلي تشتكي: «ها قد صدرت إليك الأوامر، يا سيبيل – لا تتركني وحدي»

تجهمت إميلي وعضّت على إصبعها.

«هيا، جورجي. تبدو كمؤشّر الميزان – تقع بين وزنَين. تُرى أيُّهما سيجرك إليه؟».

أجــاب، مبتسمــاً، ودون أنْ ينظــر إلى ميغ أو إلى ليتــي: «الأثقل وزناً».

هتفت أليس: «إذن هي ميغ. أوه، ليتني كنتُ بدينة – ليس لي حظ مع سيبيل في مقابل بم».

ومضت في عينيّ إميلي نظرة حنق؛ توردت ميغ وشعرت بالخجل؛ وبدأتْ ليتي تبرأ من أول إحساس بالسخط الحانق، وابتسمت.

وهكذا انطلقنا نتمشى، في مجموعتين ثلاثيتين.

لسوء الحظ، بقدر ما كانــت الأمسية رائقة، كانت الدروب ممتلئة بالمتسكعــين: مجموعات من ثلاثة رجال أو أربعة ببناطيل شاحبة اللون ومعاطــف سوداء لامعة من اللبــاد، يتبعون كلابهم الصغــيرة المُرتابة: وعصابــات مــن الشبان يمشــون بترهُّــل، متبطلون، غالبــاً صامتون، يتكلمــون أحياناً بنبرات أجشة في موضوع لا يكادون يهتمون به: ثم هناك الأزواج الشهمــون، بمعاطفهم الذيلية يبدون أزواجاً بكل معنى الكلمــة، يدفعون أمامهــم عربات أطفال تُصلصــل، تؤنبهم زوجات بملابس كثيرة يدور حولهن الأعضاء الأصغر من أفراد العائلة: أحياناً، يتمشى عاشقان تفصل بينهما مسافة، يُنكِر كلٌّ منهما الآخر؛ وأحياناً، تســير أمٌّ أنيقــة الملبس مع فتاتــين صغيرتين ترتديان ثوبــين من الحرير الأبيض مع كتلة كبيرة من الشعر الأصفر، متبخترات، وبالقرب منهن والدٌ يتعامل بارتباك مع بذلة يوم الأحد.

كان تحمُّــل هذا كلــه ضرورياً من أجل تبــادل الحديث باطمئنان،

وكان علـى جـورج أنْ يُحافظ على مجرى الحديـث في الخلف، وبدا أنـه يفعل ذلك بيُسر، متحدثاً عن الحملان، مناقشاً السلالة – وإذا بميغ تهتف:

«أوه، إنهـم سـود! لعلهم هبطوا من المدخنـة. لم أر مثيلاً لهم من قبـل». وحكى كيـف ربّى اثنين على زجاجة الحليـب، مُثيراً إعجاب ميـغ الحادّ برعايته للحملان. ثم انتقل إلى الحديث عن طيور أبو طيط، ضارباً علـى الوتر نفسه: كيف تصرخ وتتظاهر بأنها جريحة – «فقط تخيّلـي ذلـك!»– وكيـف نقـل بيض زوج منهـا بينمـا كان يحرث الأرض، وتبعته الأم، بل وجلسـتْ تراقب وهو يقترب من جديد مع المحـراث ـ تراقبـه في ذهابه وإيابـه – «حسن، لقـد كانت تعرفك – لكنهم يعرفون حقاً أولئك الذين يُعاملونهم بلطف –».

وافـق «نعـم، إنَّ عينيهـا الصغيرتـين البراقتـين تبـدوان وكأنهما تتكلمان في أثناء مرورك».

هتفـت ميغ بمزيد من الرقّـة «أوه، إنني حقاً أعتقـد أنها مخلوقات صغيرة ظريفة – أليس كذلك، ليتي؟».

وافقت ليتي – بإيجاز.

مشينـا فـوق التلال وهبطنـا إلى غريميـد. رأتْ ميـغ أنَّ عليها أنْ تذهب إلى جدّتها، وجورج سمـح لها بذلك، قائلاً إنه سيعرج عليها في غضون ساعة أو نحوها.

أُصيبـت الفتاة اللطيفة بالخيبة، لكنها ذهبت دون أنْ تتذمر. تركنا

إميلي مـع صديق، وهرعنا إلى المنزل خلال سلسبـي تفادياً لموكب ما بعد الكنيسة.

×××

في الطريـق إلى المنـزل مـروراً بسلسبي، تنهض الحفـرة في وجه الغـرب، ومداخـن مستدقة جميلـة تبرز سـوداء أمام امتـداد شمس الغـروب، والأجـزاء العليا مـن الآلات محفـورة طويلـة ومهيبة على البريق. ثم تُصبح الأكواخ منخفضة ومربعة في صفوف من الظل عند أسفل تلك النُصُب العالية.

قالت إميلي: «أتعلم، يا سيريل، كنتُ أنوي أنْ أذهب لزيارة السيدة أنابـل – زوجة الحارس – لقد انتقلـت إلى بونسارتس رو، والأطفال التحقـوا بالمدرسـة – أوه، شيء فظيع! – إنهم لم يذهبـوا إلى المدرسة أبداً، وحالتهم تعصى على الوصف».

سألتُ: «لِمَ انتقلتْ إلى هناك؟».

«أعتقـد أنَّ مالـك الأرض أراد أرض الأوجـرة – وهي اختارتها بنفسها. ولكن أسلوب حياتهم – إنَّ مجرد التفكير فيه يُخيفني!».

«ولِمَ لم تذهبي؟».

تلعثمت إميلي وهي تقول: «لا أعلم – لقد نويت – ولكن –».

«لم ترغبي، ولم تجرئي؟».

«ربما لا – هل كنتَ فعلت؟».

«آه – فلنذهب الآن! أترين، لقد تراجعتِ».

أجابت بحدّة: «كلا، لم أتراجع».

«هيا بنا إذن، سوف نذهب عبر ممر السياجات. دعيني أُخبر ليتي».

في الحال أعلنت ليتي: «كلا!»– مع شيء من الخشونة.

قال جورج: «لا بأس، سأوصلك إلى المنزل».

لكنَّ هذا أيضاً لم يحظَ بموافقة ليتي.

قالت: «لا أعلم لماذا تريد أنْ تذهب، يا سيريل، إنها ليلة يوم أحد، والجميع منتشرون. أريد أنْ أعود إلى المنزل».

«حسن – اذهبي أنتِ إذن – سوف ترافقك إميلي».

هتفت هذه الأخيرة: «ها، أنت تظن أنني لن أذهب لأزورها».

هززتُ كتفيّ باستخفاف، وشدّ جورج شاربه.

أعلنتْ ليتي: «حسن، لا يهمني»، وانطلقنا على طول الممر، برتل واحد.

اقتربنا من صفوف المنازل القبيحة التي تقع خلف تل الحفرة. كل شيء أسود وملوّث بالسخام؛ المنازل مرصوصة جنباً إلى جنب، وليس لها إلا مدخل واحد، يبدأ من الحديقة الصغيرة حيث تنمو الأعشاب

الضارة المُلطّخة بالسواد متجهمة، وتطل على صف من الأكواخ الصغيرة الشريرة يُشبه حفرة الرماد. والطريق في كل مكان مكسو بطبقة من السخام وغبار الفحم والرماد.

مع ذلك، بين تلك الصفوف كنت ترى حشداً من النساء والأطفال، مكشوفي الرؤوس، عُراة الأذرع، بيض المآزر، ويرتدون ملابس يوم الأحد السوداء المنتصبة من فرط خشونتها. جلس رجل أو رجلان القرفصاء على أعقاب أقدامهم وظهورهم تستند إلى جدار، يضحكون. وكانت النساء يلوّحن بأذرعهن ويصرخن مشيرات إلى سطح المنزل الأخير.

تراجعت إميلي وليتي.

قال جورج: «انظرا هناك - إنه ذلك الفتى المسكين - سام!».

هناك، وبكل جلاء، جثم على حافة السطح مستنداً على المدخنة الأخيرة، ذلك الولد المؤذي، بلا معطف، وكُمّي قميصه ممزقان بدءاً بطرفيهما. في الحال تعرّفت على الرأس الصغير البرّاق المائل للحُمرة. نهضَ واقفاً، وأصابع قدميه العارية متشبثة بالآجر، ومدّ أصابعه كما المروحة من أنفه، وهو يصرخ بشيء، جعل الجمهور على الفور يتململ من السخط، وجعل النساء يصرخن من جديد. وفجأة جلس سام، وكاد يفقد توازنه.

هرع شرطي القرية، ورقبته النحيلة ممدودة خارج سترته، وطلب معرفة سبب الهرج.

في الحــال تقدمت بسرعــة امرأة بعينين حولاويــن بنيتين وبراقتين وقبضت على الشرطي من كُمّه.

صرخت: «امسكه، امسكه، واجلده حتى ينسلخ ظهره اللعين».

تخلّص الشرطي النحيل من قبضتها وأراد أنْ يعرف أصل الحكاية.

صرخــت المــرأة: «إذا أمسكته سوف أهرســه كالبطاطا العفنة. لا ينبغــي أنْ يعيشــ بين أناس مهذبــين – ذلك الشيطــان الصغير اللص، الوقح –» واستمرت على هذا المنوال.

قاطعها الشرطي النحيل: «ولكن ماذا حدث؟ ما مشكلته؟».

«فــوق – دعــه فوق كما هــو، فلينتظر إلى أنْ أجعلــه يهبط. ذلك الصغير الماكر –».

عندمــا رآها ســام تنظر إليه شــوّه قسمات وجهــه الحقيقية، لكي يؤجج غضبها، فارتجفت ليتي وإميلي من الخوف.

ظهر رأس الأم من نافذة غرفة النوم. أزاحت ستارة النافذة، ومدت عنقها إلى الخارج، في محاولة عقيمة لكي تنظر إلى أبعد من المجرور في أسفــل ألواح الإردواز. كانت مُشعثة أكثر من المعتاد، والدموع جفّت علــى وجهها الشاحب. مدّت نفسها أكثر نحو الخارج، متشبثة بإطار النافذة وبالمجرور فوقها، إلى أنْ خافت أنْ تسقط وتنكسر.

الرجال، المقرفصون على أعقاب أقدامهم عند جدار حفرة الرماد، ضحكوا قائلين:

«اقبض عليه، بول – ألا تراه – اقبض عليه!» ومن ثم سُمِعَ صوت المرأة المُثير للشفقة تبكي: «انزل يا حبيبي، تعال إلى أمك – لن يمسوك

بـأذى. اسمع كلام أمك، الآن – سـام – سام – سام!» وأخذ صوتها يعلو أكثر فأكثر.

في الأسفـل هتف الساخرون هازئين: «سامي، سامي، اذهب إلى ماما».

«ألا تريـد أنْ تنزل، ألا تريد أنْ تأتـي إلى الماما، يا حبيبي – تعال، انزل إلى هنا».

نظـر سام إلى الحشد، وإلى الطنف الـذي من تحته أتاه صوت أمه. كان ينـوي أنْ يبكي. صرخت امرأة، ضخمـة وكئيبة، ومشطُ العائلة المصنوع من الفولاذ مغـروز في شعرها الخلفي، «ذلك الرجل سيُلقي القبض عليك، وهذا يستدعي البـكاء» وبمساعدة المرأة ذات الوحمة والحولاء، أخـذت تشتمه. وبنوبة تحدٍ التقـط الوغد الصغير قطعة من المـلاط من بين ألـواح الإردواز، وفي الحال تناثـرت قِطعاً على مشط العائلـة الفولاذي. وعلى الأثر أعلنتْ حاملته أنَّ رأسها قد فُجَّ وعمت الفوضى. ورجل الشرطة أيضاً – ولا أعلم كم كان نحيلاً عندما نُزِعت عنه ملابسـه الرسمية – فقد صوابه، وأخذ يُهـدد بتسديد اللكمات، ويبصق من تحت شاربه الممشط وهو يُلقي أوامره بنبرة صاحب النفوذ:

«والآن، كفى – انزل إلى هنا، وكفانا عبثاً!».

حـاول الفتـى أنْ يزحف على حافـة السطح ويهـرب من الجهة المقابلة. وفي الحال اندفع الأطفال حول المنزل وهم يصرخون، وبدأتْ قطـع من الحصى الأحمر المحروق تطير من فوق السطح. وربض سام ملتصقاً بالمدخنة.

صرخ أحد الأولاد الشياطين: «اضربوه! اضربوه! هاي – من جديد!».

وانهال سيل من الحجارة، مُشتتاً النساء ورجل الشرطة. اندفعت الأم من المنزل وشنّت انقضاضاً ضارياً على الرماة. أمسكتْ بأحدهم، ورمت به أرضاً. وفي الحال استدار الباقون ووجّهوا قذائفهم نحوها. ثم اندفع كل من جورج والشرطي وأنا نطارد البائسين الصغار، وهرعت النسوة لينظرن ماذا حدث لأطفالهن. أمسكنا بولدَين بسن الرابعة عشرة أو نحوها، وجعلنا الشرطي يسوق الآخرين خلفنا. فهرب الباقون.

عندما رجعنا إلى ساحة القتال، كان سام قد رحل أيضاً.

صرخت المرأة الحولاء: « لعلهم لم يقبضوا عليه، ولكن سوف أحرص على أنْ يُسجن على ما فعل».

في تلك اللحظة وصلت عصبة من المبشرين من إحدى المصليات أو الكنائس إلى آخر صف الأكواخ، وبدأ الأرغن الصغير ينهق، واهتز المكان بهدير صوت نسائي قوي، مدعوماً بعدد آخر من الأصوات الأخرى، يغني:

«قبل غروب الشمس –».

هرع الجميع نحو الضجيج الجديد، ما عدا الشرطي مع أسيرتيه، المرأة الحولاء، والمرأة ذات مشط العائلة. طلبت من الشرطي أنْ يُطلق سراح الولدين ويبحث في العمل الخبيث الذي كانت المرأتان تُخططان له.

ثم سألت المرأة الحولاء عن فحوى الأمر.

أجابت، وقد هدأت، وخفَّ حنقها وتحول إلى امتعاض نكد: «لقد حصلنا من أنثى الأرنب تلك سبعاً وثلاثين أرنباً، ويعلم الله كم غيرهم، لو لم يذهبوا ويأكلوها».

أضافت حاملة مشط العائلة: «وما كان يمكن لنا أنْ نقول أي شيء، لولا تلك القطة المباركة التي أخافتها».

قلت: «حقاً، الأرنب؟».

«كلا لم يبق منه غير الجلد - لقد اهتموا بهذا الأمر، أكلو القذارة أولئك».

قلت «ماذا كان ذاك؟».

«تلك الليلة المميتة - وكان الرأس في خلفية قدر الطبخ القذر - أستطيع أنْ أُريك إياه فوراً - لقد احتفظت به في غرفة المؤن كبرهان، أليس كذلك يا مارثا؟».

«إنه شيء جيد - لكنني سأخلع رقابهم، إذا ما وقعوا في يديّ».

أخيراً فهمتُ أنَّ صمويل سرق أنثى أرنب ضخمة، مبتورة الأذن من زريبة صغيرة في مخزن للفحم يخصّ السيدة الحولاء، وسلخ جلده، ودفن الجلد، وقدَّم غنيمته لأمه على أنه أرنب بري وقع في فخ منصوب. وكانت أنثى الأرنب هي مادة الموضوع الرئيس على مائدة أنابل يوم الأحد - وإنْ كان قسماً منه حُفِظَ لسوء الحظ حتى يوم الاثنين، كدليل

لا يمكن إنكاره على فعل السرقة. وكانت صاحبة الأرنب قد اعتقدتْ أنَّ الحيوان قد هرب. هذا الافتراض المُسا لم دمَّرته حاملة مشط الفولاذ عندما رأت قطّتها تنبش أرض حديقة أنابل وتُخرج من التربة جلد أنثى الأرنب الأبيض والبني، وبعد ذلك بدأتْ المشاكل.

لم يكن صعباً جداً التعامل من الحولاء. تحدثتُ معها وكأنها صديق لي من جنسي، مكتفياً بمناشدة أنوثتها بشحن نبرات صوتي بأكبر قدر من الحزن الرقيق. في الختام هدأتْ وأبدت مشاعر الرقة والعطف على العائلة البائسة. وتركت لها على طاولة الزينة قطعة نقدية بنصف كراون لم أجرؤ على إعطائه لها، وبعد أنْ عملتُ على تهدئتها، انطلقتُ مغادراً، حاملاً قدر الطبخ وبقايا من أنثى الأرنب عاثرة الحظ إلى كوخ الأرملة، حيث كان جورج والفتاتان في انتظاري.

كان المنزل في حالة مريعة. على الكرسي الهزّاز، بجوار الحافة العالية الحامية التي تكتنف الموقد، جلست الأم، تهتز، تبدو مضطربة بشكل مُحزِن بعد زوال الإثارة. كانت ليتي تعتني بالطفل الوليد، وإميلي تجلس بجوار الطفل الآخر، وجورج يدخّن غليونه ويُحاول أنْ يبدو طبيعياً. كان المطبخ الصغير مزدحماً – ولا يوجد أي حيز – لم يكن هناك حتى مكان على الطاولة لوعاء الطبخ، لذلك جمعتُ معاً الأكواب والكؤوس التي تحوي بقايا شاي، ووضعت وعاء العار على مفرش الشاي شديد القذارة. كان الأطفال الأربعة الصغار عرايا وملوثين بالدموع – لدى دخولي عاود واحد منهم يقبع تحت الطاولة البكاء، فأعطيته قلمي الرصاص الذي يظهر ويختفي بزر للضغط، لكنَّ الزر لم يعد يعمل.

أثّر مرأى وعاء الطبخ في الأم، فعادت تبكي، وتقول:

«ولم يخطر في بالي أنه لم يقع في الشرك؛ وكأنني أنا التي حثّته على سرقة أنثى الأرنب العجوز؛ والأمر كله صعب؛ وأصبح لصاً، وأخذوا ينعتونني بألفاظ غير لائقة؛ ثم أخرجوا القدور من غرفة المؤن: قدر الطبخ ذاك الذي أحضرته من نوتنغهام، جلبته قبل أنْ ألد ابنتي ميني –».

ثم بدأ الطفل الصغير، الرضيع، يبكي. وفجأة نهضت الأم وحملته.

«أوه، اهدأ، اهدأ يا حبيبي. لماذا، لماذا لأنهم لن يفعلوا، كلا لن يفعلوا. نعم، إنه أصغر أولاد الماما، هو كذلك، الصغير. اهدأ إذن، اهدأ، اهدأ – ما الأمر، يا صغيري؟».

أسكتت الطفل، ونفسها. وأخيراً سألتْ:

«هل رحل الشرطي أيضاً؟».

قلت: «نعم – لا داعي للقلق».

تنهدت بعمق، وكان منظرها المُرهَق مؤلماً.

سألتُ: «كم عُمر أكبر أولادك؟».

«فاني – إنها في الرابعة عشرة. تعمل عند آل وبستر. ثم جيم، سوف يُكمل الثالثة عشرة في الشهر القادم – دعني أرى، نعم، في الشهر القادم – هو يعمل عند آل فلينت – في الزراعة. ليس في

وسعهما القيام بالكثير من العمل – وأنا لن أدعهما يذهبان إلى الحفرة، مــا دام في استطاعتي ذلك. كان زوجي دائماً يقول: «ينبغي ألا يذهبا إلى الحفرة أبداً».

«إنهما يقومان بما في استطاعتهما. لكنه عمل صعب، هو كذلك، لكــي يعيشوا كلهم. مع الغسيــل، وما تدفعه الأبرشيــة، بالإضافة إلى خمسة شلنات من صاحب الأرض – الوضع صعب. كان الأمر مختلفاً عندمــا كان زوجي ما يزال على قيد الحياة. كان يجب أنْ أموت أنا – يبــدو أنني عاجزة عن معالجة الوضع – إنهم فوق طاقتي. ليتني أموت في هذه اللحظة، ويبقى هو. أنا لا أفهم: لقد كان قادراً، فكيف يموت، وأبقــى أنــا. لقد كان رجلاً وزوجاً، كان – قــادراً على معالجة الأمور كسيد محترم. ليتني متُّ أنا. وهو قلق لأنه يعلم أنَّ الوضع صعب عليّ، في الليلة الفائتة وقفت عند الباب، بعد أنْ ناموا جميعاً، أطلّ على بركة الحفرة – فرأيتُ ضوءاً، فعلمت أنه هو – لأنَّ عيد زواجنا كان بالأمس – باليوم والتاريخ. فقلت له: «فرانك، أهذا أنت، فرانك؟ أنا على ما يرام، إنني أبلي بلاءً حسناً» – ثم رحل؛ بدا كأنه يطير جيئة وذهاباً من الغابة وإليها بشكل غريب. أنا متأكّدة من أنه هو ولا يستطيع أنْ يهدأ، وهو يراني غير قادرة على التصرف –».

بعد قليل غادرنا، واعدين بأنْ نعود ونحرص على سلامة سام.

كان الظــلام حالــكاً، والمصابيح مُضاءة في المنــازل. سمعنا نبض محركات بيت المروحة، والهدير الخافت للمروحة.

قالت إميلي، بحزن: «أليست هذه قسوة؟».

أضافت ليتي بحزم: «أليس الرجل بائساً إذ تزوج من امرأة كهذه».

قلت: «تحدثي عن ليدي كريستابل» ثم ساد صمت. «أعتقد أنه لم يكن يعلم ما الذي فعل، شأننا جميعاً».

قالت ليتي لجورج عندما وصلوا إلى مفترق الطرق: «حسبت أنك ذاهب لزيارة عمتك - إلى رام إنْ».

أجاب بهدوء: «ليس الآن - أصبح الوقت متأخراً. أنت ستسلكين دربنا، أليس كذلك؟».

قالت: «نعم».

×××

كنا نأكل الخبز والحليب في المزرعة، وكان الوالد يتكلَّم بحزن غامض ويتذكّر، متلكئاً حول فكرة رحيلهم عن المنزل القديم. كان رومانسياً صِرفاً، دائم البحث عن لون الماضي في رتابة الحاضر. بدا أنه يعمل على الاستقرار في عيش حياة منتصف عمر سهلة وقانعة، عندما زوّده الاضطراب في المزرعة وتطور أحوال أولاده بدفعةٍ جديدة من النشاط. قرأ كتباً حول قضية الأرض، وروايات حديثة. وأخيراً أصبح راديكالياً تقدمياً، كاد يُصبح اشتراكياً. أحياناً كانت رسائله تظهر في الصحف. لقد تزود بتمسُّك جديد بالحياة.

أثناء تناول طعام العشاء أصبح متحمساً للحديث عن كندا،

ومراقبته، بوجهه المتورد وهو يُشرق، وبنيته الضخمة تستقيم وتتوتر بفعل الإثارة، كان يعني الإعجاب به: وسماعه، سماع كلماته المفعمة بالحس السليم الحكيم، الدافئة بآمال شاب، كان يعني أنْ تحبه. وفي سن السادسة والأربعين كان أشد عفوية وحماساً من جورج، وأكثر سعادة وتفاؤلاً بكثير.

لم توافق إميلي على مرافقتهما - قالت، ماذا ستفعل في كندا - و لم ترغب في أنْ يُترَك الأطفال «يكدون في المزرعة - وفي نهاية المطاف يُصبحون لا أكثر من غنم».

قال والدها برفق: «كلا، سوف تتعلم مولي إنتاج الألبان، وسوف يُصبح ديفيد مُهيّئاً ليحل محلي عندما أتقاعد. قد يكون الوضع صعباً وشاقاً في البداية، ولكن عندما نتغلب على المصاعب سوف نرى أنه أحد أفضل الأوقات، كما تفعل أنت».

سألتْ ليتي: «وأنت، يا جورج؟».

«لن أذهب. و لِمَ أذهب؟ في النهاية لن تكون أكثر من حياة طويلة. أشبه بقضاء يوم هنا في شهر حزيران - يوم عمل طويل، ممتع بقدر كاف، وفي نهايته تنام نوماً هانئاً - لكنه مجرد عمل ونوم وراحة - نصف حياة. وهذا لا يكفي. ما الفرق؟ - قد أكون أيضا فلور، الفرس».

نظر والده إليه بجديّة وتفكُّر.

قال بحزن: «الآن يبدو لي الأمر شديد الاختلاف. يبدو لي أنَّ في

استطاعتـك أنْ تعيش حياتك الخاصة، وتكـون مستقلاً، وتفكّر كما تشـاء دون أنْ تختنق بالمضايقـات. إنني أشعـر كأنَّ في استطاعتي أنْ أستمر – هكذا –».

ضحـك جـورج: «إنني آمـل أنْ أحصل على المزيـد من حياتي. كلا. أتعلم؟» وهنا التفـت مباشرة نحو ليتي. «أتعلمين، سوف أصبح فاحش الثراء، وسوف أفعل كل ما أريد. أريد أنْ أعرف معنى أنْ أكون كذلـك، أنْ أتذوق كل شيء – أنْ أتذوق البلـدان. أريد أنْ أعرف ما يكمـن داخلي. سوف أصبح ثرياً – أو على الأقلّ سوف أقوم بمحاولة حثيثة».

سألتْ إميلي: «وكيف ستتمكن من ذلك؟».

«سوف أبدأ بالزواج – وبعد ذلك سوف ترين».

ضحكت إميلي ساخرة – «هيا أرِنا البداية».

قال الوالد بحزن: «آه، أنتِ لستِ حكيمة!» – ثم قال، ضاحكاً، لليتـي بنبرة صوت مُداعبة، وسرية: «لكنـه سوف يأتي إليّ بعد عام أو اثنين – وانظري كيف سيفعل».

قلت: «ليتني آتي الآن».

قـال جـورج: «لـو تفعـل ، فسوف أذهـب معك. ولكـن ليس وحدي، لكي أُصبح أحمق أبله بديناً، كغنمي».

بينمـا كان يتكلم انفجر الكلب غيـب في نوبة نباح حانق. نهضَ

الوالـد لـيرى ما الأمـر، وتبعه جـورج. اندفع كلب الصيـد الضخم، تريـب، خارج المنزل هـازاً الأبنية بهدير نباحه. رأينـا الكلب الأبيض ينطلـق بسرعة الـبرق إلى الفناء، وسمعنـا قعقعة صادرة عـن سلَّم خم الدجاج، وفي الحال وصلنا صراخ من جهة البستان.

اندفعنـا إلى الأمام، وعلـى جانب الركام شديـد الانحدار وجدنا شـكلاً صغـيراً مُلقـى، منكفئ الوجه، وقـف تريب فوقـه، يبدو عليه الارتباك.

رفعـت الطفل – كان سام. حالما شعر بيـديّ أخذ يُصارع، لكنني حملتـه إلى المنزل. أخـذ يتملّص كأرنبٍ بريّ، ويرفـس، لكنّ حركته سكنـت في النهايـة. وضعته على بسـاط الموقد لكـي أتفحّصه. كان هيكله ضئيل وطريف، يرتدي بنطلون رجل ضيقاً عليه، ومعطفاً ممزقاً.

سأل الوالد: «هل نال منك؟ أين نال منك؟».

لكـنَّ الطفـل وقـف لا ينطـق، ضاغطـاً علـى شفتيـه الصغيرتين الشاحبتين، وعيناه تحدّقان في الفراغ. ركعت إميلي على رُكبتيها أمامه، وقرَّبـت وجهها من وجهه، قائلة، بصـوت يجعل السامع ينكمش من شدة ما ينطوي عليه من مشاعر ناعمة فياضة.

«هل أذاك، هه؟ – أخبرنا أين أذاك». كانت تودّ لو تُحيطه بذراعيها، لكنه انكمش مبتعداً.

قالـت ليتي: «انظروا هنا، هنـا – إنه ينزف. اذهبي واحضري ماءً، يـا إميلي، وبعض الخرق. هيا، سام، دعني ألقي نظرة وسوف أضمده. هيا».

أخـذت الطفـل وجرّدته من ملابسه الغريبـة. كان تريب قد شدّه مـن فخـذه قبل أنْ يُـدرك أنه يتعامل مـع صبي صغـير. لم يكن الأمر خطـيراً على أية حـال، وسرعان ما قامت ليتي بغسلـه، ودهنته بمرهم زهرة البلسان. كان جسد الصبي ممتلئاً بالعديد من الندب والرضوض - كان جليـاً أنـه أمضى وقتاً عصيبـاً. أخذت ليتي تعتنـي به وتُلبسه ملابسه. وتحمل خطوات العناية تلك كأرنب بري واقع في فخ - دون أنْ ينظـر إلينا، دون أنْ ينبس بأية كلمة - فقط ينكمش قليلاً. وبعد أنْ ألبسته ليتي قميصـه الصغير الممزق، وبنطلونه الكبـير، اقتربت إميلي منـه وراحت تلاطفه حتى كادت تخنقـه. ثم حاولت أنْ تطعمه الخبز والحليب بالملعقة، لكنه رفض أنْ يفتح فمه، وأشاح بوجهه عنها.

قالت ليتي، وهي ترفعه إلى مقعد المدخنة، ووعاء الحليب والخبز إلى جواره: «دعيـه وشأنه - اهمليه». أحضرتْ إميلي القطتين الصغيرتين من داخل السلّة ووضعتهما أيضاً إلى جواره.

قال الوالد وهو يضحك بنعومة: «أتساءل على كم بيضة حصل».

قالـت ليتـي: «هسس! متى تعتقـد أنك ستذهـب إلى كندا، سيد ساكستون؟».

«في الربيع القادم - لا فائدة من الذهاب قبل ذلك».

سألتْ ليتي جورج: «ومن ثم ستتزوج؟».

قال: «بل قبل ذلك - أوه، قبل ذلك».

«ولِمَ - كيف حصـل وأصبحت مستعجلاً هكذا؟ ومتى سيكون ذلك؟».

سألها على سبيل الإجابة: «ومتى ستتزوجين أنت؟».

قالت: «لا أعلم»، وسكتت.

قال، وهو يتناول شريحة كبيرة من الجبن ويقضم قطعة منها: «إذن وأنا لا أعلم».

قالـــت، وقد عادت إلى رشدها عندمـــا أوحى لها بالأمل: «الموعد تقرَّر في حزيران».

قالت إميلي: «بل في تموز!».

قـــال، رافعـــاً قطعة الجبن أمامـــه وهو يتكلّـــم - كان عصبياً بشكل واضح: «أبي؟ هل تنصحني بالزواج من ميغ؟».

أجفل والده، وقال:

«لِمَ، أتفكر في هذا؟».

«نعم - إذا وضعنا في الحسبان كل شيء».

«حسن - إنْ كانت تناسبك -».

«نحن أقارب -».

«إنْ كنـــتَ تريدها، أعتقد أنك لن تدع هذا يُعيقك. سوف تحصل على مبلغ محترم من المال، وإذا كانت تعجبك -».

«تعجبني حتماً - لكنني لن أذهب إلى كندا معها. سوف أبقى في الرام - إكراماً للحياة».

قال الوالد، متفكّراً: «تلك الحياة، بائسة!».

ضحك جورج. قال: «وقذرة قليلاً! ولكنها مناسبة. أحتاج إلى سيريل أو ليتي لأبقى حياً في كندا».

كانت ضربة وقحة - شعر الجميع بالحرج بعدها.

قال الوالد: «حسن، أعتقد أننا لا نستطيع أنْ نحصل على كل ما نريد - في العموم علينا أنْ نقبل بأفضل بديل - أليس كذلك، يا ليتي؟»- ضحك.. تورّد وجه ليتي من فرط الحنق.

قالت: «لا أعلم. عموماً يحصل المرء على ما يريد إذا رغب فيه بشدّة. طبعاً - إذا كنتَ لا تُمانع -».

نهضتُ واقفة، واقتربت من سام.

كان يلعب مع القطتين الصغيرتين. واحدة منهما كانت تربت وتضرب إصبع قدمه الكبير العاري، البارز من جوربه. كان يدفع ويُضايق الشيطانة الصغيرة بإصبع قدمه الكبير إلى أنْ انقضت عليه، تتشبث، تدغدغ وتعض إلى أنْ بدأ يُطلق فقاعات صغيرة من الضحك، ونسي أمرنا تماماً. ثم نال التعب من القطيطة، فركضت مبتعدة. هزّتْ ليتي أطراف ثوبها، وفي الحال هرعت المخلوقتان الصغيرتان العابثتان نحوه، مندفعتين حولها، تتدحرجان وتنقلبان رأساً على عقب، وتتدليان من أطراف الثوب الناعم. وفجأة تدركان أنهما تشعران بالتعب فتخبان مبتعدتين وتنضمان معاً بجوار سياج المدفأة، وفي الحال تقريباً استغرقتا في النوم. وبالفجاءة نفسها تقريباً استغرقَ سام في النوم.

قال الوالد: «يُستحسن أنْ يأوي إلى السرير».

قال جورج: «ضعيه في سريري. سوف يتساءل ديفيد عما حدث».

سألتْ إميلي، مادة ذراعيها له، وفي الحال أذهلته بالرقّة الهائلة لقوة إقناعها: «هل تريد أنْ تذهب إلى السرير، يا سام؟». تراجع خلف ليتي.

قالت الأخيرة: «هيا بنا»، وبسرعة أمسكت به وخلعت عنه ملابسه. ثم رفعته، فتدلت ساقاه العاريتان أمامها. تراخى رأسه ناعساً على كتفها، ولامس عنقها.

قرّبت وجهها ليلمس العربدة المنتشرة لشعره المُحمرّ. بقيت هكذا، هادئة، ساكنة وحزينة، بضع لحظات؛ لعلها كانت تعي بإبهام أنَّ الموقف جميل بالنسبة إليها، وجذّاباً جاذبية لا تُقاوَم بالنسبة إلى جورج، الذي كان يحب فيها، قبل أي شيء، فخامة رقّتها المرهفة. انتظرتْها إميلي مع الشمعة المشتعلة بضع لحظات.

عندما هبطت كان يكتنفها جو من النعومة.

قلت لنفسي: «والآن، إذا طلب جورج يدها من جديد يكون حكيماً».

قالت بهدوء: «إنه نائم».

قال الوالد: «إنني أفكر في أنه يمكننا أيضاً أنْ نجعله يتوقف ما دمنا هنا، ما رأيك، يا جورج؟».

«آه؟».

«سوف نُبقيه هنا، ما دمنا موجودين هنا –».

«أوه – الصبي! ينبغي هذا. نعم – وجوده هنا أفضل من هناك».

قالت ليتي: «آه نعم – أفضل بكثير. تصرف طيب منك».

قال الوالد: «أوه، وجوده لن يُشكّل فرقاً».

أضاف جورج: «البتّة».

سألت ليتي: «وماذا عن أمه؟».

قال جورج: «سوف أتصل بها وأخبرها عنه في الصباح».

قالت: «نعم، اتصل واخبرها».

ثم ارتدت ملابسها استعداداً للرحيل. هو أيضاً اعتمر قلنسوته.

سألتُ: «ألا تصحبيننا قليلاً، يا إميلي؟».

هرعت، وهي تضحك، بعينين براقتين ونحن نخرج إلى الظلام.

انتظرناهما عند البوابة الخشبية. تلكأنا جميعاً، لا نعلم ماذا نقول. أخيراً قالت ليتي:

«حسن – الجو مُضر – العشب رطب – تصبحون على خير – تصبحين على خير، إميلي».

قال، مع شعور بالندم، وتردُّد، ولمسة نفاد صبر في صوته وسلوكه: «تصبحون على خير». تلكأ برهة أخرى؛ وترددت هي - ثم انطلقت بحركة حادّة مبتعدة.

قلت لنفسي: «لم يسألها، الأبله!».

قالت بمرارة، ونحن نتقدم على درب الحديقة: «حقاً، إنَّ المرء ليعتقد أنَّ الهادئين من الناس ينطوون على الكثير، لكنه مجرد كلام سخيف - إنهم في الغالب بلهاء».

الفصل الخامس

سهمٌ من إله نزِق

بعــد ظهيرة أحد الأيام بعد شفاء سام بثلاثــة أيام أو أربعة، تعقّدتْ الأمــور. فقد اكتشــف جورج، كالمعتــاد، أنه يُبدد وقتــه على أعتاب رغباته، وعندما يُصفَع الباب في وجهه، عندئذٍ يُسرع إلى قرعه.

قــال: «أخبرها بأنني سآتــي في الغد بعد حلــب الأبقار - أخبرها بأنني سآتي لأزورها».

في مساء ذلك الغد، أول الحاضرين كان العانس الثرثارة التي جاءت بحجة السؤال عن سبب غياب العائلة عن الكنيسة: «قلتُ لإليزابث: ما هو الشيء الذي يمكن أنْ يكون قد وقع لهم الآن، بعد إرجاء موعد العرس». لقد شعرت بأنَّ من واجبي أنْ آتي وأتيقّن - من أنَّ لا خطب قد وقع. نحن جميعاً مهتمون جداً بأمر ليتي. وأنا واثقة من أنَّ الجميع يتحدثون عنها، وكأنَّ الهواء يعبقُ بها. - إنني حقاً أعتقد أننا سنحصل علــى العاصفة: آمــل ألا يحدث هذا - نعم، نحن جميعــاً سعداء لأنَّ السيد تمبست راض عــن حصوله على زوجة من الوطن - الآخرون،

والده والسيد روبرت والبقية – ليس بينهم مَنْ تزوج من الوطن، على الرغم من أنَّ الزوجات اللواتي جلبوهن لا شيء – في الحقيقة ليسوا – عديدين كما قال أحدهم – لقد كانت السيدة اختياراً رديئاً – ليس لديها في المظهر ولا في السلوك ما تفتخر به – إنْ كانت عائلتها أعرق من عائلتي. إنَّ العائلة لا تعوض عما تفتقر إليه من أشياء أخرى، بحيث أنه كان في وسعي أنْ أمدّها بها؛ ثم، أوه، يا الله، لو ترينها الآن، بكتلة شعرها ونظارتها! فقبل كل شيء لم تعد تحتفظ بأي شيء من شبابها. ولكن ما هو الموعد بالضبط، يا عزيزتي؟ – يقول البعض هذا والبعض الآخر ذاك، أما أنا فدائماً أقول، أنا لا أثق بعبارة «يقولون». شيء جميل أن تضعي لقريتك تلك قاعدة للهبوط وحضور الصلاة. يا سيدة بيردسال، والسيروالتر هيوتن إشبين للعريس! ما رأيك؟ – لا تعتقدين ذلك – أوه، ولكن أنا أعلم، يا عزيزتي، أعلم؛ أنتِ تحبين أنْ تحتفظي بتلك الأسرار، أليس كذلك؛ أنت نهمة إلى كل الأشياء الجيدة في الوقت الحاضر».

هزّتْ رأسها لليتي، فارتعشت الزينة المتلألئة على قلنسوتها كألف لسان يهتز. ثم تنهدتْ، وأوشكت أنْ تباشر من جديد أغنيتها عندما تصادفَ أنْ أدارت رأسها ولمحتْ ساعي البرقيات قادماً من آخر الدرب.

«أوه، آمل ألا يكون خبراً سيئاً، يا عزيزتي – آمل ألا يكون خبراً سيئاً! إنني دائماً أشعر بالرعب الشديد من البرقية. يُستحسن ألا تفتحيها بنفسك، يا عزيزتي – ليس الآن – دعي أخاك يستلمها».

هرعت ليتي، التي علاها الشحوب، إلى الباب. كانت السماء شديدة الحلكة - والرعد يُدمدم.

قالت ليتي، وهي ترتجف: «لا بأس، إنها فقط تقول إنه قادم هذه الليلة».

هتفت العانس: «أنا شديدة الامتنان، كان يمكن أنْ يحمل خبراً أسوأ بكثير. أنا متأكّدة من أنني لم أفتح برقية مرة إلا وشعرت كأنني سأتلقّى منها ضربة الموت. أنا سعيدة جداً، يا عزيزتي؛ لابد أنه سبب لك الاضطراب. كم كان سيكون خبراً فظيعاً نحمله إلى القرية، لو أنَّ خطباً وقع!» تنهدت من جديد، فتلألأت حبات الزينة بصورة مشؤومة تحت ضياء الرعد، وكأنها تُعلن أنهم سيفهمون فحواه لاحقاً.

كانت الساعة السادسة. هدأتْ الرياح قليلاً، وصمت الرعد. كان جورج سيصل عند حوالي السابعة؛ ولم تُبدِ العانس أي إشارة على أنها سترحل؛ وقد يصل لزلي في أية لحظة. غضبت ليتي وتململت، واستمرت العجوز بالثرثرة. وأطللتُ من النافذة على المياه وعلى السماء.

كان الجو مُضطرباً. في الصباح كان دافئاً، وراحت أشعة الشمس تعبث وتتسابق بين ظلال الغيوم على التلال. ولاحقاً تراكمت كتل ضخمة من الغيوم جهة الشمال الغربي وتكاثفت وازدحمت عبر السماء: في تلك الليلة القصيرة دوّم المطر المتجمد والرياح، والأمطار بغضب. ثم ضحكت السماء لنا من جديد. وتحت أشعة الشمس جاءت العانس. ولكن بينما هي تتكلّم، ارتفع فوق ذُرى التلال الجبين

الواسع للغيوم، متقدماً ببطء عبر السماء، ومرتفعاً بصورة مُهددة. مرّ الرسول الأول للعاصفة قائماً عبر السماء، تاركاً الطريق صافية من جديد.

قالت ليتي: «سوف أمرّ على هايكلوز. أنا متأكدة من أنْ الجو سيُصبح عاصفاً من جديد. هل أنت قادمة معي، يا آنسة سليتر، أم ليس لديك مانع إذا تركتك؟».

«أنا ذاهبة، يا عزيزتي، إذا كنت تعتقدين أنَّ ثمة عاصفة أخرى قادمة – إنني أخافها كثيراً. ربما يُستحسن أنْ أنتظر –».

«أوه، إنها لن تحل قبل أكثر من ساعة، أنا متأكدة. لقد قرأنا عن حالة الطقس هنا، أليس كذلك، يا سيريل؟ أنت قادم معي أليس كذلك؟».

انطلقنا نحن الثلاثة، الثرثارة تتكئ على أطراف أصابع قدميها، تتعثر بيننا. كانت ممتنة كثيراً لمعلومة ليتي بشأن العروض للمنزل الجديد. تركناها وسط توهج ابتسامات مُهنئة على الطريق العامة. لكنَّ الغيوم كانت قد ارتفعت، وانتشرت باتجاهين، مادة ذراعيها العظيمتين فوق الرؤوس. أسرعت العانس تحث خطاها، لكنَّ يديّ العاصفة السوداوين حافظت على سرعتها وانقضت عليها. فجأة هبت عاصفة من الرياح ارتعشت بين الأشجار، واندفعت نحو رداءها، نافخة أبواقها.

ضربت حبة مطر باردة كالثلج وجنتها. فأسرعت متقدمة، تدعو الله بحرارة إكراماً لقلنسوتها أنْ تصل إلى كوخ ويدو كاريمان قبل أنْ يأتي الانفجار. لكنَّ الرعد قصف في أذنها، وانهمر عليها حشد من

حبات البرد. وفي حركة يائسة وأسى فرّت من تحت أشجار الدردار؛ وصلت إلى بوابة حديقة ويدو، وإذا بومض البرق يقفز عليها مباشرة. صرخت «ضعني في مهبط الدرج! أين مهبط الدرج؟»

تلفتت حولها بنظرة ضارية، فشاهدت شبحاً. كان انعكاس صورة العانس المقدّسة، هيلدا سليتر، على زجاج دار ويدو؛ انعكاس صورة تعتمر قلنسوة سقطت نحو الخلف، تلتصق عليها خصلة كثيفة من الشعر البني والشائب. استدارت مخترعة الشبح بحركة غزيزية لتنظر إلى خلفية رأسها. فرأت بعض أطراف الشعر الشائب، وفرّت نحو مهبط الدرج المفتوح، وكأنها تنزل إلى قبر.

عدنا إلى المنزل إلى أنْ انتهت العاصفة، ومن ثم، بسبب شعورنا بالقلق، وخشيتنا من أنْ يصل جورج، انطلقنا من جديد خارجين إلى الأمسية الرطبة. كان الجو صافياً وبارداً، وكان الضباب قد بدأ فعلاً يرتفع من نذرمير، حاجباً الشاطئ الأبعد، حيث ترتفع الأشجار بشموخ، موحية بوجود بساتين خلف نهر النيل وكانت العصافير تغرد بصخب. وعاد السياج الأخضر النضِر يلمع بحيوية ويتوهج بخُضرة كثيفة. عندما نظرتُ إلى المياه، رأيت دفقاً رقيقاً من جهة الغرب يختبئ على طوله. لعق الضباب الشاطئين وتلوى على طولهما؛ ومن المسافة البيضاء المُستترة تناهى أنين طائر الماء الحزين. تابعنا سيرنا ببطء خلف عربة ثقيلة، تقرقع وتقعقع تحت الأشجار التي تقطُر، وحوافر الحصان تتحرك أمامنا مع صوت مكتوم وعريض. مررنا فوق البقع القائمة التي سُحِقَتْ عليها أزهار الدردار، وتحت كتل كثيفة عظيمة من أشجار القيقب الدلبي الأخضر. وعند المنعطف المفاجئ للدرب، بالقرب

من سفح التل، توقفت لأنفض عني رذاذاً من شجر الأرزيّة، حيث الأقماع الرقيقة مُثقلة بثمار العليق، ومبهرجة كأزهار مع بتلاتها. ونثرت الأغصان المهتزة رذاذاً كثيفاً على وجهي، من قطرات شديدة البرودة حتى بدا كأنها تغوص داخل دمي وتجعله بارداً.

قالت ليتي، وأنا أُجفف وجهي: «اصغ!». سمعنا هدير سيارة سريع الإيقاع قادماً أسفل التل. كانت العربة الثقيلة قد اقتربت من حافة الطريق لترتاح، فأسرع السائق لكي يدير الحصان إلى الوراء. تحرّك ببطء مؤلم، وقفنا في الطريق في حالة ترقُّب. وفجأة، دون مقدمات، إذا بالسيارة تتجه نحونا، مقتربة منا بحركة انعطاف لأنها لفّت حول الحصان والعربة. وقفت ليتي تواجه الرعب. رآها لزلي، فاستدار نحو منعطف جانب التل الحادّ؛ نظر فقط لكي يحرص على ألا تغيب عينيه. انزلقت العربة بحركة جانبية؛ فرقع الطين تحت الدواليب؛ وتابعت السيارة بصخب نحو نذرمير. ارتطمت بحافة جدار حجري قديم مع صوت تحطم. ولبضع لحظات حسبتُ أنني أصبحت أعمى. وعندما عادت إلي الرؤية، رأيتُ لزلي منطرحاً على السياج المُحطَّم، ورأسه مُدلّى نحو الضفة، كان وجهه مكسواً بالدم؛ والسيارة مستقرة بصورة غريبة على حافة الماء، متغضنة وكأنها غاصت لكي ترتاح.

كانت ليتي تمسح بيدين ترتعشان الدم عن عينيه بقطعة من تنورتها التحتية. بعد لحظة قالت:

«لم يمُت – فلنأخذه إلى المنزل – فلناخذه بسرعة».

أسرعت وخلعتُ البوابة الصغيرة عن مفاصلها، ووضعته عليها. أصبحت ساقاه على الأرض، لكننا حملنا على هذه الوضعية، هي من قدميه، وأنا من رأسه. وجعلتني أتوقف لكي نضعه أرضاً وحسبتُ أنَّ وزنه ثقيلاً عليها، لكنَّ الأمر لم يكن هكذا.

«لا أستطيع تحمُّل رؤية يديه متدليتين، ترتطمان بالشجيرات والأشياء».

كانت المسافة قريبة من المنزل. رأتنا إحدى الخادمات فهرعت نحونا، ثم ركضتْ عائدة، كطائر خائف من قط جريح.

انتظرنا إلى أنْ وصل الطبيب. كان هناك كشط عميق ممتد على جانب الرأس - مُقلِق، لكنه ليس خطيراً؛ وهناك جرح عبر عظمة الوجنة سوف يترك ندباً؛ وكانت عظمة الترقوة مكسورة. مكثت إلى أنْ استعاد وعيه. «ليتي»، أراد ليتي، لذلك اضطرت إلى البقاء في هايكلوز سحابة الليل. وذهبت إلى المنزل لأخبر أمي.

عندما لجأتُ إلى السرير نظرت إلى نوافذ هايكلوز المُضاءة، وامتدت الأضواء بطريقة غامضة نحوي عبر المياه. شمخت شجرة الأرز كحارس قاتم في وجه المنزل؛ كانت النوافذ برّاقة، كالنجوم، وكالنجوم، تغطي عذابها بالبريق. كانت السماء تتلألأ بأضواء ساطعة - بُعدها ناءٍ إلى درجة أنها لا تزعج نفسها بنا، صغيرة جداً، جداً حتى العدم. كل ذلك الامتداد الأجوف يهدر فوقنا، والدَّرَج ليس إلا شرراً يُدوّم ويدور في الفضاء القلق. لابد أنَّ الأرض تُصغي إلينا؛ إنها تغطي وجهها بغلالة رقيقة من الضباب، وهي حزينة؛ وتمتص دمنا برفق،

في الظـلام، وتأسـى وفي الضوء تُهدهدنا وتطمئننـا. هنا على أرضنا سيمفونية وأمل، أما السماوات فليست أكثر من مسافات.

طائـر السلوى يُكلمني عبر الوادي، يتكلّـم ويتكلّم دون توقف، يسـأل ويُجيب بنـبرة أجشة من المروج الهاجعـة، المُسترة بالضباب. الصوت الرتيب، الذي كان يتسم في أمسيات الصيف الفائت بنبرات رومانسيـة ممتعـة، أصبـح الآن في أذني لا يُحتَمَـل. خشونته الجامدة وتنافر نغماته كأنهما صوت القدر يعبِّر عن دأب أجوف.

في الصبـاح أتت ليتـي إلى المنزل واهنـة، حزينة النظـرة، شاعرة بالذنب. وبعد فترة قصيرة جاؤوا في طلبها، مرة أخرى حسب طلبه.

عندما ذهبتُ في المساء لأزور جورج، هو أيضاً كان شديد القنوط.

قلت: «لا فائدة الآن. كان ينبغي أنْ تلحّ وتصنع مصيرك بيدك».

قـال متشدقاً: «نعم – ربما الأمر كذلـك»، بأفضل أسلوب تأمُّلي لديه.

«كان يمكن أنْ أحصل عليها – كان يمكن أنْ تكون سعيدة لو أنك فعلتَ كما أردتَ معها. إنها لن تتركه إلا بعد أنْ يستعيد قِواه، وسوف يتـزوج منهـا قبل ذلـك. كان ينبغـي أنْ تتحلـى بالشجاعة وتجازف بنفسـك – أنـت دائماً تفـرط في العناية بنفسـك وبمشاعرك الخاصة التافهـة – أنت لم تتمكن مرة من استجماع قـواك للتعرُّض لوابل من الاحتقار والاستخدام الصعـب، وهكذا أنقذتَ مشاعرك وضعتَ – ليس كثيراً، ربما – لم تتمكن».

باشر بالقول، دون أنْ يرفع بصره، «ولكن –»؛ فضحكت منه.

قلت: «تابع».

«في الواقع – لقد كانت مخطوبة له».

«آه – وأنت اعتقدتَ أنك جيد إلى درجة أنك لا يمكن أنْ تُرفَض».

كان شحوبه ممتقعاً، وعندما يكون شحوبه شديداً، يبدو لون بشرته كأنه مريض. نظر إليّ بعينيه السوداوين، اللتين أضحتا الآن مترعتين بالبؤس وبيأس شديد لطفل.

أكملت قائلاً: «ولا شيء آخر»، وبعدها تحطم ما تبقّى من شحنة غضبي المُرهقة وغلصت تماماً. ومع ذلك لم تنتشر أية فكرة من أفكاري أشرعتها على بحر إحساسي بالشفقة: لقد كنتُ كالماء الذي يجيش اشتياقاً، وهو راكد.

بقي لزلي شديد المرض بعض الوقت. كان مُصاباً بحمى خفيفة في الدماغ، ويهلوس، مُصراً على أنْ ليتي ستتركه. ولزمت هي هايكلوز معظم وقتها.

ذات يوم من شهر حزيران كان مستلقياً يرتاح على كرسي شواطئ تحت ظلال شجرة أرز، وكانت هي جالسة بجواره. كان يوماً حاراً ورطباً وأصفر، حيث بدا أنَّ الخمول يسود الجو كله، والأشياء كلها واهنة.

قالت: «ألا تعتقد، يا عزيزي، أنه من الأفضل لنا ألا نتزوج؟».

رفع رأسه بعصبية عن الوسائد؛ كان وجهه مُزيَّناً بشريط أحمر زاه على حقل من البياض، وبدا منهكاً، حزيناً.

سألها: «تقصدين ليس الآن؟».

«نعم – و، ربما – ربما أبداً».

ضحك، وهو يغوص في مكانه ثانية: «ها، يبدو أنني أستعيد عافيتي، ما دمتِ قد بدأتِ تضايقينني».

قالت، وهي تكافح ببسالة: «ولكن أنا لستُ متيقنة من أنني يجب أنْ أتزوج منك»

ضحك من جديد، على الرغم من بعض الخشية.

سألها: «هل تخشين من أنْ أبقى دائماً واهن الرأس؟ ولكن انتظري شهراً».

«كلا، هذا الأمر لا يزعجني –».

«أوه، لا يزعجك!».

«أيها الأحمق – كلا، الأمر يتعلّق بي».

«أنا متأكد من أنني لم أشتك منك».

«هذا مُستبعَد – لكنني أتمنى لو تدعني وشأني».

«أنا رجل قوي وأستطيع أنْ أتمسك بك، أليس كذلك؟ انظري إلى مخالبي القوية!»– ومدَّ يديه، الهشّتين والبيضاوين من شدة المرض.

«أنــت تعلم أنك متمسك بي – وأنا أريد منك أنْ تحررني. لا أريد أنْ –».

«أنْ ماذا؟».

«أنْ أتخلّى عن فكرة الزواج أصلاً – دعني وشأني، أطلق سراحي».

«و لِمَ؟».

«أوه – إكراماً لي».

«أتعنين أنك لا تُحبينني؟».

«الحــب – الحب – أنا لا أعرف أي شيء عنه. لكنني لا أستطيع – لا نستطيع – ألا تفهم – أوه، ماذا يقولون – أنْ نُصبح اثنين في جسد واحد».

همس، كطفل سمع قصة غامضة: «لماذا؟».

نظرتْ إليه، وهو متكــئ على مرفقه، مُديراً نحوها وجهه الأبيض من فرط الخوف والحــيرة، كطفل يعجز عن الفهم، وخائف، ويرغب في البكاء. وببطء تجمَّعتْ الدموع في عينيه، وبكت إشفاقاً ويأساً.

هذا أثاره بشكل هائل. فنهضَ عن كرسيه، وسقطت الوسائد على العشب:

«مــا الأمر، ما المسألــة! – أوه، ليتي – أأنا السبب؟ – ألا تريدينني

الآن؟ – انتهينـا؟ – أخبرينـي، أخبرينـي الآن، أخبريني»- قبض على رسغيها، وحاول أنْ يُبعِد يديها عن وجهها. كانت الدموع تجري على وجنتيها. شعرت به يرتجف، وأخافها رنين صوته من نفسها. مسحت على عجل الدموع عن عينيهـا، ونهضت واقفة، وأحاطته بذراعيها؟ دفـن رأسه في كتفهـا وأخذ يجهش بالبكاء، بينمـا مالت عليه، وبدءا يبكيـان معاً، إلى أنْ شعرا بالخجـل تلفتا حولهما ليريا إنْ كان هنا أحد قريـب. ثم أخذت تتحرك في المكان بسرعـة، تلملم الوسائد، وتجعله يستلقـي، وتهيئ لـه الراحة، لكـي تُشغل نفسهـا. كان برماً، كطفل مريض، مُدلل. كان يجعلها تضع ذراعها تحت كتفيه، وتُقرّب وجهها من وجهه.

قـال، مبتسماً من جديد بوهن بعد فترة من الوقت: «حسن، أنت مُتعبـة وجعلتنا نقضي وقتـاً صعباً – أنت تستمتعـين بالمصالحة، أيتها الظريفة الصغيرة – أليس كذلك؟».

بقيت قريبة منه، ولم ير إجفال شفتيها وارتعاشهما.

«ليتنـي أعود قوياً من جديد – أما كنا ذهبنا نتنزه في القارب – أو ركبنـا الأحصنة – حينئذٍ كان عليـك أنْ تكوني مهذّبة. أتعتقدين أنني سأستعيد قواي في غضون شهر؟ وأصبح أقوى منك؟».

قالت: «آمل ذلك».

«في الواقع، لا أعتقد أنك صادقة، أعتقد أنك تحبين أنْ أبقى هكذا – لكي تجعلينني أستلقي وتدللينني – أليس كذلك، أيتها الهادئة؟».

«عندما تكون عاقلاً».

«آه، حسن، بعد شهر سوف أصبح قوياً، وسوف نتزوج ونذهب إلى سويسرا - أتسمعين، أيتها الظريفة - حينئذٍ لن تكونين مشاغبة. أوه - هل تريدين أنْ تبتعدي عني من جديد؟».

«كلا - لكنَّ ذراعي ميّتة» وسحبتها من تحته، ونهضت واقفة، وأخذت تؤرجحها، وتبتسم لأنها تؤلمها.

«أوه، يا حبيبتي - يا للعار! أوه، أنا وحش، وحش مشاغب. ليتني أعود قوياً من جديد، يا ليتي، حتى لا أقوم بمثل هذه الأفعال».

«أيها الطفل - الأمر لا يستحق»، وابتسمت له من جديد.

الفصل السادس

الغزل

في أثناء فترة مرض لزلي كنتُ أتمشّى حتى الطاحونة ذات أمسية يوم السبت. قابلت جورج يقطع أرض الفناء حاملاً دلويّ نفايات، وأحد عشر خنزيراً صغيراً يندفعون وهم يصرّون حول ساقيه، يزعقون من ألم الترقُّب. صبَّ المادة في جرن مع قرقرة عذبة، وفي الحال انغمست فيه تسعة أنوف، وبدأتْ تسعة أفواه تلتهم. وعلى الرغم من وجود متسع لعشرة، إلا أنهم تزاحموا وتدافعوا وتصارعوا لشغل مساحة أكبر، والعديد من الصغار نبشوا المادة وسفحوها، والفنطيسات[٥٦] العشر تمتص، وتضرب وترتعش بعنف، وعشرون عين صغيرة تُحدق بارتياب، كالعديد من النقاط الغاضبة. كانت تُصدر نخراً لاهثاً، مُضطرباً في خضم سرعتها. اندفع الحادي عشر البائس من نقطة إلى أخرى محاولاً أنْ يُقحِم فنطيسته، لكن جهوده لم تُقابَل إلا بالحشر الخشن، وبشد أذنيه بقوة. ثم رفع رأسه وأطلق زعيق الألم والغضب في وجه سماء المساء.

---

٥٦ - فنطيسات، جمع فنطيسة: أنف الخنزير أو خرطومه.

لكـنَّ الشرهين العشرة الصغار اكتفوا بهزّ آذانهم ليتأكدوا من عدم وجود خطر مـن الضجيج، وأخذوا يمتصون بعزم أكبر، مع الكثير من التبديد واللعق. ضحـك جورج كجوبيتر الساخر، لكنه أخيراً أصغى إليـه وأبعد العشرة النهمين برفسة عن الجـرن، ومنح ما تبقّى للحادي عشـر. هذا المسكين البائس كاد يبكـي من الارتياح وهو يمتص ويبتلع بـين النشيـج، موزعـاً نظـرات سريعة خائفة نحـو الأعلى مـن عينيه الصغيرتين، على الرغم من أنه لم يرفع أنفه عن الجرن، بينما يستمع إلى الصراخ الحقود من الشياطين العشـرة الصغار التي وضعها جورج في وضع حرج. الآكل الوحيد، المرتعش خوفاً، لعق الخشب حتى جرّده بفنطيستـه، وبعد أنْ رفع عينيه نحو السمـاء امتناناً، غادر الجرن على مضض. توقعت أنْ أرى العشرة ينقضون عليـه ويلتهمونه، لكنهم لم يفعلـوا؛ بل اندفعوا نحو الجرن الفارغ، وأخذوا يلعقون الخشب حتى أضحى جافاً، ويزعقون من البؤس.

ضحكت: «ما أشبه هذا بالحياة».

قـال جورج: «جراء رائعـة. كان هناك أربعة عشـر منها، لولا أنَّ تلك الشيطانة، سيرسه[٥٧]، أكلت ثلاثة منهم قبل أنْ نتمكن منها».

بينما كان يتكلم اقتربت أنثى الخنازير الضخمة القبيحة وهي تُطلق نظراتها الخبيثة.

«لِمَ لا تعلفهـا، وتلتهمها، تلك القبيحة العجوز؟ إنها سِبّة في حق الكونِ».

---

٥٧ – سيرسـه: في الأساطير الإغريقية، ساحرة احتجـزت أوديسيوس في جزيرتها وحولت رجاله إلى خنازير. – المترجم

«كلا – إنها أنثى جيدة».

زمجرتُ، وأنا أضحك، فنخرت الأنثى العجوز احتقاراً، والتفتت عيناها الصغيرتان نحونا ورمتنا بنظرة شيطانية خبيثة لدى مرورها بنا.

سألت: «ماذا ستفعل هذه الليلة؟ ستخرج؟».

أجاب مع ابتسامة عريضة: «سوف أذهب لأغازل».

«أوه! – ليتني كنتُ أنا مكانك!».

«يمكنك أنْ تصحبني إذا شئت – وتُخبرني عندما أرتكب أخطاء، بما أنك خبير في مثل هذه المسائل».

سألت: «إذن فأنت لا تُحسن التصرُّف؟».

«أوه، لا بأس – يكون الأمر أسهل عندما لا تأبه. ثم في استطاعتك دائماً أنْ تحصل على ويسكي جوني ووكر. هذا أفضل جانب في الغزل في نُزُل رام. سوف أذهب لأستعدّ».

في المطبخ جلست إميلي تخيط على آلة يد كبيرة وقديمة موضوعة على الطاولة أمامها؛ كانت تصنع قمصاناً، من أجل سام، كما اعتقدت. ذلك الصغير، الذي عيِّنَ في المزرعة، كان جالساً إلى جوارها يقرأ بصوت عال في كتاب. هدرت آلة الخياطة وقرقعت، كمصنع كامل، من أجل إنجاز مقدار بوصة أو اثنتين، كان سام في أثناء ذلك يُطلق قذائفه الحادة كطلقات مسدس عشوائية: «إياك – أنْ – تقع»، هتفت إميلي من موقعها أمام الآلة، «تضع!»، زعق الولد «تضع

– السخام – على – حذا – ئي» – هنا توقف ضجيج الآلة، فسكت الطفل، وقد أخافه هدير صوته، مرتبكاً وتلفّت حوله.

قالــت إميلي: «أكمــل!» وثقبت أسنان الآلة القديمــة بالمقص، ثم شــدّت ونخست من جديد. باشر قائلاً :«– حذاء – ولكن – أنت»– وهنــا سكت مــن جديد، وقــد أربكه رنــين صوته وســط السكون. مصّت إميلي قطعة من القطن وحشرتها داخل الإبرة.

قالت «والآن أكمل، ولكن يمكنك »

أخــذ يصيح، وقد طمأنه ضجيج الآلة: «ولكن – يمكنُ – كَ – أنْ – تقتل – الثعلب – إنْ – إنْ – إنّه – على – الـ – حذر –».

زعقــت إميلي، وهي تقود القماش خلال أنيــاب الآلة التي تتقدم ببطء: «جذر».

كرر الولد: «جــذر»، وتابع في إطلاق تلك المفرقعات: «جذر – الـ – شجرة».

هتفت إميلي: «التالي!».

بدأ الولد قائلاً: «ضع – الـ – زي –».

هتفت إميلي: «ماذا؟».

«زي – على –».

هتفت إميلي: «انتظر لحظة!» ثم همدتْ الآلة.

صرخت: «توقف!».

صرخ الطفل: «توقف!».

ضحكت، ومالت عليه:

«- ضع الزيت في المقلاة لكي يغلي، بينما أنا أفلح الأرض- أوه، سيريل، لم أكن أعلم أنك هنا! اذهب الآن، سام: ديفيد موجود في مكان ما في الخلف».

قلت «إنه في الحديقة السفلى»، فهرع سام إلى الخارج.

دخل جورج قادماً مباشرة من حجرة غسل الأطباق والأواني، وهو يُجفف نفسه. وقف على بساط المدفأة في أثناء دعك نفسه، وتأمل انعكاس صورته على المرآة فوق رف المدفأة العالي؛ نظر إلى نفسه وابتسم. تساءلتُ إنْ كان راضياً عن صورته، بعد أنْ رأى الفجوة التي في ذقنه، وما يُشبه البقعة التي أكلها العثّ على إحدى وجنتيه. كانت السيدة ساكستون لا تزال تعتبر تلك المرآة كشيء جليل؛ كانت كبيرة جداً، وذات إطار محفور بعناية؛ لكنها تترك فجوات وبقعاً وخربشات على سحنة الناظر، وحتى في المواقع الأكثر بريقاً عليها تعكس صورة نائية ومعتمة. ومع ذلك، ابتسم جورج لصورته وهو يمشّط شعره، ويلوي شاربه.

قلت: «يبدو أنك مُعجب بنفسك».

أجاب، ضاحكاً: «كنتُ أرى أنَّ مظهري جميل - بوجه يصلح

للغزل. يكفي أنْ تُعدّ بقعــة من السواد تُخفي فيها أخطاءك - ويُصبح كل شيء على ما يُرام».

قالــت إميلي: «لطالما اعتقدتُ أنَّ البقع السوداء ابتلعت العديد من الوجــوه حتى امتلأت، ولم يعد في استطاعتها ابتلاع المزيد - وأصبح الباقــي مُبهماً لأنــه كان هناك العديد من الوجــوه المتراكبة واحد فوق الآخر - منعكسة».

قــال: «إنك ترى نفسك شنيعاً قليــلاً - على خلفية من أسلافك. إننــي دائماً أفكــر عندما تقف في مــكان قديم كهذا كأنــك تُفرط في ملازمة أسلافك؛ أحياناً أشعر كأنَّ جزءاً من بناء قديم يتجول؛ بناء قديم يخصــ أناساً قديمين يُلازمونــك كالتصاق الأشنة بالجــدران؛ وكأنك أصبحت وقوراً».

وافــقَ الوالد، «هذا هو - هذا صحيــح، الأشخاص الذين تنقّلت عائلاتهم كثيراً لا يعرفون هذا الشعور. ولهذا سوف أرحل إلى كندا».

قــال جــورج: «وأنا ذاهــب إلى البار، حيث الجــو مختلف تماماً - والكثير من الحياة»

كررت إميلي بامتعاض: «حياة!».

أجاب الأخ، متدخلاً في الحوار: «هذه هي الكلمة، يا فتاتي. هذه ما كنت أبحث عنه. نحن نعلم الكثير، ولا نعرف شيئاً».

التفــت الوالد إليّ وقال: «حقــاً - إنَّ المرء يمكث في مكان واحد،

جيــلاً بعد جيل، ويُصبح فخوراً، ويعتبر كل ما هو في الخارج حماقة. هناك الكثير من الأشياء، كما يعلم أي إنسان عادي، التي لم يقع بصرنا عليهــا. ونظــل نفكر ونشعر بالطريقــة نفسها، عاماً بعد عــام، إلى أنْ نُصبح ذوي بُعد واحد؛ و «نعتقد أنهم فعلوا ذلك قبلنا».

«إننــي أقول: «وداعاً» و «باركك الله» للمكان القديم يا أجدادي ويــا جدّاتــي». ضحك جــورج وهو يركض مرتقياً الــدرج - ومن المنبسط يهتف: «وننطلق في رحلة ممتعة».

هزَّ الوالد رأسه قائلاً:

«لا أفهم سبب اختلافه الشديد. لعله الحب -».

xxx

دخلنــا الحظيرة لنُحضر الدراجــات إلى غريميد. قدح جورج عود ثقاب لكي يبحث عن مضخته، فلاحظ وجود عنكبوت ضخم يعدو ليختبــئ في زاوية الجــدار، فجلس يُدقــق النظر فيه كأنــه غول صغير مهيب.

قــال جورج، مومئــاً برأسه إليه: «كيف حالــك، أيها العجوز؟»، وقال لي ضاحكاً، وهو ينفخ دولاب دراجتي القديمة: «إنه يُشبه جدي العجوز».

كانت ليلة يوم سبت، ولذلك كانت حانة رام إنْ ممتلئة عن آخرها.

كان الهتــاف «مرحباً، جورج - أتيتَ من أجل الغزل؟»، ومن ثم إيماءة بالرأس و «مساء الخير» لي، الغريب على الحانة.

قــال الشاب ذو الشارب الأبيض غير المقصود: «أنت محظوظ لأنَّ في استطاعتــك أنْ تغــازل قدر ما تشــاء، وكذلك الفتــاة، إنه يكلّفك الكثير-»، فضجّ كل مَنْ في الحانة بالضحك، بعد أنْ أخرجوا الغلايين من أفواههم. جلس جورج، متلفتاً حوله.

قــال صاحب السبلتين السوداويــن: «انتظر قليلاً، على الرجل أنْ يكــون صبوراً عندما يُغازل فتاة. يجب جعل العجوز تأوي إلى السرير - أصغ - ألا تسمع - تلك العاهرة تجعل السرير يصرّ. سوف تنام بعد قليــل، امنحها بعض الوقت لتضع العجوز في السرير. ألا تسمعها تتلو صلواتها».

صرخ الشاب البدين بقوة: «اضرب!».

«تخيّــل المرأة العجوز تتلو صلواتهــا! - سيكون ذلك كافياً لجعل أسنانها الاصطناعية تسقط».

وضج المكان بالضحك.

وبــدؤوا يحكون قصصاً عــن صاحبة الملك العجــوز التي كانت تتدرب على تجبير العظام، وكانت شديدة البراعة فيه. كان الناس يأتون إليها مــن أماكن بعيدة لكي تُشخّص مشاكلهــم وتُرمم أعضاءهم. و لم تكن تتلقى أجراً.

ذات مرة ذهبت إلى الدكتور فولْوود لكي تعطيه رأيها الجريء، لأنه كان قــد ترك طفلاً يذهب مدة ثلاثة أسابيع لإصابته بكسر في الترقوة، بينما عالجــه لإصابته بخلع. وكان الطبيب قد عاملهــا باستبداد، لأنه

أينما ذهب كان عمال المناجم يضعون أيديهم على أكتافهم، ويئنون قائلين: «آه ترقوتي تؤلمني!».

هنا دخلتْ ميغ. ألقتْ نظرة ذكية، سريعة، ثاقبة على جورج، وتضرج لون وجهها.

قالت: «حسبتُ أنك لن تأتي».

قال صاحب السبلة السوداء: «لا يريد أنْ يزعجك – لم يكن يريد أنْ يتوقف».

جلبت لنا كؤوساً من الويسكي، وأخذت توزعها على الرجال، الذين مازحوها ببساطة وبروح مرحة. ثم خرجت، لكننا بقينا كلٌّ في زاويته. وتحدث الرجال في المواضيع الشائعة: دار نقاشٌ مرير حول ما إذا كانت لندن تُعتبَر ميناءً بحرياً أم لا – ونوقشت المسألة بحماس؛ ثم أشعل الفنان الوليد المكان بالحماس عندما أعلن أنه لا يوجد هناك إلا ثلاثة ألوان في الطبيعة، الأحمر، والأصفر والأزرق، والبقية ليست ألواناً، بل مزيجاً منها: كان هذا الكلام يرقى إلى مرتبة الإلحاد، وسأل أحدهم الفنان إنْ كان يجرؤ على إعلان أنَّ هذا البنطلون البني ليس لوناً، ففعل الفنان، وكان ينشب قتال بسبب ذلك؛ وبعد ذلك حان دور استعراض القوة، وربح جورج رهاناً بخمسة شلنات، برفعه آلة بيانو؛ ثم هدؤوا، وتحدثوا عن الجنس، sotto voce (بصوت منخفض)، وأعطى أحدهم وصفاً مذهلاً لعاهرات يابانيات وصينيات في ليفربول. وبعد ذلك انفرط عقد الحديث: بدأ مزارع يستشير جورج عن كيفية التعامل مع مزرعة ملاصقة للنُّزُل، وأخذ آخر يُساومه على

الأحصنة، وتجادلا حول الماشية، ونصحه خيّاط بشدة أنْ يفكّر، وأفضى إليه بسر ثمين يمكن للرجل على أساسه أنْ يحصل على المال، إنْ كان يتحلى بالحماس اللازم – وهكذا، حتى الساعة الحادية عشرة. ثم جاء بيل وهتف: «حان وقت الإقفال!» وأُخليَ المكان، وارتعش المكان مع هبوب قليل من الهواء البارد متغلغلاً بين دخان التبغ كريه الرائحة، ورائحة الخمر، والأنفاس الكريهة.

ترك الويسكي تأثيره على كلينا. وخجلتُ إذ وجدتُ أنني عندما مددتُ يدي لأتناول كأس الويسكي، أو لأقدح عود ثقاب، أخطأتُ هدفي، وارتبكت؛ وكأنَّ يديّ لا تنتميان إليّ، وارتجفت ساقاي. ومع ذلك كنتُ أعي بحدّة كل تغيير طرأ عليّ وعليه؛ وكأنه كان في استطاعتي أنْ أجعل جسمي ثملاً، ولكن ليس عقلي، الذي نهضَ وحافظ على يقظته التامة. كان جورج بكل وضوح نصف سكران: جفناه انزلقا فوق عينيه ولسانه كان ثقيلاً؛ عندما مدّ يده ارتطمت بكأسه، وسُفِحَ محتواها على الطاولة؛ اكتفى بالضحك. وأنا، أيضاً، شعرت برغبة شديدة بالقهقهة في كل مناسبة، وتعجبتُ من نفسي.

دخلتْ ميغ المكان بعد رحيل الرجال جميعاً.

قال، ملوحاً بذراعه بحركة مزخرفة لرجل سكران: «تعالي واجلسي هنا».

سألتْ، متلفتة حولها إلى الطاولات التي عليها الأقداح والكؤوس وسط برك صغيرة من الشراب، وعيدان الثقاب المحترقة ورماد التبغ متناثرة على الخشب الأبيض: «ألا تأتي إلى المطبخ؟».

كان كارهــاً أنْ ينهض على قدميــه. «كلا – لَمَ؟ – تعالي واجلسي هنا!»؛ عرفتُ ذلــك وضحكتُ في داخلي؛ ضَحكتُ أيضاً على ثقل لسانه، وعلى كلماته التي كانت تنزلق على خديه.

اقتربــت وجلست إلى جانبه، بعــد أنْ نقلتْ الطاولــة الصغيرة بما عليها من شراب مسفوح.

قــال، مومئــاً برأســه، وضاحــكاً، وكاشفاً عــن أسنانــه: «كانوا يُخبرونــي كيــف أُصبح ثرياً، وســوف أُريهم. سوف تريــن، يا ميغ، سوف ترين – سوف أُريهم أنني أستطيع أنْ أكون جيداً مثلهم، سوف ترين».

قالت، بتسامُح: «لماذا، ماذا تنوي أنْ تفعل؟».

«انتظــري قليــلاً وسوف تريــن – إنهــم لا يعرفون بعــد ماذا في استطاعتــي أنْ أفعــل – لا يعرفون – وأنــت لا تعرفين – لا أحد منكم يعرف».

«وماذا ستفعل عندما تُصبح ثرياً، يا جورج؟».

«أفعــل؟ – سأفعل كل ما أريــد. يمكنني أنْ أعيش حياة مترفة كأي شخص آخر، ألا أستطيع؟»– وقــرّبَ وجهه كثيراً من وجهها، وأومأ لهــا برأسه، لكنها لم تُشح بوجههــا بعيداً – «نعم – سوف أرى معنى الانغماس في الترف. لطالمــا أفرطنا في الحذر، عائلتي كانت كذلك– وأنا كنت كذلــك؛ نحن نخاف أنفسنا، نخاف أنْ نفعل أي شيء. أنا سأفعل ما أريد، يا حبيبتي، الآن – لا يهمني – لا يهمني – هكذا!» –

أنــزلَ يده بحركة ثقيلــة إلى الطاولة الأقرب إليه، وكســر كأساً. أدخلَ بيل رأسه ليرى ما الذي يحدث.

«لكنكَ لن تفعل شيئاً مُشيناً، يا جورج!».

«كلا – لا أريد أنْ أؤذي أحداً – ولكن لا يهمني – هكذا!».

«أنت أطيب من أنْ تؤذي أحداً».

«أعتقــد أنني كذلك. أنــت تعرفينني قليلاً يا ميغ، حقاً – لا أظنك تعتقدين أنني أحمق، أليس كذلك؟».

«أنا واثقة من أنني لا أعتقد هذا – ومَنْ يعتقد؟».

«كلا – لا تعتقدين – أنا أعلم أنك لا تعتقدين. أعطني قُبلة – أنت جميلــة قليلاً، فعلاً – يانعــة» – تظاهر عابثاً بأنــه يعضّها. ضحكت، ودفعته عنها بلطف.

سألها برقة: «أنت مُعجبة بي، ألست كذلك؟».

أجابت، بمكر رقيق: «ولِمَ تريد أنْ تعرف؟».

«لكنك مُعجبة – اعترفي الآن، بأنك مُعجبة».

«كان يجب أنْ أعتقد بأنكَ تعلم، دون أنْ أخبرك».

«كلا، ولكن، أريد أنْ أسمعها منك».

قالت «هيا»، وقبّلته.

«ولكن ماذا ستفعلين إذا ذهبتُ إلى كندا وتركتك؟».

«آه – لن تفعل هذا».

«ولكن قد أفعل – فماذا عندئذٍ؟».

«أوه، لا أعرف ماذا عليّ لأنْ أفعل. لكنك لا تفعل. أنا أعلم أنك لـن تفعل – لا تستطيع». أسـرع بإحاطتها بذراعه وقبّلها، وقد انفعل بارتعاشة الثقة في نبرة صوتها:

«كلا، لـن أفعـل – لن أتـركك أبـداً – سيكون ذلك أمـراً بائساً كالإثم، أليس كذلك، يا حبيبتي؟».

غمغمت «نعم».

قال: «آه، أنت مخلوق صغير دافئ – أنت تُحبينني، هه؟».

تمتمت: «نعم»، وشدّها إليه، وقبّلها، وأبقاها قريبة.

«سـوف نتزوج قريبـاً، يا عصفورتي – أأنـت سعيدة؟ – قليلاً – أنت سعيدة، ألست كذلك؟».

رفعـت نظرها إليه وكأنه أحـد النبلاء. كان حبّها لـه فياضاً حتى جعله أجمل.

اضطر أنْ يسير مع دراجته حتى المنزل، لأنه غير قادر على القيادة؛ لأنَّ قصبتيّ ساقيه، أعلم، كانتا مخدوشتين من الدواستين.

الفصل السابع

سحر التفاحة المُحرَّمة

في أول يـوم أحـد من شهـر حزيران، عندما تأكّـدت ليتي من أنَّ عليهـا أنْ تفسخ خطبتها للزلي، وفي أثنـاء قضائها يوم في المنزل بعيداً عن هايكلوز، استعدّتْ للذهاب إلى الطاحونة. كنا في حالة حِداد على إحدى القريبات، لذلك كانت ترتدي ثوباً من القماش الرقيق الأسود الفاخر، وتعتمر قبعة سوداء مزينة بريش طويل. ثم، عندما نظرتُ على يديهـا الجميلتين، وذراعيها المكسوتين حتـى آخرهما بكُمّين طويلين أسودين، شعرت بحبي الأخوي القديم بقوة واقياً ، متسامحاً.

كان يومـاً مُشمسـاً، شديـد الريـاح. في المـكان المُستـتر كانت الحرارة عاليـة، أما في مواجهة الريح فكان عنفوانها يتبدَّد. وبين حين وآخـر كانت غيمة عريضة بيضاء، مُظللـة بالأزرق، تعبر ببطء صفحة السمـاء تلاحـق سابقتها الصغيرة في المدى، وترمـي فوقنا ظلاً بارداً، ظلامـاً راقبناه يزحـف متقدماً فوق المياه، والغابـة والتل. تلك الغيوم المـدوّرة، الفخمة، كانت تُبحر طـوال النهار على المسـار نفسه، من المرفـأ في الجنوب إلى الأراضي البور في السمـاء الشمالية، تتبع الإوز

البري السريع. وهرع الجدول جارياً يُغني، لا يتلكّأ إلا هنا وهناك لكي يهمس للشجيرات السرية، ومن ثم ينطلق ثانية مع مقطع جديد من أغنية.

كان الدجاج ينقر أرض الفناء بثبات، بلياقة يوم الراحة. أحياناً كانت هبّة ريح تائهة، لعوب، تتجول عبر الفناء وتعبث بريشه، وكان يكره ذلك. كانت الخنازير نائمة تحت أشعة الشمس، مُصدرة بين حين وآخر نخراً خفيفاً كتعبير عن ترف محض. ورأيتُ سنجاباً يهبط بسرعة البرق إلى جدار الحديقة المكسو بالطحلب، ومنه إلى شجرة السيتيسوس، حيث يتمدد على طول غصن، ويُصغي. وفجأة ينطلق، يقهقه لنفسه. وعلى الفور يبدأ غيب بالنباح، لكنني أهدِّئه؛ أعتقد أنَّ ما أفزعه هو ثوب ليتي الأسود.

ولجنا المطبخ بهدوء. كانت السيدة ساكستون تضع دجاجة، ملفوفة بقطعة من الفانيلا، على الحاجب الحديدي الدافئ للموقد لكي تبثّ فيها الحياة؛ إنها تبدو شديدة الضعف. كان جورج نائماً، ورأسه مدفون في ذراعه على الطاولة؛ والأب نائم على الأريكة، في حالة راحة تامة مُثيرة للإعجاب؛ سمعتُ إميلي تهرع على الدَّرَج، ربما لترتدي ثوباً.

همست الأم بنبرة عالية، وهي تنظر إلى جورج: «إنه يُطيل السهر في الخارج – في نُزُل رام، ومن ثم يستيقظ في الخامسة – إنه لا ينال كفايته من الراحة»، والتفتت نحو الصيصان، وتابعت همساً – «لقد تركتها الأم هنا. وهذه ضعيفة قليلاً – فكرت في تدفئتها قليلاً»،

وضحكت مع قليلٍ من تجهم الاستنكار الطريف. كان هناك ثمانية أو تسعة من الصيصان الصغيرة الزغبية، الصفراء، تسقسق وتتعثر في مشيها في سياج المدفأة. مالت ليتي فوقها لكي تلمسها؛ كانت أليفة وجرت بين أصابعها.

فجأة أطلقت والدة جورج صرخة عالية، واندفعت نحو النار. كانت هناك رائحة ريش يحترق تنبعث منها. كانت الدجاجة قد مشت داخل النار، وشهقت شهقتها الواهنة بين الفحم الملتهب. قفز الأب عن الأريكة؛ واعتدل جورج في جلسته بعينين واسعتين؛ وأطلقت ليتي صرخة صغيرة وارتعشت؛ وأخذ تريب يقفز حول المكان وينبح. كانت هناك رائحة لحم مطبوخ.

قالت الأم، مع ضحكتها الصغيرة الغريبة: «ها قد رحلت الأولى!»، فجعلتني أضحك أنا أيضاً.

سأل الأب بحماس: «ما الأمر – ما الأمر؟».

شرحت له زوجته: «إنها دجاجة ولجت النار – لقد وضعتها على الحاجز لتدفأ».

قال: «يا إلهي – ما كان يمكن أنْ أتخيّل ما وقع!»، وأرخى رأسه ليقتفي تدريجياً الحد الفاصل بين النوم واليقظة.

جلس جورج وابتسم لنا بوهن، كان من فرط الذهول بحيث عصي عليه الكلام. كان صدره لا يزال متكئاً على الطاولة، وذراعاه ممدودتين عليها، لكنه رفع وجهه، ونظر إلى ليتي بعينيه السوداوين،

المذهولتين، وابتسم لها بوهن. كان شعره شعثاً، وياقة قميصه مفتوحة. ثم نهضَ بحركة بطيئة، دافعاً شَعره إلى الخلف مع ضجيج مرتفع، وتمطّى، شادّاً ذراعيه نحو الأعلى مع حركة تمطٍّ طويلة، وثقيلة.

قال، لاوياً ذراعيه ومن ثم تركهما يرتخيان إلى جنبه: «أوه – ه – ه! لم يخطر في بالي قط أنك ستأتين اليوم».

قالت ليتي، مُشيحة برأسها عنه ومع ذلك عادت فنظرتْ إليه من جديد: «أردتُ أنْ آتي لأراك – لن يُتاح لي العديد من الفُرص الأخرى».

قال، هابطاً نحو الهدوء: «كلا، لا أعتقد ذلك». ثم ران الصمت بعض الوقت. وبدأتْ الأم تسأل عن صحة لزلي، وحافظت على إيقاع الحديث إلى أنْ هبطت إميلي، متوردة الوجه ومبتسمة وسعيدة.

قالت: «ألن تخرجوا؟ هناك عشّان أو ثلاثة لطيور أبي الحناء، ولعصفور مغرد آخر –».

قالت ليتي: «أعتقد أنني سأترك قبعتي»، وهي تفكّ الدبابيس عنها في أثناء كلامها، وتهز شَعرها عندما تتحرر. وألحّتْ السيدة ساكستون عليها كي تأخذ معها وشاحاً طويلاً، أبيض، من الحرير؛ إميلي أيضاً دثّرت شعرها بوشاح من الشاش، وبدت جميلة.

وخرج جورج معنا بلا معطف، ولا قبعة، وصدريته مفتوحة، كما كان. اجتزنا البستان، وعبرنا الجسر، وذهبنا إلى حيث تهبط المنحدرات حتى البركة السفلى، الضفة المكسوة بالقرّاص، مع شجيرة

أو اثنتين من البندق. وبين القرّاص كانت تصدأ مقالٍ قديمة، وتبرز أوان فخارية قديمة خشنة.

صادفنا إبريقاً مغطّى بطبقة ثقيلة من الكلس. انحنت إميلي ونظرتْ، ومن ثم ألقينا نظرة إلى داخله. كانت فيه طيور أبي الحناء بمناقيرها الصفراء تتمطّى بشدة حتى خشيت ألا تتمكن من طيّ أجنحتها من جديد. وبين تلك المخلوقات الصغيرة العارية، التي كانت تستجدي منا بلا تمييز وبثقة، وجدنا ثلاث بيضات مكوّمة.

قالت إميلي بولع العائلة بالتشبيهات الرومانسية: «إنها أشبه بأطفال أيرلنديين يُبرزون رؤوسهم من كوخ».

تابعنا المسير إلى حيث علبة من التنك مرمية وغطاؤها مفتوح، وداخلها عشٌّ آخر، راقد ومستكين، مع ست بيضات، يميل بعضها على بعض.

قالت ليتي، وهي تلمسها: «كم هي دافئة. تكاد تشعر بصدر الأم».

حاول أنْ يمدّ يده إلى داخل علبة التنك، لكنَّ الحيّز كان ضيقاً جداً، فتبادلا النظر وابتسما. قالت إميلي: «تكاد تعتقد أنَّ صدر الوالد وسمها باللون الأحمر».

ومع تقدمنا على جانب البستان رأينا ثلاثة مشاهد عريضة لقطع ملوّنة من الفخار مُرتّبة عند كعب ثلاثة من الأشجار.

قالت إميلي: «انظر، هذه هي بيوت الأطفال. إنك لا تعلم كيف حصلت صاحبتنا مولي على أشياء سام الصغيرة والجميلة - يا لها من فتاة وقحة متملِّقة!».

من جديد تبادل الاثنان النظرات، مبتسمَين. وفي أعلى ضفة البركة، وتحت تلألؤ الضوء الساطع، فتشنا حيث أوراق حزمة من نباتات الذرة تُشفي بنعومة شقوق صدر التل الأحمر. كان تغريد القُبرات يُسمَع بين أشعة الشمس. كافحنا للتقدُّم عبر الأعشاب. كان الحقل كله ممتلئاً بزهر الربيع العِطري، بكتلة صفراء، متلألئة، تهتز على العشب الذي لا يزال نضراً. جررنا وراءنا ظلالنا عبر الحقول، مُخفّفين في أثناء مرورنا من شدة وطأة ضوءَ الشمس عن الأزهار. كان الهواء يخز بعطر البراعم.

قالت إميلي: «انظر إلى زهر الربيع العطري، كيف يهتز من شدة الضحك»، ورفعت رأسها عالياً، فومضت عيناها السوداوان بين تدفق الشاش. كانت ليتي في المقدمة، ترفرف بغموض عبر الحقل، تميل على الأزهار، منحنية حتى الأرض كبرسيفون[٥٨] المتشحة بالسواد التي خرجت إلى الحرية. كان جورج قد تركها على مسافة قليلة منه، يتصيّد شيئاً بين الأعشاب. توقف، وبقيَ واقفاً في مكان واحد.

شيئاً فشيئاً، كأنما دون وعي منها، اقتربت منه، وعندما رفعت

---

٥٨ – في الميثولوجيا الإغريقية، برسيفون هي ابنة زيوس وديميتر. خطفها هيديس وجعلها زوجته وملكة العالم السفلي، لكنه سمح لها في جزء فقط من كل عام أنْ تغادره. – المترجم

رأسهـا، بعد أنْ التقطت بعض سخـام المداخن، وبعض أزهار العشب الصغيرة، ضحكتْ مع قليل من الدهشة لرؤيتها له شديد القُرب منها.

قالـت: «آه! حسبتُ أنني وحـدي في العا لم – ويا له من عا لم رائع – وكان إحساساً ممتعاً حقاً».

قلـتُ: «كحواء في مروج جنة عدن – وظل آدم في مكان ما على العشب».

شدّدت، عابسة قليلاً، وضاحكة: «كلا – ليس آدم».

كانت إميلي تقول لي: «مَنْ يريد شوارع من ذهب في حين يستطيع أنْ يحصل على حقل من زهر الربيع العطري! انظروا إلى أسفل السياج الذي يحتكر شمس الجنوب – إنه سيل واحد من عشبة الحوذان».

«إنَّ أولئـك اليهود دائماً يتقصّـون الربح القذر – بل إنهم صنعوا جنّـة منه»، ضحكتْ ليتي، ثم التفتت إليه، وقالت: «ألا تتمنى لو أننا مخلوقـات بريّـة – اسمع، كالحمامـة المطوّقة[٥٩] – أو القـبّرات – أو، انظـر، كطيور أبو طيط؟ ألا تحب أنْ تطـير وتندفع وتتلألأ و – تغازل في الريح؟». رفعت جفنيها، وطرحت سؤالها مع ارتعاشة في صوتها. احمرّ خجلاً، وهو يميل على الأرض.

قال: «انظري، ها هنا عش قبرة».

ذات مـرة ترك حصان أثر حافره على المـرج اللين؛ والآن اكتمل نمو القبرات، ورقّقت الحفرة، ووضعت هناك ثلاث بيضات بلون بنيّ

---

٥٩ – الحمامة المطوقة؛ الورشان.

قاتم. جلست ومالت فوق العش؛ ومال هو فوقها. وتلصصت الريح، وهي تمر بسرعة رؤوس الزهر، على البراعم الصغيرة البنيّة، ودارت مبتعدة سعيدة من جديد. أرسلت الغيوم الكبيرة رسائل إليها في أسفل الظلال، وركضت وسط قطرات المطر لتلمسها.

قالت: «ليتنا كنا أحراراً هكذا. لو أنَّ في استطاعتنا أنْ نضع كل شيء بأمان في مكان صغير في الأرض - أما كنا أمضينا وقتاً ممتعاً على غرار القبّرات؟».

قال: «لا أفهم لِمَ لا نستطيع أنْ نفعل ذلك».

«أوه - ولكن أنا لا أستطيع - أنت تعلم أننا لا نستطيع -» ونظرت إليه بقسوة.

سألها: «ولِمَ لا تستطيعين؟».

أجابت، متحدية إياه بكل روحها: «أنت تعلم أننا لا نستطيع - تعلم مثلي تماماً»، ثم أضافت: «يجب أنْ نضع في حسباننا بعض الأشياء». نكس رأسه. كان يخاف أنْ يكافح، أنْ يحثّ نفسه على اتخاذ قرار حول المسألة نيابة عنها. أشاحت بوجهها بعيداً، ومضت ترفس خلال الأزهار. التقط الزهرات التي تركتها بجوار العش - كانت لا تزال دافئة من يديها - وتبعها. واصلت سيرها نحو طرف الحقل، وشراشيب وشاحها الأبيض تتقدمها راكضة. ثم مالت نحو الخلف مع الريح، بينما أمسك هو بها.

سألها بتواضع: «ألا تريدين أزهارك؟».

«كلا، شكراً – سوف تموت قبل أنْ أصل إلى المنزل – ارمها، تبدو سخيفاً يحمل أزهاراً».

فعل كما أُمِر. واقتربا من السياج. كانت هناك شجرة تفاح بري مزهرة ترتفع عالياً في وجه زُرقة السماء.

قالت: «يمكنك أنْ تقطف لي بعضاً من هذه الأزهار»، ثم أضافت فجأة – «كلا، أستطيع أنْ أبلغها بنفسي»، وعلى الأثر مدت نفسها إلى أعلى وجذبت عدة عساليج وردية وبيضاء، ووضعتها في ثوبها.

قالت: «أليست جميلة؟»، وبدأتْ تضحك ساخرة، مُشيرة إلى الأزهار – «بتلات جميلة، وردية بلون الخدود، وأسدية[٦٠] تشبه شعراً أصفر، وبراعم كشِفاه تعِدُ بشيء لذيذ»– توقفت، ونظرتْ إليه، مع بداية ابتسامة. ثم أشارت إلى المبيض في أسفل الزهرة، وقالت: «النتيجة: تفاح بري!».

بقيتْ تنظر إليه، وتبتسم. لم يقُل شيئاً. فتابعا السير إلى حيث أمكنهما أنْ يرتقيا السياج إلى أيكة من الشجيرات. ارتقت إلى السياج الأعلى، متمسكة بغصن سنديان. ثم جعلته يرفعها ويُنزلها جسدياً.

قالت: «آه! أنت تحب أنْ تستعرض قوتك أمامي – شمشون حقيقي!»– سخرت، على الرغم من أنها دعته بعينيها ليضمها بين ذراعيه.

كنا نلج أيكة من الحور الأسود. في السياج كانت هناك شجرة

---

٦٠ – أسدية؛ جمة سُداة: العضو الذكري في الزهرة.

دردار، مـع أعـداد هائلة من النقـاد السوداء في وجه السمـاء البرّاقة، وأعداد هائلة من عناقيد ثمار خضراء مكسوة بالقشور.

قالت: «انظر إلى شجرة الدردار تلك، تظن أنَّها في كامل إيراقها، أليس كذلك؟ أتعلم لِمَ هي غزيرة الإنتاج؟».

قال: «كلا» مع نبرة الاستفهام الفضولية للكلمة أُحاديّة المقطع.

«إنهـا تطرح ثمارها للرياح - كلا، إنهـا تحتضر، لذلك تبذل كل مـا لديها من قوة وتمـلأ أغصانهـا بالثمار الأخـيرة. سوف تموت في العـام المقبل. فإذا كنتَ موجوداً هنا، تعـال وانظر. انظر إلى اللبلاب، اللبـلاب الناعم والرقيق، قابضاً بأصابعه على نحر الشجرة. في الواقع إنَّ الأشجار تعرف كيف تموت - أما نحن فلا نعرف».

عذّبتـه بمزاجهـا المتقلّـب. كانـت في خضـم اصطخـاب عارم للمشاعر، وهكذا أرادتْ له أنْ يكون.

«لـو كنا أشجاراً ينمو عليها اللبلاب - بدل أنْ نكون بشراً رائعين نعيشـ حيـاة حيوية وحـرة - فعلينا أنْ نعانـق حياتنا الذاويـة، أليس كذلك؟».

«أعتقد ذلك».

«أنتِ، علـى سبيل المثال - تخيلي أنـكِ أنت تضحين بنفسك - إكرامـاً للجيل التـالي - إنَّ هذا يُذكرنا بشوبنهـاور، أليس كذلك؟ - إكراماً للجيل القادم، أو للحب، أو لأي شيء!».

لم يُجبها؛ لقد كانت أسرع منه بكثير. ومروا من تحت أشجار الحور، التي كانت تُدلّي سلاسل من الخرز الأخضر فوقهما. وكانت هناك فُسحة صغيرة مكشوفة، مع أكداس من نبات الجريس. انحنت ليتي فوق فرخ حمامة مُطوّقة مستلقٍ على صدره على الأرض، وجناحاه شبه ممدودان. رفعته - كانت عيناه مفقوءتين وملطختين بالدم؛ تحسّست صدره، مرفرفة السوسن القاتم على حنجرته.

قال: «كان هناك قتال».

سألت، وناظرة إليه: «من أجل ماذا - رفيق؟».

أجاب: «لا أعلم».

قالت، لتعذبه: «بارد[٦١] - إنه بارد جداً، تحت الريش! أعتقد أنَّ الحمامة المطوقة تستمتع بكونها سبباً للتصارع - وبفوز أحدهم بها؛ خاصة إنْ كان الفرد المطلوب. ستكون متعة فائقة، أنْ تراهما يتصارعان - ألا تعتقد؟».

أجاب: «الأنياب ممدودة - لقد وقع ميتاً عن مجثمه».

«آه - مسكين - كان جريحاً - واستقرَّ وانتظر حتفه - في حين فاز الآخر. ألا تعتقد أنَّ الحياة قاسية جداً، يا جورج - وأنَّ الحب أقصى الأشياء قاطبة؟».

---

٦١ - أرجو الانتباه إلى أنَّ الكاتب في الأصل يُشير إلى الحمامة على أنها مُذكّر. - المترجم

ضحك بمرارة من تحت الألم الذي غلّفَ نبرات صوتها الحزينة، الناعمة.

«فلندفنه – وننتهي من أمر العاشق المهزوم. ولكن سنُنشئ له قبراً جميلاً».

حفرتْ حفرة في التربة الداكنة، وانتزعت حفنة من نبات الجريس، ورمتها فوق الطائر الميت. ثم ردمتْ التربة فوقه، وضغطت بيديها البيضاوين على الطفال الرملي[٦٢] الأسود.

قالت، ضاربة كفاً بكف لتنفض عنهما التراب: «ها قد انتهى أمره. هيا بنا».

تبعها، لا ينطق بكلمة من عنف مشاعره.

خرجا من أيكة الشجيرات؛ كان السرخس يتفتح برصانة، والجريس ينمو جماعات تتداخل فيها اللوالب الزرقاء. في المساحات الأكثر انفتاحاً أزهر أذن الفأر الأزرق أكداساً، وتلون البنفسج بلون خفيف من القرمزي القاتم، مع زهر الربيع كما الكواكب في الليل. وكان سرب قليل من الجويسئة العطرية، والتبن العذب المحصود حديثاً، يُعطِّر الجو تحت الأغصان. وعلى الضفة الرطبة تشكيلة من كاسر الحجر الذهبي، يتلألأ بشكلٍ فظيع كأنما صقله ممثّله، الحلزون. سحق جورج وليتي الأجراس المُعرّقة للحمّاض وكسرا الطحلب الحريري. ماذا يهمهما ما يسحقان وما يكسران؟

---

٦٢ – الطفال الرملي: مزيج من طين ورمل وقش؛ تربة خصبة. – المترجم

علـى الطرف الآخـر من سياج أيكة الشجـيرات كان سفح التل، المفروش بأشجار شوكية قديمة. هناك كانـت الأشنة الرمادية الصغيرة تحمـل كرات بلون الياقوت لم نلاحظهـا. ماذا يهم، عندما تسقط كل التفاحات الكبيرة الحمراء من الشجرة على الأرض وتُترَك لتتعفَّن؟

قالت ليتي: «لو كنتُ رجلاً لاتجهتُ غرباً وتحررت. كنتُ سأحب ذلك».

نزعـت الوشاح عـن رأسها وتركته يُرفـرف في وجه الريح؛ كان تورُّد وجهها دافئاً وهي ترتقي، وجدائل شعرها تحررها الريح، متلألئة ومتموجة.

قـال، ناظراً إليهـا، ويتكلم بمرارة عديدة: «حسـن - أنتِ لستِ رجلاً».

ضحكـتْ: «كلا، ولو كنتُ، لأبدعتُ أشيـاء - أوه، لكانت لي طريقتي الخاصة!».

«أليست لديك الآن؟».

«أوه - أنـا لا أريدها بشدة - عندمـا أحصل عليها. عندما تُصبح لدي طريقتي الخاصة، أرغبُ بشدّة في أنْ يستعيدها أحدهم مني».

شمخت برأسهـا، ورمته بنظرة جانبية، مرسلة ضحكة من خلال لمعان شعرها.

وصـلا إلى القناة. جلستْ على حافة جـرن الماء الحجري الكبير،

ووضعتْ يديها في الماء، وحرّكتهما برفق كزهرتين مغمورتين في البركة الصافية.

قالت: «أحبّ أنْ أرى نفسي في الماء. لا أعني على صفحة الماء، كنرسيس – ولكن هكذا أريد أنْ أكون في الغرب، أنْ يكون لي بحيرتي الخاصة، وأسبح فيها بأطرافي الحرة تماماً في الماء».

سأل: «أتحسنين السياحة؟».

«جيداً».

«سوف أتسابق معك – في بحيرتك الصغيرة».

ضحكتْ، وأخرجت يديها من الماء، وراقبت القطرات الصافية تنساب. ثم رفعت رأسها فجأة، بأثر فكرة ما. ومدت نظرها عبر الوادي، ورأت الأسقف الحمراء لمنطقة ميل.

« – Ilion، Ilion

Fatalis incestusque judex

Et mulier peregrine vertit

In pulverem –».

قال «ما معنى هذا؟».

«لا شيء».

هتف صوت رفيع، عالٍ كصراخ الطائر أبي الطيط، «هذا الجرن

ملكيّة خاصة». أجفلنا من عزم المفاجأة عندما رأينا رجلاً طويل القامة، أسود اللحية، ينظر إلينا ومن ثم يُشيح ببصره عنا بعصبية، متململاً بانزعاج على مسافة عشر ياردات.

قالت ليتي، وهي تنظر إلى يديها المُبللتين، اللتين تابعت تجفيفهما بطرف منديل: «أحقاً؟».

قال الرجل، بالصوت الرفيع نفسه، كالمزمار: «لا ينبغي أنْ تعبثي به». ثم أشاح برأسه بعيداً، وراحت عيناه الرماديتان الشاحبتان تطوفان عبر الريف - وعندما استجمع شجاعته، أعطانا ظهره، وهو يُظلل عينيه ليتابع نظراته المُدقّقة. مشى بسرعة بضع خطوات، ثم مدَّ عنقه، ممعناً النظر إلى الوادي، ويقطع بسرعة عدة ياردات في اتجاه آخر، ماداً نفسه من جديد ومُمعناً النظر. ثم ولج إلى الداخل.

قالت ليتي: «إنه يتظاهر بأنه يبحث عن شخص ما، لكنَّ السبب هو أنه يخشى أنْ نعتقد أنه خرج فقط لكي ينظر إلينا»- وضحكنا.

فجأة ظهرت امرأة عند البوابة؛ بعينين شاحبتين مثل الرجل صاحب صوت الفأر.

قالت لليتي، التي نهضتْ على الفور من باب الاعتذار: «سوف تُصابين بمرض برايت بجلوسك على ذلك الحجر الرطب».

تابعت المرأة صاحبة صوت الفأر: «أنا أعلم هذا، لأنَّ أمي ماتت متأثرة به».

غمغمت ليتي: «أنا حقاً آسفة».

تابعت المرأة: «نعم، ينبغي أنْ يحثّك هذا على اتخاذ جانب الحذر. هـل أتيتم من مزرعة ستريلي ميل؟» وسألـت فجأة عن جورج، وهي تستعرض الـ deshabille (ملابسه المبتذلة) المُشينة بنظرة تأنيب مرير.

اعترف بذلك.

«وسوف ترحلون؟».

واعترفَ بهذا أيضاً.

«أوف! – لا زال لدينا بعض الجيران. إنها حياة موحشة للبؤساء. أعتقد أنكَ سمعت عن آخر عائلة قطنت هنا».

واعترف مرة أخرى باقتضاب.

«جماعـة قـذرة – كانـت كالكلب القـذر. وليتـك رأيت تلك القضبان الحديدية».

قالت ليتي: «نعم، رأيتها».

«تفـوه – يا لتلك الحالـة! ولكن ادخلوا – ادخلوا، وسوف ترون الفرق».

دخلا، من باب الفضول.

كان المطبـخ مختلفاً حقاً. كان نظيفاً ودافئـاً بصورة مدهشة بفعل

قماش الشيت الأحمر الفاقع على الأريكة وعلى كل وسادة كرسي. لسوء الحظ أفسد الأثر اللونُ الأخضر والأصفر لمساند ظهر الكراسي، وانتشار الأزهار المصنوعة من الورق والصوف. كانت هناك ثلاثة صناديق من الأزهار الصوفية، وعلى الجدار أربع مراوح مُثبّتة وورق أخضر وأصفر يرفرف، مزيَّنة بورود وقرنفل، وليلك اللوف، وخشخاش من الورق الأصفر؛ وكانت هناك أيضاً جيوب في الجدار مملوءة بالورد الورقي؛ بينما الغابة في الخارج مُكدّسة بالزهور.

قالت ليتي: «نعم، هناك فرق».

انتفخت المرأة، وتلفتت حولها. تلصص الرجل ذو اللحية السوداء من وراء صحيفة كريتسشيان هيرالد - يا لتلك الأبواق الطويلة الهادرة! - وانكمش من جديد. هرعت المرأة لتُحضر له غليونه الذي كان قد وضعه على قطعة من صحيفة على الحاجب الحديدي، ونفخ منه بعض الرماد الوهمي. ثم لمحت شيئاً - ربما بعض الغبار - على المدفأة.

هتفت: «ها هو! كنتُ أعلم؛ ما كنتُ لأتركه لحظة! لم أعمل كثيراً على الخشب المحروق، ولكن يجب أنْ يُحرَّك - يُحرَّك -».

تذمر صاحب صوت الفأر من خلف الصحيفة: «إنني فقط أقحمت قطعة من بين القضبان».

كررت خلفه، بنبرة تأنيب فظيعة، وهي تقبض على المِسعر وترميه فوق صحيفته: «أقحمت قطعة! وماذا تسمي هذا، وأنت جالس هناك تحكي حكاياتك أمام القوم؟».

زحفوا خارجين وهرعوا مبتعدين. أخذت ليتي تتلفّت حولها فرأتْ المرأة تمسح دَرَجة الباب بعد رحيلهم، وضحكتْ. أخرج ساعته من جيب صدريته؛ كانت الساعة الثالثة والنصف.

سألت: «لِمَ تنظر إلى الساعة؟».

أجاب: «إنَّ ميغ قادمة لتشرب الشاي».

لم تتكلم بعد ذلك، وتابعا السير بخطى بطيئة.

عندما وصلا إلى كتف التل، وأشرفا من هناك على مزرعة ميل، والبركة، قالت:

«لن أنزل معك – سوف أذهب إلى المنزل».

هتف، بنبرة ملؤها التأنيب والذهول: «ألن تأتي لتشربي الشاي! لِمَ، ماذا سيقولون؟».

«كلا، لن أنزل – دعني أقول وداعاً – jamque vale! أتذكُر كيف وقعت يوريديتشه[٦٣] في الجحيم؟».

---

٦٣ – في الأساطير اليونانية، يوريديتشه حورية الغابة يتزوجها أورفيوس إله الموسيقى بعد أنْ سحرها بموسيقاه، لكنَّ سعادتهما لم تكتمل، إذ بينما كانت يوريديتشه تتمشى مع وصيفاتها في المرج لسعتها أفعى وماتت في الحال. حزن عليها أورفيوس حزناً شديداً و لم يتحمل غيابها، فقرر أنْ يهبط إلى العالم السفلي لكي يُعيدها، وخاض رحلة مملوءة بالمغامرات المخيفة ليصل إلى هناك. وبعد أنْ استعطف حراس العالم السفلي بموسيقاه وشعره رقّت قلوبهم ووافقوا أنْ يُعيدوها إليه بشرط واحد هو ألا ينظر خلفه إليها في رحلة العودة إلى العالم العلوي، لكن من شدة اشتياقه إليها نظر خلفه فغاصت في الظلام عائدة إلى الجحيم وحُرِمَ منها إلى الأبد، و لم يسمع منها إلا كلمة «وداعاً!»– المترجم

تلعثـم – «ولكن، يجب أنْ تنزلي لتتناولي الشاي – كيف أُخبرهم بهذا؟ لماذا لا تريدين أنْ تأتي؟».

أجابتـه باللاتينية، مع بيتـين من شِعر فرجيل. وبينمـا هي تراقبه، أشفقـت على عجـزه، وسدّدت له طعنة أخيرة بقولهـا بنعومة شديدة ورقّة:

«لن يكون ذلك مُنصفاً لميغ».

وقف ينظر إليها؛ لم يكن وجهه يتلون بغير السُمرة البنيّة—الرمادية؛ وعينـاه، العينان السـوداوان، اللتـان يشوبهما سوء الظـن وتتسم به عائلتـه، فكانتا أشدّ سواداً مـن أي وقت، متسعتين بفعل بؤس العجز؛ وشعرت بإشفاق غامر. ودّت لو تبكي من اشتياقها.

قالت، بصوت خافت، مرتعش، وهما يتوقفان جانباً: «هلا ولجنا الغابة بضع دقائق؟».

كانـت الغابة عالية ودافئة. وعلى طول الممـر كان أذن الفأر ينمو حتـى الرُّكبة، منتشـراً، يومض على البُعد كأنـه درب التبّانة في الليل. تـركا الممرات الطويلة، المزدحمة بالأزهار لكي يخوضا بين الجريس، مُقتحمين الأزهار الكثيفة والسرخس إلى أنْ وصلا إلى شجرة سنديان وقعت فوق البندق، وهناك جلسا شبه مُستترين. تدلت أزهار المكحلة بشكل رائع مـع ثقل اللون القرمزي، أو استقامـت شاحبة ومنتصبة، ككيـزان ذرة قرمزيـة لم تنضج. تهـادى النحل ثقيـلاً هابطاً في تهور مُضطـرب بين الأزهار القرمزية. كان منتشياً بمـرأى كل تلك الزُّرقة.

تناهى طنينه القوي واللعوب صافياً على متن هدير الريح الرصين فوقهما. كان مرأى عربدته المتشبثة، المتسلقة يُشبع الروح. استقبلت زهرةُ المنثور البري الوردية الشمسَ وعكست نورها. وأمطرتهما شجرة دردار برذاذ من الأغلفة بلون اللحم.

قالت بنعومة، مستديرة نحوه لتُخفف من بؤسه: «ليت هناك آلهة للمراعي وحوريات للغابة!». رفعتْ قلنسوته عن رأسه، ونثرت شَعره، قائلة:

«لو كنتَ إله المراعي، لكلّلت شعرك بورود مُذهّبة، وجعلتك أقرب شبهاً بباخوس». وتركتْ يدها تستقرّ على رُكبته، ورفعت نظرها إلى السماء. بدت زُرقتها شاحبة وخضراء بالمقارنة مع مدّ اللون القرمزي الذي يجتاح الغابة. شمخت الغيوم كالبروج، ولمَسَها شيء وحمّلها، ووضعها عالياً بين الرياح. وعبرَتْ الغيوم، وصَفَت بِرْكة السماء.

قالت: «انظر، لقد علقنا - وسط أغصان مع عقد من البراعم الخضراء. ليت كنا حرّين على أجنحة الريح - لكنني سعيدة لأننا لسنا كذلك». فجأة استدارت نحوه، وفي اللحظة نفسها، أعطته يدها، فضمّها بين يديه الاثنتين. «أنا سعيدة لأننا عالقَان هنا؛ لو كنا حرّين على أجنحة الريح - آه!».

ضحكتْ ضحكة صغيرة غريبة، وهي تلهث.

قالت: «انظر! إنه قصر، بجذوع أشجار الدردار ناعمة كذراع فتاة، وأعمدة شجر البقّ، مُضلّعة ومُرصّعة بالعقد ومزركشة، مع

جذوع أشجار الزان المتينة والضخمة، تنهض كلها لترفع ثوباً مزخرفاً بعناية فوقنا؛ وكل خيط من ذلك الثوب يهتز بالموسيقى من أجلنا، والطيور الصغيرة المزخرفة تغرد؛ وشجيرات البندق رذاذها الأخضر حولنا، وصريمة الجدي تميل إلى أسفل لكي تسكب عطرها علينا. انظر إلى حصاد أزهار الجريس - نضجت من أجلنا! اصغِ إلى النحل، تطن وسط الموسيقى المهيبة - كم تبدو مبتهجة لأجلنا!». نظرتْ إليه، والدموع تترقرق في عينيها، وابتسامة صغيرة، حزينة وفاتنة تحوم حول فمها. كان شديد شحوب الوجه، ولم يجرؤ على النظر إليها. راقبَ، كالمفتون، طائر درّج غضّ بصدر شديد الشحوب قفز واستقرّ بالقرب منهما - يرميهما بنظرات من عينيه المتألقتين، السريعتين.

قالت ليتي: «الغيوم تمر من جديد».

«انظر إلى وجه تلك الغيمة - أترى - إنها تحدّق عالياً إلى عنان السماء. والشفتان منفرجتان - إنها تُخبرنا شيئاً - والآن الشكل ينساب مبتعداً - لقد رحلت - هيا، نحن أيضاً يجب أنْ نذهب».

هتف: «كلا، لا تذهبي - لا ترحلي».

رقّتها جعلتها هادئة. أجابت بصوت مثاليّ في حزنه واستسلامه المكبوحَين.

«كلا، يا عزيزي، كلا. لقد انفلتتْ خيوط حياتي؛ انسابت حولي كخيوط لعاب الشمس[64] الطافية؛ وأنت لم تمد يدك لتُمسك بها وتنسج منها حبلاً بيديك. الآن هناك شخص آخر أمسك بها،

---

٦٤ - لعاب الشمس، أو مخاط الشيطان: غشاء كنسيج العنكبوت يطفو في الهواء حين يصفو الجو. - المترجم

ونسج منها حبل حياتي، ولا أستطيع أنْ أتحرر وأنفلت من جديد - لا أستطيع. لستُ قوية بالقدر الكافي. ثم، أنها نسجت خيطاً آخر طويلاً ومتيناً وجعلته حبلاً لك؛ فهل تحرّرت؟».

«أخبريني ماذا أفعل - نعم، إذا أخبرتني».

«لا استطيع أنْ أخبرك - لذلك دعني أذهب».

ناشدها، برعب ومهانة: «كلا، ليتي، كلا، ليتي؛ لا تذهبي. ماذا سأفعل بحياتي؟ لا أحد سيُحبك مثلي - وماذا سأفعل بحبي لك؟ - أكرهه وأخافه، لا طاقة لدي لتحمّله؟».

التفتت إليه وقبّلته بامتنان. ثم ضمها بين ذراعيه بعناق طويل مشبوب، وفمه على فمها. أخيراً ملّت الأمر إلى درجة أنّها اكتفت بالانتظار بين ذراعيه ريثما يمل عناقها. وكان أصلاً يرتعش.

تمتمت لنفسها بضجر، وقد أضحت أحاسيسها مُبهمة: «مسكينة ميغ!».

أجفل، وتراخى ضغط ذراعيه. أفلتت يديه عنها، ونهضت شبه مذهولة من جلوسها بجواره. غادرته، ولا يزال جالساً مغموماً، لا يُبدي أي اعتراض.

×××

عندما خرجت أبحث عنهما، وكان الشاي ينتظر على الطاولة منذ نصف ساعة أو أكثر، وجدته متكئاً على دعامة البوابة عند أسفل التل. كان وجهه خالياً من الدم، وسُمرة وجهه شاحبة؛ بدا مُضنى كأنه كان مريضاً منذ بضعة أسابيع.

قلت: «ما الأمر؟ أين ليتي؟».

أجاب: «ذهبت إلى المنزل»، وجعله رنين صوته ومعنى كلماته يترنح.

سألته مذعوراً: «لماذا؟».

نظر إليّ وكأنه يقول: «عمَّ تتحدث؟ إنني لا أُصغي!».

ألححت: «لِماذا؟».

أجاب: «لا أعلم».

قلت: «إنهم ينتظرون وصولك ليشربوا الشاي».

سمعني، لكنه لم يأبه.

كررت: «هيا بنا، هناك ميغ والجميع ينتظرون الشاي من أجلك».

قال: «لا أريد أياً منهم».

انتظر دقيقة أو اثنتين. لقد كان شديد المرض.

«Vae meum

Fervens difficile bile tument jecur»

قلت هذا لنفسي.

عندما مرت نوبة المرض، نصب قامته مبتعداً عن الدعامة، مرتعشاً، مكتئباً. تراخى جفناه بحركة ثقيلة فوق عينيه، ونظر إليّ، ورسم ابتسامة واهنة، سقيمة.

قــال: «تعال واستلق على الأريكة، وسوف أخبرهم بأنك مُصاب بنوبة اكتئاب».

أطاعني، بعد أنْ خلا وفاضه من الطاقة على الاستفهام؛ لقد نفدت طاقتــه، وقوته الجسدية تقلّصتْ؛ ومشى بوهن. أشحت بوجهي عنه، لأنه وهو في حالة ضعفه بدأ تواً يشعر بأنه مُضحك.

دخلنــا الحظــيرة دون أنْ يُلاحظنا أحد، وراقبتــه يرتقي السلَّم إلى العليّة. ثم ولجتُ إلى الداخل لأخبرهم.

أخبرتهــم أنَّ ليتي كانت قد وعدت بأنْ تكون في هايكلوز لشرب الشاي، وأنَّ جورج أُصيــب بنوبة اكتئاب، وأنه يسترخي في الحظيرة إلى أنْ تنقضــي؛ وأنــه مريضــ جــداً. شربنــا الشــاي دون حماس أو استمتاع. كانت ميغ حزينة ومنزعجة ؛

قالــت الأم: «أنــا لا أفهم، إنه نادراً ما يمرضــ – في الواقع، إنه لم يمرض يوماً! أواثق، يا سيريل، من أنه ليس أمراً خطيراً؟ يبدو أنه كذلك – وبالضبط في الوقت الذي تصادف وجود ميغ – بالضبط في وقت زيارة ميغ –!».

عند حــوالي الساعة السادسة والنصف اضطــررتُ من جديد إلى أنْ أعــرّج عليه، لأرضي فضوله بشأن الأم وحبيبته. دخلتُ وأنا أُصفِّر لكــي يعلم أننــي قادم. كان متمــدداً على كومة مــن القش في إحدى الزوايا، نائماً، وقد وضع قلنسوته تحت رأسه لكي يتفادى وخز القش، وكان شبــه مُلتف حول نفسه، ومستغرقاً في نومه. كان لا يزال شديد

شحـوب الوجه، وقد ارتسمت عليه الاستكانـة والشفقة اللتان دائماً يُخلفهمـا الحزن. ولما لم يكن يرتدي معطفـاً خشيتُ أنْ يكون شاعراً بالـبرد، فغطيته بكيسَين، وتركته. لم أرغـب في إزعاجه - وساعدتُ الوالد في العناية بزرائب البقر، وبالخنازير.

اضطرت ميغ إلى المغادرة في السابعة والنصف. كانت مُحبطة جداً حتى أنني قلت:

«تعالي والقي نظرة عليه - سوف أُخبره بأنكِ فعلت».

كان قـد أزاح الكيسَين، ونشر أطرافه. بدا من جديد، وهو متمدد على ظهره، ناثراً القش حوله، ضخماً، وبكامل رجولته. كان فمه قد تراخى، واتّخذ خطوطه المرتاحة القديمة. أصبح المرء يتعاطف معه الآن بالـدفء الذي يشعر به اتجاه أي شخصـ نائم في وضعية الاستسلام. مالت عليه، ونظـرتْ إليه مع قدر من نشوة الحب والحنان؛ لقد تاقت إليـه مداعبته. ثم تمطّـى، وفتح عينيـه. أثارتها الطريقـة المفاجئة التي فتحهمـا بها. رسم ابتسامـة ناعسة، وتمتم: «مرحبا، ميـغ!» ثم رأيته يقظاً. وعندما تذكّر، أشاح بوجهه من جديد ودفنه وهو يتثاءب واسعاً مع تأوه، ولزم السكون.

همستُ: «هيا بنا، يا ميغ، يُستحسن أنْ ينام».

قالـت، وهـي تتناول الكيسـ وتضعه برفـق شديد علـى كتفيه: «يُستحسن أنْ نغطيه». لزم السكون التامّ، بينما جذبتها إلى الخارج.

الفصل الثامن

قصيدة عن الصداقة

نُكِثَ وعد حلول فصل الربيع الرائع قبل أنْ يكتمل تفتُّح زهر شهر أيار. فطوال ذلك الشهر المحبوب ظلت الريح تهبّ علينا من الشمال والشمال الشرقي، جالبة المطر العنيف والغزير. وارتعشت الأشجار ببراعمها الرقيقة وأنّتْ؛ وعندما أضحت الريح جافة، رفرفت الأوراق الغضّة بترهُّل. وأصبح العشب والذرة كثيفة الأوراق، لكنَّ الضوء الذي يشع من الهندباء البرية انطفأ تماماً، وبدا أنه مضى وقت طويل منذ أنْ مرحنا أمام الوهج العريض لتلك الأزهار. تلكأت أزهار الجريس وتلكأت: كانت قد حفّت بالحقول على مدى أسابيع كشراشيب الحِداد القرمزية. تفتح المنثور البري لكي يتدلى ثقيلاً من المطر؛ وبقيت براعم الزعرور البري متماسكة وقاسية كاللآلئ، تتقلص لتُصبح النبات الأخضر الرائع؛ وكان أذن الفأر، مخلوقات الغابة المسكينة، عشباً بائساً. وغالباً في آخر النهار، تنكشف السماء، وتتشبث الغيوم المهيبة فوق الأفق نائية إلى الأبد، تتوهج، عبر المدى الأصفر، برونق كهرمانيّ. لم تكن تقترب أبداً، بل دائماً تبقى نائية،

تنظر بهدوء وفخامة إلى الأرض المرتعشة، ثم تحزن، مخافة أنْ يعتم إشعاعها، فتبتعد، وتغيب عن الأنظار. أحياناً، مع اقتراب الغروب، يمتد حاجز عظيم قاتم من الغرب إلى السمت، مشوشاً الضوء على حوافه. ومع ارتفاع قبة السماء أكثر، ينكسر، يتبعثر، وتتلون السماء بلون وردي، شامخة وشاحبة فوق القمر المتلألئ. ثم تتكوم قطعان الماشية بين نبات الجولق، يوجعها البرد، بينما طيور الشنقب بمناقيرها الطويلة تحوم مرفرفة عالياً فوق الرؤوس، تحوم وتحوم بدوار واسعة، وكأنها تحمل أفعى من نحرها، وتحكي صارخة مأساة، أشدّ إيلاماً من الأنين والاحتجاج المؤثّر لطيور أبي الطيط. بعد تلك الأمسيات كانت تأتي أوقات صباح باردة وكئيبة.

في أحد أوقات الصباح تلك صعدتُ إلى جورج، في الأرض المُراحة العليا. كان والده في الخارج مع الحليب - كان وحده؛ وعندما وصلتُ إلى قمة التل رأيته واقفاً في العربة ينثر السماد الطبيعي على الحقول الحمراء الجرداء؛ كدتُ أسمع صوته يُنادي بين الفينة والأخرى الفرسة، وخرير الجدول وقعقعة العربة وهي تتقدم. كانت طيور الزرزور والذُّعرة تركض بخفّة عبر كتل التربة، وكالبرق مرّت العديد من الطيور الصغيرة، ورفرفت، وقفزت هنا وهناك. ودرَج أبو الطيط وصرخ كعهده دائماً بين الغيوم المنخفضة والأرض، وبعضها ركض بجمال بين الأخاديد، فائقة الجمال ومتلألئة بصورة لا تتلاءم مع الحقل الخشن.

تناولتُ مذراة ونثرت السماد على طول الحُفر، وهكذا كنا نعمل، يفصل بيننا حقل واسع، لكننا شديدو القُرب بالمعنى الحميم للكلمة.

راقبتــه من بين طيور أبي الطيط العابــرة بسرعة، بينما الغيوم المنخفضة تمــر خلسة من فــوق الرؤوس. وتحتنــا، كانت أبــراج شجر الحور في الأيكــة بلون ذهبــي دافئ، وكأنَّ الــدم يشعّ من خلالهــا. وأبعد منها لمعت المياه الفضية، وتحتها كانت الأسقف الحمراء. كان وادي نذرمير شبــه مُستتر، ونائياً. لم يكــن هناك في هذا العــالم الكئيب، الموحش، غــير طيور ابي الطيــط تتمايل وتصــرخ، وجورج يتمايــل في صمت وهــو يعمل. جذبت حركة الحياة النشطة انتباهي كله، وعندما رفعت بصري فذلــك لكي أرى حركة أعضائه ورأســه، وارتفاع وانخفاض جسمه المنتظم، وحركة ارتفاع وانخفاض طيور أبي الطيط المتماوجة البطيئة. وبعد قليــل، عندما فرغت العربة، تناول مذراة واقترب مني، وأنا أعمل على أداء مهمتي.

بــدأتْ تُمطِــر، لذلك جلب كيساً من العربــة، وانضممنا معاً تحت السياج الكثيف. جلسنا متلاصقين وراقبنا المطر يسقط كستار رمادي مُخطَــط أمامنا، حاجبــاً الوادي؛ راقبناه يسيل بمســارات قاتمة عن ظهر الفرسة، وهي واقفة موهنة العزيمة؛ أصغينا إلى هسيس القطرات تسقط في كل مــكان حولنا؛ شعرنا ببرودة المطــر، والتصقنا معاً في صمت. دخّــن هو غليونه، وأشعلتُ أنا سيجــارة. واستمر هطول المطر؛ لمعت الحصى الصغــيرة والتربة الحمراء وسط الظلام الكئيــب. جلسنا معاً، نتحــدث بين حــين وآخــر. وكأنَّ تلك الأوقــات شكّلــتْ الارتباط المشبوب الذي زال ببطء خلال السنوات اللاحقة.

عندمــا توقف هطــول المطر، ملأنا دلاءنا بالبطاطــا، ومضينا على طول الأخاديد الرطبة، نغرز الدرنات النابتة في التربة الباردة. ولما كان

الحقـل رمليّ القوام فإنه سريع الجفـاف. وعند حوالي منتصف النهار، بعـد غرز البطاطـا كلها تقريباً، غـادرني، ثم جلب بسوب من جانب السيـاج الأبعد، وشدَّ الفرسة وهو إلى المتن، لكي يُغطي البطاطا. قلبَ المحـراث الخفيف والحـادّ التربة وحولهـا إلى أخاديـد متساوية فوق البطاطا؛ ورفرف حشد من الطيور الصغيرة، واستقرّ، وقفز من جديد خلـف المحراث. نادى علـى الحصانين، فهبطا أسفـل التلّ، والنجوم البيضـاء فـوق أنفيهمـا البُنيين يومئـان إلى أعلـى وإلى أسفل، ومشى جورج بخُطى ثقيلـة وثابتة خلفهما. جاؤوا نحوي؛ وبهتاف استدار الحصانـان، متحولين بحركة خرقـاء جانباً؛ رمى بنفسـه بقوة خلف المحـراث، وضغط عليه، وأداره بحركة سريعة؛ وفي الحال بدا يرتقيان التـل من جديد. عندما انسابت الطيور خلفه وتبعت الأخدود الجديد تعالى صـوت رفيف عظيم. وبعد أنْ تمت تغطيـة الصفوف كلها فكّ الحصانين وتبعناهما على سفح التل الرطب لتناول وجبة العشاء.

اقتحمتُ طريقي خلال العشب المُخضّل بالماء، ساحقاً زهر الربيع العطـري تحت ثقل خطواتـي، متجنباً زهر السحلبيـة القرمزي القزم بسبـب التنشئة الخشنة، لكنه رائع في ألوانـه الساطعة، ساحقاً حُرف الماء الشاحب،، والمنثور البري المُرهق. ثم وعيت لوجود شيء بالقرب مـن قدمي، شيء صغير وداكن، يتحـرك بغموض. وعثرت من جديد على عش القبّرتين. ميّزتُ المناقـير الصفراء، ورموش العيون الجاحظة للقُبّرتـين الصغيرتـين، والخطـوط الزرقـاء لريش الأجنحـة. الحركة الغامضـة كانـت للارتفـاع والانخفاض السريعين للظهريـن البُنيين المكسوين بالزغب، اللذيـن تموجت عليهما جدائل طويلة من الزغب الدقيـق. انضمّ الطائـران الصغيران جداً معاً جنبـاً إلى جنب، ومنقاراً

إلى منقـار، وجسداهمـا المنمنمـان يرتفعان وينخفضـان في انسجام سريـع. وأنزلتُ أصابعي برفق لألمسهما؛ كانا دافئين؛ فسُررتُ لمعرفتي أنهمـا كذلك، وسط كل ذلـك البرد والرطوبـة. وانهمكتُ بفضول بأمرهمـا، عندما حرّكت دوامة الريح جدائـل الزغب. وعندما تحرك أحد الفرخين باضطراب، ناقلاً كتلته الناعمة، فرحتُ كثيراً؛ لكنه عاد فاستكان من جديد، ورأسه قريب من رأس أخيه. في أعماق قلبي تقت إلى وجـود مَنْ أستكين إليه، شخص يحول بيني وبين الحزن والرطوبة السائدة. وحسدتُ القبرتـين الصغيرتين المُعرَّضتين للوطء، ومع ذلك خيّـم عليهما السكينـة. وكأنَّني كنتُ أتجول طـوال حياتي، بحثاً عن شـيء عثرا همـا عليه حتى قبـل أنْ يقتحـم النور عليهمـا قوقعتهما. شعرت بالبرد؛ بدا الليلك في حديقة مزرعة ميل أزرق وميتاً. ركضتُ بقبقابـي الثقيـل وقلبي المُثقـل بالاشتياق المُبهـم، إلى أسفل نحو ميل، بينما جعلت الريـح القيقب الدلبي شاحباً، ودفعـت أشجار الصنوبر النكد بفظاظـة، ذلك أنَّها كانت متجهمة لأنَّ ملايين الجنيات البيضاء لا تستطيع الطـيران بأجنحة مبللة. وأبقت كستنـاء الحصان شموعها البيضـاء مستقيمة بشجاعة في تجويف كل غصـن، على الرغم من أنه لا توجـد شمس تُضيئها. انساب طائر تمّ حزيناً بارداً عبر صفحة الماء، يجر وراءه قائمتيه السوداويسن، يُطقطقُ جناحيه الأجوفين العظيمين، هازاً دجاجات المـاء الخائفة، ومُهيناً الإوز الرصـين ذا العنق الأسود. ماذا كان غرضي من انتقالي هكذا من شيء إلى آخر؟

xxx

في نهايـة شهر حزيران عاد الطقـس صافياً من جديد. كان مُقرراً

أنْ يبـدأ موسم حصاد التبن حالما يستقـر. وهذا العام لم يكن هناك إلا حقلان يجب حصدهما، من أجل تزويدنا بما يكفي حتى فصل الربيع. ولما كانت عطلتي قد بدأتْ قررتُ أنْ أمدّ يد المُساعدة، فنحن الثلاثة، الأب، وجورج وأنا، سوف نحصد التبن من دون استئجار يد عاملة.

في صبـاح أول يـوم استيقظـتُ باكـراً جداً، حتى قبـل أنْ ترتفع الشمـس. كان في الإمـكان سماع صيـاح الديكة المتحـدي بصفاء على طول الـوادي. في الأعماق، فوق المياه وفـوق العشب المُخضّل بالرطوبـة، كان ضباب الليـل لا يزال راكداً أبيضـ ومتماسكاً. لدى مـروري على طول حافة المرج كان جزر الأبقـار الأبيض قد نما حتى بلـغ طولي، يعلـو حتى قمة السيـاج، جاعلاً الزعرور الـبري يصطبغ بقليـل مـن التورّد. كانت طيـور صغيرة مبكـرة - لم أكن قد سمعت القـبّرة - ترفـرفُ داخلة خارجة مـن وإلى بحر المـرج المُزبد، غائصة تحـت مدّ الأزهـار مندفعة نحو إحـدى الزوايا، ثم خرجـت متهادية من جديـد، مارة بسرعة من أمام مشعـل الحمّاض. تحت زبد الأزهار كانت أجمات البيقية القرمزيـة، والأصفر والحليبي، واللون الوردي المتناثـر لعشبة القمل، ونجـوم المرغريتا الطافية. كان هنـاك حِملٌ من صريمة الجدي على السياجات، حيث الورد الوردي يستيقظ استعداداً لانتشاره الواسع في أرجاء النهار.

لـوَّن الصباح صفوف الجزازات في المـرج النائي باللون الفضي، وانساب بمنحنيات ناعمة، براقة حول حجرة الجدول؛ وتغلغل الصباح في شرايينـي، وتسابق الصباح مع السمـك الفضي، المندفع بسرعة من الأعماق، وأنا، الذي شاهده، فرقعت أصابعي له، وجعلته يتراجع.

سمعت تريب ينبح، فهرعت في اتجاه البركة. كان القارب[٦٥] عند الجزيرة، حيث تمكنت من خلف الأكمات أنْ أسمع جورج يُصفّر. ناديت عليه، فاقترب من حافة المياة نصف عار.

هتف: «أحضِر منشفة، وتعال».

رجعتُ بعد بضع لحظات، فرأيت صاحبي شيرون[٦٦] يُرفرفُ في الهواء البارد. تقدّمنا بدفعة قوية واحدة نحو الجزيرة الصغيرة. أسرعت بخلع ملابسي، لأنه كان مستعداً لنزول الماء، وتريب يقفز في المكان، ينبح بفرح لمظهره الجديد.

قال، ضاحكاً، مُبعِداً الكلب بقدمه العارية مُداعباً: «إنه يتساءل ماذا ألَمَّ بي». قفز تريب مبتعداً، ثم قفز متقدماً، ولعقه بلعقات صغيرة كأنه يُداعبه. وبدأ يلعب مع الكلب، وأخذا يتدحرجان على العشب النضر مباشرة، الرجل العاري، الضاحك، العنيف، والكلب المتحمس، الذي أقحم رأسه الضخم على وجه الرجل، يلعقه، وعندما ارتمى مبتعداً، عاد فاندفع إلى الأمام، عاضاً بمزاح الذراعين والصدر العارية. وأخيراً استلقى جورج على ظهره، ضاحكاً يلهث، مُمسكاً تريب من قائمتيه الأماميتين المغروزتين على صدره، بينما أقحمَ الكلب، اللاهث أيضاً، رأسه نحو الأمام لكي يلعق بشكل متقطع نحره، فدفعه إلى الخلف نحو العشب، وأصبح الفم بعيداً. وعندما

---

٦٥ – القارب المقصود هنا هو ذلك النوع الذي يتم دفعه بتثبيت المجداف في قاع النهر ودفعه نحو الخلف ليتقدّم القارب. – المترجم

٦٦ – شيرون: في الأساطير الإغريقية؛ هو الذي ينقل الموتى بقاربه عبر نهر الموت من عالم الأحياء إلى الجحيم. – المترجم

استقرّ الرجل ساكناً هكذا بضع لحظات، واكتفى الكلب بوضع رأسه على عنق سيـده ليرتاح هو أيضاً، هتفتُ، فقفز جورج واقفاً، وغاص في البركة معي، ولحق تريب بنا.

كانـت المياة بـاردة بـردة الثلج، جرّدتنـي برهة مـن أحاسيسي. وعندمـا بـدأتُ أسبح، سرعان مـا أصبحـت المياه منعشـة، ولم أعد أشعـر إلا بشاعريـة الحركة الحيوية. ورأيتُ جـورج يسبح على ظهره ويضحـك لي، وفي الحال أندفع بقوة نحوه. فيختفي الوجه الضاحك عندمـا يغوص ويهرب، وألاحق الرأس القـاتم والعنق المتوردة. ويأتي تريـب، البائس، نحونا مُجذفاً، يُقاطعنـي؛ ثم، في غمرة الإثارة، يندفع نحو الخلـف. أقهقه لنفسي عندما أراه يفر هاربـاً، ثم أغوص متهادياً نحـو جورج. كنتُ أتقـدم. حاول أنْ يُبعِد الكلـب، وأتقدم بسرعة. عندمـا أصـل إليه وأُمسك به مـن كتفيه، يتناهى ضحـكٌ من الضفة. كانت إميلي.

ضربـتُ المياه، ورششتها بحفنة من الـرذاذ. ضحكت واحمرت خجـلاً. ثم خاض تريب المـاء خارجاً إليها فسارعـت إلى الهرب من رذاذه. كان جورج يعوم بجواري مباشرة، ينظر إلى أعلى ويضحك.

وقـف وتبادلنا النظرات وأخذ كل منا يُجفف الآخر. كان متناسق البنيـة، وصاحب وسامة جسدية طبيعيـة، وأعضاء ثقيلة. ضحك لي، قائـلاً: إنني أُشبه أحـد شخصيات أوبري بيردسلـي القبيحة، النحيلة والطويلـة. فأحلته إلى العديد مـن الأمثلة الكلاسيكيـة النحيلة، مُعلناً أنني أفضل بكثير من ضخامته، فتسلّى بكلامي.

ولكن كان ينبغي أنْ أستسلم، وانحنيتُ له باحترام، فاتخذ مظهر المتسامح، الرقيق. ضحكت واستسلمت، لأنه لم يكن يعلم أنني مُعجَب بنبل، وبياض إيناع شكله. وبينما كنتُ أراقبه، وقف بارتياح أبيض أمام كتلة من الخضرة. أخذ يصقل ذراعه، ماداً إياها باستقامة وصلابة؛ دعك شَعره حتى أضحى مجعداً، بينما كنتُ أراقب عضلات صدره الضخمة، والأطواق بارزة في عنقه وهو يشدّه؛ وتذكرتُ قصة أنابل.

رأى أنني نسيتُ أنْ أتابع الدعك، فأمسك بي وهو يضحك وأخذ يدعكني بخفة، وكأنني طفل، أو بالأحرى، امرأة يحبها ولا يخشاها. واستسلمتُ باسترخاء بين يديه، ولكي يُمسك بي بصورة أفضل، طوّقني بذراعه وضغطني عليه، وكانت عذوبة تلامس جسدينا العاريين فائقة. لقد أشبعت بصورة ما اشتياق روحي المُبهم، الغامض؛ والأمر نفسه بالنسبة إليه. وبعد أنْ انتهى من دعكي حتى أصبحتُ دافئاً، حررني، وتبادلنا النظرات بعيون ملؤها الضحك الساكن، وكان حبنا للحظة مثالياً، بل أكثر مثاليةً من أي حب عرفته حتى ذلك الحين، سواء لرجل أم لامرأة.

مضينا معاً عبر الحقول، هو لكي يجزّ العشب الذي كان قد تركه قائماً على الجزيرة في الليلة السابقة، وأنا لكي أشحذ سكين الآلة، من أجل أنْ أجزّ أسفل السياج بالمنجل، وأُزيل جزازة العشب عن طريق الآلة عندما يُختزَل العشب غير المجزوز إلى شكل ثلاثي الأضلاع. كان العبير البارد والرطب للصباح، والسكون المتعمَّد لكل شيء، للأشجار الباسقة المائلة إلى الزُّرقة، للأزهار المبللة، كاملة التفتُّح،

للعث الواثـق يضم أجنحته وينشرها في الجزازة الساقطة، وسطاً مثالياً للتعاطُف. تقدم الحصانان بوقـار ثابت، مُطيعين أوامره. وعندما شدا عليهمـا عدّتهمـا، وزيّتت الآلة، ظلَّ كارهاً أنْ يُشـوّه الصباح الرائع، لكنه وقف ينظر إلى أسفل الوادي.

قـال: «لن أجزّ هذه الحقول بعد الآن»، وعكست الجزازة الفضيّة الساقطة شعوره بالأسف، والعطر الخفيف لشجر الليمون كان حزيناً. كان مُعظـم الحقل قد جُزَّ، وبقـي الكثير يتطلب الجزّ؛ ثم انتهى الأمر. في هذا العام كانت أزهار البيلسان واسعة الانتشار عالياً فوق السياج. كانت الأزهار نفسها في العشـب كما عرفناها لسنوات عديدة؛ ولن نعرفها بعد الآن.

قال، ناظراً إليّ: «لكنَّ مجرد جزّها يستحق العيش من أجله».

شعرنا بدفء الشمس يتسلل من خلال برودة ضباب الصباح.

قـال: «أترى شجـرة القيقب الدلبـي تلك، تلـك الكثيفة خلف شجـرة الصفصاف الكبـيرة؟ أتذكّر عندما قطع والـدي رحلة الصيد الكبرى لأنه أراد عصـا مُستقيمة جيدة، أتذكّر أنني شعرت بالأسف. كانـت شديدة الاستقامة، عليهـا أوراق جميلة متوازنة – أنت تعرف كيف يبدو القبقب الدلبي الغضّ والقوي بطول تسعة أقدام – لقد بدا ذلك قسـوة. بعد أنْ ترحل، ونغادر من هنا. سوف أشعر هكذا، كأنَّ رحلة صيدي قُطِعَتْ. أترى، لقـد أُفسِدَتْ الشجرة. ومع ذلك كيف استمرت في النمو. اعتقـد أنني سأنمو بوتيرة أسرع. أتذكَّر السويقات الحمراء البراقة للأوراق وهو يكسرها عن الغصن».

ابتسم لي، ثم ارتمى على مقعد الآلة، بعد أنْ اعتنى برأسي الحصانَين. ورفع السكين.

قال، مبتسماً لي بشكل غريب: «وداعاً». أقلعت الآلة. وهبط مُستقر السكين، وارتعش العشب وأخذ يتساقط. راقبت رؤوس أزهار الربيع والخطوط الرائعة للعشب المُعمِّر ترتعش، وتهتز أمام المُرقئة القرمزية، وتنقلب. مضت الآلة تغرد على طول الحقل، مُخلّفة أثراً من الخُضرة الملساء، المخملية في طريق عرض الشقة المجزوزة. انتظرَ العشب على جدار العشب غير المجزوز لا يأتي بحركة، كانتظار الأيام لنا. والشمس وقعت أسيرة لهب الحمّاض القرمزي الذي يلعق الأعالي، والفراشات استيقظت، وأصبحتُ أسمع الرنين الصافي لصياحه «ووو!» من الزاوية النائية. ثم عاد، ولم أر إلا آذان الحصانين المهتزة، وبياض كتفيه وهما يقتربان من جدار الأعشاب الباسقة على سفح التل. جلست تحت شجرة درداء، لكي أبرد مقاطع السكين. كان دائماً يُراقب الجزازة الساقطة وهو يقود، وأحياناً فقط يهتف للحصانين كي يلزما الخط. كان صوته هو الذي يرنّ ليوقظ الصباح. وعندما ننهمك في العمل لا يكاد يلاحظ أحدنا الآخر. ومع ذلك قالت أمه:

«إنَّ جورج بارع جداً في عمل الحقل - ولا يهمه مهما طال النهار».

لاحقاً، عندما ارتفعت حرارة النهار، وكفّت صريمة الجدي عن التنفُّس، والروائح العطرة الأخرى كلها تحركت مع الهواء حولنا،

وعندما همد الحقل كله، وعندما شاهدتُ آخر رعشات نشوة الجريس مستديـر الورق، يرتعش قبل أنْ يقـع؛ وعندما غاصت كتلـة البيقية القرمزيـة الكثيفة: وبينما الجـزازة الخضراء تستقر، والجـزازة الفضيّة تلمـع وتتـلألأ مع زحف أشعـة الشمسـ عليها، في حـرارة الصباح اليانـع عملنا معاً على تقليب التبن، برميه فوق جزازة الأمس بالمذراة، وإخراج أزهار الأمس الطرية، المُستترة، إلى موت أشعة الشمس.

عندئـذٍ تحدثنا عـن الماضي، وتأمّلنـا في المستقبـل. وعندما تقدّم النهار أكثر، وأصبح أقلّ حزناً، نسينا كل شيء، وتابعنا العمل، وغنينا، وأحياناً كنتُ أتلو أبيات من الشِعر في أثناء ذلك، وأحياناً أحكي له عن الكتب. كانت الحياة مترعة بالرونق لأجلنا معاً.

الفصل التاسع

نبات عود الصليب وشِعر رعويّ

في موعد العشاء نقل الوالد لنا خبراً مُثيراً يقول إنَّ لزلي سأل إنْ كان في استطاعة بضعة من ضيوفه أنْ يتنزهوا بعد ظهيرة ذلك النهار في حقول قش ستريلي. كانت الأفنية غاية في الجمال، والجدول يمر من تحت كل الأشجار الظليلة، ويجري نحو البركة التي تضم جزيرتين خضراوين. وزيادة على ذلك، كانت زوجة مالك الأرض قد ألّفت كتاباً يُصنّف هذه المروج وتخوم الطاحونة بأسلوب رومانسي. وتلهف ضيوف العرس في هليكلوز للتنزه في تلك البقعة الممتازة.

أشرقَ الأب في وجوهنا عبر المائدة، مبتهجاً بوجود حشد مرح. وسأل جورج عن القادمين.

«أوه، ليسوا كُثُراً - حفنة صغيرة - معظمهم سيدات جاؤوا لحضور العرس.

في أول الأمر سبَّ جورج بانفعال؛ ثم بدأ يستحسن الأمر بوصفه نكتة.

عبّرتْ السيدة ساكستون عن أملها في ألا يطلبوا منهم أنْ تمدّهم بكؤوس، لأنها لا تمتلك كوبين متشابهين، وملاعقها ليست من الفضة. وفزح الأطفال فرحاً غامراً، وأرادوا أنْ يعطلوا عن الذهاب إلى المدرسة، فاعترضت إميلي فوراً على ذلك، مما تسبّب في شقاق في صفوف العائلة.

بينما كنا نتجول في الحقل بعد الظهيرة نُقلِّب التبن، كان كلٌّ منا مستغرقاً في أفكاره الخاصة، ولم نتكلَّم. وبين حين وآخر – وعند كل زاوية، كنا نتوقف لننظر إلى الغابة، لنرى إنْ كانوا قادمين.

فجأة هتف جورج، عندما لمح حركة شيء أبيض في الغابة القاتمة، «ها قد وصلوا!». وقفنا ساكنين وراقبنا. كانوا فتاتين، ترتديان الأرجواني والأبيض، ورجلاً مع فتاتين، بملابس خضراء فاتحة وبيضاء، وأخيراً رجلاً مع فتاة.

سألتُ: «أتستطيع التعرُّف عليهم؟».

«الفتاة الأولى ذات الثوب الأبيض هي ميري تمبست، وهذا هو مع ليتي في الخلف، لا أعرف غيرهم».

وقف بسكون تام إلى أنْ غابوا عن الأنظار خلف الضفاف نحو الجداول، ثم غرز مذراته في الأرض قائلاً:

«يمكنك أنْ تنتهي بسهولة – إنْ شئت. سأذهب وأجزّ الزاوية السفلى».

رمـاني بنظـرة سريعة ليرى إنْ كنـتُ أفكر فيه. كنـتُ أفكر في أنه خائـف من مقابلتها، وكنتُ أبتسم بيني وبين نفسي. لعله شعر بالعار، لأنـه توجه بصمت إلى الآلة، وهناك شدّ حزام بنطلون الركوب بحزم حول خصره، وعلّقَ حزام المنجل على كفله. سمعت قرقعة حجر سن المنجل وهـو يشحذ الشَّفرة. ثم انطلق ليجـز الزاوية السفلى البعيدة، حيـث الأرض سبخيّـة، والآلة قـد لا تعمل، لتقضي علـى الحشيش الأخضـر الكثيف، وإكليليّة المروج الباسقة. ذهبتُ إلى البركة لأستقبل الوافديـن الجُدد. انحنيـتُ للوي دنيس، الحسنـاء الممشوقة من النوع الرخـو، ذات الثوب الأنيق من الكتّـان الأرجواني: وانحنيت لأغنس دارسي، الفتاة الذكية، المنتصبة القامة، ذات الشَّعر الأصهب الرائع – لم تكن تعتمر قبعة، وحملت مظلة شمس؛ وانحنيت لهيلدا سيكوند، الفتـاة الهيفاء، المنمنمة، ذات الجمال الراقي والرقيق؛ وانحنيت لميري ولليتي، وصافحـت لزلي وصديقه فريدي كريشويـل. كان مُقرراً أنْ يكـون هذا الأخير الإشبين، كان ذا كتفـين عريضَين، ووجه شاحب، وشعـر ناعم وجميـل كالحنطة الحمراء، وعينـين ضاحكتين وأسلوب مزاجي متشدق في الـكلام، كمَنْ عانى الكثير قبل أنْ يبلغ سن الرشد والرجولـة، لكنه علـى الرغم من كل شيء يبقى صبيـاً، غير مسؤول، ومحبـوب – أمـر مُثير قليـلاً للشفقة. ولمـا كان الجو شديـد الحرارة، ارتـدى الرجلان ملابس خفيفة، ووضعا ياقة مـن الكتّان، ومع ذلك كان جلياً أنهما دقيقان في ارتداء ملابسهما. وحاولت غريزياً أنْ أشدّ بنطلوني لكي أُحسِّن مـن مظهري عند منطقة الحزام، وأحسستُ بأنَّ الأب شعر بالنقص، وهو الضخم والمتين، لأنَّ كتفيه مُستديران بسبب العمل، وبنطلونه مُشوّه كثيراً.

قالـت ميري «مـاذا يمكن أنْ نفعـل؟ أنتم تعلمون أننـا لا نريد أنْ نشـكّل عائقـاً، نحن نريـد أنْ نساعدكم. إنه لطف ضـاف منكم أنْ تسمحوا لنا بالقدوم».

ضحـك الأب بتساهلـه الرائـع، قائـلاً لهم - وقـد أحبوه لرنين الضحك الرطيب في صوته:

«هيـا بنـا، إذن - أرى أنَّ هنـاك بعض عمل تقليـب التبن يجب إنجازه، بعد أنْ غادر سيريل. هيا وليحمل كلٌّ مذراة».

مـن بين كومـة المذاري انتقى الأخفّ وزناً منهـا، وبدؤوا لا على التعيـين، فقط يـذرون الجزازة. وبيَّن لهما بعنايـة - أي لميري وللفاتنة الصغـيرة هيلـدا - كيـف تفعلان ذلـك، لكنهما وجدتـا أنَّ الطريقة الصحيحة هـي الطريقة الأصعب، لذلك عملتـا بطريقتهما الخاصة، وضحكتـا من قلبيهما معـه عندما ألقى نكاتاً عابثـة على مسامعهما. كان عاشقاً ممتازاً للفتيات، وأشرقتا من الجُبن تحت تأثيره الطاغي.

تشـدق كريشويل، الذي كان قد حصل تواً على شهادة الماجستير في الآداب الكلاسيكيـة، قائـلاً: «هـذا الشيء المنتفـخ جاف جداً - تعالوا نتقلّب عليه».

جمـع كتلة من التبن، استولـت عليها لوي دنيسـ بعناية، بعد أنْ رتّبت ثوبهـا الجميل أولاً، الذي كان ضيقاً على مقاس جسمها، وبلا أي حـزام أو شـيء يعترضه، ومن ثـم وضعت ذراعيهـا، المشغولتين حتـى الكتف بمخرمات مفتوحة، وارتاحـت عليها بجمال. جلست

ليتي، التي كانــت بدورها ترتدي ثوباً أبيض على مقاس جسمها أبرز تقاطيعــه حتى الوركين، في المكان الــذي أعدَّه لزلي لها، وقبلت المس دارسي كتلتي على مضض.

لوى كريسويل فمه حسن التكوين ليُشكل ابتسامة صغيرة، قائلاً:

«يــا إلهي، يا له مــن مشهد رعوي صغير يُديــر الرؤوس - يصلح للعجوز ثيوكريتوس(٦٧)، أليس كذلك، يا مس دنيس؟».

«لماذا تحدثني عن أولئك الأشخاص الكلاسيكيين - إنني لا أجرؤ حتى على نطق أسمائهم. ماذا كان سيقول عنا؟».

ضحك، غامزاً بعينيه الزرقاوَين:

«كان سيجعــل دافني العزيزة هنــاك» - مُشيراً إلى لزلي- «تتبارى في الغنــاء معي، أنا داموبتاســ - نتنافس في مواهب رعياتنا المتنوعة - فلنبدأ بدافنــي، غني من أجل أماريليس(٦٨)، أعني نيس، اللعنة عليهم، لطالما اختلطت أسماؤهم بأسماء الحوريات».

قالت المس دنيس، وهي تميل وتربت على رأسه بقفازها الحريري، «أنا أقول، يا مستر كريسويل، انتبه إلى لغتك! فكِّر في مَن تسب».

---

٦٧ - ثيوكريتوس (٣١٠؟ - ٢٥٠؟ ق.م): شاعر إغريقي، ولد في سيراكروز. كان أول مَنْ ألَّف قصائد رعوية في الأدب الإغريقي وقلَّده فرجيل حرفياً. - المترجم.

٦٨ - أماريليســ: الاســم الذي يُطلــق على الفتــاة الريفية في الأشعــار الرعوية. - المترجم.

أجـاب، ممسكاً بطرف ثوبها ومائلاً إلى الخلف عليه، وناظراً إليها وهي تميل فوقه: «يمكــن أنْ تقولي أي شيء مُستهتر في قصيدة رعوية. قــولي شيئاً، يا دافنى، عن العسل أو الجـبن الأبيض - أو عن أول ثمار التفاح التي تنضج في غضون أسبوع».

قاطعتــه المس دنيس: «أنا واثقة مــن أنَّ التفاح الذي أريتني صغير جداً وأخضر؛ ولن ينضج في غضون أسبوع - تفوه، إنه حامض!».

ابتسم لها بطريقته المزاجية:

«أتسمــع هذا، يا ثمبست - «تفوه، إنــه حامض!»- ليس الكثير! أوه، شاركنــا، ألم تحصــل على بداية بعد؟ - أليســ هناك ما نغني عنه، أيها الولد ذو الوجه المتبلّد؟».

«أريد أنْ أسمعك أولاً - أنا لستُ خبيراً في العسل والجبن».

«وتفاحات صغيرة لعينة - يحتاج الأمر إلى امرأة لتُعطي حكمها، أليس كذلك، مس دنيس؟».

قالــت: «لا أعلم»، وهي تداعــب شَعره وتُبعده عن جبينه، ويدها التي تحمل الخواتم تتلألأ.

«««حبي ليســ أبيض، شعـري ليس أصفر، كالعســل يقطر خلال أشعــة الشمســ - حبي لونه بنــيّ، وعذب، وجاهــز لشفتيّ الحب»»، تابــع، ثمبست - ابدأ، يا راعــي البقر العجوز. مَنْ هو ذاك الذي يعبث بغليونــه؟ - أوه، إنَّ ذلك الرجل يشحذ منجلــه! إنَّ مجرد النظر إليهم وهم يعملون يكفي لجعل ظهرك يتألَّم - فليذهب أحدكم ويوقفه».

قالت مس دارسي: «نعم، هيا بنا نُحضره. أنا واثقة من أنه لا يعرف في أية حالة رعوية سعيدة هو - هيا بنا نذهب ونُحضره».

قالت ليتي وهي تخشى أنْ تحضره: «إنهم لا يحبون الذين يُعيقون عملهم، يا أغنس - ثم، إنَّ الجهّال في نعيم». ترددت الأخرى، ثم، دعتني بعينيها إلى مُرافقتها.

ضحكتْ، مع تقطيب جبينها، «أوه، يا إلهي، إنَّ فريدي حمار، ولوي دنيس أشبه بدبور فوق الدبس. أردتُ أنْ أضحك، لكنني شعرتُ بقدر ضئيل جداً من الغضب. ألا تشعر بالآهمية وأنت تقوم بالجز هكذا؟ كشعور الأب تايمي[٦٩]؟ هلا ذهبنا ونظرنا! سوف نقول إننا نريد أزهار القمعيّة الأرجوانية التي يجزها مباشرة. وأزهار الجريس. أعتقد أنك لست في حاجة إلى متابعة كدّك-».

لم يكن يعلم أننا نقترب إلى أنْ ناديته، ثم أجفل قليلاً حين رأى الفتلة المشوقة، الفخور بنفسها.

قلت: «هذا السيد ساكستون - هذه مس دارسي»، وتصافحا. وفي الحال أصبح سلوكه ساخراً، لأنه وجد أنَّ يده كبيرة وخشنة وملتهبة من عصا المنجل وهي تقبض على يد السيدة.

قالت له: «لقد خمّنا أنك شديد الوسامة، والرجال يشعرون

---

٦٩ - الأب تايم: شخصية أسطورية يظهر بشكل رجل عجوز طويل اللحية ويحمل بإحدى يديه منجلاً وباليد الأخرى ساعة رملية. وهو يمثل اتجاه الزمن الأحادي إلى الأمام. - المترجم

بالحرج عندما يُغازلون شخصاً آخر – أليس كذلك؟ من فضلك ادّخر لنا أزهار القمعيــة الأرجوانية – إنها رائعة – كجنود همجيين حُشِروا في الزاويــة – لا تقطعها من الجذور – وأزهــار الكامبانولا تلك – أو الجريسـ، آه، نعم! إنها تنســج أشعاراً رعوية هناك فــوق. أنا لا اهتم بالشِّعر الرعوي، وأنت؟ أوه، أنت لا تعلم أي شخص ريفيّ كلاسيكي أنــت – ولكن هذا رأيــي، أنا لا أعتقد أنك تعــاني من حب رعوي – «وضحكــت،» – إنَّ المرء لا يــرى الإله الصغير السخيف الذي يحوم في حقولنا، أليس كذلك؟ هل يتوفر لك ما يكفي من الوقت لتلهو مع أماريليســ في الظل؟ – أنا واثقة من أنَّ من العار أنْ يطردوا فيليس من الحقول –».

ضحــك وتابع عمله ، ابتسمت قليلاً، أيضــاً، معتقدة أنها تركت فيه تأثيراً عميقاً. فمدت يدها بإيماء مسرحي، ونظرتْ إليّ، بينما المنجل يقضم إكليليّة المروج.

هتفت: «اقضم! – أليس شيئاً رائعاً! أشبه بالقدر المحتوم – أعتقد أنه رائع!».

تجولنا نقطــف الزهور ونتحدث إلى أنْ حان موعد شرب الشاي. جاء خــادم مع سلّــة الشــاي، ومدت الفتيــات المفرش تحــت شجرة صفصاف كبيرة. أخذت ليتي الإبريق الفضي الصغير، وذهبت لتملأه من النبع الصغير الذي يسيل في جرن حجري تُجمّله زهور إبرة الراعي والنجمية تتدلى فوقه، بينما أوراق عشب طويلة تتموج في الماء. اقترب جورج، الذي كان قد انتهى من أداء عمله، وأراد أنْ يذهب إلى المنزل

ليشرب الشاي، من النبع حيث جلستْ ليتي تعبث بالماء، وتملأ فنجاناً لتصبــه في الإبريق، وتراقب حركة خنفساء الماء السريعة، وبقع ظلالها الباهتة الكبيرة تندفع بسرعة على الوحل الرخو في قاع الجرن.

ألقت نظرة سريعــة خلفها لدى سماعه قادماً، وابتسمت بعصبية: كانا معاً خائفين من الالتقاء من جديد.

قال: «لقد حان موعد شرب الشاي».

«نعــم - سيكــون جاهزاً في الحال - إنَّ هذا ليســ من أجل صنع الشاي - إنه فقط من أجل التزود بالماء الحار».

قال: «أوه، سأذهب إلى المنزل - أُفضّل هذا».

أجابــت: «كلا، لا تستطيع، لأننـا كلنا معاً سنشرب الشاي: لدي بعضــ الفاكهة للتعويض، لأنني أعلـم أنكَ لا تهتم بالشاي - ووالدك قادم».

أجــاب بغضب: «ولكن لا يمكــن أنْ أشرب الشاي مع كل أولئك القوم - لا أريد - انظري إليّ!».

ومدَّ يديه البربريتين، الملتهبتين.

أجفلت وقالت:

«لا يهم - سوف تُضفي اللمسة الواقعية».

ضحك بسخرية.

أصرّت: «كلا – يجب أنْ تأتي».

قال، مُستسلماً: «إذن سأشرب جرعة ماء، إذا سمحت».

نهضت واقفة بسرعة وقد احمرّت خجلاً، وقدّمت له الفنجان الصغير الجميل.

قالت: «أنا في غاية الأسف».

تمتم «لا داعي»، واستدار عن الفنجان المعروض عليه ومال على امتداد طوله، ووضع فمه على الماء، وشرب بنهم. وقفتْ وراقبت حركته وهو يشرب، وتنفّسه العميق بعد ذلك. نهضَ، ماسحاً فمه، دون أنْ ينظر إليها. ثم غسل يديه في قاع الجرن، مُخرِجاً ملء يد من الطمي، تتلوى فيه أسماك القريديس. رمى بالطمي على الأرض حيث أخذت المخلوقات الرمادية المسكينة تتلوى.

قال: «يحتاج إلى الاغتسال».

أجابت وهي ترتعش: «نعم»، ثم أضافت: «لن تتأخّر»، وهي ترفع الإبريق الفضي.

خلال بضع لحظات نهضَ واقفاً وتبعها على مضض. كان متوتراً وغاضباً.

كانت الفتيات جالسات على بساط من التبن، والرجال يميلون

ويعتنـون بهن، والخادم يقـوم على خدمـة الجميع. جلس جورج بين ليتـي وهيلـدا. الأولى ناولته نصيبـه الضئيل من الشـاي، ولما لم يكن شديـد العطش وضعه على الأرض إلى جواره. ثم ناولته الخبز والزبد، قطعـة من أجل شاي الساعة الخامسة، وفاكهة، عنب وخوخ، وفريز، علـى صينية من خشب السنديان المحفور بشكل جميل. راقبت برهة أصابعه الثخينـة، نصف المغسولة وهي تتلمـس الفاكهة، ثم أشاحت برأسها عنه. ظلت طوال فترة شرب الشاي المرحة، عندما يقبق الكلام وأزبد فوق الأكواب، تتفاداه بعينيها. ومع ذلك ظلت مراراً وتكراراً، كلمـا قـال أحدهم: «أنا آسف، سيد ساكستـون – هل لك أنْ تتذوق قطعـة من الكعك؟»- أو « أنظـر سيد ساكستون – تذوق هذه الثمرة مـن الخوخ. أنا واثق من أنها ناضجة حتى البذرة»- متكلمين بصورة طبيعية جـداً، ولكن مع المحافظة على التمييـز بينه وبين باقي الرجال بتسامحهـم معـه، كانت ليتي تُضطـر إلى إلقاء نظرة عليـه وهو جالس يـأكل، مُجيباً بعبـارات مُقتضبة، ضاحكاً بتحفُّـظ وارتباك، والغضب معقـودٌ بين حاجبيها. وعلى الرغم من أنها حافظت على طابع العبث المـرح في الحديـث، إلا أنَّ الجميع شعـر بالتنافُر، و لم نتلـكأ كما كان ينبغي أنْ نفعـل في شرب الفناجين. بعد ذلك قالوا: «لقد كان جورج في الحفلـة مُفسـداً للبهجـة» . وانزعجـت ليتي منه كثـيراً. لقد كان حضوره لا يُحتَمَل بالنسبة إليها. وتمنت لو أنه كان على بُعد ألف ميل. فقد جلس يُصغي إلى تعلّقه المزاجي بالسوقية الموشّى بالخيال وضحك بتكلُّف.

كان أول مَنْ نهض، قائلاً إنه يجب أنْ يُعد الأبقار للحلب.

قالــت هيلدا، وقسمــات وجهها الرقيقة، المُرهفــة، تحمر، بسبب خجلهــا الشديد: «أوه، فلنذهب – لنذهب. هــل لنا أنْ نأتي ونتفرج كيف تُحلب الأبقار؟».

تشدق فريدي قائلاً: «كلا، إنَّ رائحة لحم البقر الحي الكريهة تضر بالصحة. وقد أعذر مَنْ أنذر».

قالــت لوي دنيس، مبتسمة بمكر، مــع شيء من السخرية: «لطالما كرهت الأبقار، ما عدا ماشية الأعــالي الصغيرة والجميلة، فهي غزيرة الصوف، كما نراها في الصور».

ضحكــت أغنــس دارســي، «كلا، إنهــا – إنَّ رائحتها كريهة»– وزمّــت فمهــا، وانتهــت بسلسلــة قصيرة مــن الضحــك المُستنكر، كعادتها دائماً. وأخــذت هيلدا تنظر من شخص إلى آخر، وقد تضرج وجهها من الخجل.

قــال لزلي بابتهاج: «هيا بنا، ليتي. أعلم أنك مولعة بالمزارع – هيا بنا»، وتبعوا جورج.

لدى سيرهم على طول ضفة البركة شاهدوا أنَّ طائر تمّ مع فراخها الزغبيــين الشُمــر المُصفرين يواكبونها على طــول صفحة المياه، وكما قالت ميري: «تلك المخلوقــات الظريفة تضرب برفق بأصابع أطرافها الصغيرة – بيتر–باتر في الماء، تلك الأشياء الصغيرة المُنمنمة».

سمعنــا جــورج في الأسفل يهتف «بولي – بــولي – بولي – بولي! – ثــم، بعد لحظة أو اثنتين، ومن أسفــل الحديقة: اخرج، أيها أحمق الصغير – ألن تخرج؟» بنبرة صوت غاضبة بوضوح.

ضحكت هيلدا، مبتهجة «هل هرب؟»، وهرعنا إلى الخروج من الحديقة السفلى لنتفرج.

هناك في الظل الأخضر، بين شجيرات الكشمش الباسقة ارتفعت أزهار عود الصليب القرمزي الثقيلة بفخامة على طول الممر. وغاصت الكريات الحمراء الكاملة، المتوازنة والمائلة بطريقة حسيّة، بثقلها القرمزي نحو العشب الذي يحمل بذوراً في الممر، يجذبها مطر سريّ، وروعتها. كان الممر ممتلئاً ببتلات حريرية لونها أحمر قان. والورود الكبيرة تؤرجحُ لونها القرمزي بعظمة حول الطريق، كحشود من الكرادلة في موكب مهيب بين الشجيرات الخضراء. دخلنا فجأة عالم البهجة الجديد. بينما ليتي تميل لتضم بكلتيّ يديها الامتلاء الحريري الرائع لإحدى الزهرات المتفتحة والغائصة نحو التربة، جاء جورج على الدرب، وعجل ثور بنيّ اللون يسير خلفه بخُطى متفرشخة، وعنقه ممدود إلى الأمام، يرضع بنهم إصبعه الأوسط.

تسببت له أوضاع الفتيات اللاواعية، وهن منحنيات مفتونات فوق أزهار عود الصليب، في وخز مفاجئ مؤلم. ومع اقترابه، والعجل يمشي متذمراً خلفه، قال:

«هناك عرض رائع لأزهار باينوك هذا العام، أليس كذلك؟».

صاحت هيلدا، مُديرةً نحوه وجهها الفاتن، العذب، الطافح بالاهتمام: «ماذا تسميها؟».

أجاب: «باينوك».

ظلت ليتي جالسة القرفصاء وتحمل بين يديها زهرة حمراء، تلقي نظرات جانبية مختلسة إلى العجل، الذي كان بخطمه اللامع الشامخ يمضغ بلثّته اللزجة الإصبع المُغري. كان يرضع بنهم، ولكن دون فائدة، وبدا أنه ينظر بعين مضطربة إلى الداخل ليرى إنْ كان حقاً يستمد أي استمتاع - مرتاباً ولكن ليس يائساً. وضحكت ميري، وهيلدا ولزلي. بينما كان هو، بعد أنْ نظر إلى ليتي وهي مقرفصة، حزينة، في اعتقاده، فوق الزهرة، يقود الحيوان الصغير إلى خارج الحديقة، ثم أرسله ليجري داخل الفناء مع صفعة على كفله.

ثم عاد، وهو يدعك إصبعه اللزج على بنطلونه. وقف بجوار ليتي، وشعرت أكثر من أنْ ترى الوضوح الشاحب بصورة استثنائية لذلك الإصبع بين الأخرى. ودعكت إصبعها على ثوبها بتعاطُف مؤلم.

هتفت ميري من جديد: «ولكن أليست الأزهار جميلة! أريد أنْ أعانقها».

وافقت هيلدا: «أوه، نعم!».

قالت ليتي، بصوت ساخر، متكلمة جزئياً لحاجتها إلى الكلام، وجزئياً لرغبتها في حماية نفسها، ومع ذلك كانت تعبِّر عما في داخلها: «إنها أشبه بقصة رومانسية - لدانونزيو[٧٠] - قصة رومانسية يعمّها الحزن المشبوب».

---

٧٠ - غابرييل دانونزيو (١٨٦٣ - ١٩٣٨): أمير مونتينيفوزو، كاتب وشاعر، وصحفي وكاتب مسرحي إيطالي. كان يُكنى بالشاعر وبالنبي. ذاع صيته كأديب في أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، التي اشترك فيها كجندي. ينتمي إلى حركة الانحطاط في الأدب في أواخر القرن التاسع عشر، وتأثر بنيتشه وبالرمزية الفرنسية. من رواياته «طفل المتعة»، «الدخيل»، «انتصار الموت».. - المترجم

قلت: «هناك حكاية عنها».

صاحت الفتيات يطلبن سماع الأسطورة.

ناشدتني هيلدا، التي لا تُقاوَم: «أرجوك، احكها لنا».

«إميلي هي التي حكتها لي - تقول إنها أسطورة، ولكن أعتقد أنها مجرد حكاية. تقول إنَّ زهور عود الصليب جلبها من حدائق هول منذ زمن بعيد شخص من هذا المكان - عندما كان طاحونة. كان أسمر البشرة وقوياً، فأحبته ابنة الهول، التي كانت شاحبة الوجه وضعيفة وصغيرة السن. وعندما كان يذهب إلى حدائق الهول لكي يُشذب سياجات شجر الطقسوس، كان تحول حوله بثوبها الأبيض، وتحكي له حكايات عن أيام زمان، بشذرات متفرقة كتغريد طائر الصعو، إلى أنْ ظنَّ أنها جنيّة سحرته. كان يقف ويراقبها، وذات يوم، عندما اقتربت منه وأخذت تحكي له حكاية جعلت الدموع تجري سخيّة من عينيها، أمسك بها وقبّلها واحتفظ بها. وكانا يلتقيان في أيكة أشجار الحور. وكانت تأتي وذراعاها مملوءتان بالزهور، لأنها كانت دائماً تُحافظ على هالتها الخيالية. وفي صباح ذات يوم جاءت باكراً خلال الضباب. وكان هو قد خرج يصطاد. وأرادتْ أنْ تفاجئه كالجنيّة. كانت تحمل باقة من أزهار عود الصليب. وبينما كانت تتحرك خلف الأشجار أطلق النار عليها، خطأً. فتعثّرتْ وغاصت في مكان لقائهما. ووجدها ملقاة بين أزهار البابينوك الحمراء، شاحبة ومتمددة، فظن أنها تتكلم مع الزهور الحمراء، وانتظر. ثم اقترب ومال فوقها، فوجد الأزهار مُلطّخة بالدم. وقد قام بزرع أزهار البابينوك هذه في الحديقة».

اتسعت عيـون الفتيات من الشفقة التي أثارتها الحكاية وأشاحت هيلدا بوجهها وأخفت دموعها.

قالت ليتي، بنبرة صوت منخفضة، وهي تنظر إلى الأرض: «يا لها من نهاية جميلة».

قال لزلي، لكي يُهدِّئ الفتيات: «إنها مجرد حكاية».

انتظـر جورج إلى أنْ نظرتْ ليتي إليه. أخيراً رفعتْ عينيها إليه. ثم استدار كل منهما جانباً وهما يرتعشان.

طلبت ميري الحصول على بعض أزهار عود الصليب.

«أعطني فقط حفنة صغيرة – وأستطيع أنْ أُخبر الآخرين القصة – إنهـا حزينة جداً – إنني شديدة الإشفـاق عليه، لقد كانت وطأة الأمر ثقيلة عليه – وليتي تقول إنَّ نهايتها جميلة –!».

قطـع جورج الأزهار بمدية جيب كبـيرة، وأخذتها ميري، بعناية، وهـي تعامـل طابعها الرومانسـي برقّة متناهية. ثم خـرج الجميع من الحديقة وانعطف هو نحو زريبة الأبقار.

قالـت ليتـي، وهي خائفـة أنْ تبقى قريبة منـه: «وداعاً في الوقت الحالي».

ضحك «وداعاً».

قالـت ميري: «شكراً جزيلاً لك على الأزهار – وعلى الحكاية – كانت رائعة – لكنها مُحزنة جداً!».

ثم مضوا، و لم نرهم بعد ذلك.

لاحقاً، بعد أنْ أوى الجميع إلى النوم في الميل، جلستُ مع جورج علـى جانبيّ الموقد متقابلـين، ندخن، ولا نكاد نتكلـم. كان يُحصي التناقضات كلها، وبين حين وآخر يقذف واحدة من أفكاره.

قال: «وطوال النهار كان بلينش يحرث بقايا القمح في أرضه، لأنه لا فائـدة من تركه لتقضمه الأرانب، لذلك حرث جزازة القمح: وهم يروون الشِّعر الرعوي، ويأكلون الخوخ في فنائنا».

ثم سـاد الصمت، بينمـا ساعة الحائـط تنبض بإيقـاع ثقيل، وفي الخارج صـاح طائر بري، وران السكـون؛ وفي أسفل منصب الموقد حفّ الرماد بصوت رقيق.

«قالـت إنهـا انتهت نهاية جيدة - ولكن مـا الجيد في الموت - ما فائدته؟» والتفت إلى الرماد في المنصب، يتأمل حزيناً.

في الخارج، بين الأشجار، أطلق حيوان بري صرخة ألم رفيعة.

قلت: «اللعنة على هذا الشجار!»، وأنا أنظر أيضاً إلى النار الرمادية.

«إنـه قاقُم[٧١] أو ابن عرسـ، أو ما شابه. إننا نسمع هذه الأصوات منذ نحو أسبوع. لقد أطلقـت الرصاص بين الأشجار مرات عديدة. كان هناك اثنان - واحد منهما مات».

---

٧١ - قاقُم: حيوان يُشبه ابن عرس.

استمـر الصـراخ البائس يأتينا، عـبر الصمت البـارد، الثقيل، من خلال ظلام بين الأشجار.

قال: «أتعلم، لقد كرِهَتْني بعد ظهيرة هذا اليوم، وأنا كرهتُها –».

كان الوقت منتصف الليل، مُترعاً بالأفكار السقيمة.

قلـت: «لا فائدة. اذهب إلى النوم – سيطلع الصباح بعد سويعات قليلة».

الجزء الثالث

الفصل الأول

بداية جديدة في الحياة

كما كنتُ قد قلت، تزوجت ليتي قبل أنْ يفقد لـزلي كل الآثار الحزينة لمرضه. ورحلا إلى فرنسا لقضاء خمسة أيام قبل أنْ نستعيد أي شيء مما يمكن أنْ نسميه النبرة الطبيعية للمنزل. ثم، على الرغم من أنَّ الروتين بقيَ كما هو، إلا أنَّ حساً بالضياع، بالتغيُّر، ساد كل شيء. لقد انتهت الرحلة الطويلة في المنزل الهادئ؛ عبرنا بحر شبابنا البرّاق، ونزلت ليتي فعلاً إلى اليابسة وكانت مسافرة إلى جهة غريبة في أرض أجنبية. لقد حان الوقت لنرحل جميعاً، لنغادر وادي نذرمير، الذي تقطّرت مياهه وغاباته في صُلب شراييننا. لقد كنا أطفال والدي نذرمير، أمّة صغيرة لها لغتها الخاصة وسلالتها، وآلمنا كثيراً أنْ نرتحل إلى منافٍ منفصلة.

قال جورج: «بات مُحتّماً عليّ الآن أنْ أرحل. من طبعي أنْ أتلكّأ وقتاً طويلاً، إلا أنني أخاف قبل أي شيء هذا الانهيار البطيء بعيداً عن قواعدي التي تحررتُ منها أخيراً. يجب أنْ أنتزع نفسي الآن –».

مـرّت الفـترة الفاصلة بين جزّ التـبن وحصاد الـذرة بطيئة، وكنا جالسـين معاً في فترة صباح راكد، حزين، مـن شهر آب نشد الحزم. يداي متقرحتان من شدّ الأطراف السائبة من الخيوط من الجزء السفلي مـن الحزمـة، ولذلك كنتُ في انتظـار لمسة من المطر لكـي ترسلنا إلى خـارج المنزل. وجاءت أخيراً، فهرعنا إلى الحظـيرة. ارتقينا السلَّم إلى العليّـة المفروشة بـأدوات الزراعة والنجارة. جلسنـا معاً على النشارة المنثورة على دكة النجارة أمام نافذة القبّة العالية، وأطللنا على الغدران والغابـات والبرك. كانت ذُرى الأشجار شديـدة القُرب منا، وشعرنا بأننـا نشكل مركز المياه والغابات المتراميـة على الوادي الذي يستقبل المطر.

قلت: «بعد بضع سنوات سوف نصبح غرباء تقريباً».

نظر إليّ بعينين سوداوين، ملؤهما الحب وابتسم بارتياب.

قلـت: «إنَّ المسافة من هنـا إلى حانة رام بعيـدة كبُعدنا عن مدينة لندن– بل أبعد».

سأل، مبتسماً بهدوء: «ألا تريد مني أنْ أذهب إلى هناك؟».

«الأمـر نفسه أينما ذهبت؛ سوف تذهـب شمالاً، وأذهب شرقاً، وليتـي جنوباً. لقد رحلت ليتي. وفي غضون سبعة أسابيع سأذهب أنا – وأنت؟».

قال بحزم: «يجب أنْ أرحل قبلك».

«أتعلم – «وابتسم بخوف من الاعتراف، «إنني أشعر بالرعب من فكرة كوني وحيداً تماماً»، وأضاف كأنما مُناشِداً، «ينبغي ألا أكون آخر المغادرين –».

سألتُ: «وهل ستذهب إلى ميغ؟».

جلس يمزق النشارة إلى شرائح، ويُخبرني بعبارات خرقاء عن مشاعره قدر استطاعته:

«في الواقع إنَّ الأمر لا يتعلَّق بما تسميه الحب. لا أعلم. في الحقيقة كنتُ أعقد أملي على ليتي»– رفع بصره إليّ بخجل، ثم تابع تمزيق النشارة – «يجب أنْ تبني قلاعك على أساس ما، وقد أسستُ أملي على ليتي. في الحقيقة إنني أشبه الكثير من الناس، ليس لدي مثال مُحدد أشكل حياتي على أساسه. إنني أضع حجراً فوق حجر، كما تردني، فإذا انهار كل شيء في نهاية المطاف، فليكن. ولكن في الحقيقة، أنت وليتي جعلتماني واعياً، وها أنا الآن ضائع. لقد صبوت إلى الزواج لكي أنهمك في بناء حياتي، شيء كليّ وكامل، أضع له تصميماً. يجب أنْ أتزوج أو أضيع. هناك شخصان يمكنني أنْ أتزوج منهما – وها هي ليتي قد ذهبت. وأنا أحب ميغ أيضاً، إذا تكلمنا عن الحب. أنا لستُ متأكداً لا أشعر بأنني سأكون سعيداً إذا تزوجتها. أتعلمْ كان ينبغي دائماً أنْ أكون الثاني بالنسبة إلى ليتي، وأفضل جزء في الحب هو أنْ تنغمس فيه، أنْ تكون فيه الأول وقبل أي شيء في العالم أجمع بالنسبة إلى شخص ما. وميغ لطيفة وظريفة. أستطيع أنْ أنالها دون أنْ أرتعش، إنها مصدر راحة وطمأنينة. أستطيع أنْ أمسّد على شعرها

وأداعبهـا، وهي تنظر إليّ، كلها ثقة وحـب، ولا تشوبها شائبة، وكل منا يرتاح مع الآخر –».

×××

بعد مرور ثلاثـة أسابيع، بينما كنتُ أستلقي تحت شمس آب على كرسـي شاطئ علـى المرج، سمعـتُ قرقعة دواليب علـى طول الممر المُحصّـى. كان جورج ينادي عليّ كي أرافقـه إلى حفل زفافه. أوقفَ العربة الخفيفة التي يجرهـا حصان بالقرب من الباب، وارتقى الدَّرَج إليّ علـى المـرج. كان يرتـدي ملابس توحـي كأنه ذاهـب إلى سوق الماشية، بسترة وبنطلون خشن وواقي الساقَين.

قال وهـو واقف يبتسم لي: «هيا، ألستَ جاهـزاً؟». كانت عيناه قاتمتـين من شدة الحماس، ويحمل تلك النظرة الهشّة الخاصة جداً بآل ساكستون في لحظات انفعالهم.

قلـت: «لديـك ما يكفي من الوقـت، الساعة لم تتجـاوز التاسعة والنصف».

قـال بمرح: «لا يجوز أنْ نتأخر في يـوم كهذا. أترى كيف تسطع الشمسـ. هيا، لا تبدو نشطاً كما ينبغـي بالإشبين أنْ يكون. حسبتُ أنـني سأجدك تقفز من شدة الحماس. انهضـ، انهض! انظر هنا، ثمة طائر منحني الحظ الحسن»– وعرض عليّ لطخة بيضاء على كتفه.

أجبرتُ نفسي على النهوض بكسل.

قلت «حسن، ولكن يجب أنْ نشرب الويسكي لندشن هذا».

تبعنـي خـارج أشعـة الشمس العطـرة إلى المنـزل الداكن. كانت الغـرف شديدة السكون وخالية، لكـنَّ الصمت البارد استجاب على الفـور لبهجة المدخل الدافـئ بفعل الشمس. علقـت عذوبة الصباح الصيفـي خفيّة كأشباح قصة رومانسية سعيدة في جو الغرفة الغامض. بـدا كأننا نشعر بضـوء الشمس يرقص ذهبيـاً في عروقنا ونحن نعبّ المزيد من المشروب الشاحب.

«نخب سعادتك - إنني أحسدك اليوم».

بدت أسنانه بيضاء، وعيناه تتحركان كمشروب قاتم وهو يبتسم.

«إليك هديتي بمناسبة زواجك!».

صففـتُ اللوحات المائية الأربع الكبـيرة أمامه على طول الجدار. كانـت لوحـات تمثل مياهـاً وحقولاً في منطقـة ميل، ومطـراً رمادياً وغسقـاً، وصباحاً والشمس تصبّ ذهبـاً على الضباب، وجو ظهيرة منتصـب الصيـف يُخيم فوق البركـة. غمره كل رونـق أيامنا الماضية كشـراب مُسكِـر، وارتعش من فـرط جمال الحياة الرائـع الذي كان ينسجـه في سحر السنين الكبير. لقـد أدرك فخامة موكب الأيام التي حملته معها.

قال بفرح مفاجئ: «لقد كان رائعاً، يا سيريل، كل ذلك الزمن».

مضينا بالعربة خلال نضارة الغابة، وأشعة الشمس تتدفق على طول

الطريــق. ملأتْ أكواخ غريميــد الظلالَ بلون الــورد، وضياءَ الشمس بلــون القرنفل وبزُرقة القنطريــون العنبري وزهر العايــق. قدنا العربة بنشــاط على طول التل الطويــل، الهاجع، وكرجنــا إلى أسفل الحفرة مروراً بالمزارع حيث الدجاجــات تواكب الديكة الذهبية الحمراء في البستــان، والبط كقطــع صغيرة من الغيم الأبيض تحــت أشجار الحور الرجراج يُعربد في البركة.

قــال جورج: «طلبتُ منها أنْ تكون جاهزة في أي وقت – لكنها لا تعلم أنَّ الموعد هو اليوم. لم أرغب في أنْ يسمع رواد الحانة بالأمر».

ارتقــتْ الفرســة المنحدر الحادّ الــذي تقوم حانــة رام على قمته. وسط الهــدوء، ومع إبطاء الفرسة حتى نقطــة السكون، سمعنا تغريد أغنيــة في الحديقة. لزمنا السكون ونحــن في العربة، ونظرنا عبر الفناء المرصــوف إلى حيث تنمو عناقيــد أزهار سوسن العــذراء الباسقة بين أزهار الأليسوم البيضاء. وخلف حدود الأزهار كانت ميغ، تميل فوق أكمــات الكشمش. شاهدتنا وجاءت تتمايــل على الدرب، مع طاس من الكشمشــ تسنده بتوازن علــى كفلها. كانت ترتــدي ثوباً قطنياً جديداً، وبسيطاً، مع مئزر أبيضــ. عكسَ شعرها الأسود الغزير ضوءَ الشمس، وكان وجهها اليانع مُرفّهاً بالضحك.

هتفت، محاولة ألا تُبيِّن أنها تخمّن طبيعة المهمة: «حسن، لم يخطر في بالي أبداً! لم أتخيل أنْ أراك هنا في مثل هذا الوقت من الصباح!».

كانــت عيناهــا، عينــان سوداوين تملؤهمــا البهجــة كالكهرمان المصقــول، مُطمئنتــين وصريحتــين، نظــرت إلينا كما ينظــر طائر أبو

الحنّـاء، مع تعبير تساؤل برّاق. كانـت عيناها مختلفتين كثيراً عن عيون آل ساكستون: سوداوين، لكنهما لا تثبتان ومُترعتين، لا تترددان أبداً، تخشيان الجرح، لا تتمددان أبداً بفعل الألم أو من نشوة الخوف.

سأل، مبتسماً لها: «إذن هل أنت جاهزة؟».

سألت مُضطربة: «ماذا؟».

«لمرافقتي إلى مُسجل العقود - لقد حصلت على التصريح».

صرخت، باعتراض تام: «لكنني كنتُ أهمّ بصنع الكعكة».

«فليصنعوها بالنيابة عنا - اعتمري قبعتك».

«ولكـن انظر إليّ! كنتُ فقط أُحضِر الكشمش. انظر!» وعرضت عليه الكشمش، والخدوش التي على ذراعيها ويديها.

قـال، منحنيـاً ليُداعب يدهـا وذراعها: «يا حـرام!». فتراجعت مبتسمـة، مُشرقة بالسعادة. كان في استطاعتـي من مكان جلوسي أنْ أشم عبير السوسن الأبيض.

قالت، رافعـة نحوه وجهها المستدير الصقيـل كثمرة كرز القلب الأسود[٧٢]: «لكنك لا تقصد، أليس كذلك؟». وعلى سبيل الإجابة فتح تصريح الزواج. قرأته، وأدارتْ جانب وجهها باضطراب، قائلة:

«حسن، يجب أنْ أستعدّ. هلا أتيت وأخبرتَ جدَّتي؟».

---

٧٢ - القلب الأسود: نوع من الكرز أسود اللون وله شكل يُشبه القلب.

أجاب على مضض: «أهذا ضروريّ؟».

أقنعته ميغ: «نعم، تعال وأخبرها».

ترجّل من العربة. وفضّلتُ أنْ أبقى في الخارج. وفي الحال هرعتْ ميغ وجلبت لي كأساً من البيرة.

قالت تعتذر: «لن نغيب طويلاً. سوف أبدِّل ثوبي فقط».

سمعتُ جورج يرتقي الـدَّرَج بخُطى ثقيلة جداً ويلج الغرفة التي فوق صالون الحانة، حيث كانت الجدة تستلقي طريحة الفراش.

سألتْ: «أهذا أنت يا ولدي؟ ماذا تفعل هنا هذا الصباح؟».

قال «حسن لست هو، كيف حالك الآن؟».

«آه، سيئـة، يا ولدي، سيئة! قريباً سوف يحملونني إلى أسفل بدءاً برأسي –».

«كلا، لا تقـولي هـذا! – أنا لم أذهب بعـد إلى نوتنغام – أريد من ميغ أنْ تأتي معي».

صرخت العجوز بصوت حادّ: «ولِمَ؟».

أجاب: «أريد أنْ أتزوجها».

«ماذا! ماذا تقول؟ وماذا عن التصريح، والخاتم، وكل شيء؟».

أجاب: «حضّرتُ كل شيء».

«حسن، هذا جيد! ما الداعي إلى كل هذه السريّة؟ يا لها من حيلة! ماذا تقصد بها؟».

«في الحقيقـة أريـد أنْ أتزوجها مباشـرة، ولا أرى أهمية لليوم. لا أريد أنْ يشيع الأمر في الحانة –».

«هذا أمر غريب، وكل شيء، كل شيء! ولماذا لا تريد أنْ يتحدثوا في الحانة؟ أنت لن تتزوج من زنجية حتى تخاف إلى هذه الدرجة – لم يخطـر في بالي أنك قد تفعل هذا! – ومـا الداعي إلى كل هذه العجلة فجأة؟».

«لا أرى في الأمر عجلة».

أجابت السيدة العجوز، بشـيء من التهكّم: «لا توجد عجلة –! أنـت لم تكن أبـداً مستعجلاً في حياتك! لكنها لـن تذهب معك هذا اليوم».

ضحـك، أيضاً بتهكُّم. كانت العجـوز غاضبة. وراحت تكيل له السبـاب، مُعلنة أنها لن تدع ميغ تدخل المنزل بعد الآن، ولن تترك لها بنساً واحداً، إذا تزوجته في ذلك اليوم.

أجاب جورج، أيضاً بغضب: «هذا لا يُعجب أحداً».

دخلتْ ميغ الغرفة على عجل.

«أبعديـه عني – أبعديه عنـي! لن تذهبي معه هـذا اليوم، حسب عِلمـي! أيعتقد أنـكِ بقرة، أو خنزيـر، حتى يأخذك متـى رأى ذلك مناسباً له. أقول، أبعديه عني!»

كانت العجوز شرسة ومتعجرفة.

باشرت ميغ بالقول: «ولكن يا جدتي -!».

صرَّ السرير بينما حاولت العجوز أنْ تنهض.

صرخت: «أبعدي هذا عني، قبل أنْ أطرده!».

«أوه، اهدئي يا جدتي - سوف تتأذين، تعلمين أنَّ هذا يؤذيك-».

فجأة قال جورج: «هل أنت قادمة، يا ميغ؟».

صرخت العجوز: «لن تفعل!».

كرر جورج، بعنف: «ألن تأتي، يا ميغ؟».

بدأتْ ميغ تبكي. أعتقد أنها نظرتْ إليه من خلال دموعها. الشيء التالي الذي سمعته كان صرخة صدرت عن العجوز، وصوت قدمين تترنحان.

«تريد أنْ تبعدها عني! - إذا ذهبتِ، يا فتاتي، ممنوع عليك دخول هذا المنزل بعد الآن، ضعيها حلقة في أذنك! هذا آخر الكلام يا سيدتي! إياك أنْ تأتي إليّ بعد الآن، يا فتاتي!»- وكان زعيق العجوز يعلو أكثر فأكثر. ظهر جورج عند ممر الباب، ممسكاً ميغ من ذراعها. كانت تبكي مع قليل من الحزن. كانت قبعتها الحريرية الكبيرة تميل فوق عينيها. كانت ترتدي ثوباً قطنياً أبيض. ارتقيا العربة. سلّمته اللجام وزحفتُ إلى الخلف. سمعتنا العجوز من خلال النافذة المفتوحة، وأصغينا إليها وهي تنادي ونحن نبتعد:

«لا تدعيني أراك من جديد، أيتها العاهرة الجاحدة. سوف يدمرك، يا فتاتي، سوف يدمرك، وعندئذٍ إياك أنْ تأتي إليّ –».

ابتعدنا و لم نعد نسمع. جلس جورج صامتاً عابساً. وبكت ميغ وحدها بعض الوقت، بأسى. كنا نتهادى بسرعة كبيرة تحت أشجار الزان في فناء الكنيسة التي كانت تقوم في آخر الطريق. وبعد أنْ عدّلت ميغ من شأن قبعتها، وحنت رأسها في وجه الريح، أصبحت منهمكة بملابسها أكثر من بكائها. أخذنا نتمايل حول الحفرة على طرف المستنقع، وقرقعنا مسافة قصيرة نحو أعلى التل المنحدر حتى واتنال. ثم أخذت الفرسة تُبطئ في مشيها. هتفت ميغ بكابة، وهي تلملم نفسها بهدوء:

«أوه، ليس معي إلا فردة قفاز واحدة!».

نظرتْ إلى فردة القفاز الحريرية الوحيدة الملقاة على حجرها، ثم أخذت تنعم النظر بين طيات ثوبها.

قالت بصوت يدعو إلى الرثاء: «يبدو أنني تركتها في غرفة النوم».

ضحك، وفجأة تلاشى غضبه.

«وما أهمية هذا؟ تستطيعين العيش من دونها».

استعادت ما جرى على رنين صوته، وعادت من جديد إلى الدموع والبكاء.

قال: «كلا، لا تقلقي بشأن العجوز. سوف تأتي في الغد – وإذا لم تفعل، فهذا خيارها. لديها بولي لترعى شؤونها».

«إنه خطؤها. على أية حال، لا تدعي هذا يُحزنك»- وألقى نظرة ليرى إنْ كان هناك أحـد في الجوار، ثم طوّق خصرها بذراعه وقبّلها، قائـلاً بنعومة، وتملّق: «غـداً ستُصبح علـى ما يُرام. حينئـذٍ سنذهب ونزورها، وسوف يُسعدها كثـيراً أنْ تستقبلنا. وحينئذٍ سوف نرضخ لرغباتها، تلك الجدة العجوز المسكينة. يمكنها أنْ تُصدر إليك الأوامر، وإليّ أيضاً، غداً وقدر ما تشاء. إنَّ الأمر صعب عليها، لأنها مُقيّدة إلى سريرها. لكنَّ اليوم لنا، حتمـاً – أليس كذلك؟ اليوم لنا، وأنت لستِ نادمة، أم ماذا؟».

«ولكـن ليس معي قفـاز، وأنا متأكّدة مـن أنَّ شعري مشعث. لم يخطر في بالي يوماً أنها ستصل إلى تلك الحالة».

ضحك جورج، مبتهجاً.

قـال: «كلا، كان مزاجها عكراً. ولكن يمكننا أنْ نحصل لك على قفاز حالما نصل إلى نوتنغام».

قالت: «ليس معي قرش واحد».

ضحك: «أنا معي الكثير! أوه، ودعينا نضع هذا».

عاد المرح يسود بينهما وهو يُجرب خاتم الزفاف، وتحدثا بنعومة، هو برقّة وتملّـق، وهي بحزن. مضت الفرسـة في طريقها، وانحرفت قبعـة ميغ من جديد على رأسهـا بسبب جرف أغصان شجر الدردار. كانت الـذرة الصفراء تنخفض وترتفع وتتدفـق في الحقول، كمفرش مـن الذهب مُثبّتْ عند زوايـاه والريح تجيش من تحتـه. أحياناً كنا نمر

بأكواخ حيث ينمو السوسن القرمزي مرتفعاً كالسنة اللهب، والعايق الباسق كأدخنة قافزة زرقاء براقة. أحياناً كنا نشم رائحة أشعة الشمس على الذرة التي يتحول لونها إلى السُّمرة، وأحياناً عبق ظلال الأوراق. وأحياناً العبير المُسكِر لحزم القش الحديثة. ثم اهتززنا وقفزنا على طريق سندرهيل المُبلَّطة الوعـرة، وقفزنا أيضاً إلى الأمام من جديد عند سفح التـل المُشرف على الحفرة الهائلة، وشممنـا رائحة الكبريت، المشتعل بنيران حمراء صغيرة في وضح النهار، ومكسو بطبقة من الرماد. بلغنا قمة المرتفع وشاهدنا المدينة أمامنا، مكوّمة عالية ومُعتمة على السلسلة العريضـة للتـل. بحثت عن بـرج مدرستي القديمة المُربّـع، وعن برج المُستـدق الشامخ لكنيسـة القديس أندروز. كان الركـود يُخيِّم فوق المدينة، كمظلة رقيقة وقذرة في وجه السماء الزرقاء.

انعطفنـا وتأرجحنا ونحن نهبط المنحدر بين حقول الذرة الأخيرة القذرة باتجاه باسفورد، حيـث ارتفعت خزانات الغاز المنتفخة كفطر الغاريقون السامّ. ومع اقترابنا من بداية الشارع، نهضتْ ميغ بحماس، وهي تجر جورج من ذراعه، وتهتف:

«أوه، انظر، المساكين الصِّغار!».

علـى الطريـق المُعبّدة وقـف صبيان صغـيران يرفعـان وجهيهما ويبكيـان نحو السمـاوات الغافلة، وأمامهما طفل وليـد مُلقى، رأساً على عقـب، مربوط إلى كرسـي مُغلق للأطفـال. كان ذلك المخلوق المزيّن بشكل مُبهرج ويجلس على سجادة قد انهار بينما كان الصبيان ينـزلان عن حافة الرصيف معـه. سقط نحو الخلـف، ولم يتمكنا من

جعلـه يستقيم. فمددا الطفل وهو مربوط بصـورة مقلوبة على عربته السخيفـة، ومُعرّض لخطر الاختناق المؤكّد. قفزت ميغ خارج العربة، وجرّت الطفل من الكرسي البائس. تابع الطفلان المُخضلان بالدموع العويـل. قرفصـت ميغ على الطريـق، والطفل على ركبتهـا، وقدماه الصغيرتـان متدليتـان على ثوبهـا. أخذت تُهدِّئ مـن روع المخلوق المبلل بالدموع والمثير للشفقـة. ضمّته إلى صدرها، وقبّلته، وحضنته، وهزّتـه بشفقة فيّاضـة. وعندما سكـت الأطفال الثلاثـة أخيراً، كان الصبيـان لا يزال يهتزان بأثـر النشيج المتلاشي، هـدأتْ ميغ أيضاً من شفقتها الهستيرية على ذلك المخلوق الصغير. أخذت تغمغم له بكلام رقيق، وتمسح وجنتيـه الصغيرتين الرطبتين بمنديلها، تُهدهده، وتُقبّله، وتلاطـف المخلوق المرتبـك، وتمسّد على خُصل الشعـر البنيّ الرطبة من تحـت قلنسوة قطنية رثّـة، وتُصلح من شـأن رداء الطفل المحتوم. كان طفلاً جميـلاً، ذا كثة من الشعر الحريري الذهبي المائل إلى البنيّ، وعينين زرقاوين كبيرتين.

سألتُ أحد الصبيين: «أهو أنثى؟ كم عمرها؟».

أجاب بارتباك: «لا أعلم. جاءتنا قبل نحو ثلاثة أسابيع».

«لماذا؟ أليست أختكما؟».

«كلا – أمي تحتفظ بها»– كانا متردّدين في إخبارنا بأي شيء.

هتفـت ميغ، في فـورة شفقة أخـرى، وهي تشدّ علـى الطفلة إلى صدرهـا بيـد، وتُمسك قدمهـا الفاتنة المكسوة بخـف بالأخرى: «يا

للحمـل الصغـير المسكين!». بقيـتْ هكـذا، تلسعها شفقـة حادة، مقرفصة، تنطـوي فوق الطفلة. وأخيراً رفعت يدها، وقالت، بصوت يغصّ بالمشاعر:

«لكنكما تحبانها – أليس كذلك؟».

أجـاب الفتى باضطراب شديد: «نعم – إنها – إنها ظريفة. لكنها تحتاج إلى رعايتنا».

قالـت ميغ: «طبعاً، طبعـاً أنتما لا تضنان عليهـا بذلك. المسكينة الصغـيرة – إنهـا صغـيرة جداً – طبعاً أنتمـا لا تتذمران من رعايتها أبداً–؟».

لم يُدل الصبيان بأي جواب.

تمتمت ميغ فوق الطفلة، تدين الصبيين بمرارة وعالم الرجال كلهم، «أوه، أيها الحمل الصغير المسكين، أيها الحمل الصغير المسكين!».

قمـت بتعليـم أحـد الصبيين كيف يطـوي ويمدّ الكرسـي البالي. وأجلســتْ ميغ على مضض الطفلة البائسة عليه، مُثبّتة الشريط حولها برفق.

سـأل أحد الصبيين بنبرة صوت حييّـة، مكبوتة: «أين بزّازتها؟». بدأتْ الطفلـة تبكي بصوت رفيع. فجلست ميغ القرفصاء فوقها. وتم العثور على «البزّازة» في المجرور فمسحها الصبي بمعطفه، ثم أقحمها في فم الطفلة. أفلتت ميغ مـن تشبُّث اليد الصغيرة بإصبعها، وارتقت عربة الخيل، قائلة بصرامة للصبيين:

«أحسنــا العناية بالطفلــة الصغيرة المسكينة اليتيمــة. إنَّ الله يُراقب معاملتكما لها - فاحذرا».

وقفــا وهما في حالة خجل شديد. ساط جــورج الفرسة، وعندما انطلقنــا رمينــا لهما بعض القطع النقديــة. وفي أثنــاء ابتعادنا راقبتُ المجموعة الصغيرة تختفي على طول الطريق.

قالــت، والدمــوع في صوتهــا: «يا للعــار - طفلة صغــيرة ظريفة كتلك-».

قال جورج، برقة: «نعم، في المدن تحدث أشياء كثيرة».

لم تعــره ميغ انتباهها، بــل جلست جلسة امــرأة ناضجة تفكّر في الطفلــة المحرومة، وتُديــن العالم القاسي. بعــد أنْ راقبها، وهو يفيض بالحنان وبالرغبــة في حمايتها، بعينين رقيقتين، شعــر بقدر ضئيل من النفــور لتجاهلها إياه، وجلوسها وحدهــا في كيانها الأنثوي الشرس. فانهمــك باللجــام، وجلس الاثنان كلٌّ على حِــدة إلى أنْ أثار ضجيج البلــدة ميــغ. وأخــذت الفرســة تمشي بانحــراف بجــوار الحافلات الكهربائيــة بعصبيــة، وقفز عندما اقتربت منا قاطــرة جرّ. خافت ميغ وتشبثــت بجورج من جديد. كانت سعيدة جــداً لأننا تجاوزنا المقبرة بسكانها من الشواهد البيضاء، وسلكنا شارعاً هادئاً.

عندمــا ترجلنا، وسلّمنــا رأس الحصان لأحــد المشردين، أصبحت مضطربــة، وخجولة، وخائفة علــى أقلّ تقدير. أخذهــا على ذراعه، وتــولى أمرها بالكامــل، وابتعد بهــا، ضاحكاً، نحــو دَرَج المكتب.

استسلمت تماماً ليديه، وقد أضحت كتلة مضطربة، ولذلك تولى العناية بها.

عندما خرجا، بعد وقت قصير، بدأتْ تثرثر بحيوية متوردة. وكان هو شديد الهدوء، وبدا كأنه يستعيد أنفاسه.

«أليس رجلاً مُضحكاً؟ هل كان أدائي جيداً؟ – لم أكن أعلم ماذا أفعل. أنا متأكدة من أنهم كانوا يضحكون عليّ – أتظن أنهم كانوا يفعلون ذلك؟ أوه، انظر إلى ثوبي – يا له من مشهد؟ ماذا سيقولون عني –!». كانت الطفلة قد لوّثت قليلاً واجهة ثوبها.

قاد جورج العربة على التل الطويل وإلى داخل البلدة. عندما وصلنا إلى البلدة بين المحلات التجارية في شارع مانسفيلد استعاد طبيعته.

سألتْ ميغ «إلى أين نحن ذاهبون – إلى أين تأخذنا؟».

أجاب، مبتسماً ويسوط الفرسة: «يمكننا أنْ نستفيد من هذا اليوم ما دمنا موجودين هنا». وشعر الاثنان كأنهما مُنطلقان لخوض مغامرة. فيتوقف عند فندق سبريد إيغل، ونمشي حتى السوق من أجل شراء قفاز لميغ. وبعد أنْ اشتريناه بالإضافة إلى وشاح كبير مُخرَّم لكي تظهر وكأنها ترتدي مزيداً من الملابس، رغب في تناول الطعام.

قال: «سوف نذهب إلى أحد الفنادق».

اتسعت عيناه وهو يقول هذا، وانكمشت بخوف مبتهج.

فلـم يكـن أي منهما قد ارتـاد فندقاً قبـل ذلك. كانـت خائفة حقاً. وتوسلـت إليه أنْ نذهـب إلى أحد المطاعـم، أو إلى مقهى. لكنه كان عنيـداً. فكرته الوحيدة هي أنْ يُنفّذ الشـيء الوحيد الذي كاد يخشى أنْ يفعلـه. كان شغفـه - الذي يرقى إلى مرتبة النشـوة - هو أنْ يتجرًأ علـى العبث مع الحياة. كان يخاف المدينة؛ ويخاف المغامرة في أماكن أجنبيـة في الحياة، وكان كل شـيء أجنبياً ولا يمكنه الحِفاظ على وادي ندرمير. لذلك عبر الحدود متباهياً، وسار نحو قلب المجهول. وذهبنا إلى فنـدق فيكتوريـا - أشد ما خطر على بالـه فخامة - وتناولنا طعام الغـداء حسب لائحة الطعام. كانا أشبه بطفلين، خائفين جداً، لكنهما مبتهجـان لخوض المغامرة. لكنه لم يجرؤ علـى طلب الطعام. لم يكن يجـرؤ على مُخاطبة أحـد، لا النُّدُل ولا غيرهم. وفعلـت ذلك عوضاً عنـه، وراح يراقبني، مستوعباً، ومتعلمـاً، متعجباً من أنَّ الأمور سهلة جـداً وممتعة. ورحت أُصدر إليهمـا الأوامر همساً عبر المائدة واحمرّا خجلاً وضحـكا معاً بعصبيـة. كان صعباً معرفة إنْ كانـا قد استمتعا بتنـاول ذلك الغداء. أعتقـد أنَّ ميغ لم تستمتع - علـى الرغم من أنها كانت بمصاحبته. أما عن جورج فلست متأكداً. فقد كان يُعاني بشكل حاد من حيائه وارتباكـه العصبي، لكنه عاش أيضاً ثمالة المغامرة، لقد انتابـه شعور مَنْ كان يعيش في جزيرة صغيرة عندما وطأت قدمه قارة شاسعـة. كانت تلـك الخطوة الأولى في حياة جديـدة، وقد تأمّل فيها بابتهاج وهو يشرب البراندي. لكنه كان مرتبكاً. لم يتمكن من التغلّب على شعوره بأنه متعدٍ.

سأل: «أين سنذهب بعد الظهيرة؟».

تمَّ استعراض مقترحات عدة، لكنَّ ميغ ناشدته بحرارة للذهاب إلى متنزه كولْويكْ.

«هيا بنا نستقل قارباً بخارياً ونذهب إلى متنزه كولويك. هناك الكثير من التسلية بعد الظهيرة. سيكون شيئاً ممتعاً».

في غضون لحظات كنا في الطابق العلوي من حافلة تترنح على جسر ترينت. كان قد حان موعد الطعام، وكان الناس من المحال التجارية والمخازن يُسرعون الخُطى تحت أشعة الشمس على طول الأرصفة. كانت المظلات ترمي ظلالها على واجهات المحلات، وفي الظل تدفق الناس بملابسهم الصيفية البرّاقة. وعندما توقفت حافلتنا في المساحة الواسعة من السوق شممنا رائحة هي مزيج من الفاكهة، البرتقال، والمشمش صغير الحجم، والإجاص مكومة بألوانها الحية في أماكنها المُخصصة في الأكشاك. ثم مضينا خلال ظلال الشوارع المظلمة، وبرك أشعة الشمس المكشوفة. ارتفعت القلعة على صخرتها الشامخة في أشعة الشمس الجافة المُبهرة؛ وقامت النافورة غامضة في التلألؤ الأخضر لأشجار الليمون التي تكتنف ملاجئ الفقراء.

كان المتنزه يعج بالناس. وقفنا برهة عند السياج لنراقب النهر البرّاق يدوّم في رقصة صامتة ليصب في البحر، بينما قوارب المتعة الخفيفة هاجعة على طول الضفتين. استقلينا القارب البحري الصغير المزود بدولاب تجذيف ودفعنا «ستة بنسات رسم العودة». وبعد طول انتظار انطلقنا، بكثير من الحماس، في رحلتنا التي تمتد ميلاً. كانت آلتا بانجو تعزفان في مكان ما في الأسفل، والركاب يُهمهمون ويغنون

علـى أنغامهمـا. كان هناك بعض القوارب تضـرب المياه. وسرعان ما ظهرت مروج النهـر بأسيجتها الشوكية العالية خضراء إلى يميننا، بينما نهضَ منحـدر من صخر أحمر إلى يسارنا، مكسـواً بأشجار الصيف القاتمة.

ترجلنـا عند متنزه كولويك. كان الوقت مبكـراً، والناس قليلين. كانت مصابيح زجاجية كهربائيـة تتدلى مُطفأة من الأشجار الصغيرة. وكان العشـب في بعض المواقـع مهترئاً ورثاً. مشينـا خلال الجادات والبقـع المكشوفـة من المتنزه إلى أنْ وصلنا إلى حـدود التي يمتد عندها مضمـار السبـاق حتى مستواه الأخضـر، وتندفع حواجزهـا البيضاء الملتوية منخفضة داخل المدى. جلسا قليلاً في الظل بينما رحت أتجول في المـكان. ثم بدأ كثير من الناس يتوافـدون. وأصبح الضجيج عالياً، بل مزعجـاً. أصغينا بعض الوقت إلى فرقـة موسيقية تعزف في الهواء الطلق، يؤديها مهرجون. كانت سوقية، ومملة جداً. ذكّرتني بكاوس، ويارموث. كنـت ترى فيها الوجوه الحمقـاء ذات الحواجب المرتفعة نفسها، والعزف الناشز الدائم نفسه على آلة البيانو، والرقص المُضطرب على الأغاني، والجوقات نفسها، والأعمال الطائشة نفسها. كانت ميغ مسـرورة جداً. لم تشعر بالسوقيّة. ضحكتْ، وغنت الجوقات بشكل يكاد لا يكون مسموعاً، بجـرأة، ولكن ليس بشجاعة. كان سرورها طاغيـاً. «أوه، إنـه دور بن الآن. أنا أحبه، لديـه لمعان خبيث في عينه. انظـر إلى جوي يحاول أنْ يكون مُضحكاً!- لا يستطيع مهما حاول. كم يبدو ضعيفاً -!» وبدأتْ تقهقه في كتف جورج. في ذلك الوقت رأى الجانب المُضحك في الأشياء وشاركها الضحك.

في أثنـاء شرب الشاي، الذي تناولناه علـى الشرفة الخضراء للقاعة بجوها المنحـط، كانت على الدوام تندفع وتغنـي مع الجوقة، ويُشرق هو عندما تنظر إليه وتغني بصوتها الـ sotto voce (شديد النعومة). لم يشعر بالارتباك في كولويك. هناك كان في أحسن حالات الانطلاق، والتفوق. كان يتنقّل مع شيء من هيئة الاحتقار، وطلب سرطان البحر مـع الشاي ارتجالاً. وهذا أيضـاً كان أسلوباً جديـداً في الحياة. هنا لم يـتردّد ولا كان متوتراً هياباً؛ بل كان متنـازلاً. واستمتع بوقته مع ميغ أيّما استمتاع.

عندمـا رجعنا إلى نوتنغام توسلتْ إليـه ألا نذهب إلى الفندق كما كان قـد عرضـ، فرضخ لها على الفور. وبدل ذلـك ذهبا إلى القلعة. وقفنا على الصخرة العالية في الجو البارد، وراقبنا الشمس وهي تنحدر مـن فوق سهول النهـر المترامية، حيث تمتد البلـدة الوضيعة، وتنتهي، بينمـا يستمـر النهر والمـروج داخل المـدى. في معارض اللوحات كانـت تُعرَض مجموعـة لوحات رائعة لآرثر ملفيـل[٧٣]. اعتبرتها ميغ سخيفة جداً. وبدأتُ أدافع عنها بالحجة، لكنها كانت ضجرة بصورة واضحـة، وهو لم يتحمس لهـا. في الخارج في االساحـة كانت فرقة موسيقية عسكرية تعزف. وأحبت ميغ أنْ تذهب إلى هناك. كان أهالي البلدة يرقصون، فجلست بعض الوقت لتتفرج.

كان مُقرراً أنْ نذهـب إلى دار المسرح في المساء. كانت فرقة كارل روسـا تعرضـ أوبـرا «كارمن» في مسـرح رويال. دخلنـا إلى الحلقة

٧٣ - آرثـر ملفيل (١٨٥٨ - ١٩٠٤): رسام اسكتلندي، معروف خاصة بلوحاته للأجواء الشرقية. - المترجم

الرسمية[٧٤] «كأننا دوق متهورون»، كما أخبرته، فرأيتُ عينيه تتسعان من جديد بحب المغامرة وهو يضحك. وهو في قاعة المسرح بين الناس مرتدياً ملابس السهرة، أصبح من جديد صبيانياً وهياباً. كان دائماً يبدو كمَنْ ارتكب عملاً مُحرّماً، ومفتوناً، ولكنه مرتعب، كطفل متعدٍ. وكان في ذلك النهار قد بدأ يُصبح متعدياً حالما خرج من أملاكه في نذرمير.

سُحِرا معاً بـ «كارمن». سلبت لبّهما الحياة الجنوبية المُبهرجة، والخالية من الهم. والطريقة الحرة والجريئة التي عبثت بها كارمن بالحياة أذهلتهما بتلميحاتها إلى الحرية. وحدّقا إلى خشبة المسرح مفتونين. وبين الفصول كان يُمسك كل منهما بيد الآخر، ويُملي كل منهما نظره من عينيّ الآخر المتسعتين واللامعتين، ويتحدثان عن الأوبرا وهما يضحكان من الإثارة. كانت دار المسرح تعجّ وتضج بخفوت كمحارة خشنة. ثم ارتفعت الموسيقى كعاصفة، وانجرفت وقرقعت عند اقدامهما. وعلى خشبة المسرح هبّتْ عاصفة غريبة من الموسيقى معبّرة عن المأساة والموت العقيم. واهتز الاثنان مُضطربين بشعور عنيف. عندما انتهت نهضا مرتبكين، مذهولين، هي تفيض عيناها بالدموع، وهو يضطرم وجيب قلبه بعنف غريب.

كانا معاً في خضم مشاعر مرتبكة؛ آذانهما ممتلئة بشغف هادر للحياة، وعيونهما مبهورة برذاذ الدموع وبذلك الضحك المرتعش الغريب الذي يحرق مع ألم حقيقي. سارا على الرصيف مُسرعين

---

٧٤ - الحلقة الرسمية: مجموعة من المقاعد في دار للمسرح مُخصصة لمن يرتدون ملابس رسمية. - المترجم

إلى سبريـد إيغل، ميـغ متشبثة بذراعه، تركض، قابضـة على وشاحها المُخرَّم فـوق ثوبها الأبيض، كفراشة بيضاء خائفة ترتجف في الليل. لم نتبادل أي كلام بينما الحُصان يُشدّ والمصابيح تُضاء. في غرفة التدخين الصغـيرة شرب عدداً من كؤوس الويسكـي، ورشفت هي من كأسه، وهما واقفان طـوال الوقت في حالة استعـداد للانطلاق. حشا جيبه بقطع كبـيرة من الخبز والجبن، لكي يأكلهـا في الطريق إلى المنزل. بدا الآن أنـه أصبح يفكّر بتركيز أكبر. أوامـره القليلة التي أصدرها كانت حـادة ومُقتضبة. استأجر بطانية خفيفة زائدة لكي يُدثّر بها ميغ، ومن ثم تأهبنا للتحرك.

قلت: «مَنْ سيقود؟».

نظر إليّ ورسم ابتسامة صغيرة.

أجاب: «أنت».

وقفت ميـغ كلهب أبيض نافد الصبر في انتظـار إضاءة المصابيح. دثّرها، وأطفأها بالبطانية القاتمة.

الفصل الثاني

هبّات من الرياح في الشراع

تفجّـر العام إلى أبهـى تفتّحه ليقودنا قُدُماً خـارج وادي نذرمير. كانـت أشجار الكرز رائعة بأغصانها الطويلـة المُثقلة باللونين الأحمر والذهبـي. امتـدت ثمار الخضـروات الضخمة في الحديقـة السفلى، وحوالقهـا الكبـيرة تتشبّث بضفّـة البركة. وعلى الجـدار تدلّت ثمار الخوخ الأرجوانية الكروية متجمعة معاً، وأحياناً كانت تسقط سقوطاً مباشراً راضياً على أوراق الراوند. كان حصاد الشوفان وافراً. وسوق الذرة أشبه بعيدان قصب البامبو القوية؛ وانجرفت رؤوس القمح ثقيلة كضفائر مُثقلة بقطرات من الذهب.

أصبـحَ جـورج يُمضي وقته بـين مزرعة ميل وحانـة رام. وكانت الجـدّة قـد استقبلتهما مع كثير مـن التذمُّر ولكن مع سعـادة حقيقية. وعـادت ميغ لتقيم معها مـن جديد، وكان جورج ينام في حانة الرام. كان مُشرقاً مستبشراً، إلى درجة الفرح. والسبب هو أنَّ حياته الجديدة أعجبتـه وأسعدتـه كثيراً. كان غالبـاً ما يكلمني عن ميـغ، عن ظرفها وسذاجتها، وكـم تسليه وتبهجه. وفرح لحصولـه على مكان خاص

بـه، على منزل، وزوجة جميلة تعبده. ثـم إنَّ الحانة تمتلئ بالغرابة وبما يُثـير الاهتمام. لا تمر فيهـا ساعة مملة. وإذا رغــب في صحبة يستطيع أنْ ينتقـل إلى غرفــة التدخين، وإذا رغب في الهـدوء يمكنه أنْ يجالس ميـغ، وكانت مصدر متعة غامرة، برقّتهــا ودفئها، ومسلية جداً. كان دائماً يضحك من أفكارهــا الظريفة والفجّة، ومن طريقتها الغريبة في الـكلام. لم تكن تستخدم اللغــة كثيراً معه، كانت تجلـس على رُكبته وتلوي شاربه، وتكتشف عيوباً صغيرة غير حقيقية في قسمات وجهه لتستمتع بالتدقيق فيها. كان يقول: إنه سعيد سعادة لا توصف. وإنه في الحقيقة يكاد لا يُصدقها. أما ميغ، فاه! إنها متعة خالصة. ثم يضحك، مفكّراً كم كان مُهملاً بتجاهل الزواج منها. وتمر عبر عينيه سحابة من حـزن، لكنه يضحك مـن جديد، ويُخبرني عن إحــدى أفكار زوجته الصغـيرة الغريبة. إنها لم تتلقَّ أي قدر من التعليم، ومسلية، كما قال. عندما قــال هذا تأمّلته. تذكـرت ترفّعه الفظ في الأيــام الأولى، الذي أغضبَ إميلي بشدّة. لقد كان فيه جانب متزمت. ولم أحبّ الانهماك الشديد في زوجته كمصدر للتسلية.

في يـوم درس الحنطــة، حين عملــتُ للمـرة الأخـيرة في الميل، لاحظت الميل الجديد لديه. كان آل ساكستون دائماً ينطوون على قدر من التحفُّظ المتكبّر. وفي سنــوات سابقة، كانت العائلة قد انتقلت إلى الردهــة في يوم الدرس، واستُخدِمَتْ امرأة زائدة لتخدم الرجال الذين جاؤوا مع الآلة. هذه المرة اقترح جورج: «فلنتناول الطعام مع الرجال في المطبـخ، يا سيريل. إنهــم من مرتادي الحانــة. والاختلاط بهم أمر مفيد. لقد عركوا الحياة، وأحب أنْ أصغي إليهم، إنهم متبلدو الذهن. ولكن من المفيد دراستهم».

جلس المـزارع على رأسٍ المائـدة. ودخل الرجـال السبعة تباعاً، بارتبـاك شديد، وجلسـ كلٌ في مكانه. في أول الأمـر لم يكن لديهم مـا يقولون. كانوا مجموعـة مختلطة، بعضهم ضئيلـي الحجم، وشباناً، يبـدو عليهم المكر، والبعض الآخر لا شـكل لهم وخشنين، وعيونهم قبيحـة، وجفونهم متراخية. وكان هناك رجل واحد كنا نسميه ببغاء، لأنَّ له أنفاً معقوفاً، ويمدّ رأسه إلى الأمام وهو يتكلَّم. كان رجلاً شديد الضخامـة، لكنه شائب الشعـر وله انحناء في كتفيـه، ووجهه شاحب وبدين، ويبدو حسيراً.

عامـل جورج الرجال بتنازُل، ولم يعترضوا على ذلك. مازحهم، وقـام بكثير من الاستعراض وهو يقدم لهم المزيد من البيرة. دعاهم إلى تمريـر أطباقهم، ونادى على المـرأة لتجلب المزيد من الخبز وعموماً قام بدور مضيف حفنة من الشحاذين. وأكل الببغاء ببطء.

قـال جورج: «هيا يا والدي، أنت لا تـأكل. ليس لديك كثير من الأسنان –».

«إنَّ مـا لديّ أصبح في الشارع. سـوف أخلعها. أستطيع أنْ آكل باللثة وحدها، كأنني أعود طفلاً من جديد».

ضحـك جـورج «طفولـة ثانيـة، هـه؟ آه، حسن، هـذا مصيرنا جميعاً».

رفع العجوز رأسه ونظر إليه، وقال ببطء:

«قبل ذلك يجب أنْ تحظى بأسنان كأسناننا».

ضحك جورج، دون اضطراب. من الواضح أنه متعود جيداً على أجواء الحانة.

قال: «أعتقد أنك سوف تتغلب على مشكلتك سريعاً».

نهض العجوز ودبت الحياة في عينيه. مضغ ببطء، ثم قال:

«لقد تزوجت، ودفعت الثمن؛ وكسرت فك شرطي ودفعت الثمن؛ وهربت من الجيش، ودفعت الثمن؛ وفوق ذلك كله أُصِبتُ بطلق ناري في وجنتي في الهند، وذلك كله قبل أنْ أصبح في مثل سنك».

قال جورج، باهتمام متنازل: «أوه! لقد عركتَ الحياة إذن؟».

جرّوا العجوز إلى الخارج، وأخبرهم، بطريقته البطيئة، المُقتضَبة، بضع قصص وحشية. وضحكوا ومازحوه. وبدا جورج متعطشاً لسماع حكايات عن تجارب وحشية، خمر الحياة الخام. جرعه كله بتلذُّذ، واستمتع بالإحساس. انتهت وجبة الطعام. وحان وقت العودة إلى العمل من جديد.

سأل جورج: «وكم عمرك، يا والدي؟». نظر الببغاء إليه من جديد بتينك العينين الثقيلتين ن المُتعبتَين، الساخرتين، وأجاب:

«إذا كان يجعلك أفضل حالاً أنْ تعرف - فهو أربعة وستون».

تابع الشاب: «صعبٌ عليك إذن أنْ تعمل على آلة الدرس وتنام في العراء وأنت في مثل هذه السن، أعتقد أنك في حاجة إلى بعض الراحة».

أجاب الببغاء ببطء: «ماذا تعني بـ «صعب عليّ»؟».

أجاب جورج بيُسر: «أوه، أعتقد أنك تعرف ما أعني».

قال ببغاء العجوز البطيء: «أنت لا تعرف ماذا أعمل».

«حسن، أنت لم تُنجز شيئاً جيداً في حياتك، أليس كذلك؟».

«ماذا تعني بشيء جيد؟ لقد عشتُ حياتي، وأنا راضٍ عنها. وسوف أموت وبطني ممتلئ».

«أوه، ادّخرت مبلغاً من المال؟».

فقال العجوز بتأنٍ: «كلا، بل أنفقت طوال الوقت. لقد حظيتُ بكل ما رغبت. لكنني أُشفقُ على الملائكة، عندما سيضعني الله أمامهم لكي يقرؤوني ككتاب. حينئذٍ لن تكون الجنة جنة».

ضحك جورج «أنت فيلسوف على طريقتك الخاصة».

أجاب العجوز: «وأنت، تتمشى في فناء بيتك الخلفي، وتعتقد أنك حكيم عظيم. لكنَّ حكمتك كلها تكمن بين أسنانك. سوف تتعلم مع مرور الزمن ألا تقول أي شيء».

خرج العجوز وباشر عمله، حاملاً أكياس الذرة من الآلة إلى غرفة التخزين.

قال جورج: «إنَّ العجوز ببغاء ينطوي على الكثير، لكنه لا يبوح به».

ضحكت.

تابـع قائـلاً، وهو ينظـر متفكّراً عبر حـزم القش المُغـبرّة على آلة الدرس: «إنه يجعلـك تشعر، أيضاً، بأنك سـوف تكتشف الكثير في الحياة».

×××

بعد انتهاء الحصاد بدأ الأب يستنزف مزرعته. نُقِلَ معظم المخزون إلى حانـة رام. كان جورج سيحل محل والـده في مجال تجارة الحليب، ويستغـل ما يكفي من مساحة الأرض المُجـاورة للنُزُل في الزراعة من أجـل العناية بتسع أبقـار أو عشر. ولكن إلى أنْ يحـلّ الربيع، احتفظ السيـد ساكستون بدورة الحليب، وعمـل على تحسين أحوال الأرض استعـداداً لتقييمهـا. وباشر جورج، مـع ثلاث أبقـار، بمؤونة حليب صغـيرة في جـوار النُـزُل، وأعدَّ أرضـه لاستقبال الصيـف، وقدّم يد المساعدة في الحانة.

كانت إميلي هي أول الراحلين أخيراً عن الميل. التحقت بمدرسة في نوتنغـام، وبعد ذلك بوقت قصير انضمت إليها مولي، أختها الأصغر. في شهـر تشريـن أول انتقلتُ إلى لندن. وكانت ليتـي قد استقرّتْ مع لـزلي في منزلهما في برينتْوود، يوركشـير. عانينا جميعنا مرارة المنفى بعيـداً عـن نذرمير. لكنَّ الروابـط لم تكن قد انقطعـت بعد؛ وحدها العـادة كان يمكن أنْ تقطعهـا. وأعادنا عيد الميلاد جميعـاً إلى الوطن مـن جديد، وهرعنـا يرحب كلٌّ منا بالآخر. لم يكـن أحد منا قد طرأ عليـه أي تغيير. فليتي كانـت أكثر إشراقاً، وتعجرفـاً، وشديدة المرح؛ وإميلـي كانت هادئـة، ومتمالكة نفسها، وبدت أكـثر سعادة؛ ولزلي

كان أكـثر مرحاً وفي الوقت نفسه أكثر هدوءاً ورصانة؛ جورج بدا في قمة الصحة والسعـادة، وراضياً جداً عن نفسه؛ وعلى الرغم من طبع أمي المرِح إلا أنَّ عودتنا جلبت الدموع إلى عينيها.

ذات أمسيـة تناولنا طعـام العشاء في هايكلوز مع آل تمبست. كان الجـو مملاً كالمعتاد، وغادرنا قبل حلول الساعة العاشرة. كانت ليتي قد بدّلـت حذاءها وارتدت ثوبـاً أزرق مائلاً إلى الخُضـرة جميلاً. مشينا علـى الطريـق الذي يكتنفـه الجليد. ولمـع الثلج الهاطـل على نذرمير بصـورة غامضة تحت ضـوء القمر، ونقـل إلينا أصواتـاً غريبة نصف مسموعة. كان القمر في سمت السماء، صغيراً وبرّاقاً كزجاجة مملوءة بضوء سائل ناصع البياض. لم يُسمع أي صوت في الليل ما خلا حركة الثلوج المخيفة، ورنين ضحك ليتي الصافي.

على الممر المؤدي إلى الغابة رأينا شخصاً يقترب. كانت الأعشاب البرية رمادية على كلا الجانبـين، وأشجار الشوك تنهض بلحى سوداء شعثـة تنحدر نحو الأسفل، وأشجـار الصنوبر منتصبة كجنود قاتمين. اقـترب شبح الرجـل الأسود، مع ظـل يركض في أعقابـه. ميّزتُ فيه جـورج، مُبهمـاً وهو يعتمـر قلنسوتـه ويقلب ياقته. كانـت ليتي في المقدمة مع زوجها. في أثناء مرور جورج، قالت، بنبرة صوت واضحة ومشرقة:

«كل عام وأنت بخير».

توقف، واستدار، وضحك.

قال: «حسبتُ أنك لم تعرفيني».

هتفــت ليتي بدهشة عارمة: «ماذا، أهــذا أنت، جورج؟ – يا لها مــن نكتة! كيــف حالك؟»– مدّت له يدها البيضــاء من بين تضاعيف ملابسهــا. أخذها، وأجاب «أنا في أحســن حال – وأنتِ –؟». على الرغــم من أنَّ الكلمــات كانت خالية من المعنــى، إلا أنَّ نبرة الصوت كانت وديّة بصورة غريبة، وحميمة، وغير رسمية.

أجابت وهي تضحك، مُبدية اهتماماً بحالته: «أنا ذاهبة إلى المنزل – ولكن إلى أين أنت ذاهب؟».

أجــاب: «وأنا ذاهب إلى المنزل»، بصوت كان يعني «أنسيتِ أنني أنا أيضاً متزوج؟».

هتفــت ليتي «أوه، طبعاً! أنت الآن مُضيفــي من الحانة. يجب أنْ تحكي عن هذا. هل لي أنْ أدعوه إلى اصطحابنا إلى المنزل مدة ساعة، يا أمي؟ – إنها ليلة عيد الميلاد، كما تعلمين».

ضحكت أمي «لقد دعوته أصلاً».

سألت ليتي جورج: «هل تستطيــع السيدة ساكستون أنْ تستغني عنك طويلاً؟».

«ميغ؟ أوه، إنها لا تتحكّم في خروجي ودخولي».

ضحكــت ليتي «ألا تفعل؟ إنها متهــورة جداً. يجب أنْ تجرّ معها زوجها، وفي الحيــاة الآخرة – لطالما فشلت في حفظ مقتطَف بشكل

كامــل. إنني مملوءة بالبدايــات، أما النهاية -! لــزلي، إنَّ رباط حذائي محلول - هل يجب أنْ أنتظر حتى أضع قدمي على السياج؟».

ركع لزلي عند قدمها، فهزّت قلنسوتها وأزاحتها إلى مؤخرة رأسها، فتلألأت زخارفها تحت ضوء القمر. كان وجهها ببياضه وظلاله ينضح بالفتنــة، وأثارت عيناها في محجريهما المظلمين جورج بسِحرٍ مُستتر. ابتسمت له على امتداد وجنتيها بينما جثم زوجها أمامها. ثم، في أثناء سير الثلاثة نحو الغابة رمت أطراف ثوبها عنها فانحلت ببلاغة سلسة وظهــر جزء من صدرها الأبيض على ضوء القمر. ضحكت وأخذت تثرثر، وهزت ثوبها الحريري، مُرسلة عبق عِطر ذكي في الهواء البارد. وعندمــا وصلنا منزل ليتي تركت ليتــي أطراف أثوابها تسقط ومشت تحف بهــا إلى غرفة الجلوس. هناك كان مصبــاح يُرسل ضوءاً ضعيفاً، يرمــي شَفقاً أصفر من مساحــة النافذة. وقفت ليتي بــين ضوء الموقد ووهج المصبــاح المُعتم، ممشوقة ودافئة بين الأضــواء. وعندما التفتت وهــي تضحــك للرجلين، تركــت عباءتهــا تنزلق عن كتفهــا الأبيض وتسقــط بفخامةِ زرقــةِ طاووس رائعة علــى ذراع مقعد طويل. هناك وقفت، ويدهــا البيضاء على ذيل عباءتهــا الطاووسي، حيث سقطت على ثوبهــا البرتقالي الباهت. كانت واعيــة لرونقها، ورفعت نحرها ضاحكة ومتلألئــة بإحساس بالانتصار. ثم رفعت كلتيّ ذراعيها على رأسهــا وظلت برهة تلمس برهافة شعرهــا لتُصلح من شأنه، ولا تزال تواجــه الرجلَين. ثم مع ضحكة صغــيرة ختامية انتقلت ببطء ورفعت لهــب المصباح، مُبددةً بعضاً من السِحر عن الغرفة. كانت قد تطورت بصــورة غريبة خــلال ستة أشهــر. وكأنهــا اكتشفت السِحــر الرائع لأنوثتهــا. وبينما هي مائلــة إلى الأمام ممدودة الــذراع نحو المصباح،

وتضبط بدقة الفتيل بأصابع غامضة، بدت وكأنها تتحرك فيما يُشبه رقصة غواية، وشعرها أشبه بهالة نورانية تحجب الضوء، وصدرها مُضاء بأعجوبة. كان الامتداد الرقيق ليدها أشبه بهمس كلمات غريبة في الدم، وبينما هي تقلب صفحات كتاب كان القلب ينتظر بصمت المعنى.

قالت، غائصة بين وسائد الأريكة الطويلة: «هلا نزعتَ لي حذائي، يا حبيبي؟». ركع لزلي من جديد أمامها، وأحنت رأسها وراحت تراقبه.

قالت، بكآبة، وهي تمد له قدمها التي بدت كذهب معبّأ في جورب من الحرير الأصفر: «إنَّ قدميّ باردتان قليلاً». تناولهما بيديه، وداعبهما:

قال: «إنهما باردتان كثيراً»، وحمل كلتا قدميها بيديه.

هتفت برقة مفاجئة: «أوه، يا حبيبي العزيز!»، مائلة إلى الأمام لتلمس وجنته.

قالت لجورج، عابثة: «أليس رائعاً أنْ تنزل ضيفاً على «نُزُل رام»[٧٥]؟». بدا الآن أنَّ مسافة شاسعة تفصل بينهما وهي جالسة، والرجل بملابس السهرة يجثم أمامها ويضع حذاء ذهبياً في قدميها.

أجاب: «بالأحرى، إنَّ رجال غرفة التدخين هم الذين يقولون

---

٧٥ – قالتها بلهجة سوقية مُحاكية وساخرة. – المترجم

مثـل هــذه الأشياء التي تدل على السُّكر. يا إلهــي، كم يسمع المرء من الحكايات هناك».

ناشدته: «أخبرنا، أرجوك!».

«أوه! لا أستطيــع. لا يمكن أنْ أحكي مثل تلك الحكايات، وحتى لو كان استطاعتي - في الحقيقة -».

قالــت: «ولكنني أريــد أنْ أسمعها. ماذا يقــول الرجال في غرفة التدخين في «نُزُل رام». ألهذه الدرجة لا يمكن حكايتها؟».

ضحك «بالضبط!».

«خســارة! أترى مدى قسوة أنْ يكون المــرء امرأة، يا لزلي: إننا لا نعــرف أبداً ما الــذي يتداوله الرجال في غرفــة التدخين، في حين أننا نقــرأ في رواياتكــم كل ما لا تجــرؤ المرأة على النطق بــه. الأمر سيان! جورج، أنت إنسان بائس، يجب أنْ تخبرني. إنني أحسدك -».

سألها ضاحكاً: «علام تحسدينني، بالضبط؟» وهو يضحك طوال الوقت على أسلوبها المزاجي.

«على غرفة التدخين خاصتكم. على الطريقة التي تنظرون بها إلى الحياة - أو بالأحرى، الطريقة التي تسمعونها».

أجاب: «ولكن أعتقد أنَّ تجاربك في الحياة هي أضعاف تجاربي».

«أنــا! أنــا لا أرى إلا السلوكيــات - السلــوك القــويم والسلــوك

المنحـرف. كمـا تعلم «السلوكيـات تصنع الرجـل». أي في حضور المرأة. ولكن انتظر قليلاً، وسوف ترى».

سأل جورج وقد شعر بالإطراء وثار اهتمامه: «ماذا سأرى؟».

أجابت: «عندما ستجمع الثروة التي تحدثت عنها».

ارتفعت معنوياته بتذكرها الأشياء التي قالها.

قال بارتيـاب: «ولكن عندما اجمعها - عندما! - حتى حينئذٍ - حسـن، سوف أبقى مجرد، أو كنت سابقـاً، مالك «حانة رام»». نظر إليها، في انتظار أنْ تدعم آماله بفقاعاتها المرحة.

«أوه، هـذا لا يهـم! عندما يكـون لزلي في المنـزل يتصرف وكأنه صاحب حانة ما، وهذا لا يهم - أليس كذلك، يا حبيبي، يا عزيزي؟».

أجاب لزلي بتهكم وديّ: «شكراً لك!».

«لا يمكـن التمييز بين صاحب حانة ونبيل، إنْ كان صاحب الحانة ثريّاً»، ثم أضافت: «المال يصنع الرجل، كما تعلم».

أضاف جورج، ضاحكاً: «والسلوكيات أيضاً».

«أوه إنهـا موجـودة دائماً - حيـث أكون. أمنحـك مهلة عشرة أعـوام. بعدها عليك أنْ تدعونا إلى منزلـك الفخم - فلنقُل الهول في إيبرويتش - وسوف نحضر - «بكامل حلّتنا وحلينا»».

جلست بين وسائدها تبتسم له. كانت نصف ساخرة، نصف صادقة. بادلها الابتسام، بعينيه القاتمتين المملوءتين بالأمل المرتعش، وبالسعادة، وبالافتخار.

سألته: «كيف حال ميغ؟ هل هي فاتنة كعهدها دائماً – أم أنك أفسدتها؟».

«أوه، إنها فاتنة كما كانت دائماً، وكل منا مولع بالآخر».

أضافت، مبتسمة: «هذا صحيح! أعتقد أنَّ الرجال مصدر بهجة».

ضحك «يسعدني أنْ أسمع هذا منك».

تابعا الحديث بإشراق في أمور شتى. هي تطرقت إلى باريس، واللوحات الفنية، والموسيقى الجديدة، بطريقتها السريعة في الكلام، ووجدها جورج رائعة بثقافتها ووداعتها. وأخيراً قال إنَّ عليه أنْ يغادر.

هتفت، ممسكة بثوبها من حولها كأنه لهب ضعيف وهرعت خارجة من الغرفة، «ليس قبل أنْ تأكل بسكويتة، وتشرب نخب الحظ الحسن معي «. وشربنا كلنا الشمبانيا الباردة نخب العام الجديد.

قالت ليتي: «نخب Vita Nuova (الحياة الجديدة)!».

قال جورج: «اصغوا! النعيب!».

سكنـــتْ حركاتنــا وأصغينا. كان هناك صــوت نعيب واهن بعيد في الخــارج. كان الوقت منتصف الليل. أمسكت ليتي بطيات أثوابها وخرجنــا إلى الباب. الغابــة، والثلج، والتلال المُعتمــة الرمادية كانت متجمــدة تحت ضوء القمر. ولكن خارج الوادي، بعيداً في ديربيشير، بعيـداً نحو نوتنغام، وفي كل مــكان كان النعيب النائي وطنين المناجم ومصانــع الحديــد تحتشــد ضئيلة علــى حــواف الليــل، كالعديد من الأصوات الغريبة، المنخفضة، للديكة الصغيرة تصيح بطبقات صوت متفاوتة، ونبرات مختلفة، تنبئنا بطلوع فجر العام الجديد.

الفصل الثالث

الصفحات الأولى من قصص رومانسية عديدة

اكتشفــتُ في لزلي الكثير من الاختلاف منــذ أنْ تزوج. فقد فقَدَ ثقتــه الحازمة في نفســه، ولم يعُد باتّاً جازمــاً في كل موضوع يُطرَق، ولم يعُــد يسعى إلى الهيمنة، كما كان يفعل دائماً، على المجموعة التي يُجالسها. وفوجئت بمعاملته الدمثة، والمُجاملة لجورج. كان يتنقّل في الغرفــة شارداً بينما ليتــي تثرثر، واتّسم سلوكه بتحفّــظ جديد، وبرقّة وبكياسة. كان شيئاً فاتناً أنْ أراه يُقدم السجائر لجورج، أو يسأل، بكل ذوق، وبعينيــه فقط هل يُعيد ملء كأس ضيفه، وبعد ذلك يُعيد وضعه بهدوء إلى جوار يد الشخص الآخر.

كان مع ليتي مُراعياً، ودمثاً ومتواضعاً، على الدوام.

مــع اقتراب نهاية عطلتــي كان عليه أنْ يُغــادر إلى لندن في عمل، واتفقنــا علــى أنْ نقوم بالرحلة معــاً. ويجب أنْ نغــادر وودسايد بعد الساعــة الثامنــة صباحاً مباشــرة. كانت ليتي وهــو يُقيمان في غرفتين منفصلتــين. وظننتُ أنها لن تستفيق لتتناول طعام الإفطار معنا، ولكن

في السابعة والربع، حالما كانت ريبيكا تجلب القهوة، هبطت إلى الطابق السفلي. كانت ترتدي رداءً صباحياً أزرق اللون، وكان شعرها جميل التصفيف كالمعتاد.

قال ليزلي، وهو يُقبّلها: «ما كان ينبغي، يا حبيبتي، أنْ تزعجي نفسك وتنزلي باكراً هكذا».

أجابت، وهي تزيح الستارة الثقيلة وتطل على الثلج حيث الظلام يتلاشى لصالح ضوء النهار: «طبعاً، يجب أنْ أنزل. لا ينبغي أنْ أتركك ترحل في البرد من دون أنْ أحرص على أنْ تتناول إفطاراً دسماً. أعتقد أنَّ الثلج يذوب. إنَّ الثلج على الوردية يبدو أبله ورخواً. آه، لا بأس، في استطاعتنا أنْ نتجنب وحشة الصباح ساعة أخرى». ألقت نظرة سريعة على ساعة الحائط - وأضافت «ساعة واحدة فقط!». التفتَ إليها برقّة سريعة. ابتسمت له، وجلستْ عند آلة صنع القهوة. وجلسنا في أماكننا على المائدة.

قال بهدوء، أقرب إلى المُناشدة: «أعتقد أنني سأعود هذه الليلة».

راقبت تدفق القهوة قبل أنْ تجيب. ثم عاد الوعاء النحاسي إلى مكانه، وأمال وجهه نحو البخار العطِر.

أجابت بهدوء: «لن تقوم بمثل هذا العمل الأحمق، يا لزلي».

تناول فنجانه، شاكراً لها، وأمال وجهه فوق البخار العطِر.

أجاب، دون أنْ يرفع نظره: «يمكنني بكل سهولة اللحاق بقطار الساعة السابعة والربع من محطة القديس بانكراس».

سألتنــي: «هل أصبحتُ أكثر حــلاوة في رأيك، يا سيريل؟»، ثم، وهي تُحرك قهوتها، أضافت: «هــذا سُخف، لزلي! أنت تلحق بقطار السابعــة والربع وغالبــاً سوف يفوتك قطار نوتنغـام. ولا تستطيع أنْ تستعمــل السيارة هناك، بسبب الطرقات. ثم إنَّ من السخف أنْ تأتي وأنــت مُتعب إلى المنزل في الليل البــارد والموحل في وقت تستطيع أنْ تمكث في لندن وترتاح».

ألــحّ: «على أية حال يجب أن أركب قطــار العاشرة والنصف إلى لوتن هيل».

أجــاب: «ولكن لا داعي، ليس هنــاك أي داعٍ على الإطلاق لأنْ تعود إلى المنزل هذه الليلة. هذا تصرف سخيف حقاً منك. فكِّر في كل الإزعــاج! والحق أنني ما كنتُ لأرغب أبــداً في العودة مُتعبة ومُكتئبة إلى المنــزل عند منتصف الليل. ما كنت لأرغب البتّة. سوف تكون في حالة بائسة. ابقَ واقضِ ليلة ممتعة مع سيريل».

أبقى رأسه منحنياً فوق طبقه و لم يُجِب. أغضبها إلحاحه قليلاً.

قالــت: «هذا ما تستطيع أنْ تفعل! اذهب وشاهد عرضاً إيمائياً. أو انتظر – اذهب وشاهد عرض «الطائــر الأزرق» لمترلينك. أنا متأكّدة مــن أنها تُعرَض في مــكان ما. أتساءل إنْ كانــت ريبيكا قد تخلّصت مــن صحيفــة الأمس. هلاّ قرعــت الجرس مــن فضلــك، سيريل؟». جــاءت ريبيكا، وتم اكتشاف مكان الصحيفة. أخذت ليتي تقرأ بعناية الملاحظــات، وأعدّتْ نيابــة عنا وبحمــاس برنامجاً لقضــاء الأمسية. أصغى لزلي إلى ذلك كله في صمت.

عندمـا حان وقت رحيلنـا رافقتنا ليتي إلى الـرواق لتتأكّد من أننا نتدثـر بقـدرٍ كافٍ. لم يكن لزلي قد أكثر من الـكلام. كانت تدرك أنه يشعـر بمهانة بالغة، لكنَّ سلوكها هادئ جداً، وأحسنت معاملتنا نحن الاثنين بوجه مشرق.

قالت لـه، عندما اقترب ليُقبّلهـا دون كلام: «إلى اللقاء يا حبيبي! أتعلـم أنك كنـتَ ستقضي وقتاً بائسـاً طوال كل تلـك الساعات في قطـار طوال الليل. سوف تقضي وقتـاً ممتعاً. أعرف هذا. غداً سأنتظر رجوعك. إلى اللقاء، إذن، إلى اللقاء!».

هبـط الـدَّرَج ومنه إلى السيارة مـن دون أنْ ينظـر إليها. انتظرت عنـد ممر الباب ونحن نتحرك. بـدت في الصباح المُعتم-الرمادي أنها تـأوي تلألؤ السماء الزرقاء وأشعة شمس آذار بثوبها وبشعرها الغزير. لم ينظـر إليهـا إلا عندما انعطفنـا نحو زهور الورديـة الضخمة المُثقلة بالثلـج، عندما نهضَ واقفاً، في اللحظـة الأخيرة، في نوبة مفاجئة من الرعـب لكي يلوح لها بيده. وحالمـا رآها أصبحتْ الشجيرات حائلاً بينهما وسقط مُغتماً على مقعده.

سمعناها تهتف بمرح، وبرقة كشحرور: «إلى اللقاء!».

تحركـت السيـارة بحـذر على الـدرب الأبيض المُبلـل، من تحت الأشجار.

لقد عانيت الأمرّين من الحنين في منفى نوروود. على مدى أسابيع طويلـة تجولت في شـوارع الضواحي، تسكننـي روح بعض أصقاع

نذرمير. وبينما كنتُ أجوب الـدروب الهادئة حيث تنهض المصابيح وسط وحشة صفراء بين أشجار الليل الجرداء كنتُ أحسُّ بمشاعر الجزء المُظلـم، الرطب من الدرب الواصل بين مرج الغابة والجداول. كانت تتملكني روح ذلك المنحدر الصغير البري المؤدي إلى الميل، وهناك في ضواحي لندن كنتُ أمشي متدثـراً بإحساس مكان صغير ورطب في وادي نذرمـير. ويرتفـع صوت داخلي ينـادي درب التل؛ وأشعر من جديد بالغابة تنتظرني، تهتف وتهتف، وأنا أبكي شوقاً إلى الغابة، ومع ذلك كانت تفصل بيننـا أميالٌ وأميال. ومنذ أنْ غادرت وادي الوطن لم أعُد أخشى أية خسارة أخرى. لقد كانت تلال نذرمير هي جدراني، وسمـاء نذرمير هي سقفي الذي يحميني. في الوطن، كان يبدو أنَّ في استطاعتي أنْ أرفع يدي إلى سقف الوادي، وألمس سمائي الحبيبة، التي كانت غيومها الأليفة تأتـي مراراً وتكراراً لزيارتي، ونجومها وفيّة لي، وُلِدَتْ مع ولادتي، وشمسها في مقـام أمي[٧٦]. أما الآن فالسماوات غريبـة فوق رأسي، ويمرّ بـرج الجوزاء بـي دون أنْ يلاحظ وجودي، هـو الذي طالمـا توقف فـوق الغابة ليلة بعـد ليلة ليقضـي معي ساعة رائعة. والآن متى سيرفع النهار جدران سجني، متى سيفتح الليل مداه الشاسع أمامـي، ويُرسل إليّ النجوم لتونّـس وحدتي؟ ليس في المدينة ليـل. كيف أتماهى في غابـة الظلام الرائعة والليل ليـس أكثر من بضع شجرات متناثرة من الظل وبينها عقم الأضواء!

لم أكـن أستطيـع أنْ أرفـع عينـيّ إلا إلى كرستال بالاس، جاثم،

---

٧٦ – في الإنكليزيـة، الشمس مُذكّر، لذلك قـال لورنس في الأصل «وشمسها في مقام أبي». – المترجم

منكمش بائساً بين الغيوم الصفراء–الرمادية، يرفع بُرجيه المُدببين المُستديرين كأعمدة بؤس قلق. لا يمكن لأي مَعلَمْ أنْ يكون أجنبياً أكثر، ومُقبِضاً أكثر، بالنسبة إليّ، من القصر المتهدم العظيم الذي يبقى دائماً بارزاً يُهيمن فوقنا غاضباً بسبب انحطاطه وتهدّمه.

راقبتُ البراعم تتفتح على أشجار اللوز البنيّة؛ سمعتُ الشحاير، ورأيتُ الزرازر النشطة؛ وفي الشوارع كانت أكوام عديدة من البنفسج، والناس يُقدمون إليّ أزهار اللبن الثلجية التي كانت شِفاهها البيضاء الخرساء ممتدة إلى أعلى على شكل باقة: لكنَّ هذه الأشياء لم يكن لها أي معنى بالنسبة إليّ، ولا أثارت اهتمامي.

أشدّ شوقي كان في انتظار وصول رسائلي. كانت إميلي تكاتبني باستمرار:

ألستَ منتشياً، وثملاً بحريتك؟ أعتقد أنَّ هذا شيء رائع جداً. في الوطن لا تستطيع أنْ تعيش حياتك الخاصة. إذ عليك أنْ تكافح لكي تُحافظ حتى على جزء صغير من كيانك. من الصعب أنْ نعيش بمنأى عن أمهاتنا، ومع ذلك فإنهن يتأذّين ويشعرن بالمهانة إذا أفصحت لهن عما يعتلج في قلبك. كم هو مُريح ألا تُضطر أنْ تعني أي شيء لأي شخص، وألا تُرضي إلا نفسك. أنا واثقة من أنَّ أمي وأنا قد عانينا الكثير من محاولة الحِفاظ على صِلاتنا القديمة. ومع ذلك ترفض أنْ تُطلق سراحي. عندما أعود إلى المنزل في المساء وأفكر في أنني لستُ في حاجة إلى قول أي شيء لأي شخص، ولا أنْ أفعل أي شيء لصالح أي شخص، بل أنْ أقضي الأمسية كلها لنفسي، تغمرني السعادة.

لقد باشرت بتأليف قصة –

ثم، بعد ذلك بقليل، تكتب قائلة:

في طريـق ذهابي إلى المدرسة مارة بقرية أولد بريفـورد في الصباح ترسل العصافير تغريدهـا الرائع ويبدو أنّ كل شيء يتحـرك. في الغالب ستكون هناك فترة توقف، ومن ثم سوف يحل الربيع الحقيقي.

متـى ستأتي وتـراني؟ لا أستطيـع أنْ أفكر في الربيع من دونـك. إنَّ سكك الحديد هـي الشيء الوحيد المُثير هنا - أحدها يقع فقط علـى مسافة بضع ياردات من المدرسة. وطوال النهار أراقب قطارات مبلاند العظيمة تتجه غرباً. إنها محظوظة جداً لأنها تستطيع أنْ تندفع غرباً تحت أشعة الشمس.

الغربـان مُبهجـة جداً. إنهـا ترفرفُ مارة طوال فـترة وجودنا في الفنـاء. وسكك الحديد والغربان يصنعان سِحر حياتي في بدفورد. في يوم قريب لم أرَ نهاية غرابين. أتعلم ماذا يقولون في المنزل؟ - «هناك شخص حزين». وغالباً هناك مخلوق وحيد يجلس على أسـلاك البرق. إننـي أكرهه عندما أنظر إليه. أعتقد أنَّ علامتي المُميَّزة في الحياة يجب أنْ تكون - غراب واحد -

وأيضاً، بعد ذلك بقليل:

مكثـتُ في المنزل في العطلة الأسبوعيـة. أليس جميلاً أنْ تُستغَل على أفضل وجه، أنْ تكون شخصية هامة ومُدللة ولو لفترة قصيرة؟ إنها تجربة جديدة تماماً عليّ.

أزهار اللبن الثلجي في أوج تفتحها بين العشب في الحديقة الأمامية - وما أغزرها. أتصـور أنك ستأتي تحت شمس بعد ظهيرة يوم أحد لتراهـا. يبدو لي مستحيلاً ألا تأتي. أعشـاب البيش الشتوي ظهرت على طول السيـاج. ركعتُ وقبّلتها. لقد فرحتُ كثيراً لأنني سأرحـل، لأتنفّس هواء الحياة الحرة، لكنني شعـرتُ كأنني لا أقوى على الابتعاد عن أعشاب البيش. لقد بعثتُ لك بعضها - هل ذبلت كثيراً؟

أنـا الآن في مـكان إقامتي، ينتابنـي شعور غريب بأنني راضية عـن مكوثي هنا فترة قصيرة – وليست طويلة – ليس أكثر من عام، أنا متأكدة. ولكي أرضى يكفيني أنْ أبقى فترة قصيرة –

في شهر آذار استلمتُ رسالة من والدي:

لـن ترانا مرة أخـرى في المكان القديم. سـوف نرحل في غضـون أسبوعَين. مُعظم الأمتعـة أُرسِلَـتْ الآن. احتفظ جورج ببـوب وفلور. لقد بعتُ ثـلاث أبقار، ستافورد، وجوليـا وحنة. يبـدو المكان فارغاً جداً. أكـره أنْ أمر بحظائر البقـر، ونحن نشتاق إلى سمـاع وطء حوافر الجياد ليلاً. لكنني لن أندم بعد أنْ نرحل حقاً. لقد بدأتُ أشعر كأننا أُصبنا بالركود هنا. أبدأ بالشعور كأنني كنتُ أركد وأُصبحُ ضيق الأفق وبليداً. سيكون الهروب فرصة لعيش حياة جديدة.

لكنني أتساءل كيف سنكون هناك. إنَّ السيدة ساكستون قلقة جداً بشأنْ الرحيل. ولكـن في أسوأ الأحوال نستطيـع أنْ نعود. إنني أشعر كأنني يجـب أنْ أنتقل إلى مكان آخر، فالمكان هنا أصبح راكداً وليس فيه إلا الجوع. أتمنى أنْ يرافقني جورج. لم يخطر في بـالي أبداً أنه سيتعود علـى إدارة الحانة، ولكن يبدو أنه يُحب ذلك حقاً. لقد نزل مع ميغ في يـوم الأحد. وتقول السيدة ساكستون إنه يكتسب سلوك مُرتادي الحانة. لقد أصبح حتمـاً أكثر حيوية، ويتكلّم أكثر من ذي قبل. يسعدني أنْ أقول إنه وميغ يبدوان مرتاحين جداً. ويحظى بدورة حليب جيدة، ولا أشك في أنه يُحسن التصرف. وهو شديد الحذر في أعماقه؛ ولن يخسر الكثير إذا لم يكسب الكثير.

إنَّ سـام وديفيد صديقان وفيّان. إنني سعيـد باحتفاظي بالفتى. نحن غالباً نتحدث عنـك. ولولا بيع الأشياء وما إلى ذلك لكان الوضع مملاً. والسيدة ساكستون تقول إنها ستكتب لك بهذا الشأن –

كان جورج كاتب رسائل بائس. وسرعان ما توقفت عن توقّع وصول رسالة منه. ثم تلقيتُ واحدة بعد وصول رسالة الوالد مباشرة.

عزيزي سيريل،

سامحني لأنني لم أراسلك من قبل، ولكن في الواقع، لا أستطيع أنْ أجلس وأكتب لك في أي وقت. فإذا لم أتمكن من فعل ذلك عندما أشعر برغبة فيه، فلن أستطيع أنْ أفعله أبداً. وهكذا كثيراً ما يحدث أنْ تأتيني الرغبة وأنا أعمل في الحقول، حيث يستحيل عليّ أنْ أكتب. وليلة أمس جلستُ وحدي في المطبخ عن عمد لأكتب إليك، ولم أتمكن. وطوال النهار، وأنا في غريميد، كنتُ أبذر الحب في الأرض المُراحة خلف الكنيسة، وأفكر فيك، وكان في وسعي أنْ اكتب لك لو كانت الأدوات بين يديّ، لكنها لم تكن في حوزتي، وفي الليل لم أتمكن.

يؤسفني أنْ أقول إنني في رسالتي الأخيرة لم أشكركَ على الكتابَين. لم أقرأ الاثنين، ولكنني أوشك أنْ أنتهي من كتاب إيفلين إنّس[٧٧]. لقد مللته مع اقتراب نهايته. لم أعد أقرأ كثيراً الآن. يبدو أنه لم تعد أمامي فرصة لذلك، فإما يناديني أحدهم في غرفة التدخين، أو يكون لدي عمل ما أقضيه، أو تمنعني ميغ عن ذلك. إنها لا تريد مني أنْ أقرأ ليلاً، تقول إنني يجب أنْ أتحدث معها، لذلك أُضطر أنْ أفعل.

إنها السابعة والنصف، وأنا جالس مرتدياً ملابسي استعداداً للذهاب والتحدث مع هاري جاكسون عن المُهر الذي يرغب في بيعه لي. إنه يُعاني من ضائقة مالية، سوف يُصبح حصاناً جيداً. لكنني لستُ متحمساً كثيراً لشرائه. إنّ الرغبة تتملكني في الكتابة إليك. إنني في أعماقي أشعر بالبؤس والكآبة، ومع ذلك لا حاجة بي إليه. إنني أكسب

---

٧٧ – «إيفلين إنّس»: كتاب من تأليف جورج أوغست مور (١٨٥٢ – ١٩٣٣). – المترجم

مالاً وفيراً، ولدي كل ما أشتهي. لكنني كنتُ أمارس الفلاحة وأحصد الشوفان في تلك الحقــول على سفح التل خلــف كنيسة غريميد، وشعرتُ وكأنني لم آبــه إنْ نجحت أم لا. أمــر غريب جــداً. في الأسبوع الفائــت كان دخلي خمسة جنيهات صافيــة، بصورة أو بأخــرى، ومع ذلك أنا الآن في أشــدّ حالات القلق والسخط، وأشعر بتوق إلى شيء ما، لكننــي لا أعرف ما هو. أحياناً أاتســاءل إلى أين أنا ذاهب. وبالأمس راقبت كتلاً بيضاء مــن الغيوم المتفكّكة تُبحِر عبر السماء تدفعها ريــاح قوية منعشة. تبدو كأنها تقصد غاية ما. وتساءلت إلى أين تدفعها الرياح. يبدو أنني لا أتوقف عند شيء مُحدد، أليس كذلك؟ هــل تستطيع أنْ تخبرني ماذا أريد في أعماق قلبي؟ أتمنــى لو كنتَ هنا، عندئذٍ لن ينتابني مثل هذا الشعور. ولكن في العموم لا أشعر هكذا، في العموم انا سعيد جداً، ومشغول.

يــا إلهــي، ها قد جاء هــاري جاكسون لمقابلتــي. سوف أُكمل هــذه الرسالة عندما أعود.

هــا قد عدتُ، لقد خرجنا، ولكن لا أستطيــع أنْ أكملها. لا أستطيع أنْ أخبرك كل شــيء. لقد نشب بيني وبين ميغ شجار صغير. أوه، لقد مررتُ بوقت عصيب. ولكن لا أستطيــع أنْ أخبرك عنه هــذه الليلة، الوقت متأخّر، وأنا مُتعَب، وأعاني من الصداع. ربما في وقت لاحق –

جورج ساكستون

حــل الربيع بشجاعــة، حتى في جنــوب لندن، وامتــلأت المدينة بالسِحــر. لم أتعــرَّف إلى لــون المساء القرمــزي المُترف إلى أنْ رأيت المصابيح القوسيّة المستديرة تمتلئ بالضوء، وتتدحرج كفقاعات ذهبية على طول الغسق القرمــزي للطريق العامة. في الليل تمتلئ المدينة كلها بسِحــر المصابيح: تصــب على النهر زيتها المُضــيء العائم على الظلام

القلـق على شكل بقع ذهبيــة؛ تعوم المصابيح البراقــة جيئة وذهاباً من تجويــف محطة لنــدن بريدج كنحـل مُشع مُستديـر يلج خليّــة سوداء ويخرج منها؛ وفي الضواحي تومض مصابيح الشوارع ببريق الليمون بين الأشجار. لقد بدأتُ أحبّ المدينة.

في أوقــات الصبــاح أحــبّ أنْ أهيــم علــى وجهي علــى امتداد الشــارع، أراقــبُ الوجوه تقترب مني، تلقي نظـرة مُفاجئة من عيون قاتمــة، أراقبُ صــدور النساء وهن يتحدثن في أثنــاء مرورهن، أراقب الحـركات المُرهفــة لأكتــاف الرجال من تحــت معاطفهــم، والدفء العــاري لأعناقهم التي تتوهج على طـول الشارع. لقد أحببتُ المدينة بشــدّة بسبب حركات الرجال والنساء، والومض المفاجئ في عيونهم وشِفاههــم لــدى مرورهــم. كان انتباهي يتنقّل بـين الوجوه كلها في الشــارع كنحلة تتسلق بجهد ثمل بين الأزهار الزرقاء. أصبحتُ ثملاً بالرحيق الغريب الذي أرشفه من عيون المارة.

لم أعرف كيف كان الوقت يمضي سريعاً على أجنحةٍ ساكنة برّاقة، إلى أنْ رأيــتُ نبــات الزعــرور الــبري القرمزي يتباهى علــى الطريق، وبراعم الليمــون تضيء كقطرات من النبيــذ في الشمس، والأوشحة الورديــة لبراعــم الليمــون جميلة كعشبــة القمل تزهــر في المجاري، وأغصان اللوز المتشابكة الفضية—الوردية أمام صفحة السماء الزرقاء. أزهــر الليلك، وفي سكون الضاحية الكئيب، ليلاً، انبعث عطر أزهار الليلك المتواني واللذيذ، موقِظاً ضحك الرومانسية الصامت.

الغريــب أنّه عبر هذا كلــه، تناهت أصوات الوطــن الكئيبة. وفي نهاية شهرِ أيار كتبت لي أليس تقول:

عزيـزي سيريل، استعـد للمفاجأة. لقد أنجبـت ميغ توأماً بالأمــس. ذهبتُ بعد ظهـيرة هذا اليوم لأقوم بزيارتهــا، دون أنْ أعلم بأي شــيء، وإذا بي أجد عصفورَين صغيريــن في العش، والجدّة ستينرايت تسيطر علــى الأمور. كدتُ أغيب عن الوعي. عزيـزي سيريل، لم أدر هل أضحك أم أبكـي عندما شاهدت تينك الرأسين الصغيرين المُستديريــن العجيبين، كقمعَي صنوبر الأرزية منضمَّين معاً على غُصين. واحد أسمر، بشعر أسود غزير، والآخر أحمر اللون، أتصدق هذا، فقط مُضاء بشعر خفيف أحمر كومضــ نار الموقــد. وشهقتُ. أعتقد أنني زرفت بضع دمعــات، وإنْ كنتُ لا أعرف السبب.

إنَّ الجــدّة العجوز تتصرف كبائسة عجوز مثالية. إنها تستلقي في الغرفة المجاورة تقوّق وتعلّــق بصوت مسموع، مسرورة كل السرور، لكنها شديدة الغضب لأنَّ الأم ستينرايــت لم تسمح بإدخالهما إليها. كان يجــب أنْ تسمعها عندما أدخلناهما أخيراً. إنهمــا ذكران. لقد أثــارت الكثير من الضجيــج، تلك العجوز المسكينــة. أعتقد أنَّها مُصابة بقدر من الخَرَف. أحياناً تعتقد أنهما ولداها، ويجب أنْ تسمعها، بالطريقة التي تتكلم بها معهمــا، جعلتني أشعر بالخوف. لقد أرادتْ أنْ تُبقيهما معها على الوسادة، لكــي تتحسّسهما بخدّها. لقد بكيت مرة أخــرى، يا سيريل. أعتقد أنني أُصبح خرفة أيضاً. لكنها استعادت وعيها عندما أخذناهما منها، وبدأت تقهقه مع نفسها، وتتكلم عمــا ستقول لجورج عندما يعود – أشياء فظيعــة وصاعقة، يا سيريل، جعلت وجنتيّ تحمران بصورة مُخيفة.

لم يكن جورج قد علِمَ بالأمر بعد. أعتقد أنه كان في نوتنغام يشتري بعض الخيول. يبدو أنه مهووس بشراءالخيول. ووصل مع هاري جاكسون وأبنيّ ميهيو – كما تعلم، كانــا من تجار الخيول – على الأقلّ والدهما كان كذلك. وكما تذكُر مات مفلساً قبل حــوالي ثلاث سنوات. وبقي له فريد ودنكان. وهمــا يدّعيان أنهما يتوليان أمور هذه

التجارة. ودائمــاً يترددان على حانة رام، ويُرى جورج دائماً بصُحبتهما. أنا لا أحب هذا – إنهما متسكعان، وسوقيان، وأصبحا الآن فقيرين.

حســن، فكّــرت في أنْ أنتظــر لأرى جــورج. وجاء عنــد حوالي الساعــة الخامسة والنصــف. كانت ميغ متوترة لغيابه، تتساءل أين هــو، وماذا ألمّ به، وما إلى ذلك. لعننــي الله إنْ كنــت سأقلق يوماً أو سأهتم بأمر أي رجــل. وسمعت الجدّة صوت العربــة، وقبــل أنْ يتمكن من الترجّــل منها صرخت – وكما تعلــم تقع غرفتها في الجزء الأمامي من المنزل – «هيه، جورج، يا بُنيّ، عجّل والقِ نظرة عليهما – إنهما اثنان إنهما اثنان!»، وضحكت ضحكاً فظيعاً.

قال: «مرحباً، جدّتي، لماذا تصرخين هكذا؟»، وعندما سمعت ميغ صوته التفتتْ إليّ بنظرة تُثير الشفقة، وقالت:

«لقد كان مع ولديّ ميهيو».

صرخــت العجــوز «أصبح لك توأم، اثنان في بطن واحدة يــا ولدي!»، وأنت تعلم كيــف تصهل قبــل أنْ تضحك! حتــى أنَّ الحصان أجفــل، فسبّه سباً فظيعــاً. أخذه بيل، وارتقــى جورج إلى الطابق العِلوي. فرأيتُ ميــغ تنكمش عندما سمعتْ وقع خُطاه وهو يرتقي الدَّرَج، وشحب لونها. عندما وصل إلى أعلى ودخل كان يفوح برائحة الويسكي والخيول. يا لطيف، كم يكون الرجل كريهاً عندما تفوح منه رائحة الخمر! ووقفَ بجوار السرير يُكشّر كالأبله، ويقول، بلسان ثقيل:

«لقد استعجلتِ، حبيبتي ميغ. وكيف تشعرين الآن؟».

قالت ميغ: «أوه، أنا بخير».

قال: «أحقاً هما توأم؟ أين هما؟».

نظرت ميغ إلى المهد، فدار حول السرير وانتقل إليه، متمسكاً بدرابزين السرير. و لم

يُقبّلها، أبداً. وعندما شاهد التوأم، نائمين وقبضاتهما مُحكمة الإغلاق كالشمع، ضحك كأنه يتسلّى، وقال:

«يكفي اثنان – وأحدهما أحمر! أيّهما فتاة، يا ميغ، الأسمر؟».

قالت ميغ، بخوف شديد «إنهما ذكران».

استدار، وزاغت عيناه قليلاً.

قال: «اللعنة عليهما إذن!». وقف في مكانه يبدو كالشيطان، يا عزيزي سيبيل، لم أكن أعلم أنّ صاحبنا جورج يمكن أنْ يبدو هكذا. حسبتُ أنه يمكن أنْ يبدو فقط أشبه بكلبٍ وفيّ أو أيلٍ جريح. ولكنه بدا شيطانياً. وقف يراقب التوأم المسكين، ويعبس في وجهيهما، إلى أنْ بدأ ذو الوجه الأحمر يئن قليلاً. جاءت الأم ستينرايت تجرّ معها جثتها البدينة ووقف أمامه ومالت فوق الطفل، قائلة:

«لِمَاذا، يا حبيبي، ماذا فعلوا بك، ماذا فعلوا؟ – ماذا يفعلون بك؟».

تجهّم جورج أكثر من أي وقت مضى، ثم خرج يترنّح وارتطم بوعاء الغسل وجعل الأوعية تقعقع حتى قفز قلبي بين أضلعي.

قالت الأم العجوز ستينرايت: «حسن، إذا لم تسمّي هذا أمراً فاضحاً –!»، فبدأت ميغ تبكي. أنت لا تعرف، يا سيريل! لقد أخذتْ تجهش حتى انفطر قلبي. شعرت بأنّ في إمكاني أنْ أقتله.

وبدأتْ تلك الجدّة العجوز تتحدث معه، فضحك منها. كم أكره أنْ أسمع رجلاً يضحك وهو شبه سكران. إنه يجعل دمي فجأة يغلي. إنّ تلك الجدّة العجوز تُسانده في كل شيء، إنها دائماً مُقرفة. لقد سبق لميغ أنْ بكيت على الاثنين. يا لها من عجوز سوقية، خبيثة –

رجعت إلى الديار في وودسايد في أوائل شهر أيلول. كانت إميلي تقيم في الحانة. الأمر الغريب هو أنَّ كل شيء أصبح مختلفاً. حتى نذرمير بدا مختلفاً. لم يعُد نذرمير عالماً صغيراً رائعاً قائماً بذاته جعل منا سكاناً مفتونين. كان وادياً صغيراً، تافهاً، ضاع في فيافي الأرض. الشجرة التي كانت تتدلى فوق الغدير بجمال رومانسي، مُبهج، أصبحتْ شيئاً سخيفاً بعد أنْ رجعتُ إلى الوطن بعد غياب عام في الجنوب. كانت الرموز الماضية مبتذلة وحمقاء.

في صباح ذات يوم هبطنا أنا وإميلي إلى ستريلي ميل. كان المنزل يشغله عامل مع زوجته، غريبان من الشمال. كان طويل القامة، وشديد النحول، وصامتاً، يوحي بصورة غريبة بأنه من أقرباء جرذان المكان؛ وهي ضئيلة وشديدة الحيوية، أشبه بدجاجة أليفة رثّة أضحت بريّة. كانت إميلي قد قامت بزيارتها، فدعتنا إلى مطبخ الطاحونة، وقدّمت لنا كرسيين. كانت الغرفة الكبيرة توحي بجو زنزانة عقيم. وهناك طاولة صغيرة وحيدة بالقرب من الموقد، وبضعة كراس عند الجدران؛ أما ما تبقّى، فمساحة مُقفرة من الأرض المُبلّطة تغيبُ داخل الظل. وعلى الجدران المُحيطة بالنوافذ عُلِّقتْ خمسة أقفاص لطيور الكناري، والحركات الحادة القليلة للطيور جعلت جو الغرفة أشدّ غرابة في إقفارها. وعندما باشرنا الحديث بدأت الطيور تغرد، حتى أصابنا الارتباك، ذلك أنَّ المرأة الضئيلة كانت تتكلم لغة غلاسكو الاسكتلندية، ولها شفتيّ أرنب بري. فنهضت وركضت نحو الأقفاص، وهي تصيح كدجاجة برية، وتلوح بمنفضة غبار في وجه عصافير الكناري المُغرّدة.

صرخت، هـازةً جسمها النحيل غريب الشـكل أمامها: «كفى! كفى! أيتهـا الشياطين الصغيرة السخيفة، حمقـاء، حمقاء، حمقاء!» ولوحت بالمنفضة إلى أنْ هدأت الطيور. ثم أحضرت لنا كعكاً مستديراً لذيذاً وهلاماً بمذاق التفاح، وألّحت علينا، بل ولكزتنا بمرفقيها النحيلين كي نأكل.

«ألا تعجبكمـا، ألا تحبانهـا؟ كُلا، كُلا إذن. هيا إميلي، هيا، كُلي المزيد. ولكن لا تُخبري توم – لا تُخبري توم عندما يدخل »- وهزّت رأسها وضحكتْ ضحكها الحادّ، والغريب.

عندمـا غادرنا رافقتنا إلى الخارج، وهرعت إلى المقدمة. و لم يسعنا إلا أنْ نلاحظ كم كانت تنورتها السوداء، القصيرة، رثّة ومهملة. لكنها كانت تتحـرك بسرعة حولنا، هنا وهناك كدجاجـة متحمسة، تتكلم بصوتها عالي النبرة، وبأسلوبها الغامض. و لم أُصدق أنّها مسؤولة عن طاحونـة التفقيس. لم أستطع أنْ أفكّـر في أنَّ تلك كانت ستريلي ميل الأعوام الماضية. أخذت ترفرفُ مرتقية ضفة البستان المنحدرة أمامنا. وتصادفَ أنْ التفتت فرأت إميلي تتبادل الابتسام معي فبدأتْ تضحك ضحكها المطوَّل والغريب وتقول مع نظرة خبيثة:

«إميلي، هـذا حبيبك، حبيبك يا إميلي! أنـت لم تخبرينني أبداً!» وضحكت بصوتها العالي.

احمـرّ وجهانا من شدة الغضب. تركـت حافة أخدود جر المياه، واقتربت منا، وهي تصيح:

«كنتمـا تأتيـان إلى هنا وتقضيان الليالي، أليـس كذلك يا إميلي – أليس كذلك؟ وعادت تضحـك من جديد. ثم جلست فجأة، وتشير فوق رؤوسنا، وتزعق:

«انظـرا هناك!»– ونظرنـا فرأينا نبات الدبق. «انظـر إليها! انظر إليها! كـم قُبلة تتبادلان في الليلة الواحـدة، إميلي؟ – ها! ها! قُبلات طوال العام! قُبلات طوال الليل في مكان منعزل».

وظلـت تتكلم بعنف لوقت قصير، ثم أخفضتْ صوتها وتكلمت بنبرة منخفضة، مُثيرة للشفقة. وراحت تدفع بالكعك المستدير والهلام وكعك الشوفان إلينا، وغادرناها.

عندمـا أصبحنا في الخـارج على الطريق بجـوار الجدول نظرتْ إميلي إليّ بوجه خجول، وعينـين ضاحكتين. لاحظتُ حركة بسيطة في شفتيهـا، وفي الحـال وجدتني أُقبّلها، وأضحـك مستعيراً شيئاً من عنف المرأة الضئيلة.

الفصل الرابع

حياة عائلية في الحانة

كان جورج شديد التوق لاستقبالي في منزله. كان قد تبقّى لحانة رام رخصة عمل مدة ستة أيام، لذلك ذهبت إلى هناك بعد ظهيرة يوم أحد لأشرب الشاي. في أثناء مروري بغريميد كان الجو دافئاً جداً وساكناً ومُشمساً. كان بعض العشاق يتمشون الهوينا تحت أشجار كستناء الحصان، أو يعبرون الطريق للذهاب إلى الحقول الممتدة المكسوة بغطاء ناعم بعد حصاد القش.

مع اقترابي من الطريق المبلَّطة نحو باب مطبخ النُّزُل سمعت صوت انزلاق قالب الخبز وصفع باب الفرن، وميغ تقول بنزق:

«كلا، لا تأخذيه، يا إميلي – ذلك المخلوق الصغير الشقي! دعي والده يحمله!».

كان أحد الطفلَين يبكي.

دخلت، فوجدت ميغ متوردة وشعثة، تضع مئزراً كبيراً أبيض،

وقد نهضت للتو عن الفرن. وإميلي، بثوب بلون الكريما، تتناول طفلاً أحمر الشعر من المهد. وكان جورج جالساً على الأريكة الصغيرة، يُدخن ويبدو نزقاً.

قالت ميغ، بلهجة شبه عصبية: «لا أستطيع أنْ أصافحك. الطحين يُغطيني. اجلس من فضلك -» وهرعت خارج الغرفة. رفعت إميلي نظرها عن الطفل المتذمّر ونظرت إليّ، وابتسمت ابتسامة امرأة وديّة ونادرة، كأنها تقول: «أترى، أنا منهمكة برهة في هذا، لكنني أحجز قلبي لك طوال الوقت».

نهضَ جورج وقدَّم لي الأريكة المستديرة. كان ذلك أعظم تشريف يستطيع أنْ يقدمه إليّ. وسألني عما أرغب في شربه. وعندما رفضت كل شيء، جلس بتثاقُل على الأريكة الطويلة، عابساً، ويقدح قريحته بغضب ليقول شيئاً - عبثاً.

كانت الغرفة كبيرة ومفروشة بصورة مُريحة بكراسٍ من قشّ، وطاولة زينة بقبضات من الزجاج، وبخزانة أطباق بأبواب من الزجاج، تجثم على رف في الركن، وبالأريكة الكبيرة المعتادة، السرير الرخو والمريح والوسائد مكسوة بغطاء من القطن الأحمر. أثارت الغرفة ذكرى خاصة عن الطعام والشراب؛ بيرة، وقليل من الكحول، واللحم المُقدَّد. دخلت تيني، الخادم النكدة، سوداء الحاجبين، حاملة الطفل الآخر، وهتفت ميغ من غرفة المؤن تسألها إنْ كان الطفل نائماً. من الواضح أنَّ ميغ كانت هائجة وثائرة، وفي حالة اضطراب قُصوى.

أجابت تيني «كلا، إنه لا يرغب في النوم هذا اليوم».

أجابت ميغ بنزق: «اضرمي النار وانتبهي للفرن، ثم ألبسيه رداءه». وضعـت تيني الطفل ذا الشعر الأسـود في المهد الثاني. وفي الحال بدأ الطفـل يبكـي، أو بالأحرى يعبّر عـن احتجاجه. اقـترب جورج منه والتقط أرنباً أبيض غزير الفرو ووضعه أمام الطفل:

«خـذ، انظـر إلى الأرنـوب! خذ أرنبـك الظريـف! اسمع كيف يصرّ!».

أصغـى الطفل برهة، ثم، بعد أنْ قـرّر أنَّ هذا مجرد وسيلة للإلهاء، بدأ يبكي من جديـد. رمى جورج الأرنب وحمل الطفل، وهو يشتم في داخله. ووضع الطفل على رُكبتيه.

«مـا الأمر؟ - ماذا بـك؟ هيا نركـب إذن - دي-ده-دي-ده-دي!».

لكنَّ الطفل كان يعلم جيداً كيف يشعر والده نحوه، وتابع البكاء.

قال جورج بينما الخادم تحرك الفحم على النار، «أسرعي، تيني!». كانـت إميلـي تتمشى لكي تُهدهـد الطفل الذي تحمـل، وتبتسم لي، لذلـك كنتُ أستمدّ متعـة خاصة من جمع عسل نظـرات الحب التي تقطرها على شفتيّ الطفـل. أعطى جورج طفله إلى الخادمة، وقال لي بتهكّم صبور:

«هلا نزلنا إلى الحديقة؟».

نهضـتُ ولحقـت به، عبر الفنـاء المُبلّـط، وعلى طـوال الممر بين

الشجيرات. أشعل غليونه وتابع طريقه الهوينا كما يسير صاحب الأرض في أملاكه، شاعراً بأنَّ القوانين والأعراف لا تطاله.

قال: «في الحقيقة، إنها مديرة أعمال سيئة جداً».

ضحكت، وقلتُ معلّقاً على مدى ثراء أشجار الخوخ بالثمار.

أجاب بإهمال: «نعم! أنت تعلم أنه كان ينبغي أنْ تُرسل الخادم مع الطفلين في نزهة بعد ظهيرة هذا اليوم، وأنْ ترتدي ملابسها مباشرة. ولكن لا، يجب أنْ تجلس وتثرثر مع إميلي طوال فترة نومهما، ومن ثم حالما يستيقظان تبدأ بصنع كعكة -».

أجبتُ: «أعتقد أنها شعرت بأنها تستمتع بالثرثرة المسلية، وكل شيء هادئ».

«لكنها تعلم جيداً أنك قادم، وماذا يجب أنْ تفعل. لكنَّ المرأة مُجردة من أية بصيرة لعينة».

قلت: «كلا، هذا لا يهم!».

«إنَّ يوم الأحد هو اليوم الوحيد الذي نستطيع فيه أنْ نستمتع فيه بقليل من الهدوء، لذلك عليها أنْ تبقيهما هادئين».

أجبت: «أعتقد أنه أيضاً اليوم الوحيد الذي تستطيع فيه أنْ تستمتع بقليل من الثرثرة الهادئة».

قال: «ولكن أنت لا تعلم. يبدو أنه لا تتوفر لنا لحظة من الحرية. إنَّ

تيني تنام هنا الآن، وتُقيم معنا في المطبخ - وأوزوالد أيضاً - لذلك أنا لم أعرف أبداً معنى أنْ أحظى بلحظة حميمة. يبدو أنه لا توجد بقعة واحدة يمكنني أنْ أجلس فيها بهدوء. إنهما الطفلان طوال النهار، والطفلان طوال الليل، والخادمان، ومن ثم كل الرجال الذين في النُّزُل - أحياناً أشعر وكأنني أرغب في الهروب. سوف أترك الحانة حالما أستطيع ذلك - لكنَّ ميغ لا تريد».

«ولكن إذا تركت الحانة - وماذا بعد؟».

«أودّ أنْ أعود إلى الزراعة. في الحقيقة، هذا المكان لا يصلح للزراعة. كنتُ دائماً أجد ما أُشغل به نفسي. فإما هناك مندوب يجب أنْ أقابله، أو يجب أنْ أذهب إلى مصانع التقطير، أو لدي مَنْ يرغب في معاينة حصان، أو ما شابه. إنَّ الحياة أصبحت فوضى. لو أنَّ لدي مكاناً خاصاً بي، وأقوم بزراعته بهدوء -».

قلت «لأصبحتَ في أسوأ حال يمكن تصوره».

وافق قائلاً، بطريقته المتأملة القديمة: «ربما، ربما! على أية حال، لستُ في حاجة إلى القلق، لأنني أشعر كأنني لن أعود أبداً - إلى الأرض».

قلت ضاحكاً: «وهذا يعني أنَّك في قرارتك لا تنوي أنْ تفعل هذا».

مرة أخرى استسلم «ربما! في الواقع إنَّ أحوالي جيدة هنا - بغضّ النظر عن الحانة: إنني دائماً أشعر بأنها ملك لميغ. تعال وانظر إلى

الاسطبل. لدي فرسة إنكليزية، وفرسان هرمان: جيدان جداً. وقد ذهبت إلى ملتون موبراي مع توم ميهيو، وهو رجل كان أهله يتعاملون معه. إنَّ توم ماهر، ويعرف كيف يشتري، لكنه كسول ولا يهتم، كسول إلى درجة أنه لا يأبه ببيع –».

كان جلياً أنْ جورج مهتم. وبينما نحن متوجهان إلى الاسطبل، خرجت إميلي مع الطفل، الذي كان يرتدي ملابس جديدة من الحرير. تقدّمتْ، مبتسمة لي بعينيها السوداوين:

«أترى، الآن أصبح عاقلاً! أليس جميلاً؟».

قرَّبت الطفل مني لأنظر إليه. ألقيت عليه نظرة، لكنني لم أعِ إلا دفء وجنتها، وعبق شَعرها.

سألتُ، رافعاً نظري لأجدني غارقاً في عينيها: «مَنْ يُشبه؟». كان السؤال بلا معنى: لقد بثّتْ عيناها رسالة كاملة واضحة جعلت قلبي يخفق؛ لكنها أجابت.

«مَنْ يُشبه؟ في الواقع، لا أحد، طبعاً! لكنه سوف يُصبح شبيهاً بوالده، ألا تعتقد؟».

من جديد جذب السؤال عينيَّ إليها، ومن جديد تبادلنا النظرات بفهم غريب جعلها تتورّد وجعلني أشهق وأنا أبتسم.

«نعم! عينان زرقاوان كعينيّ والدك – وليس كعينيك –».

مرة أخرى الرسائل الجامحة في نظراتها.

أجابت برقّة متناهية: «كلا! وأعتقد أنه سيكون مرحاً، كوالدي – ولا يحمل أي منهما أي شبه بعينيّ وعينيك، أليس كذلك؟».

أجبت، مغموراً بدفق حار مُفاجئ من الحنان: «كلا، كلا – ليستا هشّتين. أنْ يكون للمرء عينان رقيقتان، هشّتان، كعينيك، يجعله يشعر بالارتباك وبالغضب. لكنكِ تُخفين حساسية عينيك، أليس كذلك؟ – كحياة عارية، تلك المادة الأساسية العارية والعزلاء، أليس الأمر كذلك؟».

ضحكتْ، ولدى ذِكر الذكريات المؤلمة القديمة أسهبت بالطريقة القديمة، وشعرتُ بالهزّة القديمة لدى رؤية روحها ترتجف لشفقتي.

سأل جورج، الذي كان قد اقترب: «وهل كانت عيناي هكذا؟».

لابد أنه كان قد أدرك حيرة نظرتي وأنا أحاول أنْ أتكيَّف معه. عبرَ وجهه ظلٌّ واه، حزن خفيف.

أجبتُ: «نعم، نعم – ولكن ليس بهذا السوء. أنت لا تُفصِح عن نفسك كثيراً – أنت شديد الحذر: ولكنك أيضاً أعزل بالقدر نفسه».

سأل، بسخرية هادئة، وكأنه يعلم أنني لستُ مهتماً به: «وهل تغيَّرتُ؟».

«نعم، أصبحتَ أكثر حذراً. إنك تلزم الظل. لكنَّ إميلي عبّرت عن نفسها، وتستطيع الآن أنْ تسير بين الحشود كما تشاء».

بذلت جهداً وأنا أكبح نفسي عن تقبيلها في تلك اللحظة عندما نظرتْ إليّ بفخامة ورقّة أنثوية. ثم تذكّرتُ، وقلت:

«لكنكَ تأخذني إلى الاسطبل، يا جورج! تعالي أنت أيضاً يا إميلي وتفرّجي على الجياد».

أجابت: «سأفعل. إنني أحبها كثيراً»، وهكذا تساهلنا نحن الاثنين معه.

تحدث مع جياده وعنها، وهو يضع يده عليها، ويُمررها على أعضائها.. كانت الحيوانات اللامعة، القلقة، تُثير اهتمامه أكثر من أي شيء آخر. وأظهر فورة قليلة من الحماس بشأنها. إنها تمثل اهتمامه الجديد. وهي هادئة لكنها متجاوبة؛ لقد كان سيدها ومالكها. وهذا منحه سعادة حقيقية.

قالت: «إنه أشبه بالجوال؛ يحب دائماً أنْ يتنقّل. لعله يعترض على رائحة النشادر أو الاسطبلات أيضاً»، ثم أضافت، عابسة وتضحك قليلاً: «إنَّه ليس شيئاً مقبولاً كثيراً، أليس كذلك؟».

وافقتها «أبداً»، وعندما ابتعدتْ لحقتُ بها، تاركاً إياه في الاسطبلات. وعندما أصبحتُ وإميلي وحدنا أخذنا نتمشى الهوينا بلا هدى عائدين إلى الحديقة. ألحّتْ على التحدّث مع الطفل، والتحدّث معي إليّ عن الطفل، إلى أنْ تمنيتُ لو أنَّ الطفل في أريحا. فضحكتْ على هذا، واستمرت في مضايقتي. كانت أزهار الخطمي الوردي في ثنيتها الثانية تتدفق توردا حتى قمتها؛ والنحل، المُكسو بفتات حبوب الطلع الباهتة يتهادى برهة خارج البوابات العريضة للزهور الصغيرة، ثم تهادى إلى الداخل بطنين الحماس وتشبّثَ بجنون بأبراجها البيضاء الزغبية، ونشط بصخب حول القواعد الشمعيّة. قرّبت إميلي الطفل

لكـي يُراقب، تكلّمه طـوال الوقت بنبرة منخفضة، مُحبّـة. مدّ الطفل نفسـه نحو الأزهار البرّاقة. وتلألأت الشمس في شَعره الأملس كغبار من البرونز، وعينا الطفل الزرقاوان تلاحقان بتعجُّب النحل. ثم أصدر أصواتاً ضعيفة، وفجأة لوّحَ بيديه، كبراعم الخطمي الوردي المُجعّدة.

قالت إميلي: «انظر! انظر إلى النحل الصغير! آه، ولكن لا ينبغي أنْ تلمسه، لأنه يلدغ»، ثـم هتفت، بخوف ضاحك، وهو تُبعِد الطفل، «هـا هو قادم!». فأصدر ضجيج الاحتجـاج. وقرّبته من الأزهار من جديد فارتطمت يـده بقمتها فطارت نحلتـان ناقمتان خارجة منها. فتراجعـت إميلـي بسرعة صارخـة بخوف، ثم ضحكـت وهي تنظر إليّ بعينـين ملؤهمـا الإثـارة، وكأنهـا أفلتت تواً من خطـر مُحدق في حضوري. وهكذا ضايقتنـي وهي ترميني بأصناف شتى من تحديات الحب البرّاقة بينما أبقتني بمنأى عنها بسبب الطفل. ضحكتْ باستماع صِرف على هذه الأوضـاع، وابتهجت أكثر عندمـا تجهمت، إلى أنْ ابتلعتُ أخيراً امتعاضي وضحكت أيضاً، مُداعباً يديّ الطفل، وأراقب عينيه الزرقاوين وهما تتغيران ببطء كسماء تُبحر بهدوء.

وفي الحال نادت ميغ علينا لندخل ونشرب الشاي. كانت ترتدي ثوبـاً من قماش أزرق جميل مُطرّز بحرير بلون القشدة، وبدت أنيقة، ذلك أنَّ شعرها كان مُصففاً على عجل.

هتفت مندهشـة، لدى رؤية إميلي: «مـاذا، أكنتِ تحملين الطفل طوال ذلك الوقت؟ أين أبوه؟».

أجابــت إميلي: «لا أعلم – لقد تركنــاه في الاسطبل، ألم نفعل، يا سيريل؟ ولكن أحبّ أنْ أعتني به، يا ميغ. أحب ذلك كثيراً».

«أوه، نعم، تأكّدي من أنَّ جورج سوف يتخلّص منه إنْ استطاع. إنه دائماً في الاسطبل. وكما أقول له، إنَّه يفوح برائحة الخيول. وليس شغوفاً بالطفلين، أؤكد لك. تعال إليّ، يا حبيبي – تعال إلى الماما».

تناولــت الطفل وقبّلته بشغف، وأغدقت عليه الحب. ثم عبَرَ الفناء شابٌ حليق الذقن بذراعين ضخمتين عاريتين.

قالــت ميغ: «اسمع، ابحث عن جورج وأخــبره بأنَّ الشاي بات جاهزاً».

سأل أوزوالد، الشاب الضخم الذي يرعى شؤون المزرعة: «وأين هو؟».

أجابــت ميغ، بتلــك الحرية اللامبالية التــي كان زوجها يزدريها: «أنت تعرف أين تجده».

جــاء جورج مسرعاً من المبنــى الخارجي. قال: «ماذا، أحان وقت شرب الشاي بهذه السرعة؟».

قالــت ميغ: «أمرٌ عجيب أنــك لم تكن تصرخ تطلبه طوال الساعة الأخيرة».

أجاب: «إنَّ ارتداءك ملابسك بهذه السرعة معجزة».

أجابــت: «أوه، أحقاً؟ - لم أفعل ذلك بعــون منك، هذه حقيقة. أين تيني؟».

جاءت الخادم، القصيرة، ذات البنية الصلبة، شديدة السُمرة ويبدو عليها النكد، قادمة من البوابة.

سألــتْ: «هــل تستطيعــين أنْ تأخــذي ألفــي أيضاً ريثمــا نتناول الشــاي؟». أجابت تينــي بأنها تعتقد أنها تستطيــع ذلك، وعلى الأثر أعطتها الطفل أحمر الشعر، بالإضافة إلى الأسمر. جلست معهم على مقعد في آخر الفناء. ودخلنا لنشرب الشاي.

كانــت مائــدة عامرة. فيها كعــك ساخن، وثلاثة أنــواع أو أربعة من الكعك البــارد، ومشمش مُعلّــب،، وهلام، وجراد البحر، وكعك الترفيل بالمربى، والكريما والرَم.

قالــت ميغ: «لا أعرف مــذاق هذا الكعك، لقــد صنعته بسرعة. في الواقــع يجب أنْ تصنع الأشياء على أكمل وجه عندما يكون لديك أطفــال - خاصة عندما يكونان اثنين. إنني دائماً أفتقد الوقت الكافي لأُصفف شعري - انظروا إليه الآن».

رفعــت يديها إلى رأسها، فلم يسعنــي إلا أنْ ألاحظ مدى خشونة أظافرها وقذارتها.

كانــت جلسة شرب الشاي تسير بصورة ممتعة، وإذا بأحد الطفلَين يبــدأ بالبــكاء. مالت تيني عليــه وأخذت تُهدهد بفظاظــة. فملتُ إلى الخلــف لكي أنظر إلى خارج الباب وأراقبهــا. تذكّرتُ تلك الفتاة في

قصة لتشيخوف، التـي قامت بخنق الطفل الذي في عهدتها، وأملتُ في ألا تصـل تيني النكـدة إلى تلك الحالة اليائسـة. وانضم إليه الطفل الآخر في البكاء. نهضتْ تيني عن مقعدها وراحت تتمشى في الفناء، تحاول بخشونة أنْ تُهدِّئ الطفلين.

قالـت ميغ، وقد بدأت تهتـاج: «أمر غريب، ولكـن كلما جاءنا شخص يضطربان»

قال جورج: «وهـذا شيء عادي، كل ما في الأمر أنهما يُضطران إلى ملاحظة ذلك».

صرخت ميغ في انفعال مفاجئ: «كلا، ليس الأمر كذلك!».

أجـاب: «هل هو كذلك، يا إميلي؟ طبعاً، هو عليه أنْ يقول شيئاً! ألم يكونـا هادئـين كالملائكة هذا الصباح، يا إميلـي؟ – وبالأمس! لم تصدر عنهما همهمة، وكانا طيبين كالملائكة. لكنه يُريدهما أنْ يكونا أخرسين كالأسماك: يريدهما أنْ يُحبسا داخل صندوق حالما يُصدران أقلّ ضجيج».

أجاب: «أنا لم أقُل أي شيء من هذا».

ردّت: «نعم، قلت، لا أتذكر ماذا سمّيته حينئذٍ –».

واصل الطفلان البكاء.

هتفت ميغ، مُستسلمة لنداء الأمومة: «هاتي ألفي إليّ».

قال جورج: «أوه، كلا، اللعنة! دعي أوزوالد يأخذه».

أجابت ميغ بمـرارة: «نعم، فليأخذه أي شخص ما دام أنه سيغيب عن ناظريك. ما كان ينبغي عليك أبداً أنْ تنجب أطفالاً، أنت لم –».

غمغم جورج شيئاً عن «اليوم».

قالـت ميغ برقّة غامرة، وهي تتناول الطفـل أحمر الشّعر وتضمه إلى صدرهـا: «لمـاذا، ما الأمر إذن، ما الأمر، يـا حبيبي؟ هسس إذن، هس!».

لم يسكـت الطفل. نهضت ميغ عن كرسيهـا ووقفت تهز الطفل بين ذراعيها وهي تتنقّل متأرجحة من قدمٍ إلى أخرى.

قالت: «إنه مُصاب بالغازات».

حاولنـا أنْ نتابع تنـاول الوجبة، لكنَّ كل شـيء أضحى مُضطرباً وصعباً.

قالت ميغ: «لعله جائع، فلنحاول معه».

استـدارت نحو الجهة الأخـرى وأعطته ثديها. ثم هـدأ، فغطّت نفسهـا قدر استطاعتهـا وجلست من جديد لتشـرب الشاي. كنا قد انتهينـا، فجلسنـا وانتظرنا ريثمـا تنتهي من الأكل. هـذا التشتّت في تنـاول الوجبة جعلني وإميلي، نعيد التفكير في الأمر بشكل أكثر دقّة. كنا مُجاملين بصورة ممتـازة، ومُهذَّبين إلى درجة الرهافة. حديثنا نفسه كان مُتسمـاً بالدقة، عندما ننجرف في نقاش عن شتراوس وديبوسي.

هـذا طبعاً أحـدثَ شرخاً بيننا وبـين مُضيفينا، ولكـن لم يكن في يدنا حيلـة؛ كان ذلـك سبيلنا الوحيـد للتغطية علـى الارتباك الـذي ساد المناسبـة. جلس جورج مكتئبـاً يُصغي إلينا. أما ميـغ فكانت لامبالية تماماً. أصغتْ أحيانـاً، لكنَّ موقعها كأم جعلهـا منيعة. جلستْ تأكل بهـدوء، وبين حين وآخر تُلقـي نظرة على طفلهـا في الأسفل، طالبة منـا أنْ نُخفض أصواتنا، نحـن الثرثارين، مع تأنيـب خفيف. كانت آمنـة في بـرج أمومتهـا العالي؛ كانـت ربّة المنـزل وصاحبـة السلطة الوحيدة. وجـورج، كوالد، كان الخادم الأول؛ وبما أنه والد لا مبال، كانـت تهينه وتقفُ موقفاً عِدائيـاً من رغباته. أما إميلي وأنا فكنا مجرد دخيلَـين، هكذا شعرنـا. بعد شرب الشاي ارتقينـا إلى الطابق العِلوي لنغسـل أيدينا. كانت الجدّة قد أُصيبت بنوبـة شلل ثانية، وتستلقي لا تأتي بأية حركة، إلى درجة الخَدَر. بدت لي كتلة جسمها الضخمة على السرير مُرعبة، وبدا وجهها، بعضلاته المرتخية والمنحرفة كلها، كرسم كرتـونيّ شرير. قالت لي بضع كلمـات ثقيلة. فسألها جورج إنْ كانت تشعـر بتحسّن، أو إنْ كانـت ترغب في أنْ يُدلّكها. فـأدارت عينيها العجوزتين ببطء نحوه:

قالت بصوتها الحلقي الغريب: «ساقي – دلّك ساقي قليلاً».

خلـع معطفه، وأقحم يده من تحت أغطيـة السرير، وجلس يُدلّك ساق العجوز المسكينة بصبر، وبطء بعض الوقت. راقبته برهة، ثم دون أنْ تزيـح عينيها عنه، ابتعد عن مجال رؤيتها وبقيتْ هي مستلقية تُحدق إلى الفراغ، في اتجاهه.

أخيراً قال: «انتهينا، هل تشعرين بتحسّن، يا أمي؟».

قالت ببطء: «نعم، هذا أفضل قليلاً».

سألها: «هل أُحضر لك مشروباً؟»، متلكئاً، متمنياً أنْ يُقدم لها كل عون ممكن قبل أنْ يذهب.

نظرتْ إليه، وجلب لها كوباً. ابتلعتْ بضع قطرات بصعوبة.

سألتُهُ، عندما انتقلنا إلى الغرفة المجاورة: «ألا ينتابك شعور بالبؤس وأنت تحتفظ بها دائماً هناك؟». فجلس على السرير الأبيض الفسيح وضحك ضحكة قصيرة.

«تعوّدنا على هذا – إننا لا نلاحظ وجودها، تلك الجدّة العجوز المسكينة».

قلت: «ولكن لابد أنها شكّلت فرقاً بالنسبة إليك – لابد أنْ تُحدِث فرقاً كبيراً في أعماقك، حتى وإنْ لم تشعر به».

قال متأملاً: «إنها تتمتع بشخصية قوية – تبدو أنها تفهمني. كانت صديقة حقيقية لي، قبل أنْ تسوء حالتها. أحياناً أنظر إليها – عموماً لا أراها أبداً، تفهم ما أعني – لكنني أحياناً أفعل – وعندئذٍ – يبدو لي الوضع عفناً قليلاً –».

ابتسم لي ابتسامة خاصة، ثم أضاف: «يبدو أنه يمحو بريق الأشياء»، ومن ثم، ابتسم من جديد بسخرية قبيحة – «إنها سرّنا القبيح»، وأشار إلى جثّتها الضخمة.

بـدأتْ نواقيس الكنيسة تقرع. كانت الكنيسة الرمادية قائمة علـى مرتفع بين الحقول القريبة، كأيل عجـوز يرنو إلى النُّزُل. وبدأت النواقيس الخمسة تقرع، وأخذ الهدير يضرب على النافذة.

قال، باضطراب: «أكره ليلة يوم الأحد».

سألته: «ألأن لا شيء لديك تفعله؟».

قـال: «لا أعلـم. يبدو كخدعة مازحـة، وتشعر بأنـك عاجز. لا أريـد أنْ أذهـب إلى الكنيسة، وأُصغي إلى النواقيس، إنها تُشيع فيك الاضطراب».

سألته: «ماذا تفعل في العموم؟».

«أشعر بالبؤس – في يوميّ الأحد الفائتين كنتُ في منزل آل ميهيو، وجُـنَّ جنون ميغ. تقول إنها الليلة الوحيـدة التي أجتمع بها معها، أو أخرج بصُحبتها. ولكن إذا جلستُ معها، ماذا أفعل؟ – وإذا خرجنا، فذلـك فقط مدة نصف ساعـة. أنا أكره ليلة يوم الأحـد – إنها طريق مسدودة».

عندمـا هبطنـا إلى الطابق السفلي، كانت المائدة قـد رُفِعَتْ؛ وميغ تُحمِّـم الطفـل الأسمر. كانـت مثالية في هـذا المجـال، تعامل الطفل العـاري، الوسيم، بجمـالٍ من الرقّة. وقد ركعـت فوقه بحركة نبيلة، واتّسمَ تكوين ذراعيها وصدرها ونحرها بنبالة من الاستدارة والرقّة. أمالـت رأسهـا إلى الأمـام بسموّ السيـدة العذراء، وكانـت حركاتها جميلة، ودقيقة ومُتقنة، كأغنية قديمة تؤدَّى أداءً ممتازاً؛ وصوتها، الذي

يُلحّن ويُهدهد مع انحناءات أعضاء الطفل، كان كالماء، رقراقاً كالنبيذ تحت أشعة الشمس، يجري مبتهجاً.

تابعنا بتواضُع، مُشاركين في الأعجوبة من بعيد.

كانـت إميلي منزعجة من سعادة ميغ العُظمى، وتوسلت إليها كي تسمح لها بغسل الطفل الثاني. فتنازلت ميغ ومنحتها إذنها الكريم:

«نعم، يمكنك أنْ تغسليه إذا شئت، ولكن ماذا عن ثوبك؟».

باشرت إميلي، يغمرها الحبـور، بتجريد الطفل من ملابسه، وكان شعره أشبه بوريقات الزعفران. ارتعشت أصابعه من السعادة وهي تحلّ الأشرطـة الصغيرة. إنني دائماً أتذكّـر البهجة الصامتة التي تناولت بها الطفل بيديها، عندما نُزِعَ عنه قميصه الصغير في نهاية الأمر، وشعرتْ بأعضاء جسمـه البيضاء والرقيقة. وكأنَّ جـواً متوهجاً، جلياً انبجس فجأة مكتنفاً إياها والطفل، وأبقاني خارجه. وقبل ذلك بلحظة كانت شديـدة القُرب منـي، عيناها تُبحر في عينـيّ، وروحها تتعلّق بخوف بي. وها أنا الآن قد أقصيتُ، بتُّ وحيداً، منبوذاً، منسياً، خارج الهالة التي اكتنفت المرأة والطفل.

قالـت بصوت صـادر من عمق حنجرتها: «هـا! – هاااا!» وهي تضع وجنتها علـى ثدييّ الطفل الصغير، شديـديّ الاستدارة، كثديي فتاة، حريريين ودافئين ورائعين. قبّلته، وتحسّسته، وحامت فوقه، وهي تعـبّ عذوبة طفله، عذوبـة قُبُلات الفم الصغير، الرطبـة، والواسعة؛ عذوبة الأعضـاء المستديرة، المتموجة؛ والكتفـين الصغيرين المنحنيين بشكل فاتن نزولاً إلى الذراعين والثديين؛ والعنق الرقيق المُنمنم المُستتر

بدفٍ شديد تحت الذقن، مُختبرةً بتلذُّذ بشفتيها ووجنتيها كل الرقّة، والنعومة، والدفء، المُرهفة، والحياة الطرية لجسم الطفل.

إنَّ المرأة لديها كل الاستعداد للتخلّي عن حب الرجل الجسدي؛ إنها تسلّمه جمالها الناعم بكثير من الصبر والندم الرقيقين؛ تتشبث بعنقه، برأسه وبوجنتيه، تُداعبها بحب إكراماً لمغزى الروح التي فيها، وتنكمش مبتعدة عن أعضائه وجسده المشبوب. راقبتُ إميلي بشيء من الارتباك، ومن الغضب والإحساس بالمرارة، وهي تتأثّر حتى النشوة بشخص الطفل الصغير، غير المؤذي.

قال جورج لنفسه بمرارة: «إنَّ ميغ لا تستمد أية متعة مني كما تستمدها من الطفلين».

قبضَ الطفل، الضاحك ويصيح بابتهاج، على شعر إميلي وشدّ ضفائرها السوداء، فصرخت محتجة، وحاولت أنْ تُفلت القبضتين الصغيرتين المشدودتين بإحكام. أخرجته من الماء وأخذت تدعكه لتجففه، بحركات صغيرة، رقيقة ورائعة، وهو يرفس مُعانداً. جمعت شَعره الأصفر الناعم في كتلة حريرية واحدة من الذهب المتورد كالهالة فوق رأسه. وداعبت أصابع قدميه المستديرة، كنباتات فطر وردية صغيرة، إلى أنْ لم تعد تجرؤ أخيراً على احتجازه أكثر من ذلك، عندما ألبسته ملابسه القطنية ومنامته وأعطته لميغ.

قبل أنْ تحمله ميغ إلى السرير أخذته كي تُطعمه. كان فمه يمتد حول الحلمة وهو يرضع، ووجهه ينضغط أكثر فأكثر على ثديها، وأصابعه تتجول على الكرة البيضاء الرائعة، ذات العروق الزرقاء والثقيلة،

مُحاولاً أنْ يمسك بها. نظرت ميغ نحو الأسفل إليه بشغف غامر من الحنان، وشدّت إميلي كفّيها معاً ومالت إلى الأمام نحوه. حتى وهو كذلك رأتا أنه خلقٌ رائع.

بعد أنْ نام التوأم، كان لابد لي من أنْ أرتقي إلى الطابق العِلوي على أطراف أصابع قدميّ لأراهما. كانا مستلقيين وجنة إلى وجنة في المذود بجوار السرير الأبيض الكبير، يتنفسان أنفاساً قصيرة، خفّاقة، في انسجام، صغيران جداً ويُثيران الشفقة بأصابعهما المنمنمة المُغلقة. وتذكّرتُ القُبّرتين.

من الغرفة المجاورة تناهى الغطيط الثقيل لتنفُّس المرأة العجوز. وذهبت ميغ إليها. وفي أثناء دخولها لمحتُ شخصاً ضخماً، مُنبطحاً على السرير، فتذكّرتُ بطل غي دو موباسان «توان»، الذي قام بدور حاضنة[٧٨].

---

٧٨ – «توان»: قصة قصيرة ساخرة للروائي الفرنسي غي دو موباسان (١٨٥٠ – ١٨٩٣). تحكي القصة عن توان، صاحب حانة، شديد البدانة، شديد المرح والظرف وشديد النهم إلى الأكل وشرب الخمر. وزوجته على عكسه تماماً، دائمة الشجار والنكد ولا يعجبها العجب، وبما أنه ليس لديهما أطفال تقوم الزوجة بتربية الدجاج في فناء المنزل الصغير. وذات يوم يُصاب توان بالشلل ويُصبح طريح الفراش، ولكن رغم ذلك كله يُحافظ على مرحه وظرفه ولحب أصدقائه له. ثم، من باب السخرية، يقترح أحد رواد الحانة على زوجة توان أنْ تستغل كون زوجها طريح الفراش والحرارة العالية التي يوفرها ذلك في أنْ تضع بيضاً مع زوجها في السرير لكي يفقس ويزداد بذلك رصيدها من الدجاج. في أول الأمر تستغرب الفكرة، ولكن بعد قليل من التفكير تُقرر أنْ تنفّذها – المضحك في الأمر أنَّ الفكرة تنجح ويفقس البيض تحت زوجها توان الذي قام بعمل حاضنة بيض! – المترجم

الفصل الخامس

هيمنة حافز المعاناة

بقيتْ المرأة العجوز مستلقية مدة عام آخر، ومن ثم فجأة غادرت الحياة. و لم يعُد جورج يُكاتبني، لكنني كنتُ أعرف أخباره من مصدر آخر. وأصبح أكثر تواصلاً مع آل ميهيو. وبعد إفلاس العجوز ميهيو، ظل الابنان يُقيمان في المنزل الكئيب الكبير القائم بعيداً عن طريق نوتنغام في إيبرويتش. هذا المنزل كان إرثاً انتقل إلى الابنة الأكبر من ناحية الأم. وكانت مود ميهيو، المتزوجة والمنفصلة عن زوجها، تدير المنزل لأخويها. كانت ممشوقة القامة، ضخمة البنية بعظام وجنتين مرتفعة وشعر أسود لامع يلتف حول أُذنيها. وتوم ميهيو أيضاً كان رجلاً وسيماً، شديد السُّمرة والتورّد، وصاحب عينين برّاقتين متغطرستين.

كان منزل آل ميهيو المُسمّى «الهوليز»[٧٩] منزلاً صلباً، من الآجر الأحمر القديم، يقوم على مسافة خمسين ياردة بعيداً عن طريق

---

٧٩ – «الهوليز»: أو أشجار البهشية.

إيبرويتش العامة. ويفصل بينه وبين الطريق مرج مُهمَل، تكتنفه أشجار البهشية السوداء الشامخة. وكأنَّ المنزل سجين أشجار البهشية الشائكة. ولدى مرور المرء من البوابة الكبيرة، يواجه على الفور الجانب الأجرد من المنزل وسلسلة كبيرة من الاسطبلات. كان العجوز ميهيو في أيامه يحتفظ بثلاثين أو أكثر من الخيول هناك. والآن ينبت العشب بين حجارة الآجر الأحمر، والأبواب التي حال لونها موصدة، ما عدا ربما اثنين منها أو ثلاثة كانت مفتوحة من أجل أحصنة جورج.

أصبح منزل الهوليز أشبه بنادٍ لرجال المنطقة المُحبَطين، «الأثرياء». كانت غرفة الطعام الفسيحة مفروشة بأثاث كئيب وقليل، وغرفة الجلوس مُقفرة، أما غرفة الصباح الصغيرة فمريحة جداً، مزوّدة بكراسٍ مجدولة بالأماليد، وبستائر ثقيلة، وبخوان كبير. في هذه الغرفة كان جورج وآل ميهيو يجتمعون مع عدد من الرجال مرتين أو ثلاث في الأسبوع. وهناك يناقشون شؤون الخيل ويسخرون من تسلُّط النساء. ويجلب جورج الويسكي ويُقامرون كلهم بجبن بلعب الورق. حفلات العزاب تلك كانت مصدر إزعاج هائل لزوجات المتزوجين من الرجال الذين يحضرونها.

قالت ميغ: «عندما يذهب إلى منزل آل ميهيو أولئك يُصبح لا يُحتَمَل. أنا متأكّدة من أنَّ كل ما يفعلونه هناك هو أنْ ينتقصوا من قدرنا».

بقيتْ مود ميهيو بمنأى عن تلك الاجتماعات، تعتني بطفليها. كانت شديدة التعاسة في زواجها، وهي الآن متحفظة، وصامتة.

كانت نسوة إيبرويتش يُراقبنها وهي تمر في الشارع مُسرعة في الصباح مع سلّتها، ويفرحن لمصابها قليلاً، لأنها من فرط التكبُّر بحيث لا تقبل العزاء من أحد، لكنهن في قلوبهن كنّ يُشفقن عليها، وهي لم تكن تتأثّر أبداً بالافتراء عليها. وكان جورج يراها باستمرار، لكنها كانت تعامله ببرودة كما تعامل الرجال الآخرين، لذلك كان يخشاها.

حينئذٍ كان قد أصبح يمتلك مهارات في تجارة الخيول. وعندما ماتت الجدّة، في شهر تشرين أول بعد سنتين من زواج جورج، تركت له سبعمائة جنيه، وتركت لميغ النُّزُل والمنزلَين اللذين كانت قد بنتهما في نيورتن، بالإضافة إلى أسهم في معمل تقطير بقيمة تقارب الألف جنيه. واعتبر جورج وميغ أنهما أصبحا من ذوي الأملاك. لكنَّ النتيجة لم تكن أكثر من ازدياد برودة العلاقة بينهما. كان شديد الحرص على أنْ تحصل على حقّها كاملاً. وذات مرة قالت له في إحدى المشاجرات إنه لا ينبغي أنْ يُنفِق على آل ميهيو من مال عملها. ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح يحتفظ بسجلات صارمة بخصوص شؤونه كلها، وعليها أنْ تقوم بتدقيقها، وتتلقّى حقّها بدقّة. لقد كان ذلك بمثابة كبح لروح الكرم والقسوة المتقلبة فيها كامرأة.

في عيد الميلاد بعد وفاة الجدّة وُلِدَ لهما ابن آخر. وعادت روح الصداقة الحميمة بين جورج وميغ من جديد.

في شهر آذار التالي عندما سمعت أنه قادم إلى لندن مع توم ميهيو في رحلة عمل، كتبتُ له طالباً أنْ ينزل عندي. فردّت ميغ قائلة: إنها سعيدة جداً لأنني أطلب منه هذا: لم تكن تريد أنْ يلحق بذلك الشخص

مــن جديد؛ كان قــد أصبح مؤخراً أفضل بكثير، وهــي متأكّدة من أنْ أولئك الرجال الذين يجتمعون في منزل ميهيو هم الذين أفسدوه.

وافق على النزول عندي. فكتبتُ أخبره بأنَّ ليتي ولزلي موجودان في لندن، وأنَّنا سوف نتناول طعام العشاء معهما ذات أمسية. استقبلتُه في محطــة كينغــز كروس واتجهنــا جميعــاً بالسيارة غربــاً. كان ميهيو رجــلاً ذا وسامة مُلفتة، وقــوي البُنية؛ وكان مع جورج يُشكلان ثُنائياً مشهوراً. كلاهما يرتدي بنطلونــاً قصيراً وواقي قدمين، لكنَّ جورج كان لا يــزال يبدو أحد المُلاك الصغار، بينمــا ميهيو كان يتصف بكل صِفات المتبجِّــح في الاسطبل. وكنا ثلاثياً متنافراً تماماً. ضحك ميهيو ومزح بصوت عال فترة قصيرة، ثم أصبح ملولاً وعصبياً. شعر بالضيق وبالارتباك في حضوري. ولاحقاً، أخبر جورج بأنني شخص بغيض. بعبارة أخرى، كنتُ أستمتع بالنظر إلى جماله السوقي - كانت أسنانه مســودّة بسبب التدخين - والإصغاء إلى حديثه العقيم، لكنني لم أجد أيــة استجابة. كان جورج وسيطاً بيننا. بالنسبة إليّ كان حذراً ومُراعياً للآخرين، وبالنسبة إلى ميهيو كان لامبالياً، وموقفه مشوباً بالامتعاض.

عندمــا غادرنا ابن تاجر الخيول أخــيراً وذهب إلى بعض أصحاب والده القُدامى، سعدنا بذلك. وبقلق شديد، وحساسية عالية وارتعاش توهجــت علاقتنــا الحميمة من جديــد كالاحتراق الهشّ للكحول. تقاربنــا في اللهــب الأزرق نفســه، اكتشفنا وراقبنــا بهرجة الحياة في المدينة تنكشف بصورة رائعة أمامنا. وضحكنا على طغيان الرومانسية القديمة. احتقرنــا الموكب المتلاشي للسنوات القديمــة، وتهكمنا على الرحلة الطويلــة الشاسعة للقصص الرومانسيــة السالفة مبتعدة أعمق

داخـل المدى الغامض. ألم نكن وسط بهرجة الحيـاة الحديثة المُربكة، بـكل فوضـى راياتهـا وألوانهـا، بأصواتهـا المتداخلة الـلا متناهية، زعيـق الدُّمى الحديثـة بجاذبيتها السريعـة كالرذاذ الحـادّ، والضجيج الهائل لبشريـة منهمكة في كسب قوتها، بجديـة، مُشكّلاً أساس كل الأصـوات الأخرى؛ وبين هذين الاثنين عذوبة الأغاني، ومنحى فرح الحياة المنتصـر، والأبواق الخشنة للحرمان، وطبـول المأساة المرتعشة، والصرير الأبدي لوتريّ اليأس بنبرتهما العميقة؟

راقبنـا سيـارات الأجرة تتسابـق وأنوفها موجهة نحـو الشارع، راقبنـا عربـات الخيل المهتـزة، وفخامـة الحافلات بحركتهـا الثقيلة. ووسط صمت الفضاء الأخضر للمتنـزه وقفنا وأصغينا إلى هدير محيط الحيـاة. راقبنا فتاة بشعر مُسترسل تخب على طول شارع رو، ورجلاً أسمـر، يضحك كاشفاً عن أسنانه البيضاء، يخبّ بخُطى أكثر ثقلاً إلى جوارهـا. رأينـا فرقة من عمال الإنقـاذ يدخلون من بوابـات المتنزه، منتصبـي القامة ويتلألؤون بالألوان الفضية والبيضاء والحمراء. اقتربوا منـا، فسرى فينـا شيء من الإثـارة ونحن نراقب عضـلات أفخاذهم البيضـاء والملسـاء تشبـه حركة الجيـاد، ووجناتهـم وذقونهم تنحني برجولـة أبيّـة على إيقـاع المارش. راقبنـا الإيقاع المرهـف لمجموعة الرجال وهـم يتحركون بملابسهم القرمزية والفضية على طول الجادة بأشجارهـا الجرداء، كشـرارة حياة حمراء قليلـة مرتعشة تنطلق. عند زاويـة ماربل آرك أصغينـا إلى الاشتراكي الضئيـل الذي كان يخطب بحماس وشراسة تحت شجـرة دلب. كان سيل كلماتـه الحارة يتدفق على الجراح القديمـة التي سبّبتها لي معرفـة الآلام اللامتناهية للفقراء، وأجفلـت. بالنسبة إليـه كان العالم هـو الإيست إنـد، والإيست إند

كلهــا كانت بركة ينضب منها الماء، تاركاً شؤون الماء ليُكافح في الطين الرطب تحــت الشمس، إلى يبدو وكأنَّ المدينــة برمتها تجيش، الكفاح المرتعش لأشياء مُلطخة بالطين الأسود مُجرّدة من عناصر الحياة. شعرت برعب هائل من الرجل الضئيل خشية أنْ يجعلني أرى كل الطين، كما رأيته من قبل. ثم شعــرت بشفقة ضافية عليه، من أنْ تمتلئ عيناه دائماً بالطين، ولا تُشرقان أبداً. أصغى جورج بانتباه للمتكلِّم، بتأثُّرٍ شديد.

ليــلاً، بعد خروجنا من المسرح، رأينا المنبوذين ينامون صفاً واحداً تحت جســر واترلــو، رؤوسهم نحــو الجــدار، وأقدامهــم ممتدة على الرصيــف: كومة طويلــة، ســوداء، مشوشة عند آخر الجــدار. كانت الوجوه كلها مغطاة إلا اثنين، لرجل ضئيل وشاحب ذي أنف مُدبب، ووجــه امــرأة متوحشة. علــى هذين الوجهــين كان يطوف بين حين وآخــر، كأحلام باهتة ومُضطربة على كيانهــم الغامض، الضوء الممتد لعربــات الترام. شققنــا طريقنا من أمام صف من الأقــدام المستسلمة، منكمشــين من مشهــد عقبيّ قدمــين نحيلين وعاريــين لشاب، ومن الحافــة الموحلة لأطراف ثوب امرأة ملتفة حــول نفسها، ومن المشهد المُثير للشفقة لرجال يُدثرون سيقانهم بأوراق الصحف طلباً لقليل من الدفــء، ومتمددين ككتل لا قيمة لها. كانت تُمطر. وقف بعض الرجال علــى حافة طريق مُعبّدة ثابتين في بؤس موحشــ، لم يجدوا حيّزاً لهم ينامــون فيه. في الخارج، وعلى مقعد في الظلام والمطر، جلست امرأة نائمة، بينما الماء يقطر من نهايات خصلات شعرها السائب المُثقلة به. كانــت يداها مُقحمة داخل صدرية سترتهــا. مالت إلى الأمام في أثناء نومها، ثم أجفلت، وسقطت إحــدى يديها عن صدرها. ومن جديد استغرقت في النوم. قبض جورج على ذراعي.

همس مرعوباً: «أعطها شيئــاً». كنت خائفــاً. وفجأة أخرجت قطعة نقد من جيبي، وشــددتُ أعصابي وأسقطتُها على كفّها. كانت يدها ناعمــة، ودافئة، ومجعــدة بفعل النوم. أجفلــت بعنف، ورفعت بصرهــا إليّ، ثم نظرت نحو الأسفل إلى يدها. أشحتُ بوجهب جانباً، خشيــة أنْ تنظــر في عينيّ، ومن إحساسي بالخــزي والحزن وركضت علــى الرصيف نحــوه. هرعنا نتابــع طريقنا تحت أشجــار الدلب في صمــت. كانت السيــارات اللامعة تسير طويلــة في المدى فوق جسر ويستمنســتر، ويجري معها ضوء أصفــر، ضعيفاً على صفحة الماء في الأسفــل. والشوارع الرطبة مغطاة بسائل الضوء الذهبي، وعلى سواد النهر العميق ترتسم المصابيح كضربات من الأصفر الرجراج.

×××

كانــت ليتي ولزلي يُقيمان في هامستــد مع صديق من آل تمبست، أحد أكــبر حاملي الأسهــم في شركة تمبست، وارتن وشــركاه. وكان لآل رافائيــل منزل ضخم، وفضّلت ليتــي أنْ تُقيم عندهم بدل النزول في فنــدق، خاصة وأنها جلبت معها طفلهــا الصغير، الذي بلغ حينئذٍ شهــره العاشــر، ومربيته. ودعونا جــورج وأنا على العشــاء في أمسية يــوم الجمعة، وتضمن الحفــل مضيف ليتي ومُضيفتهــا، وأيضاً شاعرة اسكتلندية، ومؤلــف موسيقى أيرلندي، يؤلــف الأغاني ومقطوعات رابسودي على البيانو.

كانــت ليتي ترتدي ثوبــاً أسود مُخرّماً حِداداً علــى إحدى قريبات لزلي من ناحية أمه. فجعلها تبدو أكبر سناً، وفيما عدا ذلك لم يتغيَّر أي شيء فيها. وقــد يُلاحظ المراقب الحسّاس بعضَ القسوة حول فمها،

وإحباطاً يُخيِّم قليلاً فوق عينيهـا. لكنها كانت فرحة بالمجموعة التي تحيط بها، ولذلك أخـذت تفيض بالأحاديـث البارعة وبالملاحظات الذكيـة، اللماحة. وطبعـاً في مثل تلك المناسبات تثـير الإعجاب. أما باقـي أعضاء المجموعة فشكلوا، والحال كذلك، الفرقة الموسيقية التي صاحبتها.

كان جـورج صامتاً إلى أقصى مـدى. كان يُلقي ببعض الكلمات بـين فينة وأخرى للسيدة رافائيل، ولكن في العموم لزم الصمت التام، وأصغى.

كانـت ليتي تقول: «حقـاً! إنني لا أرى أنَّ أحـد الأشياء يستحق التنفيذ أكثر من غيره. إنه كفاكهة بعد الطعام: لا يهم إنْ تناولت العنب أم الإجاص أم الأناناس».

غرّدت الشاعـرة الاسكتلندية بأسلوبهـا الموسيقي، المتأمّل: «هل تناولت العشاء منذ الآن؟».

قالت ليتي: «إنَّ الشيء الوحيد الذي يستحق التنفيذ هو الإنتاج».

تنهـد الموسيقـي الإيرلندي: «وا أسفاه، هذا كل مـا يقوله الشبان هذه الأيام!».

تابعت ليتي، مبتسمـة، ومُلتفتة نحو الفنانَين: «إنَّ هذا هو الشيء الوحيد المُمتع - أي، المُشبع».

ثم أضافت «ألا تعتقد هذا؟».

قالـت الشاعـرة الاسكتلنديـة: «أخيراً وصلـتِ إلى نقطة مفيدة، عندما يكون عملك مصدراً حقيقياً للإشباع».

سأل جورج ليتي: «هل تكتبين شِعراً، إذن؟».

«أنــا؟ أوه، يا إلهــي كلا! لقد بذلتُ أقصى جهدي لأؤلف قصيدة خماسية هزلية من أجــل المسابقة، ولكن بلا طائل. إذن كما ترى، أنا فاشلة في هذا المجال. ولكن، ألم تكن تعلم أنَّ لدي ابناً؟ – طفل صغير ورائــع، أليس كذلك، يا لــزلي؟ – إنه هو عملي. أنــا أمٌ رائعة، ألستُ كذلك، يا لزلي؟».

أجاب: «ومتفانية».

هتفــت بانتصار: «كما تسمع! – عندما أُضطر إلى التوقيع باسمي وذِكر مهنتي في دفتر الزوار، سوف أكتب «أم»»، ثم ختمت مبتسمة: «أتمنى أنْ يزدهر عملي»

شابَ صوتها لمسة من الوحشية الساخرة. لقد كانت، في أعماقها، صادقــة تمامــاً. فبما أنها وصلت إلى تلك النقطة مــن مسيرة المرأة التي يبدو فيها معظم ما في الحياة، وربما كله، عديم القيمة وتافهاً، صممت على أنْ تتأقلم مع ذلك، أنْ تتجاهل ذاتها، أنْ تُفرِغَ إمكاناتها في وعاء شخص آخــر أو آخرين، وأنْ تعيش حياتهــا بالواسطة. نكران الذات الغريــب هذا هو وسيلة المرأة للهرب من مسؤولياتٍ حدّدتها لنفسها. وكراهيــة، وضعت فوق وجهها الحي برقعــاً، كدلالة على أنَّ المرأة لم تعُد تعيش لنفسها بعد الآن: إنها خادمة الله، أو رجل ما، أو أطفالها، أو ربما قضية ما. وبوصفها خادمة، لم تعُد مسؤولة عن نفسها، مما يُصيبها بالرعب وبالوحشة. الخدمة خفيفــة وسهلة. وكون المرء مسؤولاً عن المسار الجيد لحياته أمر مرعب. إنه أشد أشكال الوحدة التي لا تُطاق،

وأثقـل المسؤوليات طراً. وهكـذا تساهلت ليتي مع زوجها، لكنها لم تتخـل عن استقلالها عنه؛ بالأحـرى كانت هي التي رفعت الكثير من المسؤوليـة عن كاهله بيديها، ولذلك كان شديد الإخلاص لها. لكنها الآن صممت علـى أنْ تتخلى عن مسؤوليتها اتجاه نفسها لكي تخدم أطفالها. وعندما يكبر الأطفال، إما أنْ يتخلصوا منها دون وعي منهم، فتعود إلى ذاتها من جديد مع شعور بالمرارة والوحشة، أو يتمكنوا من معاملتها بكل رقة، وبين حين وآخر ينزعجون من روابط حبها.

نظـر جورج وأصغى إلى كل رفرفات الحديث، و لم يقُل شيئاً. لقد بـدا ذلك له كأنه ضجيج مزعج لخشخشـة أوراق لا معنى له، أوراق كتـب، وما إلى ذلك. وفي وقت لاحق مـن الأمسية غنّت ليتي، ليس أغـانٍ من الفولكور الإيطالي ككل مرة، بـل مقاطع صوتية من تأليف ديبوسـي وشتراوس. وهذه أيضـاً بالنسبة إلى جورج كانت بلا معنى، بل ومملة. كانت رؤيتها وهي تُبدد طاقاتها عليها تُثير حفيظته.

سألتـه بأسلوبها الذي يدّعي الصراحة واللا مبالاة: «ألا تحب هذه الأغاني؟».

أجاب، بفظاظة: «ليس كثيراً».

هتفـت، مُضيفة مع ابتسـام: «ألا تعجبك؟ إنَّ هـذه المقطوعات الصغيرة هي أجمل ما أُنتِجَ في العالم»- وبدأتْ تُدندن لحناً لديبوسي. لم يستطع أنْ يُجيبها حول ذلك، فجلس يشعر بألم داخلي، و لم يتكلّم.

سألتـه عن ميـغ وأطفاله وشـؤون إيبرويتش، لكـنَّ الاهتمام كان

ضعيفاً لأنهـا كانت تُحافظ على وجود مسافة كبيرة بينهما على الرغم مـن أنها ظاهريـاً كانت صادقـة وودية. وغادرنا قبـل الساعة الحادية عشرة.

بعد أنْ جلسنا في السيارة واندفعنا أسفل التل، قال:

«أتعلم، إنها تُثير جنوني».

كان متجهماً، ينظر من النافذة بعيداً عني.

سألته: «مَنْ، ليتي؟ لماذا، ما الذي يُغضبك؟».

استغرق منه بعض الوقت ليُجيب.

«إنها شديدة التكلُّف».

حافظتُ على سكوني وأنا جالس في الحيز الضيق وانتظرت.

ضحـك، مُحافظاً على وجهه منحرفـاً عن وجهي: «أتعلم -؟ إنها تجعل جسمي يغلي. أكاد أكرهها».

قلت بلطف: «لماذا؟».

«لا أعلم. أشعر كأنها أهانتني. إنها تكذب، أليس كذلك؟».

قلت: «لم ألاحظ هذا»، لكنني كنتُ أعلم أنه يعني بكلامه تهرّبها، وتشوُّش حياتها.

«وتفكـر في أولئك المساكين المرتمين تحـت الجسر - ومن ثم فيها وفيهم وكيف يُبددون حياتهم ومالهم على تلك الحماقة -».

كان يتكلّم بانفعال.

قلت: «أنت تقتطف من لونغفيلو[٨٠]».

سأل، وقد نظر إليّ فجأة: «ماذا؟».

«الحياة حقيقية، الحياة جادّة –»

احمرّ وجهه قليلاً لسخريتي الودود.

أجاب: «لا أعلم ما هو. لكنه شيء سيئ جداً، عندما تفكر فيها وهي تتصرف بحمق وتُبدد حياتها، وكل الهدر الذي يجري هناك، وفي المساكين الذين يتعفنون تحت الجسر – و –».

تابعتُ قائلاً: «وأنت – وميهيو – وأنا –».

نظر إليّ بإمعان ليرى إنْ كنتُ أتهكم. ضحك. تبيَّنتُ أنه شديد التأثُّر.

سألتُ: «هل الوقت غير مناسب؟».

«لماذا؟»– ضحك. «كلا. لكنها تُثير غضبي الشديد – وكأنني يجب أنْ أنفجر – لا أعلم متى سبقَ لي أنْ شعرتُ بمثل هذا الحنق. لماذا يا تُرى. «إنني أشعر بالأسى عليه، ذلك المسكين.: ليتي ولزلي»– وكأنما خُلِقَ كل منهما للآخر، أليس كذلك؟».

سألتُ: «ماذا لو أنك كنتَ تودّ لو تكون لك؟».

أضاف بمغزى: «كنا سنُصبح كالقط والفأر؛ إنني أفضّل ألف مرة

---

٨٠ – هنري وادسوورث لونغفيلو (١٨٠٧ – ١٨٨٢): شاعر أميركي، معروف خاصة بقصائده الروائية، مثل «إيفانجلين» و«أغنية هياواثا». – المترجم

أنْ أكـون مـع ميغ – الآن!» جلس يراقبُ المصابيـح والناس والأبنية المُظلمة تنساب مارّة بنا.

سألته، مُفكّراً في أننا سوف نعرِّج على مطعم فراسكاتي ونستعرض الداخلين والخارجين، «هل نذهب ونتناول مشروباً؟».

أجاب، وهو ينظر إليّ بحركة بطيئة، «يمكنني أنْ أرضى بالبراندي».

جلسنـا في المطعم نُصغي إلى رنين الموسيقى، ونراقب تدفق الناس المتغيِّر. أنـا أحبّ أنْ أجلس مدة طويلة بجـوار زهر الخطمي الوردي أراقب نبض الطنين المتبدّل الـذي يضجّ ويتردد خارج الأزهار البرية، ثـم يدخـل منساباً مـع همهمة تجعل كل شـيء يرتعش. والأشدّ فتنة هـو مراقبة دخـول الناس وخروجهم يتمايلـون ويمتزجون في الخليط المُعقّـد لنواياهم، مع كل الحُسن المُرهف وغموض أجسادهم الجميلة، والمتحركة.

جلسـتُ بسكون، أطل عبر المُدرَّج. جورج أيضاً نظر، لكنه كان يشرب كأساً بعد أخرى من البراندي.

قلت: «أحبّ أنْ أراقب الناس».

أجاب بنبرة احتقار: «نعـم – وألا يبدون هائمين على وجوههم، أغبيـاء – انظـر إليهم!». بدل ذلك نظرت إليه، مـع شيء من الدهشة والازدراء. كان وجهه كئيباً، وأبله ومتوتراً. كانت كمية البراندي التي شربها قد فاقمت من رداءة طبعه.

قلت: «هلا ذهبنا؟». لم أرد له أنْ يثمل وهو في حالته تلك.

«نعم - بعد نصف دقيقة» وأنهى شرب البراندي، ونهض واقفاً. على الرغم من أنه أفرط في الشرب، إلا أنه كان متوازناً تماماً، لولا النظرة البغيضة المرتسمة على وجهه، وبدت عيناه أصغر وأكثر لمعاناً مما كنت قد رأيتهما من قبل. استقللنا الحافلة المتجهة إلى محطة فيكتوريا. جلس يترنح على مقعده في الحافلة المُعتمة، المزعجة، دون أنْ ينطق بكلمة. في فضاء المحطة الشاسع كان مرتادو المسرح مُسرعين، يجتازون الموقف الرمادي الباهت، مخلوقات ضئيلة تهرع هنا وهناك في المساحة تحت المصابيح الموحشة. ومع تحرُّك القطار ببطء فوق الجسر رحنا نراقب أطواق الأضواء المتلألئة الواسعة الانتشار تنحني ببطء وتنعطف مُخطّطة المياه الداكنة إلى خيوط براقة. جلس ينظر بعينين مُثقلتين، منكمشاً في وجه الكلمات المُبهمة لقصيدة لندن.

لقد كانت المدينة أكبر من قُدرته على تحمّلها، لم يتمكن من استيعابها بكل ضخامتها، وشاعريتها المُذهلة. ما تآلف معه كان تناقضاتها الفاضحة. لقد أثار إبهام المدينة الشاسعة خشيته، وجرحته قسوة تبايناتها الكبيرة والخشنة بصورة لا تُحتَمَل.

سألته ونحن نسير على الرصيف الذي يرين عليه الصمت في نوروود: «ما الأمر؟».

أجاب: «لا شيء، لا شيء!»، ولم أزعجه أكثر من ذلك.

شغلنا غرفة واسعة، تحتوي سريرين - تطل على أسفل التل وبعيداً

على غابات «كنت» النائيـة. كان نكداً وصامتاً. جلبتُ معي زجاجة صـودا وزجاجة ويسكي، وباشرنا بنزع ملابسنا. عندما وقف مرتدياً بيجامته انتظر كأنه غير متأكّد.

سأل: «أترغب بالشرب؟».

لم أرغب. فمشى إلى الطاولة، وبينما كنتُ آوي إلى السرير سمعتُ الأزيـز القصير لزجاجة الصودا. شرب محتـوى كأسه دفعة واحدة، ثم أطفأ النـور. في الظلام المفاجئ رأيتُ ظله الباهـت ينتقل إلى الأريكة الطويلـة عند النافذة. كانت الستائـر مُزاحة، وظهرت النجوم. حدّق إلى مرفأ الظلام المترامي حيث، بعيداً وإلى أسفل، طفت بضع شرارات من المصابيح كقوارب صيد أسماك الرنكة في البحر.

سألته: «ألن تأتي إلى السرير؟».

أجاب، كارهاً أنْ يُحدثه أحد: «لست نعسان – نم أنت».

«إذن ارتـدِ مبـذلاً – هناك واحـد في تلك الزاويـة – أدِر مفتاح النور».

لم يُجِـب، لكنـه راح يُدعبس في الظلام عـن المبذل. وعندما عثر عليه، قال:

«أتمانع إذا دخّنت؟».

لم أمانع. ومن جديد دعبسَ في جيوبه بحثياً عن السجائر، رافضاً دائمـاً أنْ يُدير مفتـاح النور. راقبتُ وجهه ينحنـي لعود الثقاب وهو

يُشعل سيجارته. كان لا يزال يبدو وسيماً في الضوء الأحمر، لكنّ قسمات وجهه كانت أشدّ خشونة. شعرت بأسف شديد لأجله، لكنني رأيتُ أنني لا أستطيع أنْ أقترب منه، لأواسيه. بقيت بعض الوقت مُستلقياً في الظلام أراقب طرف سيجارته كأنها حشرة مؤذية، حمراء، تحوم بالقرب من شفتيه، جاعلة النجوم الخائفة بعيدة في المدى النائي. جلس بسكون تام، متكئاً على ذراع الأريكة. كانت وجنتاه تتوهجان بين حين وآخر مع سطوع احتراق السيجارة، ثم من جديد لا أرى غير نحلة حمراء خاملة.

أعتقد أنني استغرقت في النوم. وفجأة أجفلتُ عندما وقع شيء على الأرض. سمعته يسبّ بصوت منخفض.

سألت: «ما الأمر؟».

أجاب، مُعتذراً: «لقد أسقطتُ شيئاً أرضاً - علبة سجائر أو ما شابه».

سألت: «ألن تأوي إلى السرير؟».

أجاب مُطيعاً: «نعم، أنا قادم».

بدا كأنه يتجول في المكان ويرتطم بأشياء في أثناء قدومه. وانهار بكل ثقله على السرير.

سألته: «هل أصبحت نعسان الآن؟».

أجاب: «لا أعلم - سأنعس فوراً».

سألته: «ما خطبك؟».

أجاب: «لا أعلم. أحياناً يحدث لي هذا، عندما لا أريد أنْ أفعل أي شيء، أو أذهب إلى أي مكان، أو أنْ أكون قريباً من أحد. حينئذٍ أشعر بوحدة قاتلة، يا سيريل. يتابني شعور فظيع، كأنني في فراغ، أتعرَّض لضغط، كأنه ضغط الظلام، وأنا نفسي – ليس إلا، فراغ – هكذا أشعر – فراغ صغير ليس مُظلماً، وكل شيء سائب وسط مساحة من الظلام، تضغط عليك».

هتفت، مرتفعاً عن السرير: «يا إلهي الرحيم! يبدو وضعك سيئاً!».

ضحك قليلاً.

قال: «لا بأس، إنها فقط الإثارة التي تسبّبها لندن، وذلك الرجل الضئيل في المتنزه، وتلك المرأة على المقعد – تُرى أين هي الآن، تلك المسكينة – ثم ليتي. كأنني أفقد توازني – أعتقد، حقاً، أنه كان ينبغي أنْ أُصبح شيئاً هاماً –».

سألت، عندما تردّد: «ماذا؟».

أجاب ببطء: «لا أعلم – شاعراً أو ما شابه، مثل برنز[81] – لا أعلم. غداً سوف أضحك على نفسي من أجل تفكيري بهذه الطريقة.

---

٨١ – روبرت برنز (١٧٥٩ – ١٧٩٦): شاعر غنائي اسكتلندي. قصائده الغنائية، وشعر الطبيعة، ومسرحياته الشعرية الساخرة كلها مكتوبة بالعامية المحكية. – المترجم

لكنني وُلِدتُ قبل زمني - عندما وُلِدتُ لم أكن قد نضجتُ بعد. أردتُ شيئاً لم أحصل عليه. أنا إنسان ناقص. إنني أُشبه الذُّرة في حصاد رطب - ممتلئة، ولكن متهافتة، رديئة. سوف أتعفّن. لقد أتيت قبل أواني؛ أو أنني أردتُ شيئاً كان يمكن أنْ يجعلني أُصبح عنيفاً. ولهذا أردتُ ليتي - في اعتقادي. أم أنَّ كلامي هراء؟ ما هذا الذي أقول؟ لِمَ تدفعني إلى الكلام؟ لِمَ تُصغي إليّ؟».

نهضتُ وانتقلتُ إليه، قائلاً:

«لا أريد منك أنْ تتكلَّم! إذا نمتَ حتى الصباح سوف تبدو الأمور مختلفة».

جلستُ على سريره وأمسكتُ بيده. فاستلقى بهدوء تام.

بعد بضع لحظات، قال: «بعد كل شيء أنا مجرد طفل، يا سيريل».

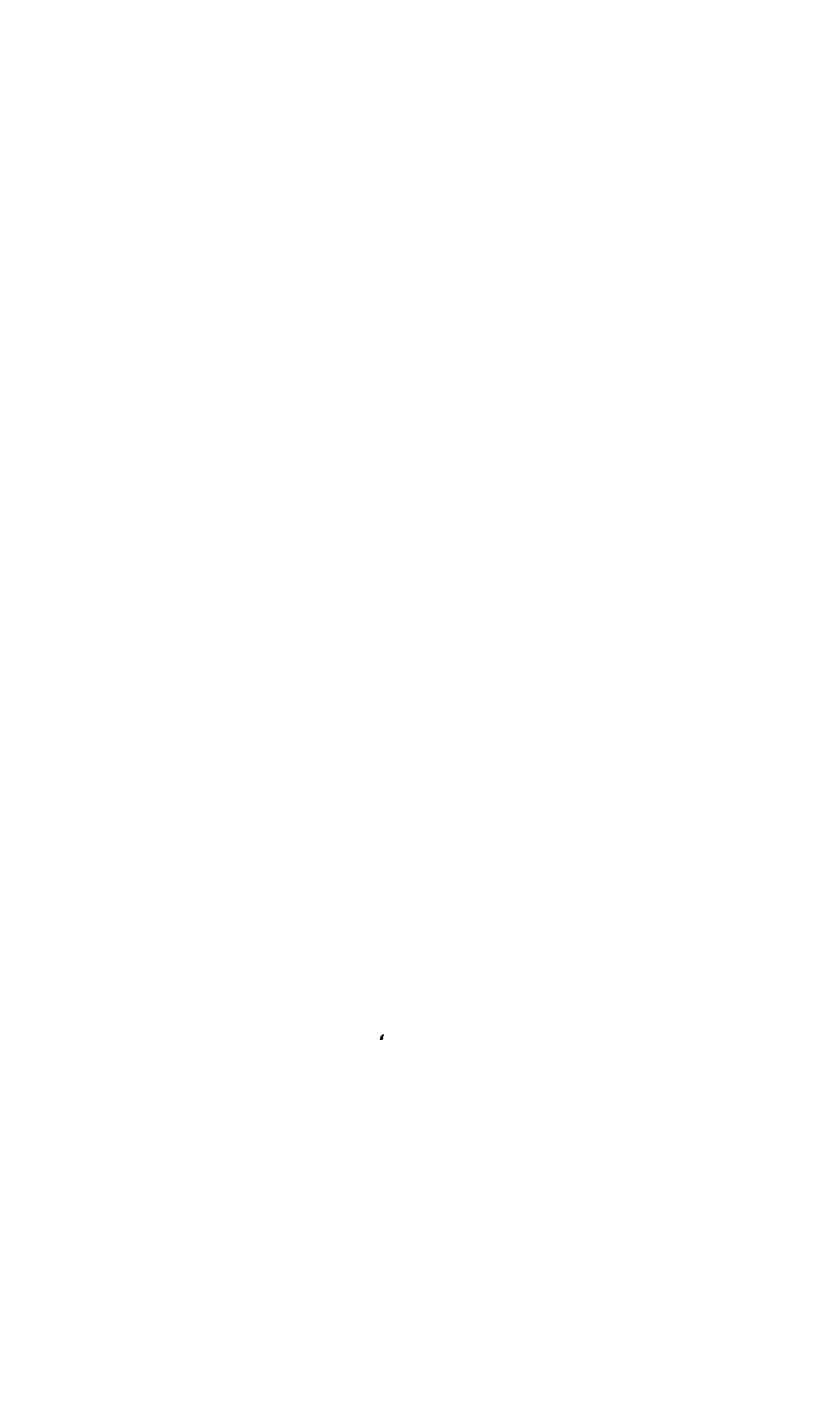
أجبتُ، ولا أزال أُمسك بيده: «كلنا كذلك». وفي الحال استغرق في النوم.

عندما استيقظتُ كانت الشمس تضحك مع الصباح الغضّ في الغرفة. وأشرقت السماء الزرقاء الرحبة على النافذة، وكانت العصافير تصيح في الحديقة في الأسفل، يصرخ كل منها في وجه الآخر هازئة بالحياة. وشعرتُ بالسعادة لأنني فتحت عينيّ. بقيتُ مُستلقياً برهة أطل على الصباح وكأنني أطلّ على بحر أزرق براق أنوي أنْ أغوص فيه.

ثـم تجولت عيناي واستقـرت على الطاولة الصغـيرة بالقرب من الأريكـة. فلاحظـتُ تلألؤ علبة سجائـر جورج، ومن ثـم، أجفلتُ إذ رأيـتُ زجاجـة الويسكي، لأنها كانت شبه فارغـة. لأبّد أنه شرب مقـدار ثلاثة أرباع إبريق وأنا نائم. و لم أُصـدق عينيّ. وحسبتُ أنني ربما مُخطئ في تقدير ما تحتويه الزجاجة. ملتُ إلى الأمام لأرى ما الذي أجفلني عندما سقـط في الليلة السابقة. كانت كأساً كبيرة ثقيلة الوزن وقعتْ و لم تنكسر. و لم أر أية بقعة على السجادة.

كان جورج لا يزال نائماً، مستلقياً نصف مُغطّى، ويتنفس بهدوء. بدا وجهه خاملاً كقناع. وبدت قسمات وجهه الصلصالية، الشاحبة وغـير المُلهمة كأنها غائصة ومُشوّهة قليـلاً، بحيث أنه بدا مُنهكاً أكثر منـه قبيحاً، مع أخاديد تعـبّر عن بؤس عقيم تمتد علـى طول وجنتيه. أردتُ منـه أنْ يستيقظ، لكي تعود قسمات وجهـه الخاملة، المترهلة، وتُصبح مُلهَمَة بالحياة من جديد. لم أصدق أنَّ سِحره وجماله يمكن أنْ يخذلاه هكذا، وتجعل قسماته كصلصال مُرهَق، غائر.

بينمـا كنتُ أتأمله استيقظ. اتّسعت عيناه ببطء، ونظر إليّ ثم أشاح بوجهه، عاجزاً عن مواجهة عينيّ. جرَّ أغطية السرير حتى كتفيه، كأنما ليسـتر نفسه من نظراتي، وظل مستلقيـاً وظهره لي، ساكناً تماماً وكأنه نائم، على الرغم من عِلمي أنه يقظٌ بشكل كامل؛ كان يُعاني من مهانة الاستلقـاء في انتظار أنْ تعود الحياة زاحفـة لتسكن جسده. وفعلاً، لم تكـن حيويتـه قد أصبحت كافيـة لتبلّغ العضلات عـن وجهه وتمنحه تعبيراً، ناهيك عن أنْ تقبل التحدي الذي عرضتُه.



الفصل السادس

رأس الفِسجة(٨٢)

عندما بلغ ابن ليتي الأكبر الثالثة عادتْ لتعيش في إيبرويتش. فقد توفي العجوز السيد تمبست فجأة، ولذلك عاد لزلي ليُقيم في هايكلوز. كان رجلاً كثير الانشغال. غالباً ما كان يذهب إلى ألمانيا أو إلى جنوب إنكلترا في رحلات عمل. وفي المنزل كان يولي زوجته وولديه كل الرعاية والاهتمام. كان قد حسّن تقبّله للحياة العامة. وعلى الرغم من ضغط العمل أصبح عضو مجلس مقاطعة، وأحد أبرز أعضاء رابطة المُحافظين. كان شديد الكلف بتلبية شرب الأنخاب أو بالدعوة إليها في حفلات العشاء العامة، أو بتسلية رجال السياسة في هايكلوز، أو بالمشاركة في اللقاءات السياسية، وأخيراً، بالتحدث على هذه المنصة أو تلك. وغالباً ما شوهد اسمه في الصحف. وبوصفه مالك منجم، تحدث من مصدر سلطة عن

---

٨٢ - رأس الفِسجة: كما ورد ذكره في العهد القديم، سفر التثنية. وهو قمة جبل يطل سفحه الشرقي على البحر الميت. وقف عليه سيدنا موسى وشاهد أرض إسرائيل كلها ووعده الله بها. غالباً هو الآن الموقع الذي اسمه عيون موسى (كما ورد في قاموس الكتاب المقدس). - المترجم

تشغيل اليد العاملة، وعن العائلة المالكة، وامتلاك الأراضي، وما إلى ذلك.

في المنــزل كان وديعــاً جــداً، ويعامل زوجته باحــترام، ويمرح في حجــرة الأطفال، ويستبــد لنيل ولاء الخدم. وكانــوا يحبونه لذلك – أما هي فلــم يحبوها. كان صخّاباً، ولكن غير متحفّظ، وكانت هادئة ومُدقّقــة. كان يسب ويتوعــد حانقاً، ولكن عندمــا يظهر يتسمون. كانت تُعطي أوامرهــا وتوجه انتقادات معتدلة، لكنهم كانوا يلعنونها بينهم وبين أنفسهم. ولما كانت ليتي دائماً زوجة صالحة، كان لزلي يُعبر لها عن ولعه بها، وعندما لا يتوفر ذلك الوقت، ينساها بكل ارتياح.

كانــت شديــدة التناقُضــ. أحياناً تكتــب لي مُعبِّرة عــن استيائها العنيف: لأنّ حياتها فارغة تماماً، وعقيمة.

تكتــب قائلة: «آمــل أنْ أُنجب طفــلاً آخر في الربيــع القادم. هذا هــو الأمر الوحيد الذي يُزيل بؤس هــذه البلادة. أشعر بأنني مشحونة بالشغــف وبالطاقة، وكلها تفــور وتجيش من خــلال الأعمال المنزلية اليومية –».

عندمــا أجيبهــا أحثّها على أنْ تتولى عملاً يمكنهــا أنْ تبذل فيه كل طاقتها، كانت تُجيب بلا مبالاة. ثم لاحقاً:

«إنــك تشحنني بالمتناقضات. وهذا طبيعي. في الحقيقة لقد كتبتُ تلــك الرسالة الصارخة وأنا في مزاج لن ينتابني من جديد إلا بعد فترة من الوقت. في العموم أنــا راضية تماماً عن تقبُّل كل الأوقات العصيبة

والسعيدة كما تردني، ثم يحدث أمر يُطيح بي ويُبعدني عن نفسي - وأُصاب بقدر ضئيل من الجنون: - أُصبح كئيبة جداً، جداً، كما أُخبر لزلي».

كالعديد من النساء، بدت أنها تعيش، غالباً برضى، حياة منزلية ضيّقة تحت ضوء مُصطنع وأثاث قديم. وأحياناً فقط، عندما تسمع رياح الحياة تعصف في الخارج، تصخب مُعبرة عن رغبتها في الخروج إلى العاصفة العاتية، السوداء. فتندفع إلى الباب، وتطل منه إلى الخارج وتهتف في الجو العاصف بكل عنف، لكنَّ الحذر الأنثوي يمنعها من تخطّي العتبة.

كانت تجارة الخيول تزدهر مع جورج.

في الصباح، تسير مواكب الخيول الإنكليزية الممتازة، صفاً واحداً، بفخامة على طول أزقة إيبرويتش الطويلة والهادئة، يقودها عامل جورج، أو توم ميهيو، بينما يواكبها جورج راكباً في أثناء ذلك تحت أشعة الشمس المنعشة والنقية، وإلى جواره فرسان يرقصان.

عندما رجعتُ إلى الوطن من فرنسا بعد لقائنا في لندن بخمسة أعوام وجدته مُقيماً في منزل الهوليز. كان قد استأجر المنزل من آل ميهيو، وانتقل إلى هناك مع عائلته، تاركاً أوزوالد ليكون مسؤولاً عن الحانة. وبعد ظهيرة أحد الأيام عرّجتُ على المنزل الكبير، لكنَّ جورج لم يكن موجوداً. فاجأتني عائلته. فالتوأم كانا ممشوقيّ القامة في السادسة من العمر. وكان هناك صبيان آخران، وكانت ميغ ترعى طفلة جميلة في نحو العام من عمرها. هذه الطفلة كانت بكل وضوح

سيدة المنزل. وكانت ميغ، التـي أضحت بدينة، تدلل الطفلة الصغيرة في كل شيء.

سألتها: «كيف حال جورج؟».

أجابـت: «أوه، إنه بأحسـن حال. دائماً يجد مـا يشغل به يديه. ويكاد لا يحظـى بلحظة فراغ واحدة؛ بسبـب اهتمامه بالاشتراكية، وبأمور أخرى».

كان ذلـك صحيحـاً، لقد كانت نتيجة زيارتـه إلى لندن إخلاصه الشديـد لقضية المسحوقـين. ورأيتُ لوحة واتـس[٨٣] «مامون[٨٤]»، مُعلّقـة على جدار الغرفـة الصباحيـة، وعلى الطاولـة الجانبية أعمال لبلاتشفورد، وماسترسن، وكيوزا موني. وكان الاشتراكيون في المنطقة يجتمعـون مـرة كل أسبوعين في ليلة يوم الخميـس في الهوليز لمناقشة الإصلاح. ولم تكن ميغ تهتم بأولئك الجادّين.

قالـت: «إنهـم ليسوا مـن النوع الـذي يعجبني. إنهـم عصبيون ومغـرورون. يعتقـدون أنَّ الناس كلهم بطيئـو الفهـم إلا هم. لكنَّ ميزتهم الوحيدة هي أنهم لا يشربون الخمر، وهذه نعمة».

قلت: «ماذا! أكنتِ تعانين من هذه الناحية؟».

---

٨٣ – جـورج فريدريك واتـس (١٨١٧ – ١٩٠٤): رسام ونحات إنكليزي. من أشهر لوحاته «الأمل»(١٨٨٦) وتمثال «الطاقة الجسدية» (١٩٠٤). – المترجم

٨٤ – المامون: في الكتاب المقدس، رمز الجشع المادي. – المترجم

أخفضتْ صوتها إلى درجة أنه أصبح غامضاً بقدر كافٍ بحيث لا يجذب انتباه الأولاد.

قالت: «لا ينبغي أنْ أبوح بأي شيء لولا أنكما كالإخوة. لكنه بدأ يُدمن على شرب الكحـول. وأنت تعلم أنَّ مشكلته الدائمة كانت مع الكحـول، وعموماً البراندي: - وقد أثّـر كثيراً على علاقتهم. ليست لديك فكرة كيف يبدو عندمـا يصبح يغرق في الثمالة. أحياناً ينغمس في الكلام، وأحيانا أخرى يضحك على كل شيء، وأحياناً يُصبح كتلة مـن الحيويـة. ومن ثم - «وهنـا أصبحت نبرة صوتهـا مشؤومة ، »- أصبح يعود إلى المنزل وهو شديد الثمالة».

الذكرى جعلتها جديّة.

قالـت: «أنـت لا تعلم كيف أصبـح الوضع، يا سيريـل. وكأنك تستضيف الشيطان في بيتك، أو كأنَّ نمراً أسود يُحدق إليك. أنا واثقة من أنَّ لا أحد يعلم كم عانيت معه -».

وقفَ الأولاد بعيون واسعة، عيون مُخيفة وشفاه شاحبة، يُصغون.

قلت: «إنه أفضل حالاً الآن؟».

«أوه، نعم - منـذ أنْ وُلِدتْ غيردي»- ونظرتْ بحب إلى الطفلة التـي تحملها بين ذراعيهـا - «إنه أفضل بكثـير الآن. في الواقع لطالما رغـب في أن يُنجـب فتاة، وهو شديد الكلف بهـا - أليس كذلك، يا حبيبتي؟ - ألستِ حبيبة البابا؟ - والماما أيضاً، ألست كذلك؟».

فجـأة استـدارت الطفلة بحيـاء، وتعلّقت بعنق أمهـا. قبّلتها ميغ

بوله، ثـم وضعت الطفلة وجنتها على وجنة أمهـا. ونظرت عينا الأم السـوداوان، وعينا الطفلـة الواسعتـان، البنيتـان، إليّ بصفاء. كانت الاثنتـان شديدتـيّ الهـدوء، ومتكاملتـين ومنتصرتـين معـاً. كان في اكتمالهمـا إحساس بالأمان جعلني أشعـر بالوحدة وبالعقم. إنَّ امرأة تضـم طفلتها إلى صدرها هي برجٌ من القوة، برج جميل من القوة، لا يُقهَر، يمكن أنْ يُقاوم الموت بهدوء.

أخبرتُ ميـغ بأنني سأعرّج من جديـد لأرى جورج. وبعد ذلك بأمسيتـين طلبتُ من ليتـي أنْ تُعيرني عربة الحصـان لأذهب إلى منزل الهوليـز. كان لزلي غائباً في إحدى رحلاتـه السياسية، وكانت تشعر بالقلق. واقترحتْ أنْ ترافقني. وكانت قد عرجت على ميغ مرتين قبل ذلك في المنزل الجديد الكبير.

انطلقنـا عند حوالي الساعـة السادسة. كان الليـل حالك السواد والأرضـ موحلـة. أرادت ليتـي أنْ تمر علـى قريـة إيبرويتش، لذلك سلكت الطريق الطويلة حوا سيلبي. اجتاز الحصان بوابة منزل الهوليز عنـد الساعـة السابعة. أخبرتني الخادمة أنَّ ميـغ في الطابق العلوي في غرفة الأطفال، وجورج في غرفة الطعام يعمل على أنْ تنام الطفلة.

قلت: «حسن! سوف نذهب إليه. لا داعي لإخباره».

في أثنـاء وقوفنا في الرواق الكئيب، المربّـع، سمعنا قعقعة كرسي هزّاز، وكان الإيقاع يأتي بطيئاً وثقيلاً على لحن «هنري مارتن»، وهي إحـدى أغـاني ستريلي ميـل الشعبية. ثم، وعلى متن غنـاء الرجل ذي النبرة الثقيلة جاءت دندنة الطفلة الخفيفة وهي تغني، بأسلوبها الطفولي

الظريف، كدعم عابث لتهويدة والدها. فرفع قليلاً من صوته؛ ووجدنا أنفسنا، دون معرفة السبب، نبتسم مع استمتاع شديد. فرفعت الطفلة أيضاً من نبرة صوتها، ورافق غناءها رنين حاد من الضحك والمُحاكاة. وأخذ يعلو غناؤه أكثر فأكثر، وصوت الطفلة يزداد حِدّة، والكرسي يهتز بإيقاع طويل، وثقيل. وفجأة، بدأ يضحك. توقف هزّ الكرسي، وقال، وفي نبرة صوته لا يزال الضحك والاستمتاع:

«هذا خبث شديد! آه، أيتها البنت الخبيثة - اذهبي إلى النونو، اذهبي إلى النونية! - فوراً».

قهقهت الطفلة بطريقتها المُحاكية، الوقحة الصغيرة.

قال: «تعالي، يا ماما! تعالي وخذي هذه البنت إلى النونية!».

ضحكت الطفلة من جديد، ولكن مع لمسة مناشدة غير واثقة في نبرة صوتها. فتحنا الباب ودخلنا. فرفع بصره وأجفل بقوة لرؤيتنا. كان جالساً على كرسيّ هزّاز طويل بجوار الموقد، بلا معطف، وبقميص أبيض. والطفلة، بقميص نومها الصغير الضيق، والخصر المرتفع، واقفة على رُكبته، وعيناها الواسعتان مُثبّتتان علينا، وكتل مشوشة من شعرها البنيّ تهبط على جبينها وتومض كنفخات من غبار البرونز على أُذنيها. وبسرعة أحاطت عنقه بذراعيها ودسّت رأسها تحت ذقنه، وقدماها الصغيرتان مُثبّتتان على فخذه، وقميص نومها منسدل عليهما. هزّ رأسه عندما دغدغته كتلة من شعرها البنيّ. ابتسم لنا قائلاً:

«كما ترون أنا مشغول!».

ثـم التفت من جديـد نحو الرأس البنيّ الصغـير المدسوس تحت ذقنـه، ونفـخ مُبعِداً كتلة الشعـر المُضيئة، ودعك شفتيـه وشاربه على العنق الأبيض الصغير، الشديد الدفء والسريّ. رفعت الطفلة كتفيها، وانكمشـت قليلاً وهـي تبقبقُ داخل عنقه ضحـكاً مُستتراً. و لم ترفع رأسها أو تُرخي ذراعيها.

قـال: «تعتقـد أنها حييّة. ارفعـي بصرك، أيتها الوقحـة الصغيرة، وانظري إلى السيـدة والسيد. إنها بومة حقيقية، وترفض أنْ تأوي إلى السرير - هل ستفعلين، أيتها البومة البنيّة الصغيرة؟».

دغـدغَ عنقها بشاربه من جديد، وأخـذت الطفلة تبقبق بضحك خبيث مرح.

كانـت الغرفة دافئة جـداً، بوجود ركام أحمر مـن النار في أعلى فوهة المدخنـة. كانت شبه مُضاءة بثريا برونزيـة ثقيلة، سوداء وكئيبة، تقـوم في منتصـف الغرفة. وكانت تحتـوي الأثاث القليـل، الداكن، الذي في منزل آل ميهيو. بدا جورج ضخماً ووسيماً، والحرير الأسود اللامع لصدريته يُحيـطُ بإحكام بجنبيه، وباستـدارة كتفيه العضليتين اللذين يملآن الكتّان الأبيض لقميصه.

فجأة رفعت الطفلـة رأسها الصغير وحدّقتْ إلينا، وهي تُقحم في فمها الدمية التي كانت مُثبّتة إلى صدر قميص نومها. كان كُمّا قميص النـوم ذي اللون الـوردي الباهـت خفيفين حول رسغيهـا الصغيرين

البدينين. وقفت هكذا تمصّ دميتها، وإحدى ذراعيها تطوّق عنق والدها، وتراقبنا بالعينين البنيّتين الجديتين. ثم أقحمت قبضة يدها الصغيرة والبدينة داخل كتلة خصل شعرها الصغيرة، وبدأتْ تُدير أصابعها حول أذنها البيضاء كزهرة الكاميليا.

قالت ليتي: «إنها نعسانة حقاً».

قال، وهو يضمها إلى صدره لتنام: «تعالي إذن! تعالي نذهب إلى النونية».

لكن بنت الحرام الصغيرة بدأتْ في الحال تحاول أنْ تعترض. تيبّستْ، وحررت نفسها، ووقفت من جديد على رُكبته، تراقبنا بجديّة، وتهز الدمية التي في فمها التي بدأتْ فجأة تمصّها، وتلوي أُذن والدها بأصابعها الصغيرة إلى أنْ أجفل.

قال، مبتسماً: «إنَّ أظافرها حادة حقاً».

بدأ يسأل ويُعطي المعلومات الصغيرة التي يتبادلها الأصدقاء الذين لن يتقابلوا منذ وقت طويل. أسندت الطفلة رأسها على كتفه، مُثبّتة بغموض عينيها المُتعبتين، الشبيهتين بعينيّ بوم علينا. ثم بالتدريج رفرفت جفنيها وغرقت في النوم، وسقطت على ذراعه.

همست ليتي: «لقد نامت».

وفي الحال فُتِحَتْ العينان الداكنتان من جديد. وتبادلنا نظرات ذات مغزى، مُتابعين حديثنا الخافت. وبعد قليل استغرقت الطفلة في النوم.

في الحـال هبطتْ ميغ إلى الطابـق السُّفلي. حيّتنا بأنفاس مقطوعة من المفاجأة، ومن ثم التفتت إلى زوجها.

همسـت، وهي تميل فوق الطفلة النائمـة بدهشة: «هل نامت؟ يا الله، أليست رائعة!».

تناولـت الطفلـة النائمة، المتراخية، من بين ذراعيـه، واضعة فمها على جبينها، ومُغمغمة بأصوات مُبهمة، مُهدهدة.

مكثنا نتحدث بعض الوقت بعد أنْ وضعت ميغ الطفلة في السرير. وكان جورج يتكلم بنبرة واثقة مُسيطرة جديدة. أولاً كان رجلاً راسخ المكانة، يعيش في منزل واسع، لديه ثلاثة رجال يعملون لحسابه. وثانياً كان قد توقف عن تقييم الكنـوز التقليدية للموقع الاجتماعي والرقيّ المتباهي. وهناك الكثير جداً من الأشياء التي يتّهمها بأنها فارغة وتهدر الوقت بصورة تُثير الاشمئزاز. واعتبر حيـاة الشخص الثري العادي عقمـاً مُزخرَفاً، بل وتقترب من الحماقة. وتحدث بحماس عن الطريقة الشنيعة التـي تُنكِر بها النُّخبة المحظوظة الحياة على العديد من الناس. وتحدث مع ليتي بأسلوب شنيع.

قالت: «طبعاً، أنا قرأتُ للسيد ويلز وللسيد شو، وحتى لنيل ليونز ولرجـل ألماني – ما اسمـه، كويريدو؟ ولكن ما حيلتـي؟ أنا أعتقد أنَّ الأثريـاء يُعانون على قدم المسـاواة مع الفقراء، وبالقسـوة نفسها. ما حيلتـي؟ إنَّ الأمر يتعلّـق بالحياة وبتطور الجنس البشـري. إنَّ المجتمع وأنظمتـه لا تشبـه التدريب العسكـري الذي فرضتـه علينا الحروب النابوليونية المطوّلة: إنها الطريقة الوحيدة التي لدينا للعيش المشترك».

قال: «هراء! هذا اسمه جُبن. إنه ضعف وعقم حتى آخر رمق».

«لا نستطيــع أنْ نُصبح معادين للاستهلاك خلال جيل واحد، ولا نستطيع أنْ نقضي على الفقر».

أجاب بامتعاض: «يمكننا أنْ نبدأ باتخاذ إجراءات فعّالة».

قالت: «يمكننا أنْ نذهب جميعاً إلى المصح ونعيش بائسين مُكتئبين ندفع الموت عنا، لكنَّ الحياة مملوءة بالجمال رغم هذا كله».

قال: «لكنَّ البؤس فيها أكثر».

مــع ذلــك، أزعجته. كانت لا تزال تحتفــظ بقُدرتها المدهشة على التأثير على آرائه. وانفعاله كله، وحماسته، وكلامه الفظ، بعد التحليل، ليس إلا نتيجة رعبه من تهديدها لاهتمامه بالحياة.

لقد استــاءت من معاملته الخشنة لها، ومن نــبرة صوته المتعضة. وزيــادة على ذلك، ما كان يمكن لها أنْ تدعه يفرض ذاته. لقد شعرتْ بقوةٍ دافعة أجبرتها رُغماً عنها تقريباً على التدخُّل في حياته. ودعته إلى تناول العشاء معهــم في هايكلوز. لقد أصبح الآن معقولاً. ففي سياق حياتــه المهنية، رافق بقــدر كافٍ سادة محترمين بحيــث يُصبح سلوكه بصــورة عامــة comme il faut (لائقــاً) في أثناء حفــل عشاء خاص، وبعده.

كانت تكتب لي عنه بين حين وآخر:

بالأمس زارنا جورج ساكستون هنا على العشاء. ودارت بينه وبين لزلي مُشاحنات

مُخيفة حول تأميم الصناعات. إنَّ جورج بالنسبة إلى لزلي أكثر من مجرد ندّ، مما يجعل صديقنا، في قرارة قلبه، فخوراً بنفسه بفخامة. الأمر مُسلٍ جداً. وأنا، طبعاً، عليّ أنْ أحافظ على توازن القِوى، وطبعاً أنْ أساند كرامة زوجي. وعند لحظة حرجة، خطرة، عندما يوشك جورج أنْ يُلوح بسيفه الذي يقطر دماً وينطرح لزلي على الأرض غاضباً ينزف دماً، أتقدّم أنا وأُدغدغ المُنتصر تحت منطقة القلب بهجاء صغير أو بسؤال صعب، وأرفع لزلي ليقف على قدميه وأقول إنَّ دماءه تُضيء الحقيقة، و vous voila! ثم أُخفّف للمرة الألف من هتاف لزلي المُحافظ بالانتصار، وأُبدي إعجابي مرة أخرى بجورج – فلا فائدة من النقاش معه، لأنَّ غضبه شديد – وأناشد في أعماقي كل التعبيرات الرائعة، والحزينة، والجميلة على قسمات الحياة، تعبيرات لا يراها أو أنه يُشوهها بوجهةِ نظرهِ المنحرفة من الاشتراكية ويحولها إلى تكشيرات – وأنجح! أعتقد أنني أشبه ميكيافيللي، هذا صحيح تماماً، ما أقول –».

ومن جديد تكتب قائلة:

تصادف أنْ كنا ننطلق بالسيارة من ديربي في صباح يوم أحد، وعندما بلغنا قمة التل اضطررنا إلى أنْ نشق طريقنا خلال حشد كبير من الناس. ونظرت فرأيت صديقنا جورج، يُلقي خطبة حول منحة الدولة للأمهات. جعلتُ لزلي يتوقف في أثناء إصغائنا. كانت منطقة السوق مزدحمة بالناس. شاهدنا جورج، واشتد حماسه. ثم ازداد اهتمام لزلي، وعلى الرغم من تمسّكي بأطراف معطفه بكل قوتي، إلا أنه قفز واقفاً وبدأ يطرح الأسئلة. يجب أنْ أقول هذا بخجل ومهانة – لقد أساء إلى نفسه. وكان الناس من حوله يسخرون منه ويغمغمون بصوت خافت. أعتقد أنَّ لزلي ليس محبوباً بينهم، إنه مُناصر للطاقة الآلية التي تقوم بعمل الطاقة البشرية. ولذلك هللوا لصاحبنا جورج عندما راح يهدر بإجاباته وبحركاته الاستعراضية. أشار بإصبعه إلينا، ووجّه ذراعه نحونا، وصرخ حتى أنني انكمشت في مقعدي. لا أفهم لماذا يُصبح مسعوراً حالما أقترب منه. في صباح ذلك اليوم أحرز جورج انتصاراً، ولكن عندما رأيته بعد ذلك ببضعة أيام بدا شديد الاضطراب، بل يفتقر إلى الثقة في النفس –

بعد نحو عام من ذلك وصلتني رسالة منها حول الموضوع نفسه.

لقد حصلت على قُبّرة رائعة. ترددتُ على منزل هوليز ثلاث مرات أو أربع؛ لأحضر اجتماعات الاشتراكيين. لزلي لا يعلم بالأمر. إنهم مُسلّون جداً. طبعاً أنا أتعاطف مع الاشتراكيين، لكنني لا أستطيع أنْ أُضيّق عينيّ بحيث لا أرى إلا شيئاً واحداً. الحياة أشبه برجل ضخم الجثّة، وسيم، شاب ومملوء بالحيوية، لكنه غزير الشعر، همجي، صاحب يدين قويتين وقذرتين، وقذارته متأصّلة. أعلم أنَّ يديه شديدتا القُبح، وأعلم أنَّ فمه ليس حسن التكوين، وأعلم أنَّ أطرافه غزيرة الشعر وهمجية: لكنَّ عينيه عميقتان وغاية في الجمال. هذا ما أُخبر به جورج.

الناس شديدو الجديّة، يُثيرون فيَّ الحزن. لكنهم يُغالون في الوعظ، والخطابة، وفي الثقة في النفس وفي ضيق الأفق، ويُثيرون ضحكي. جورج يضحك أيضاً. أنا واثقة من أننا هزأنا بالفتاة الجاحظة العينين ذات الشعر الأملس التي عانت في السجن من أجل قضية المرأة، إلى درجة أنني أشعر بالخجل عندما أرى شارة «عُصبة النساء» التي بحوزتي. كما تعلم، يا سيريا، في أعماقي لا أهتم بأي شيء كثيراً، ما عدا نفسي. إنَّ الأشياء تبدو لي شديدة التفاهة. وأنا الشيء الحقيقي الوحيد، أنا والأطفال -

وشيئاً فشيئاً خرج جورج من حركة الاشتراكيين. بدأت تُثير قلقه. وهي لم تفِده في العموم. وبدأ بمُحاكاة أصدقائه في الأخوية ساخراً. ثم أصبحَ يتحدث بكراهية مريرة عن هدسن، قائد الحركة في إيبرويتش، كثير الكلام، والفكِه، والضحل؛ وهدسن، بتملّصه وكلامه الفارغ، هو الذي دفع جورج إلى الشعور بالاشمئزاز من القضية. وأخيراً توقف عقد الاجتماعات في دارة هوليز، وقطع صديقنا كل صِله له برفاقه السابقين.

وبـدأ يفكِّـر في الأرضـ. كان مصنـع للجـوارب قـد انتقل إلى إيبرويتشـ، وأضفى على المكان حافزاً جديـداً للنمو. وتصادفَ أنْ اشترى جورج قطعة أرض تقع في آخر شارع القرية. وعندما حصل عليها كانت ضمن حدائق مُفرَزة. وكانت قيمتها تتدنى نظراً لتعدّي المنـازل عليها. فاشتراها، وقسَّمها، وعرضها لبيع كمواقع لصف من المحال التجارية. وباعها وحصد منها ربحاً جيداً.

في العمـوم كان يزداد ثراءً. وسمعتُ مـن ميغ أنَّ أعماله تزدهر، وأنـه لا يشرب مـن الخمر «ما يستحـق الذِكر»، لكنـه دائماً خارج المنـزل، ونـادراً ما تراه. فـإذا كان الازدهار يعنـي أنْ يبقى غائباً عن المنـزل، فهي مُستعـدة أنْ ترضى بثروة أقلّ؛ وأنـه يشتكي من كونها ضيقة الأفق، ولا تضمر أي تعاطف مع أي من أفكاره.

قـال: «لا أحد يأتـي إلى هنا ليزورني مرتـين، لأنَّ ميغ تستقبلهم بطريقـة تفتقـر إلى الكياسة. وقـد دعوت ذات أمسيـة جيم كرتيس وزوجته مـن إيفرلي هـول إلى زيارتنا. فساد جو مـن عدم الارتياح طـوال الوقـت، لأنَّ ميغ لم تكـد تتكلّم مع أحـد – «نعم» و «كلا» و«همم همم!» – فامتنعا عن زيارتنا».

وقالت ميغ نفسها:

«أوه، إنني لا أطيـق المغرورين. إنهم يزعجونني. فحالما يبدؤون بالتكلُّف بالكلام لا أطيق التحمُّل – لا أستطيع أنْ أتفوه بأية كلمة–».

وهكـذا كانت طبائعهما متناقضة. لقد حاول جاهداً أنْ يكسب

بعض الشعبية في إيبرويتش. فهو لم يكن ينتمي إلى أية طبقة اجتماعية مـن أي نوع. وكانت ميغ تقوم بزيـارة زوجات أصحاب الدكاكين الصغيرة والحانات وتتسلّى معهن: ذلك كان وسطها.

أعلـن جورج أنَّ النساء ثرثـارات، سوقيات، وضيقات الأفق - ولـكل شيء سبب. لكنَّ ميـغ أصرّت. كانت تقـوم بزياراتها عندما تجـد ذلـك ملائمـاً، وتتسلّـى في أثناء غيابـه. وكان يزيـد من عدد معارفـه: الدكتور فرانسيسـ؛ السيد كارتريدج، الجـرّاح البيطري؛ توبـي هسوال، ابـن المُخمّـر؛ وآل كرتيس، المزارعـون ذوو المكانة المرموقـة من إيفرلي هول. ولا بلا فائدة. لقد كان جورج مُحباً لعائلته بالفطـرة. أراد أنْ يحتفظ بخصوصيته وبأمانـه داخل منزله، عندئذٍ يُصبح مرتاحاً. ولما لم تكن ميغ تخرج معه أبداً، ولما كانت كل محاولة لإشاعـة التسلية في منزل هوليز تمـ ـه بالخزي والعار، بدأ يتخلّى عن محاولة بناء سمعة، وبقيَ مُعلقاً في عزلة اجتماعية في هوليزز.

×××

ظلـتْ الصداقة بين ليتي وبينه قائمة، علـى الرغم من كل شيء. أحيانـاً كانت الغيرة تأكل لزلي، لكنه لم يجـرؤ على إظهارها للعلن، خوفـاً من امتعاضـ زوجته الشديـد. وخلال فـترة أسبوعَين لم يزر جـورج هايكلوز إلا مـرة واحدة، وربمـا ليس كثـيراً. و لم تزُر ليتي الهوليز أبداً، لأنَّ موقف ميغ كان مُعادياً.

كانت ميـغ تشتكي من زوجها بمرارة. وغالباً ما كان يتحول إلى حيـوان عندما يسكر، وكان يفكّـر في نفسه أكثر مما ينبغي، و لم يكن

المنزل كافياً بالنسبة إليه، كان أنانياً حتى النخاع، لا يهتم بها ولا بالطفلين، بل فقط بنفسه.

×××

تصادف أنْ كنتُ في المنزل بمناسبة عيد ميلاد ليتي الواحد والثلاثين، وكان جورج حينئذٍ في الخامسة والثلاثين. وكانت ليتي قد سمحتْ لزوجها أنْ ينسى عيد ميلادها. حينئذٍ كان شديد الاستغراق في السياسة، استعداداً للانتخابات العامة التي ستجري في العام التالي، وينوي أنْ يُنافس للحصول على مقعد في البرلمان. وكانت المقاطعة تُعتَبَر المعقل الحصين لليبراليين، لكنَّ لزلي كان يأمل في أنْ يحظى بالموقع. ولذلك كان يقضي وقتاً طويلاً في نادي المُحافظين، وبين أصحاب النفوذ في المقاطعة الجنوبية. وشجّعته ليتي في هذه المسائل. كانت ترتاح منه. وبتلك الطريقة تركته ينسى عيد مولدها، في حين أنها، ولسبب مجهول، تركت الفكرة تنتقل إلى جورج. فدعته على مائدة العشاء، بما أنني كنتُ في المنزل.

حضر جورج عند الساعة السابعة. وساد المنزل جو غريب من الاحتفال، على الرغم من عدم وجود علامات واضحة على ذلك. كانت ليتي قد ارتدت ثوباً رائعاً من القماش الهفهاف ذي اللون القرمزي الغامق؛ وتضع على صدرها زينة بلون أخضر لازوردي ساطع، وشعرها اللامع مربوطاً بشريط باللون نفسه. كانت مُذهلة. وكانت تعي تأثيرها، وفرحة جداً بذلك. وفي الحال شخصَ جورج إليها بعينين يقظتين بتوهج عميق. لدى دخوله نهضتْ واقفة، ومدت

يدها نحوه مباشرة، وجسمها شديد الانتصاب، وعيناها برّاقتان نشطتان كرايتين زرقاوين.

قالت بنعومة، مانحة يده ضغطاً حاسماً قبل أنْ تتركها: «شكراً جزيلاً لك». لم يتمكن من إعطاء جواب، فجلس، حانياً رأسه، ثم رفع عينيه إليها بترقُّب. فابتسمت له.

وسرعان ما جاء الطفلان. بدوا غاية في الظُّرف، كمُساعدي القس، بأرديتهما الطويلة المنسدلة من الحرير الأزرق المضروب. الولد، خاصة، بدا وكأنه يوشك أنْ يُشعِل الشموع في كنيسة طفولية في الجنة. كان مفرط الطول والنحول، أشقر الشعر، برأس جميل مُدوَّر، وتقاسيم وجه هادئة. كلا الطفلين كانا نظيفَين بصورة رائعة، وكأنهما شفّافان: من المستحيل تصوّر أي شيء أكثر منهما نضارة وحُسناً. كانت الفتاة مرحة، ذات شعر مُجعّد في السادسة. أخذت تعبث بحُليّ أمها الخضراء وتُثرثر بظرف، بينما وقف الصبي إلى جوار أمه، كقندلفت[٨٥] نحيل وصامت بردائه الأزرق الفاتح. أثار إعجابي بصبره ونقائه. عندما قفزتْ الفتاة بين ذراعيّ جورج، وضع الفتى يده بخوف على رُكبة ليتي ونظر بشيء من التساؤل إلى ثوبها.

قال: «ما أجمل هذه الحجارة الخضراء، يا أمي!».

أجابت، وهي ترفعها ثم تترك تشكيلها الغريب يسقط من جديد على صدرها: «نعم، إنها تُعجبني».

---

٨٥ – القندلفت: مساعد القس في أداء مراسم الصلاة في كنيسة.

سأل «ألن تغني، يا أمي؟».

قالت ليتي مبتسمة: «ربما. ولكن لِمَ؟».

«لأنكِ عادة تغنين عندما يأتي السيد ساكستون».

أحنى رأسه وداعب رُكبة ليتي بحياء.

قالت، وهي تضحك: «أحقاً. أتسمع؟».

أجاب: «قليلاً. مقدار قليل، وكأنه يضيع في الظلام».

كان متردداً، وحييّاً كشأن الصِبية. وضعتْ ليتي يدها على رأسه ومسّدت على شَعره الأشقر الناعم.

طلب منها، بشبه خجل: «غني لنا أغنية قبل أنْ نذهب، يا أمي- فقبّلته».

قالت: «سوف تغني معي. ماذا سنغني؟».

أخذت تعزف من دون نوتة موسيقية. وقف بجوارها، بينما جلستْ لوسي، الفأرة الصغيرة، على ذيل ثوب أمها، ضاغطة على خفّ ليتي الحريري وعلى القدمين. وغنت الأم مع الصبي:

ضرب الشاعر الجوال على أوتار قيثارته

وهو يحثّ خطاه عائداً من أوار الحرب.

كان للصبي صوت عالي الطبقة وصاف، وواضح كطيران السنونو في الصباح. وسطع الضوء على شفتيه. وتحت البيانو جلست الفتاة تضحك، وتضغط على قدم أمها بكل قوتها، وتضحك من جديد. ابتسمتْ ليتي وهي تغني.

وأخيراً قبلانا برقة قبلة «تصبحون على خير»، ورفرفا خارجَين من الغرفة. أبرزت الفتاة رأسها ذا الشعر المجعد من الباب من جديد. ورأينا ثنية الكُم الأبيض على رسغ المربية وهي تُمسك بذراع الصغيرة.

سألت الخبيثة: «ألن تأتي وتُقبلينا عندما نأوى إلى السرير، ماما؟».
ضحكتْ أمها ووافقتْ.

انسحبت لوسي برهة؛ ثم سمعناها تقول: «فقط قليلاً، أيتها المربية، فقط قليلاً!».

وظهر الرأس بشعره المُجعّد من طرف الباب من جديد.

اقترحت قائلة: «وواحدة صغيرة جداً، واحدة فقط!».

صفقت ليتي بيديها بغضب ساخر «اذهبي، أنت -!». اختفت الطفلة، ولكن في الحال ظهرت من طرف الباب من جديد عينان ضاحكتان زرقاوان والطرف الأفطس لأنف.

«واحدة جميلة، ماما - وليس هلامية!».

نهضتْ ليتي مع حفيف لكي تُبعدها. اختفتْ الطفلة مع ضحك متلألئ. وسمعناها تهتف بأنفاس مقطوعة على الدرج - «انتظر قليلاً، فريدي - انتظرني!».

تبادلت ليتي مع جورج الابتسام بعد مغادرة الطفلين. ومع تلاشي الابتسام عن وجهيهما أطرقا بحزن، وظلا حتى إعلان موعد العشاء ساكنين هادئين ومُثقلين بالكآبة. وبعد العشاء ناقشت ليتي أمر اختيار

السكاكـر التي ستأخذهـا للطفلين. عندما هبطـت من جديد دخنت سيجـارة معنا ونحن نشرب القهوة. لم يحب جورج أنْ يراها تدخن، لكنـه أشرق قليلاً عندمـا جلس بعد أنْ أشعل لهـا السيجارة، مسروراً بسِمة التهور التي تتصف بها.

قالـت، وهي تمد يدها لتتناول المملحـة الرومانية الصغيرة الخضراء بلون حجر اليشب التي استعملتها كمنفضة: «لقد مرت عشر سنوات منذ أنْ أقمنا حفلنا في وودسايد».

هتف بمرارة: «يا إلهي – عشر سنوات! وكأنها مائة عام».

أجابت، مبتسمة: «تبدو كذلك وليست كذلك».

«إذا ألقيتُ نظرة مباشرة إلى الماضي، وفكّرت في حماستي، أشعر كأنه الأمس القريب. وإذا ألقيت نظرة إلى المدة منذ ذلك الحين وحتى الآن، إلى كل تلك الأيام الممتدة بينهما، أشعر كأنه دهر».

قال: «وإذا نظرتُ إلى نفسي، أعتقد أنني شخص آخر تماماً».

وافقت قائلة، وهي تنظر إليه بحزن: «لقد تغيَّرتَ – تغيُّراً هائلاً – لكنكَ لستَ شخصاً آخر. إنني غالباً ما أفكّر – تبقى هناك واحدة من نظراته القديمة، إنه هو نفسه في أعماقه!».

وانطلقـا معاً على سفينة ذكريات مُزهِـرة وانجرفا على طول قنال ماضيهما الملوثة.

قال: «إنَّ أسوأ ما فيها أنني كنتُ أتصف بلامبالاة بائسة، باشمئزاز

مــن الأشياء. أنت تعلمين أنّه كان لدي استعداد للمهابة. ولطالما آمنت بالأشياء».

ابتسمت. «أنا أعلم هذا. لطالما رأيتُ أنك صاحب تفكير متواضع – أكــثر مما ينبغي. ولطالما رأيتَ أنَّ للأشياء مغزى دينياً عميقاً، مُستتراً، وكنتَ توقّرها. فهل اختلف الأمر الآن؟».

ضحك «أنت تعرفينني جيداً. ماذا تبقّى لي أؤمن به غير نفسي؟».

قالت بحزم: «ينبغي أنْ تعيش من أجل زوجتك وأطفالك».

قال، مبتسمــاً: «إنَّ لدى ميغ الكثير مما يوفر لها ولأطفالها الأمان طوال حياتهم. لذلك لا أعلم إنْ كان وجودي أساسياً».

أجابت: «لكنك كذلك. إنَّ وجودك ضروريٌّ كأب وكزوج، إذا لم نقُل كمُعيل».

قــال: «أعتقد أنَّ الزواج أقرب إلى المبارزة منه إلى التعاون الثنائي. يفــوز أحد الفريقين ويأخذ الطرف الثاني أســيراً، عبداً، خادماً – كما تشائين. هكذا هو الأمر، بصورة أو بأخرى».

قالت ليتي: «والمعنى؟».

قــال: «المعنى! إنَّ ميغ ليست مثلك. إنها تريدني، تريد جزءاً مني، ولذلك هي تفضّل أنْ تقتلني على أنْ أمشي على هواي».

قالت ليتي، مُشددة: «أوه، كلا!».

قــال بهدوء: «أنــتِ لا تعرفين شيئاً. في المبــارزة الزوجية ميغ هي الفائــزة. هذا ما تفعله المرأة عادة؛ والأطفال يقفون في صفّها. إنني لا أستطيــع أنْ أمنحها الجــزء الحقيقي مني، الجزء الحيوي الذي تريد – لا أستطيــع، كمــا لا أستطيع أنْ أمنح قبلاتي لامرأة غريبــة. وأشعر بأنني أخسر – ولا يهمني».

قالت: «كلا، إنَّ وضعك سيئ جداً».

وضــع السيجــارة بين شفتيــه، وسحب نفســاً عميقاً، ثــم أرسل الدخان ببطء من منخريه.

قال: «كلا».

قالت: «اسمع! دعني أغني لك، أتسمح، وأُعيد إليك مرحك؟».

غنّتْ من ألحان فاغنر. كانت موسيقى تعبّر عن الاستسلام واليأس. ولم تفكّــر في ذلــك. وكان طــوال فــترة إصغائــه يُفكّر. لقــد أثارت الموسيقى أفكاره وأضاءت اتجاه كآبته. كان طوال الوقت جالساً ينظر إليهــا بعينيه القاتمتين من ازدحام أفــكاره. أنهت غناء «نجم المساء «من أوبرا تانهاوزر واقتربت منه.

سألتــه بحزن: «لِمَ أنت شديد الحزن هــذه الليلة، وأنا أحتفل بعيد مولدي؟».

أجاب: «هل أنا مُضجر؟ أنا آسف».

قالت، وهي تغوص في الأريكة الصغيرة إلى جواره: «ما الأمر؟».

أجاب: «لا شيء! تبدين غاية في الجمال».

«جيـد، هذا ما أردتكَ أنْ تقول! يجب أنْ تكون مرحاً جداً، كما تعلم، وأنا بكامل أناقتي هذه الليلة».

قال: «كلا، أعلم أنني يجب أنْ أكون كذلك. ولكن يبدو أنَّ الغد غارقٌ في حبي. لا أستطيع أنْ أتحرر من بين ذراعيه النحيلتين».

قالت: «مـاذا! إنَّ ذراعيّ الغـد ليستا نحيلتـين. إنهما بيضاوان، كذراعيّ»، ورفعت ذراعيها ونظرتْ إليهما، مبتسمة.

سألَ، في الموضوع نفسه: «ما أدراك؟».

أجابت بخفّة: «أوه، طبعاً هما كذلك».

ضحك، بإيجاز وشك.

قال: «كلا! لقد خطر لي ذلك عندما قبّلنا الطفلان».

سألت: «ماذا؟».

أجـاب، مبتسماً بصورة غريبة: «أعني فكـرة ذراعيّ الغد اللذين يُطوقانني، والبياض الذي يُطوقك». مدت يدها وقبضت على يده.

قالت: «أيها الفتى الأحمق».

ضحك من الألم، غير قادر على النظر إليها.

قـال، وكان صوتـه منخفضـاً وصعباً: «تعلمـين، احتجتُ إليك مـن أجل شُعلـة. وقريباً سوف تعودين من جديـد الشُّعلة الوحيدة في حياتي».

سألت: «ومَنْ هي الأخرى؟».

أجاب: «ابنتي الصغيرة!»، ثم تابع قائلاً، «وتعلمين، لم أتمكن من تحمُّل الظلام التامّ، لم أستطع. إنه الحبس الانفرادي».

قالت: «لا ينبغي أنْ تتكلّم هكذا. أنت تعلم أنه لا ينبغي أنْ تفعل»، ووضعتْ يدها على رأسه ومرّرت أصابعها خلال شَعره الشعث.

قالت: «إنه كثيف، كعهده دائماً، أعني شعرك».

لم يُجب، لكنه بقي مُشيحاً برأسه بعيداً. نهضتْ عن مقعدها ووقفت عند ظهر أريكته المنخفضة. وتناولتْ مشطاً بلون الكهرمان من رأسها، ومالت فوقه، وبالمشط الشافّ وبأصابعها البيضاء انهمكتْ بتمشيط شعره.

قالت برقّة: «أعتقد أنك تفرق شَعرك عند المنتصف».

ضحك بإيجاز من عبثها. وتابعت التمشيط، مكتفية بلمس، وضغط الخصل لتعيدها إلى أماكنها بأطراف أصابعها.

قال، مُقتفياً سلسلة الأفكار نفسها: «لقد كنتُ مجرد مصدر دفءٍ لكِ، لذلك يمكنكِ أنْ تستغني عني. لكنكِ كنتِ كالنور بالنسبة إليّ، وفيما عدا ذلك كانت الدنيا ظلاماً وضياعاً. والضياع أمر فظيع».

أخيراً مسّدت شَعره، فرفعت يديها عنه وأعادت رأسها إلى الخلف.

قالت: «انتهينا! يبدو جميلاً رائعاً، كما قد تقول أليس. جناحا الغراب يبدوان بالمقارنة رثّين».

لم يولها أي اهتمام.

قالــت، عابثة موئّبــة، «ألن تنظر إلى نفســك؟». وضعت أطراف أصابعهــا تحت ذقنه. فرفع رأسه وتبــادلا النظرات، هي تبتسم، تحاول أنْ تجعلــه يلعب، وهو يبتســم بشفتيه، ولكن ليس بعينيــه، مُكتئباً من شدة الألم.

قال بنعومة: «لا يمكننا أنْ نستمر هكذا، يا ليتي، هل نستطيع؟».

أجابته: «نعم، نعم؛ ولِمَ لا؟».

قال: «لا يمكن! لا يمكن، لا أُطيقُ التحمّل، يا ليتي».

أجابت: «ولكن لا تفكّر في الأمر، لا تفكّر فيه».

قال: «ليتي، يجب أنْ أنْ أتسلّح بالوحدة».

قالــت: «هسس! كلا! لديك الأطفال. لا تقُل أي شيء – لا تكن جديّاً، ممكن؟».

أجاب، مُبتسماً بغموض: «كلا، لديّ الأطفال».

«نعــم! اسكــت الآن! انهض واقفاً وانظر مــا أجمل الفرق الذي أحدثتُه في شعرك. قِفْ، وانظر إنْ كان أسلوبي يُناسبك».

قال: «لا فائدة، لا نستطيع أنْ نستمر».

هتفــت: «أوه، ولكــن هيــا، هيــا، هيــا! نحــن لا نتحــدث عن الاستمــرار؛ نحن ننظــر كم هو جميــل الفرق الــذي أحدثته لك في

المنتصف، كجناحي طائر مفروشين – » ونظرت إلى أسفل، مبتسمة له عابثة، مكتفية بإغماض عينيها قليلاً بتوسُّل.

نهضَ وأخذ نَفَساً عميقاً، وعدّلَ من وضع كتفيه.

قال: «كلا»، ولدى سماعها هدير صوته شحب لون ليتي وتيبّستْ بدورها.

كرر: «كلا! مستحيل. لقد شعرتُ حالما ولج فريد الغرفة – أنني يجب أنْ أختار».

قالت ليتي، ببرودة: «حسن إذن». كان صوتها «مكتوماً» كالعزف على الكمان.

أجاب، مُذعناً: «نعم، الأطفال»، ونظر إليها، راسماً على شفتيه ابتسامة بائسة.

سألته، بتمرُّد، وحتى بامتعاض: «أأنت متأكد من أنَّ الأمر نهائيّ؟». كانت تعبث بالحلي اللازوردية التي تزيّن صدرها، وتضغط أطرافها المُدببة على لحمها. رفع نظره عن روعة حركتها عندما سمع نبرة سؤالها الأخير. كان غاضباً.

أخيراً قال، ببساطة، وبسخرية: «كل التأكُّد!».

أحنت رأسها موافقة. ارتعش وجهه بحدّة وهو يكبح نفسه عن الكلام من جديد. ثم استدار وغادر الغرفة بهدوء. لم تراقبه وهو يُغادر، ولكنها وقفتْ وهو يُغادرها. وبعد قليل، عندما سمعت سحق

عربــة الخيل للحصى، ومن ثم الخبب الحادّ للحوافر على طول الطريق المتجمــدة، انهارتْ علــى الأريكة، متمددة وصدرهــا على الوسائد، تنظر بثبات إلى الجدار.

الفصل السابع

منحدر الخندق

فاز لزلي بمقعد المحافظين في الانتخابات العامة التي جرت بعد مرور عام أو نحوه على زيارتي الأخيرة لهايكلوز.

في تلك الأثناء كان آل تمبست يرفّهون عن دفق لا يتوقف من الناس. وكنت أسمع أحياناً من ليتي كيف أنها مشغولة، أو تتسلى، أو ضجرة. أخبرتني بأنَّ جورج انخرط في صراع بالنيابة عن المُرشّح عن حزب العمال؛ وأنَّها لم تره، إلا في الشوارع، منذ وقت طويل.

عندما ذهبتُ إلى إيبرويتش في شهر آذار الذي تلا الانتخابات، وجدتُ عدداً من الأشخاص يُقيمون مع أختي. كانت ترعى أديباً شاباً يُقلّد أسلوب «دودي»- على طريقة دورا كوبرفيلد[٨٦]. وكانت له بضع خصلات من الشّعر شبه المُجعّد، ويضع ربطة عنق سوداء

---

٨٦ - في رواية تشارلز ديكنز التي تحمل اسم بطلها «ديفيد كوبرفيلد»، يتزوج ديفيد بابنة الرجل الذي يعمل عنده، دورا سبينلو. وكانت جميلة ولكن حمقاء وغير راشدة، وكانت تدلع ديفيد وتناديه «دودي». - المترجم

رومانسية؛ ولعب دور المندفع، لكنه في الحقيقة كان ماكراً كأي رجل في سوق العملات. وقد أسعد ليتي أنْ ترعاه «كأمه». وكان شديد الشراسة حتى تسبيب الأذى. وقد أبدى ضيوفه، امرأة أكثر خبرة بالموسيقى ورجل كبير السن كان موجوداً في عالم الفن دون أنْ يكون منه، الاهتمام بعض الوقت. في الأمسيات كنا ننفخ فقاعات الخيال الهائم والظُّرف واحدة بعد أخرى مع أنفاسنا. وفي الصباح استيقظت كارهاً فكرة نفخ المزيد من الفقاعات.

تجولتُ في أنحاء نذرمير، الذي كان قد نسيني حينئذٍ. كانت أزهار النرجس البري لا تزال تضحك ضحكها الذهبي تحت المنزل العائم وتومئ كل منها للأخرى برأسها وتثرثر، وبينما أراقبها، لا تنتبه لوجودي ولو للحظة. ويرتعش الانعكاس الأصفر للنرجس بين ظلال أشجار الصفصاف الرمادية في الماء قليلاً وهي تحكي حكايات آسرة في العتمة. شعرت كأنني طفل نُبِذَ من مجموعة رفاقه اللاعبين. كانت الريح تهب عبر وادي نذرمير، وعلى المياه المشتاقة كانت ظلال زرقاء ورمادية برّاقة تغيِّر أماكنها بسرعة. وعلى طول الشاطئ تنهض الطيور البرية، ترفرف معترضة لدى مروري، وتموء طيور أبي طيط بعنف حول رأسي، بينما يرفع طيرا تم أبيضان ريشهما حتى يبدوان أشبه بزهرتيّ بنفسج الماء توأم كبيرتين، يرفعان منقاريهما البرتقاليين بين البتلات، ويواجهانني بامتعاض متعال، ويسددّان إليّ نظرات متغطرسة.

لقد أردتُ أنْ يتعرَّف إليّ شيءٌ ما. قلتُ لنفسي إنَّ حوريات الغابة تبحث عني من حافة الغابة. ولكن مع تقدّمي تنكمش، وتنظر إليّ

بكآبــة وتنكفئ متراجعة كأزهار شاحبــة تسقط في ظلام الغابة. كنتُ كيانــاً غريباً، دخيلاً. وبين الأكمــات صرخت سقسقة عصافير ناشطة في وجهي. كانت طيــور الحسّون تقفز مارة بومضات برّاقة، وجلس أبو حنّاء وسأل بفظاظة: «مرحباً! مَنْ أنت؟».

استلقى السرخس ذاوياً تحت الأشجار، مكسوراً ومسحوقة بفعل بالرياح العنيفة المُضطربة للشتاء الطويل الأمد.

قبضــت الأشجار على الريــاح داخل أغصانها الصغــيرة الطويلة والمتشابكة، وأنَّتْ رياح الصباح الغضّة داخل أسرها. وبينما أنا أدوس على أوراق الزيتون المنبوذة والسرخس كانوا يلفظون شهقاتهم الحادة الأخيرة، وهم يغيبون داخل عالم النسيان. كانت الغابة مسقوفة بهدير نابض فتيّ واســع الانتشار، ومفروشة بهسيس خافت كشهيق النَفَس الأخــير. وبينهما، كانــت كل البراعم السعيدة التــي تتلصص وأزهار شقائــق النعمان واندفاع الطيور. كنتُ أتجــول وحدي، وشعرت بها كلهــا، ألم السرخــس المنكفئ علــى وجهه مهزومــاً، واندفاع الطيور المتهور، ونشيــج الرياح الفتيّــة حبيسة استعجالهــا، وابتهاج البراعم المرتعش، الممتد. أنا وحدي بينهــا كان في استطاعتي أنْ أسمع كامل تسلسل الأنغام.

استمــرت الغدران في الكلام نفســه، بالسعادة نفسها، بالصخب نفسه، الــذي كان يصدر عنها عندما كنتُ أصطــاد السمك الصغير، المتلألــئ، من الــبرك الصغــيرة. وفي ستريلــي ميل أتــت خادمة تضع قلنســوة بيضاء، ومئــزراً أبيض، تركض قادمة مــن المنزل حاملة كتب

صلاة قرمزية اللـون، أعطتها لأكبر الفتاتين النيّقتـين الجالستين تخيم عليهمـا الكآبة مع أمهما ذات الثوب الحريري الأسود في عربة زوجة الحاكم المتوقفة عند البوابة، مستعدة للانطلاق إلى الكنيسة. وبالقرب من وودسايد امتدت أسلاكٌ شائكة على طول الدرب، وعلى نهاية كل عربة كُتِبَ بالقار على جذوع الأشجار كلمة «خاص».

×××

لقد انتهت صِلتي بوادي نذرمير. لقد نبذني وادي نذرمير قبل ذلك بسنين عديدة، في حين كنت أؤمن بكل حب بأنه يحتفظ بذكراي.

تابعـت طريقـي إلى إيبرويتشـ. كانـت نواقيس الكنيسـة تضجُّ هادرة، مع الضجيج المتهور للغدران والطيور وحشيشة السعال وبقلة الخطاطيف المرحة.

هرع عـدد قليل من الناس بسعادة لحضـور الصلاة. وكان عمال المناجم وعمال آخرون يمرون بجماعات بلا هدى، سائرين نحو جهة غير معيّنة، ماداموا سيصلون إلى أبعد حانة.

وصلـت منزل هوليـز. كان أشدّ أناقـة من السابق. لكـنّ الفناء، والاسطبلات، كان يبدو عليها الإهمال. سألتُ الخادمة عن جورج.

قالت، وهي تهز رأسها بحركة صغيرة ذات معنى، وتبتسم: «أوه، السيد لم يستيقظ بعد». انتظرتُ برهة.

«لكنه رنَّ الجرس قبل حوالي عشر دقائقَ طالباً زجاجة بيرة، لذلك

أعتقـد –» وشدّدت على الكلمـة بشيء من الامتعاض الساخر، ثم أضافـت، بنبرة صوت تنمّ عن أنهـا ليست متأكدة على الإطلاق: «– أنه سيحضر قريباً». وسألتُ عن ميغ.

«أوه، السيـدة ذهبـتْ إلى الكنيسة – مـع الأطفال – لكنّ الآنسة ساكستون موجودة، ولعلها –».

هتفتُ: «إميلي!».

ابتسمت الخادمة.

«إنها في غرفة الجلوس. مشغولة، ولكن ربما إذا أخبرتها –».

قلت، متيقناً من أنَّ إميلي سوف تستقبلني: «نعم، افعلي».

وجـدتُ حبيبتـي القديمـة جالسة علـى كرسي منخفض بجوار الموقد، وثمة رجل واقف على بساط الموقد يداعب شاربه. شعرت أنا وإميلي بإثارة بهجة اللقاء القديمة.

قالت، وهي ترسم لي واحدة من تلك الضحكات الحميمة القديمة: «أكاد لا أُصـدق أنـه أنت حقـاً». كانت قد تغيّرتْ كثـيراً. أصبحتْ شديـدة الأناقة، لكنهـا الآن تمتلك ثقة جديـدة في النفس، ولا مبالاة حرة، راقية.

«دعنـي أُعرّفكمـا. هذا السيـد رنشو، وهذا سيريـل. توم، أنت تعرفـه، لطالما سمعتني أتحدث عن سيريـل»، ثم قالت وهي تضحك: «سوف أتزوج توم في غضون ثلاثة أسابيع».

هتفتُ لا إرادياً: «أحقاً ستتزوجين!».

أضافت فكرة لعوب خطرت على بالها: «إذا قبل أنْ يتزوجني».

كان توم رجلاً متين البُنية، تكسو بشرته سُمرة ناعمة، رقيقة تقريباً. كانـت هيئته عسكرية، وثمة حيـاء في طريقته في إحناء رأسه ومداعبة شاربه، وسِحر ونضارة في ضحكه على كلام إميلي الأخير المستحيل.

سألت: «لِمَ لم تُخبريني؟».

ردّتْ، وهي تقوِّس حاجبيها: «ولِمَ لم تسألني؟».

قلت: «سيـد رنشو، لقد هزمتني دون وعـي منك، وبطريقة غير لائقة».

قـال، وهو يلوي شاربه مرة أخرى: «أنا شديد الأسف»، ثم أطلقَ ضحكة قصيرة، عالية، على النكتة».

قال لي إميلـي، عاقدة بين حاجبيها وتبتسم بشكل غريب: «أحقاً أنت غاضب؟».

أجبتُ، بتوكيد صادق: «نعم!».

ضحكتْ، وضحكت من جديد، باستمتاع جمّ.

قالت: «عندما تعتقد أنك غاضب الآن، بعد - كم من الوقت -؟ فهو مزاح».

قلت: «لن أُحصيها».

سألتُ توم رنشو: «ألا تُشفق عليّ؟».

نظر إليّ بعينيه الفتيتين الزرقاوين، عينين شديدتي البريق، والفضول الساذج، والتأمُّل الفاتن. لم يكن يعلم بالضبط ماذا يقول، أو كيف يتقبّل سؤالي.

أجاب مع نوبة قصيرة أخرى من الضحك، وهو يلوي بسرعة شاربه من جديد وينظر نحو الأسفل إلى قدميه: «كثيراً!».

كان في التاسعة والعشرين من العمر؛ جندياً سابقاً في الصين على مدى خمسة أعوام، ويعمل الآن مزارعاً في مزرعة والده في بامبلويك، حيث كانت إميلي تعمل مُدرِّسة. وقد عاد إلى الوطن قبل ثمانية عشر شهراً. كان والده رجلاً عجوزاً في السبعين قُطِعَتْ يده بآلة الفرم. كما سمعت. أحببتُ في توم أناقته، وأسلوبه النضِر، والساحر. كان صاحب رجولة استثنائية: أي لم يكن يحلم بالاستفسار عن أي شيء أو بتحليل أي شيء. كل ما يُصادفه يقوم بتصنيفه إما جيد أو سيئ، إما صالح أو طالح. لم يتصور أنه يمكن لأي شيء أنْ يكون أكثر مما يبدو عليه: - وكان يرضى بذلك المظهر. رفع نظره إلى إميلي وكأنها أكثر حِكمة، ونُبلاً، وأقرب إلى الله منه.

قالت لي، ضاحكة: «إنني أكبر منه بألف عام. تماماً كما أنكَ أكبر مني بقرون»

سألتُ: «وأحببتِه لشبابه؟».

أجابت: «نعم، لهذا وأيضاً - لأنه صاحب ذكاء وقّاد - وغاية في الرقّة».

قلت: «وأنا، ألم أكن أبداً رقيقاً؟».

قالـت: «كلا! كنتَ قلقاً ومتعجـلاً كالريح»، ولمحت آخر ومض من الرعب القديم.

سألت: «أين جورج؟».

أجابـت باقتضاب «في السرير. إنه يستعيـد قواه بعد إحدى لياليه الصاخبة. لو أنني في مكان ميغ لما عشتُ معه».

سألتها: «أوضعه سيئ إلى هذه الدرجة؟».

أجابـت: «بـل سيئ جداً! إنه يُثـير الاشمئزاز، وأنـا واثقة من أنه أصبح خطراً. سوف أنقله إلى مركز لمعالجة السكارى».

قال توم، الذي كان قد عاد إلى الغرفة: «يجب أنْ تُقنعيه بالذهاب. لكنه يمر بنوبات فظيعة! إنه يقتل نفسه، وهذا مؤكّد. إنني أشعر بالأسى الشديد على الرجل».

قالـت إميلي: «يبدو لي وضعاً جديراً بالازدراء أنْ يُصبح المرء عبداً لرغباتـه إلى أنْ تجعل منك حيواناً. انظر كيـف يبدو أمام أطفاله، وأي عار يُسبب لزوجته».

قال توم: «في الواقع، إنْ لم يكن في يده حيلة، فليس في يده حيلة، ذلـك المسكين، على الرغـم من أنني أعتقد أنَّ علـى الرجل أنْ يكون أقوى من ذلك».

سمعنا ضجيجاً عنيفاً يتناهى من الغرفة فوقنا.

قالت إميلي: «إنه ينهض. أعتقد أنه يُستحسن أنْ أرى إنْ كان قد تناول إفطاره»، لكنها مع ذلك انتظرتْ. وفي الحال فُتِحَ الباب، وظهر جورج واقفاً ويده على الأكرة، مائلاً، ينظر إلى الداخل.

قال، وكأنَّ ذلك يُحرره من خوف معيَّن: «حسبتُ أنني أسمع ثلاثة أصوات». ابتسم. كانت صدريته مفتوحة فوق قميصه الصوفي، ولا يرتدي معطفاً ولا ينتعل خفاً. وكان شعره وشاربه مشوشاً، ووجهه شاحباً ويبدو أحمق من تأثير النوم، وعيناه صغيرتين. أشاح بوجهه ليتجنب نظرتنا وكأنه يتجنب ضوءاً مُبهراً. شعرتُ بيده وأنا أصافحه رخوة وباردة.

فجأة قال، وهو يبتسم بوهن: «كيف حدث وأتيتَ إلى هنا، يا سيريل؟».

سألته إميلي ببرودة: «هل ترغب في تناول أي شيء على الإفطار؟».

أجاب: «سوف آكل قليلاً إذا تبقّى أي شيء لي».

أجابت: «إنه في انتظارك، منذ زمن طويل».

استدار ومضى مع وقع مكتوم لقدميه المرتديتين الجورب عبر أرض غرفة الطعام. رنّت إميلي الجرس لتستدعي الخادمة، وتبعتُ جورج، تاركاً الخطيبين معاً. وجدتُ مُضيفي يتجول في أنحاء غرفة الطعام، وينظر خلف الكراسي وفي الزوايا.

تمتم مفسّراً «تُرى أين خفّي!»، وهو يواصل بحثه. لاحظتُ أنه لم يرنّ جرس الخدم ليأتوا ويبحثوا له عنه. وفي الحال انتقل إلى الموقد، ومدّ يديه فوقه. وبينما كان يُحطم الفحم المشتعل ببطء دخلت الخادمة حاملة الصينية. فتوقف وترك قضيب تحريك النار بعناية. وبينما الخادمة تمد له الوجبة على إحدى زوايا الطاولة، نظر إلى النار، دون أنْ يستعجلها. وبعد أنْ انتهت قالت:

«هذا سمك صغير مقلي، هل ستأكل منه؟».

رفع رأسه ونظر إلى الصحن.

قال: «نعم. هل أحضرتِ الخل؟».

دون أنْ تُجيب، تناولت زجاجة الخل من الخوان ووضعتها على على المائدة. وبينما هي تُغلق الباب، نظرتْ خلفها لتقول:

«يُستحسن أنْ تأكله الآن، ما دام ساخناً».

لم يولِها انتباهه، وظل جالساً ينظر إلى النار.

سألني: «وكيف أحوالك؟».

«أنا؟ أوه، جيدة جداً! وأنت -؟».

أجاب، مديراً رأسه نحو الجهة الأخرى مع إيماءة صغيرة ساخرة: «كما ترى».

أجبت «وأنا آسف لِما أرى».

مال إلى الأمام واضعاً مِرفقيه على رُكبتيه، ويربت بإصبعه على ظاهر يده، بنبض ثنائيّ، رتيب، كنبض القلب.

حثثتــه: «ألن تتناول طعام الإفطار؟» في تلك اللحظة بدأتْ ساعة الحائط تدق الثانية عشرة. رفع رأسه إليها بتوتّر مكظوم.

أجابنــي، بعــد انْ أكملت الساعــة دقّاتها: «نعــم، أعتقد ذلك». نهضَـ بتثاقُل واقترب من المائــدة. وبينما هو يصــبّ كوباً من الشاي أراقَــه على المفرش، ووقف ينظــر إلى البقعة. ومرّ مزيد من الوقت قبل أنْ يباشـر الأكل. صبّ الكثير من الخل فــوق السمك الساخن، وأكل بــلا مبالاة بحيث أصبح الأكل بغيضاً، وتوقف بين حين وآخر ليمسح الشاي عن شاربه، أو لكي يلتقط قطعة من السمك عن رُكبته.

قال في أثناء فترات توقفه عن الأكل: «أعتقد أنك لم تتزوج؟».

أجبت: «كلا، أعتقد أنني يجب أنْ أبحث».

أجاب، بهدوء وبمرارة: «يُستحسن ألا تفعل».

بعد ذلك بلحظة أو اثنتين جاءت الخادمة حاملة رسالة.

قالــت، وهي تضعها على الطاولــة إلى جواره: «هذه وصلت هذا الصباح». فنظر إلى الرسالة، ثم قال:

« لم تُحضري سكيناً من أجل المربى».

أجابت: «أحقاً؟ حسبتُ أنك لا تريدها. عادة لا تستعملها».

سألها: «وهل تعلمين أين خفّي؟».

«يجب أنْ يكون في مكانه المعتاد»، وذهبت لتنظر في الزاوية. «أعتقد أنَّ الآنسة غيرتي وضعته في مكان ما. سأُحضر لك غيره».

في أثناء انتظاره لها قرأ الرسالة. قرأها مرتين، ثم أعادها إلى مُغلّفها، بهدوء، دون أنْ يتغيَّر أي شيء في تعبير وجهه. لكنه لم يستأنف تناول طعام إفطاره، حتى بعد أنْ جلبت الخادمة السكين والخفّ، وعلى الرغم من أنه لم يتناول إلا بضع لُقم.

عند الساعة الثانية عشرة والنصف سُمِع صوت امرأة متعجرف في المنزل. وجاءت ميغ إلى الباب. وعندما ولجت الغرفة، ورأتني، وقفت ساكنة. تنشقت، وألقت نظرة سريعة إلى الطاولة، ثم هتفت، وهي تتقدم متلهفة:

« لم يخطر في بالي أبداً، يا سيريل! مَنْ كان يظن أننا سنراك هنا هذا الصباح! كيف حالك؟».

انتظرتْ حتى انتهيتُ من الكلام، ثم التفتت في الحال نحو جورج، وقالت:

«يجب أنْ أعترف بأنك في حالة جيدة ليراك فيها سيريل! هل انتهيت؟ – إذا انتهيت، يمكن لكيت أنْ تُخرِج الصينية. الرائحة مُقرفة جداً. هل انتهيت؟».

لم يُجب، بل شرب ما تبقى في الفنجان من شاي ودفعه بعيداً بظاهر يده. رنت ميغ الجرس، وبعد أنْ خلعت قفازها، بدأتْ تضع الأواني على الصينية، وتلتقط بقايا السمك والحسك بأطراف أصابعها عن

حافة طبقه إلى منتصفه مع هزّ الشوكة هزّات قصيرة، تنم عن اشمئزاز. كان موقفها وتعبير وجهها يدل على الامتعاض والاشمئزاز. ودخلت الخادمة.

«نظّفي الطاولة، يا كيت، وافتحي النافذة. هل فتحتِ نوافذ غرفة النوم؟».

«كلا يا سيدتي – ليس بعد»– ورمتْ جورج بنظرة وكأنها تقول إنه لم يهبط لا لبضع دقائق.

قالت ميغ: «إذن افعلي ذلك بعد أنْ تأخذي الصينية».

قال جورج بفظاظة: «لا تفتحي هذه النافذة، الدنيا برد حتى وهي موصدة».

أجابت ميغ باحتقار: «إذن يجب أنْ ترتدي معطفاً إنْ كنت تكاد تموت من البرد. إنَّ الجو دافئ بالنسبة لمن في دمهم حياة. لا أظنك تجد الجو بارداً، أليس كذلك، سيريل؟».

أجبت: «الجو منعش هذا الصباح».

«طبعـاً هو كذلك، وليس بارداً على الإطـلاق. وأنا واثقة من أنَّ هذه الغرفة تحتاج إلى تهوية».

لكنَّ الخادمة طوت المفرش وخرجت دون أنْ تقترب من النوافذ.

كانـت ميغ قـد أضحت أكـثر بدانة، وتتصف بقـدر من الثقة في النفس لا يتزحـزح. كانت متسلطة، ودودة وهادئة؛ ترتدي ثوباً أنيقاً بلـون أخضر قاتمـاً، وتضع قبعة مزيَّنـة بكمية وافرة مـن ريش النعام. بـدت وهي تتنقّل في الغرفة كأنها تهيمـن على كل شيء، خاصة على

زوجهـا، الذي جلس متكدراً ومغمومـاً، وصدريته مفتوحة ومتدلية فوق قميصه.

ثـم دخلت فتاة. متكـبّرة ومتكلِّفة في هيئتهـا، ذات وجه وسيم، لكنها مفرطة الغطرسة بالنسبـة إلى طفلة مثلها؛ ترتدي معطفاً أبيض، وتضع لفاعاً مُذيَّلاً من فـرو القاقوم[٨٧]، وكساءً لليدين، وتعتمر قبعة. شعرها البنيّ الطويل ينهمر مجدولاً على ظهرها.

في أثناء دخولها هتفت بنبرة صوت عالية مؤنّبة:

«هل تأخّر أبي في تناول طعام الإفطار؟».

أجابت ميغ: «هو ذاك!».

ألقت الفتاة إلى والدها نظرة استهجان هادئة، طفوليّة.

قالـت، وهي تخلـع قفازها الأبيض الصغير: «وذهبنـا نحن إلى الكنيسة، وعدنا لنتناول طعام الغداء». راقبَها جورج باستمتاع ساخر.

قالـت ميغ، عندما لمحت الرسالـة المفتوحة الموضوعة عند مرفق: «مرحباً! ممَّن هذه؟».

تلفّت حوله، وقـد نسيَ أمرها. ثم تناول المُغلَّف، وطواه وأقحمه داخل جيب صدريته.

أجاب: «إنها من وليم هوسلي».

سألته: «أوه! وماذا يقول فيها؟».

أدار جورج عينيه السوداوين نحوها.

---

٨٧ - القاقوم: حيوان من فصيلة ابن عرس.

قال: «لا شيء!».

قالت ميغ ساخرة: «هممم! رسالة غريبة، لا يوجد فيها شيء!».

قالت الطفلة، بأسلوبها المتعالي، الوقح، عالي النبرة: «أعتقد أنه مبلغ من المال لا يريد منا أنْ نعلم بأمره».

قالت ميغ، مع ضحكة قصيرة على حِدَّة ذهن الطفلة: «بالضبط!».

تابعت الطفلة، مومئة برأسها نحوه موبّخة: «لكي يحتفظ به لنفسه، هذه هي حقيقة الأمر».

سأل الوالد ساخراً: «أليس لي الحق في أي مبلغ من المال؟».

أومأتْ الطفلة برأسها نحوه بدكتاتورية، «كلا، ليس لديك أي حق، لأنكَ ترميه في النار».

قال ساخراً: «أنتِ مُخطئة. تقصدين أنه أشبه بإعطاء طفلة ناراً لتلعب بها».

«أومم! – هو ذاك، أليس كذلك، ماما؟»– والتفتت المرأة لصغيرة نحو أمها طلبةً للدعم. تورّدت ميغ من سخريته، عندما اقتطف للطفلة من أقوال أمها.

قالت غيرتي تعظه: «وأنت شديد الخبث!»، وأدارت ظهرها بازدراء لوالدها.

سألها، بمرارة مع لمسة خفيفة: «اهذا ما كان القس يُلقنك إياه؟»».

ردّتْ الصغيرة: «كلا، ليس هذا! إذا أردتَ أنْ تعرف يجب أنْ تذهب وتُصغي إليه بنفسك. إنَّ كل الذين يترددون على الكنيسة يبدون مؤدبين –» ونظرت إلى أمها وإلى نفسها، وهي تهندم نفسها بتكبُّر، ثم أضافت– «والله يُحبهم». واتخذت تعبير الطُهر على وجهها، وبعد بعض التفكير تابعت: «لأنهم يبدون مؤدبين وخنوعين».

هتفت ميغ، ضاحكة، ونظرتْ إليّ بفخر سرّيّ: «ماذا!».

كررت غيرتي، بابتسامة العارفة صغيرة ومتفوقة: «لأنهم خنوعون!».

قال جورج: «لقد تخطيت الحد هذه المرة».

«كلا، لم أفعل، هل فعلت، ماما؟ أليس صحيحاً، ماما. «الخنوعون سيرتون الأرضم»؟».

بدت ميغ في قمة الاستمتاع بحيث لم تُجب.

حدثها الأرب ساخراً، ومُستمتعاً أيضاً: «سوف يحصل الخنوعون على سمك الرنكة على الأرض». نظرتْ ابنته إليه بارتياب. وشمّتْ رائحة قلّة لياقة.

سألت، ملتفتة نحو أمها: «هذا غير صحيح، أليس كذلك، ماما؟»، ضحكت ميغ.

كـرر جورج بمزاح رقيق: «سـوف يحصل الخنوعون على سمك الرنكة على الأرض».

صرخـت الطفلة بانزعاج حقيقي: «كلا غير صحيح، ماما، أليس كذلك؟».

أجابت ميغ: «أخبري أباك فهو الذي دائماً يُعلمك شيئاً خطأً».

ثم قلت إنني يجب أنْ أرحل. وألحّوا عليّ كي أبقى.

فجـأةً ناشدتني الطفلة، وهي تمسّـد تجعيدات شعرها المُشوش بعد أنْ نزعـت قبعتهـا، «أوه، نعـم - ابـقَ على الغـداء». وراحت تكرر الرجاء، بكثير من الرصانة.

سألتُ: «ولكن لِمَ؟».

أجابت بكآبة، وهي تعبث بالبقع السوداء على كساء يديها: «لكي تُحدثنا بعد الظهيرة - لكي لا يبدو أبي بغيضاً جداً».

اقتربت ميغ من ابنتها مع إيماءة حب صغيرة.

قلت: «ولكن، لقـد وعدتُ إحدى السيدات بـأنْ أعود لأتناول الغـداء معها، لذلك يجب أنْ أذهب. إنَّ لديكم المزيد من الزوار، كما تعلمين».

تذمّرت: «أوه، حسن! إنهم في غرفة أخرى وأبي لا يأبه بهم».

قلت: «ولكن لا بأس!».

«حسن، وهو يكون بغيضاً أيضاً عندما تحضر عمتي إميلي - ويكون معها وما إلى ذلك».

قالت ميغ بوحشية، ملتفتة إليه: «إنَّ شخصيتك تنهار حقاً».

ودّعتهم. وشرّفني بمرافقتي حتى الباب. لم يجد أي منا كلمة واحدة يقولها، على الرغم من أننا معاً تأثّرنا. وعندما أمسكتُ أخيراً بيده ونظرت إليه وأنا أقول: «وداعاً»، بادلني النظر للمرة الأولى خلال لقائنا. كانت عيناه مُثقلتين وهو يرفعهما نحوي، كأنهما ترتدان من ألم الإحساس بالعار.

الفصل الثامن

أمل بين مستنقعات لِثْ

منذ ذلك الوقت وحالة جورج أصبحت في انحدار مستمر. وبعد مرور عامين ذهبتُ لأزوره. لم يكن في المنزل. بكتْ ميغ أمامي وهي تُخبرني عنه، وكيف ترك الأعمال تسوء، وكيف يُعاقر الخمر، وإلى أي حيوان يتحول عندما يشرب، لدرجة لا تحتمل بعد ذلك. لقد كان يُحطم ما بناه، ويُدمر حياته وحياة أطفاله. شعرتُ بأسى لأجلها وهي جالسة، ضخمة ومتوردة، تزرف دموعاً حرّى. وسألتني إنْ كان في إمكاني أنْ أمارس تأثيري عليه. قالت، إنه في النُزُل. فعندما تنتابه واحدة من النوبات العنيفة يذهب إلى هناك، ويمكث فيه مدة أسبوع دفعة واحدة، مع أوزوالد، ويعود إلى المنزل بعد أنْ يبرأ – وقالت ميغ: «على الرغم من أنه يشعر بالغثيان في صباح كل يوم وبعد كل وجبة تقريباً».

طوال ما كانت ميغ تُخبرني بهذا، كان ابنهما الأصغر جالساً منطوياً حول نفسه على كرسي كبير، وهو ولد شاحب الوجه، حسّاس، ومُدلل في السابعة أو الثامنة من العمر، ذو فم وقح، وعينين سوداوين

متوترتـين. جلسـ يراقـبُ أمه وهي تحكـي حكايتهـا، يجيش كتفيه ويُعدّل من جلسته عندما تُصبح مشاعره فوق طاقته على تحمّلها. كان مُترعـاً بالشفقة الطفوليـة الجامحة على أمه، وبالحقـد الطفولي، الحانق على أبيه، سبـب متاعبهم. وعرّجتُ على النُزُل وقابلت جورج. كان شبه سكران.

ثـم ذهبتُ إلى هايكلـوز مُثقل القلب. كان طفـل ليتي الأخير قد وُلِـد، أمام دهشة الجميع، قبل مجيئي ببضعة أشهر. كانت هناك فسحة من سبعـة أعوام بـين الأصغر سناً وهـذا الطفل. كانـت ليتي شديدة الانغماس في أمومتها.

عندمـا ذهبتُ لأحدثها عن جـورج وجدتها في غرفة النوم تعتني بالطفل الذي كان عاقلاً وهادئاً على رُكبتها. أصغتْ إليّ بحزن، لكنَّ انتباهها كان يتشتت بكل حركـة تندّ عن الطفل. وبينما كنتُ أحكي لهـا عن موقف أطفـال جورج من والدهم وأمهـم، نقلتْ نظرها من الطفل إليّ، وهتفت:

«أتـرى كيـف يراقب الضـوء يومض عبر نظارتـك عندما تلتفت فجأة – انظر!».

لكنني لم أكن أحب الأطفال. وأصدقائي كلهم بالغون ومتزوجون ويبتلونـي بهم. كانت هنـاك حشود من الأطفـال. وتقتُ إلى مكان يكونون فيـه بائدين، وصغـاراً، وتكون فيه الأمهـات المتغطرسات، المُغلقـات، تراثاً منسيـاً. كان قلب ليتي يُسرع وجيبـه استجابة لنبضة واحدة، نبضة صغيرة، خفيفة من دم الطفل.

ذات يوم وأنا جالس في القطار المنطلق إلى تشيرنغ كروس في طريق عودتي من فرنسا، تذكّرتُ أنَّ ذلك اليوم يُصادف عيد ميلاد جورج. وهبط عليّ إحساس به، ثقيل، و لم أتمكن من التخلُّص من الإحساس بالكآبة. وقررتُ أنْ أقوم برحلة مُتعبة، وأحاول أنْ أتخلص منها. ورحتُ أراقب شمس المساء تتلألأ على طول جذامة الذرة الجديدة في الحقول التي مررنا بها، أحاول أنْ أصف الأثر لنفسي، ووجدتني أتساءل: «ولكن - ما الأمر؟ أنا لم أتلقَّ أيّ نبأً سيئاً حتى يُصبح صدري مُثقلاً هكذا؟».

عندما وصلت إلى مكان إقامتي في نيو مولدن فوجئت بأنه لم تصلني أية رسائل، بل حزمة كبيرة من أليس. تعرَّفت إلى خط كتابتها القصير والمنخفض، والرصاصي، على المُغلَّف، وقلت في نفسي أنا أعرف ماذا تحتوي الرسالة.

لقد تزوجتْ من أحد معارفها القُدامى كانت تكنّ له كراهية خاصة. هذا الشاب أوقع نفسه في المشاكل، لذلك كانت إدانات الصالحين تلاحقه كسُحب من البعوض في أمسية صيف. فهبّتْ أليس على الفور لكي تعضّ بدورها أعداءه السوقيين، ولما أسدتْ له هذه الخدمة، شعرت بأنها لن تستطيع أنْ تُطبب جراحه إلا بالزواج منه. وقد ارتاحا كثيراً معاً. وبين حين وآخر، كما قالت، كانت تظهر مفرقعات صغيرة في الفناء الخلفي. كان يعمل في مكاتب بعض معامل سبك الحديد بالقرب من إيبرويتش في ديربيشير. وعاشت أليس في مكان حقير وقذر في الوادي على مسافة ميل ونصف من إيبرويتش، ليس بعيداً عن مركز عمله. لم يكن لديها أطفال، و خاصة ليس أصدقاء؛

فقط بضع شابات كمعارف. وبوصفها زوجة موظف عالي المركز كان عليهـا أنْ تُحافظ على منزلتها بـين الطبقة العاملة. لذلـك كانت نارها المفرقعـة القليلة تُخمَـد بطبقات من الاحترام البريطـاني. أحياناً كانت تنفــثُ دخاناً كثيفاً يجعل العيـون تدمع. وأحياناً، ربمـا مرة في العام، كانت تكتب لي عن كمية هائلة من سمومها، وكنتُ أتسلّى بها.

لم أكنْ مستعجلاً لفتح تلك الرسالة الضخمة، إلى أنْ، بعد العشاء، التفتُّ إليها بوصفها ذريعة لإبعادي عن كآبتي:

«أوه يـا عزيـزي سيريل، أنا في حالـة غليان، أريـد أنْ أصـرخ، لا أنْ أكتب. آه، يا سيريـل، لِمَ لم تتزوجني، أو لِمَ لم يتزوجني صاحبنا جورجي ساكستون، أو شخص ما. إنني مشمئـزة حتى الموت. إنَّ برسيفال تشارلز يكفي لإيقاف ساعة ، آه، يا سيريل، إنه يعيش بملابس يوم الأحد، بقماش قُدسي وبثلاثة إنشات مستقيمة من الأصفاد! وينام بها. كلا، بـل يبتلع الكتب المقدسة عندمـا يأوي إلى السرير. أكاد أشعـر بالأغلفة النحاسية لكتب عائلتـه المقدسة كلها عالقة بين أضلعي وأنا مستلقيـة إلى جواره. أكاد أبكي من الغضب، ومع ذلك أعتمر قبعتي السوداء وأخبّ إلى الكنيسة معه كغنمة.

آه يـا سيريـل، لا شيء يحـدث. لا شيء حدث لي طوال تلـك السنين كلها. سوف أمـوت بسبب ذلك. عندمـا أرى برسيفال على مائدة الطعام بعد أنْ يطلب البركة، أشعر كـأنني ينبغي ألاّ أمسّ أي شيء على مائدته بعد ذلك. وبعد مرور ساعة أسمعه يهرع عبر الردهـة – الصلاة دائمـاً تجعله جائعاً – وأول نظرة يُلقيها علـى الطاولة. لكنني لا أوفيه حقّه – إنه حقاً رجل طيب – إنني فقط أتمنى لو لم يكن كذلك.

وكان جورج ساكستون هو الذي وضع المسحوق المُسهِّل في كأس الكاكاو لزواجي. سيريل، يجب أنْ أحكي لك حكاية. لقد مرَّ خمسة عشر عاماً منذ أنْ تزوج جورج بميغ. وعندما أُحصيها، وأفكّر في المستقبل، أكاد أصرخ. ولكن حكايتي، حكايتي!

أتذكُر كلبه الأمين، الجريح، ذا عيني الغزال الرقيقتين؟ تكاد تستطيع، يا سيريل، أنْ ترى الويسكي، أو البراندي يحترق فيهما. إنَّ له عينيّ شيطان، تخلّى حديثاً عن الخمر - وقد رأيته، وأصبحت تراودني صور شياطين صغيرة حمراء. وذهبتُ إلى إيبرويتش بعد ظهيرة يوم الأربعاء لأشتري رطلاً من المقالي من أجل عشاء بارسيفال تشارلز ليوم الخميس. وطرقت ذلك الدرب الصغير الذي كما تعلم يمر حول خلفية منزل هوليز - وهو الطريق الأقصر بالنسبة إليّ. وحسبتُ أنني سمعتُ شجاراً يجري في أرض تدريب الخيل خلف الاسطبلات، فقلت في نفسي يمكنني أنْ أتفرّج. فاقتربتُ من البوابة، حاملة سلّة بيد، وتسعة بنسات نحاسية باليد الأخرى، كأي زوجة شماس محترمة. في أول الأمر لم أستوعب المشهد.

كان هناك صاحبنا جورج، بكساء ساقيه وبنطلون قصير لركوب الخيل كما في الماضي، ويحمل سوطاً. كان نشطاً، على صهوة جواد، يصرخ، «خذها يا فتى، سوف ترغب في أنْ يُحيط الجورب بعنقك هذه الليلة». لكنني استعجلتُ في الكلام، يا سيريل. أوه، اللعنة! وإذا بحصان السباق الطويل، يقفز عبر السور، بأذنين مسطحتين، وقد تعلّق بعنقه، الفتى الشاحب ويلفريد. كان الفتى أبيض الوجه كالموتى، ويزعق «ماما! ماما!» ورأيتُ أنّ جورج مخطئ في محاولته تعليم الفتى ركوب الخيل. وأخذ حصان السباق، بوني بوي - أنا أسمّيه بوني Boney بوي يقفز في المكان كخافقة بيض لولبية. ثم رأيتُ جورج يندفع صارخاً، يكاد يلفظ شاربه عن وجهه، وجرح الحصان بسوطه. فابتعدتُ كاللهب المنبعث من البارافين الحار. كان الفتى يصرخ ويتشبث. وأخذ جورج يندفع خلفه، ويركض مترنحاً، ويسب، ويصرخ - شيء فظيع - «أيها الخنزير الصغير الجبان!». وراح حصان السباق العالي والهزيل يدور في المكان وكأنّ به مساً من جنون. وجاءت ميغ مسرعة، وكان الطفلان الآخران يصرخان. واتجهت نحو جورج، لكنه رفع السوط في وجهها كالشيطان. ولم تجرؤ على الاقتراب منه - بل اندفعت عليه، ثم توقفت، ثم اندفعت عليه، ثم توقفت، وهي تضربه بكلتيّ قبضتيها. ولوح بسوطه لكي يُبعدها، وظل حصان السباق يندفع. أسرعت ميغ لكي توقِفه، وأخذ جورج يركض

بخطـاه الثملة، ملوحاً بسوطـه. وأنا أيضاً اندفعـت. وأخذتُ أضربـه بسلّتي. وتراجع الطفلان، واندفعت ميغ نحوه. وجاء بعض الرجال ركضاً. ووقف جورج يرتعش بقوة. لـو رأيته لما عرفته، يا سيريل. كان مجنوناً، أشبه بالشيطان. أحياناً، عندما أفكر في الأمر، أشعر كأنني يجب أنْ أنفجر وأتمزق قطعاً كصاروخ. لقد ترك رضوضاً على ذراعي.

لقـد أضعت تسعـة بنسات برسيفال تشارلز، وسقط ثوبـي الأبيض الجميل بسبب السلّـة، وكل شيء، بالإضافة إلى أنني بدوت سوداء في يوم الخميس بسبب شرائح لحم الغنـم، وهو يكره هـذا. آه، يا سيريل، «تمنيتُ لو أكون طائر شبنم[٨٨]، على ضفاف نهر تمبكتـو[٨٩]». وعندمـا رأيتُ ميغ تبكي على ذلك الفتى – شكراً لله لأنه لم يتأذَ –! تمنيت موت صاحبنا جورجي؛ ولا زلتُ، حتى الآن؛ أتمنى لو أننا فقط نُضطر إلى تذكّره. ولم أقُم بزيارتهم مؤخراً – إنني لا أحتمل غضب ميغ. أتساءل كيف سينتهي الأمر.

هناك رجل شرطة يتمنى «ليلة هانئة» وبوركت «للأخ جيكس، والطعام لم يجهز –».

حالمـا انتهيت من قـراءة رسالة أليس، ذهبـتُ إلى إيبرويتش لأرى كيف تجري الأمور. ومن جديد اجتاحتني ذكرى الأيام الماضية إلى أنْ تاق قلبي بشدّة إلى أناسها القُدامى.

أخبروني في منزل هوليز أنه بعد أنْ أُصيب بنوبة هذيان ارتعاشي[٩٠]، أُرسِلَ جورج إلى أبلْويك في الريف الموحش ليُقيم مع إميلي. استعرتُ دراجـة لكي أقطع بها الأميال التسعـة. كان فصل الصيف رطباً، وكل

---

٨٨ – طائر الشبنم: طائر يشبه النعام، ولكن أصغر حجماً.

٨٩ – هـذه المعلومة خطأ طبعـاً، لأنَّ تمبكتو مدينة في مالي وتقع على نهر النيجر. – المترجم

٩٠ – الهذيان الارتعاشي: يُصاب به المُدمنون على الخمر.

شـــيء تأخّر حدوثه. وفي أواخــر شهر أيلول كانــت الأوراق الخضراء قاتمــة الخُضرة، وانتصبت حزم الحنطة باكتئاب. انطلقتُ خلال العزوبة الساكنة لصباح يوم مــن أيلول. كان الضباب يحتشد أزرق على طول السياجات: لاحت أشجار الدردار عن بُعد على طول جدران الصباح المُعتمة، وأشجار كستناء الخيل القريبة وَمضَتْ بأوراقها الصفراء القليلة كأزهــار برّاقــة. وبينما أنطلقُ خلال نفــق الأشجار من أمــام الكنيسة حيــث حكى لي عندهــا الحارس، في ليلته الأخــيرة، حكايته، شممتُ رائحة العفن البارد لأوراق أشجار الصيف الغائم.

مــررتُ بهدوء خــلال الأزقة حيث العشب البــارد مُثقل بقطرات لؤلؤيــة زرقــاء – رمادية مــن الندى في الظل، حيــث شبكات عناكب الخريــف الصوفيــة تمتد وكأنمــا على نول. وطيــورٌ بنيّة ترفــرف أسراباً كأوراق أشجــار تنجرف أمامي. وسمعتُ صــوت نعيب ناءٍ في فضاء الحفر، يُخبرني بــأنَّ الساعة بلغت الحادية عشرة ونصف، وبأنَّ الرجال والفتية سيكونون جالسين في الظلام الضيق للمناجم يأكلون وجباتهم، بينما فئران تندفع كالأشباح نحو الفُتات، ويضحك الفتية بأفواه حمراء يحفّها السخام، بينما المخلوقات الصغيرة الجسور تتلصص عليهم على ضوء المصابيح الخافت. وانتصبــت ثمار القرانيا بلونها القرمزي المرح فــوق أعالي السياجــات، وتدلت عناقيد ثمار اللبــلاب والفاشرا وسط درب ذهبــي، وسقطت ثمــار العليق دون أنْ يجمعهــا أحد، وتابعت طريقــي ببطء، النباتات تنفق من حــولي، والثمار تميل بأفواهها الحمراء الثقيلــة، متراخية مــن أجل الطيور، والرجال سجنــاء تحت الأرض إلى الأسفل مني، والطيور البنيّة تندفع مُسرعة على طول السياجات.

بـرزت مزرعـة سوانيشيـد، حيث يُقيـم آل رينشـو، وحيدة بين الحقـول، مُستـترة عن الطريق العامـة وعن كل شـيء. الزقاق المؤدي إليها كان عميقـاً ولا تصله أشعة الشمس. إلى يميني، لمحتُ من خلال السيـاج ومضات مـن حقول الذرة، حيث حـزم القمح تقفُ كسفنٍ صغـيرة صفراء الأشرعة وسط أساطيل صغـيرة واسعة الانتشار. الجزء العلـوي من الحقل كان خالياً. سمعتُ قعقعـة عربة وأصوات رجال، ورأيـتُ الحمولـة العالية من الحزم تمضـي متمايلة، تهتـز مرتقية أعلى المنحدر إلى فناء الحزم.

انفتـح الـدرب داخـل حقل محصود، ومـن تلك الأرض الخالية بـرزت المزرعة عالياً بمبانيها كحشد من السفن القديمة، المدهونة تطفو فـوق مياه ساكنـة. مرّت بعض الدواجـن تعبر مباشـرة أشعة الشمس المعتدلة والظل، فركنـتُ دراجتي على أبواب منزل الحوذي الرمادية، الناعمـة. كان المكان يتنفّس صمتاً. تـرددتُ في قرع الباب المفتوح. جاءت إميلي. كانت مترفة كعادتها بجمالها المُبهر، وقد أضحت الآن تتسلّح بفخامة امرأة قوية حبلى في شهرها السادس.

شهقـتُ من المفاجـأة، وتبعتها إلى المطبخ، ولـدى مروري بغرفة المؤن لمحت الأواني اللامعـة وحمامات الخشب الأبيض. كان المطبخ غرفـة ذات حجم جيـد، منخفضة السقف أصبحـت على مرّ السنين منـزلاً بكل معنى الكلمـة. كانت عوارض السقـف الضخمة تنحني بسهولة؛ ومقعد المدخنة له ستارة صغيرة بلون أخضر قاتم؛ وتحت رف الموقـد العالي رفٌ آخر منخفض يمكن للرجـال أنْ يصلوا إليه بأيديهم الممـدودة وهـم جالسـون في زاوية الموقـد. هناك كانـت الغلايين.

لقد مرّتْ على الغرفة أجيالٌ عديدة من الرجال الهادئين والنسوة الخصبات، ولم يُضف أي منهم أية وسيلة راحة صغيرة جديدة؛ كرسياً في موقع مناسب، أو كلاّباً، أو مقعداً بلا ظهر، أو وسادة، أو قطعة قماش جميلة كغطاء للأريكة، أو رفاً للكتب. الغرفة التي بدت شديدة الهدوء والبساطة، كانت منزلاً تطور مع توالي الأجيال ليتلاءم مع الأجساد الضخمة للرجال الذين يُقيمون فيه، ومع الذوق الهادئ للنساء. وأخيراً، اكتسب شخصية متميزة. كان منزل آل رينشو، دافئاً، محبوباً، وترين عليه السكينة. وكانت إميلي في انسجام تام مع لونه البني العام، وظلاله، وما يوفره من راحة. وحالما جلستُ على الأريكة الطويلة تحت النافذة، شعرتُ بأنَّ الغرفة اللطيفة ترفضني. فشعرت بالحزن مع أحساس بالزوال السريع، بهشاشة شاحبة، غريبة الشكل.

كانت إميلي تشعر بألفة. لقد أصبح من النادر الآن أنْ تنشأ ألفة بين غرفة ومَنْ يسكنها، أو رابط وثيق من صِلة الدم. وأخيراً عثرتْ إميلي على مكانها المناسب، وهربتْ من عذاب الحياة العصرية المعقّدة، والغريبة. كانت تعدّ فطيرة، وكان الطحين الأبيض يلوث ذراعيها الأسمرين. دفعت شعرها المُدغدِغ بذراعها عن وجهها، ونظرتْ إليّ باستمتاع هادئ وهي تصنع العجينة في الطاس الأصفر. كنتُ أقف أمامها، هادئاً، مستسلماً.

قلت: «هل أنت سعيدة جداً؟».

أجابت: «آه، جداً! وأنت؟ – أنت لست سعيداً، تبدو مُنهكاً».

أجبت: «نعم، أنا سعيد بقدر معقول. إنني أعيش حياتي».

سألتْ مُشفقة: «ألا تجدها مملة؟».

دفعتني إلى إخبارها عن أعمالي كلها، وتعجبت، لكنّ عينيها كانتا طوال الوقت مملوئتين بالريبة وبالشفقة.

قلت: «لديك جورج هنا».

«نعم. إنه في حالة سيئة، لكنه لم يعُد مريضاً كما كان».

«وماذا عن نوبات الهذيان الارتعاشي؟».

«أوه، كانت حالته أفضل – تقريباً – قبل أنْ يأتي إلى هنا. أحياناً يتخيّل أنها ستنتابه من جديد، ويُصاب بالرعب. أليس شيئاً فظيعاً! وهو الذي جلب هذا على نفسه. وتوم يُعامله معاملة طيبة جداً».

سألت: «هل يشكو من شيء – جسدياً؟».

أجابت، وهي تتوجه نحو الفرن لكي تُطفئ النار عما تخبز، لا أعلم .« وضعت يدها على جبينها وأزاحت شعرها جانباً، تاركة أثراً من الطحين على أنفها. لبرهة أو اثنتين بقيتْ راكعة على الحاجز الواقي، تنظر إلى النار وتفكّر لقد كان في حالة سيئة عندما جاء إلى هنا، لم يتمكن من أكل أي شيء، وكان يُصاب بالغثيان في صباح كل يوم. أعتقد أنَّ السبب يكمن في كبده. كلهم ينتهون هكذا»، وتابعت تمسح ثمار الخوخ وتضعها في الصحن.

سألت: «تليُّف الكبد؟»، فأومأت برأسها إيجاباً.

سألتها من جديد: «ألا يلزم الفراش؟».

أجابت: «نعم، وكما أقول، لو أنه ينهض ويتمشّى قليلاً في المكان فقد يتحسّن. لكنه يبقى مُستلقياً ومتوارياً».

أصررت: «ومتى يستيقظ؟».

«لا أعلـم. قد يزحف خارج فراشه قرابـة موعد الشاي. أتريد أنْ تراه؟ هذا ما جئت لأجله، أليس كذلك؟».

ابتسمـت لي مع شـيء من السخرية، ثم أضافـت: «ألا ترى أنك دائمـاً تهتم به أكثر من اهتمامك بـأي شخص آخر؟ آه، لا بأس، تعال لتراه».

تبعتهـا إلى أعلى الدرج الخلفي الذي يقود إلى خارج المطبخ، وإلى غرفة النوم مباشرة. قطعنا أرضية تلك الغرفة العارية الصقيلة التي يتردد فيهـا الصدى، وفتحنا باباً في الجهة المقابلة. كان جورج مستلقياً على السرير يراقبنا بعينين مترقبتين.

قالت إميلي: «ها قد جاء سيريل ليراك، لذلك أحضرته إليك، لأنني لا أعلم متى يمكن أنْ تهبط إلى أسفل».

ارتسمت على وجهه ابتسامة ارتياح صغيرة، ومدَّ يده من السرير. كان مستلقيـاً وملابسـه المشوشـة مرفوعـة حتى ذقنـه. وكان وجهه ممتقعاً، ومنتفخاً، وأنفه متورماً.

سألـتْ إميلي، وقد رقّت بفعل الشفقـة عندما تعلّق الأمر بمرضه: «ألا تشعر بتحسُّن هذا الصباح؟».

أجاب، متمنياً فقط التخلّص منا: «أوه، أنا بخير».

قالـت برقّة: «يجب أنْ تحـاول أنْ تنهض قليلاً، إنَّ الصباح جميل

جداً، ودافئ ولطيف –». لم يُجب، فهبطتْ إلى الطابق السُّفلي.

تلفّت حولي في الغرفة الباردة، المُبيَّضة، بسقفها المنحني والمنحدر على طول الجدران. كادت تخلو من أي قطع أثاث، وتفتقر حتى إلى أبسط زخرفة. الأشياء الوحيدة التي تتصف بألوان دافئة كانت جلود البقرة والحصان الممدودة على الأرض. والباقي كله كان أبيض أو رمادياً أو أسمر فاتحاً. على أحد الجانبين، كان السقف ينحدر إلى أسفل بحيث أضحت النافذة تحت مستوى رُكبتيّ، وتكاد تلمس الأرض، وعلى الجانب المقابل نافذة كبيرة، بمستوى الصدر. ومن خلالها يمكن رؤية أسقف السقيفات المشوشة، والضاربة إلى الحُمرة، والسماوات. كانت حجارة القرميد تشعّ ببقعٍ برتقالية تنبض بالحياة. وخلفها حقل الذرة، والرجال، الصغار بفعلِ المسافة، يرفعون حزم الحنطة إلى العربة.

سألتُه، ملتفتاً نحو السرير: «هل ستعود إلى الزراعة مرة أخرى؟». فابتسم.

أجاب بلا حماس: «لا أعلم».

سألت: «ألا تفضّل أنْ تهبط إلى الطابق السفلي؟».

أجاب، بالأسلوب المنزع نفسه: «كلا، أنا سعيد برؤيتك».

قلت: «لقد رجعتُ تواً من فرنسا».

أجاب، بلا مبالاة: «آه!».

قلت: «أنا آسف لأنك مريض».

حدَّقَ دون أنْ يتأثّر إلى الجدار المقابل. ذهبت إلى النافذة، وأطليتُ منها. وبعد قليل، أجبرتُ نفسي على القول، بنبرة عادية:

«ألا تنهض وتخرج قليلاً؟».

قال، وهو يستجمع نفسه ببطء ويُلملمها من أجل بذل الجهد: «أعتقد أنني يجب أنْ أفعل». ودفع نفسه إلى أعلى وهو على السرير.

عندما خلع سترة البيجاما ليغتسل أشحتُ بنظري. لقد بدت ذراعاه نحيلتين، وأصبح له بطن، وكان منحنياً ولا يسرّ النظر. أذكرُ أنَّ الصباح كان دافئاً في بركة الطاحونة. وأذكرُ أنه كان حينئذٍ قد أصبح في ذروة حياته. نظر إلى يديه الضعيفتين المائل لونهما إلى الزُّرقة وهو يبذل جهداً ليغتسل. انزلقت قطعة الصابون مرة من بين أصابعه وهو يلتقطها، فسقطت، وأصدرتْ قعقعة عالية في الوعاء. أجفلنا، وقبضَ على جانبيّ المغسلة لكي يتوازن. ثم استأنف عملية اغتساله المؤلمة، والبطيئة. وعندما كان يمشّط شعره نظر إلى نفسه بعينين كليلتين من شدة الخجل.

عندما هبطنا إلى الطابق السُّفلي، كان الرجال يتوافدون من غرفة الغسل. كان طعام الغداء يُطلِقُ أبخرته على المائدة. صافحتُ توم رينشو، وصافحتُ يد الأب اليُسرى القاسية، والشديدة. ثم قدّموني إلى آرثر رينشو، وهو شاب حليق الذقن، ضخم الجثة، خجول في العشرين. أومأت برأسي للرجل، جيم، ولزوجة جيم، آني. وجلسنا حول المائدة.

سألَ العجوز بلهفة عن جورج: «وكيف حالك الآن؟». وعندما لم يتلقَّ جواباً، تابع: «يجب أنْ تنضم إلينا في جمع الحزم، سوف يفيدك هذا».

سأله توم، وهو يربت بسكين التقطيع على قطعة اللحم: «ألن تأكل قطعة من لحم الغنم هذا؟»، فهز جورج رأسه نفياً.

قال برقّة: «إنها لينة جداً، وطرية».

قال جورج: «كلا، شكراً».

صرخ العجوز: «أعطه قليلاً منه، أعطه قليلاً! سوف يفيده – هذا ما يحتاج إليه، قليلاً من الغذاء ليقويه».

قال توم، بتأنيب لطيف: «لن يفيده إذا كانت معدته ترفضه»، وكأنه يتحدث عن طفل. ملأ آرثر كأس جورج بالبيرة من دون أنْ يتكلّم. كان الشابان يفيضان بالعناية الرقيقة، واللطيفة.

أصرّ العجوز «إذن فليتناول ملعقة من اللفت. لا أستطيع أنْ آكل وأنا أرى طبقه فارغاً».

وهكذا وضعوا صلصة اللفت والبصل في طبق جورج، فتناول شوكته وتذوق مقدار بضع ملاعق. وكان الرجال يأكلون بكميات كبيرة، وبشهية مفتوحة. وقد أثار مشهد نهمهم الشديد، الذي كان يتصاعد إلى حد الهوس، اشمئزازه.

عندما ترك العجوز أخيراً ملعقة تقشير الفاكهة، التي كان يستعملها بدل السكين والشوكة، نظر من جديد إلى طبق جورج، وقال:

«لِمَ لم تأكل أي شيء، أي شيء! هذا لن يجعلك تتحسن».

حافظ جورج على صمت أحمق.

قالت إميلي: «لا تزعجه، يا أبي».

أضاف توم، مبتسماً بود: «هذا مدمن قديم، يا أبي». تكلّم مع والده بالعامية، ولكن مع إميلي تكلّم بالإنكليزية الصحيحة. ومهما تقول كانت تحظى بدعم توم. وقبل أنْ تقدّم لنا الفطيرة، قدّمت لأخيها حلوى هُلامية مع الخوخ، ووضعت الطبق والملعقة أمامه وكأنه طفل. مقابل هذه اللفتة الجميلة نفحها توم نظرة حب، وداعبَ يدها لدى مرورها.

بعد الغداء، قال جورج مع كفاح بائس لحصول على نبرة الصوت اللا مبالية:

«ألن تقدمي لسيريل كأساً من الويسكي؟».

رفع بصره بمكر، في صراع بين الخجل والأمل. وران صمت على الغرفة.

قال العجوز برقّة: «آه! أعطه قليلاً».

أضاف توم، بمناشدة مُذعنة: «نعم!».

انكمش كل الرجال الموجودين في الغرفة قليلاً، في انتظار صدور حكم المرأة.

قالت بوضوح: «لا أعلم إنْ كان سيريل يريد كأساً».

أجبتُ، شاعراً بحُمرة الخجل: «لا مانع لديّ». لم يكن عندي من الشجاعة ما يدفعني إلى معارضة إرادتها مباشرة. ولا حتى العجوز

كان يمتلك تلك الشجاعة. وانتظرنا بترقُّب. وبينما تركتنا هكذا بضع دقائق، نحترق من الشعور بالخزي، انتقلتْ إلى الغرفة الأخرى، وسمعناها تفتح باباً. ثم عادتْ مع إناء خمر يحتوي مقدار أقل من نصف إبريق من المشروب. وأخرجت خمسة أقداح.

قال العجوز «أنا لا أريد شيئاً. أنا لستُ فخوراً. لست كذلك».

قال آرثر: «ولا أنا».

سألت: «وأنت، توم؟».

أجاب مبتسماً: «أتريدين مني أنْ أشرب؟».

أجابت بحدَّة: «لا أريد. لا أريد من أحد أنْ يشرب، بعد أنْ تروا نتائجها. ولكن إذا كان سيريل سيشرب كأساً، يمكنك أنْ تشرب كأساً معه».

سُرَّ توم بكلامها. وأعطت زوجها وأنا كأسين من المشروب الصرف.

قال: «مهلاً، مهلاً! اعطي هذا لجورج، واعطني مقداراً قليلاً. مقدار إصبعين، إصبعين من أصابعك».

لكنها أعطته الكأس. وعندما حصل جورج على نصيبه، لم يتبقَّ في الإناء إلا مقدار قليل جداً».

راحت إميلي تراقب السكير ببرود وهو يتناول ما تبقّى.

تبادلتُ مع جورج الحديث بعض الوقت بينما الرجال يُدخنون. وانطلق هو، بدافع من غبائه المكتئب، في ثرثرة فجة، تكاد تكون حمقاء.

سأل، متابعاً: «هل رأيت عائلتي مؤخراً؟ نعم! لا بأس بأحوال الأطفال، أليس كذلك؟ لكنَّ أولئك الشياطين رخوين، حتى التشوُّه، كلهم. إنها تربية أمهم - لقد شوّهتهم إلى أنْ أصبحوا رخوين، ولا تدعني أتدخل في هذا. كان ينبغي أنْ أنشئهم بصورة مختلفة، أنت تعلم أنه كان ينبغي أنْ أفعل».

نظر توم إلى إميلي، وعندما لاحظ امتعاضها الغاضب، اقترح عليها أنْ ترافقه لمعاينة حزم القمح. راقبتُ الرجل الطويل، مربوع الكتفين، يميل باحترام ورقّة نحو زوجته وهي تمشي بهدوء إلى جواره. لقد كانت السيدة، الهادئة والواثقة من نفسها، وكان هو الزوج والخادم المُبتهج».

كان جورج يتحدث عن نفسه. ولو لم أره بعيني، لما صدقت أنَّ تلك الكلمات تصدر عنه. لقد كان مُدمَّراً بصورة تدعو إلى الرثاء. كان يقول كلاماً أحمق، مزدرياً الآخرين بسوقيّة، ومادحاً نفسه بأسلوب سقيم.

نهضَ العجوز، قائلاً:

«حسن، اعتقد أننا يجب أنْ نخوض في هذا في يوم آخر»، وغادر الرجال المنزل.

تابع جورج مونولوجـه الأحمق، الفظ، مُشدداً عليه بإيماءات من رأسـه ويديه. وتابع كلامـه ونحن نمشي بين الأبنيـة وداخل الحقول، الثرثرة نفسها من المباهاة والتحقير. وشعرت بالقلق وبالاشمئزاز. بدا من شكله، ومن كلامه، أنه تافه.

كانـت طيور الحجل تركض عـبر حقل الذرة الخالي. مشينا خلال ضبـاب شهر أيلـول ببطء، لأنَّ قدميه كانتا واهنتـين. ومع ازدياد تعبه مـن المشي سكت عن الـكلام. اتكأنـا بعض الوقت علـى بوابة، في الوهج الخافت لفـترة بعد الظهيرة العابرة، وعاد من جديد إلى حمقه. و لم يلاحـظ السرعة النيّة لطيور الحجـل، و لم يأبه بمشاركتي أكل حفنة منـة ثمار العلّيـق الناضجة، وعندمـا شددتُ حبل نبـات الفاشرا عن السياجات، وحملتُ عناقيد العليـق الكبيرة الحمراء والخضراء بيدي، نظر إليها دون اهتمام أو استحسان.

قال ببلادة: «علّيق سامّ، أليس كذلك؟».

وكشجـرة تنهـار، تُصبـح رخوة وشاحبـة وعفنة، دبقـة بالفطر الصغـير، وقف متكئاً علـى البوابة، بينما عتمة بعـد الظهيرة تنجرف مع تدفق دفق عذب كثيف من أشعة الشمس تمرّ به، دون أنْ تلمسه.

في فنـاء تكديس الحـزم، كانت نُصُب الصيـف الرائعة من القمح والعشـب تبرز ذهبية ورماديـة. كان القمح منتثراً برّاقـاً حول الركام الـذي يزداد ارتفاعاً. والعربة المُحمّلة تتقدم مُقعقعة إلى أعلى المنحدر، تقـترب، وتبحر كسفينـة راسية رغم الأوتاد المُعيقـة، تحف الركام مع صرير حـادّ، متموج. ارتقى تـوم السُّلّم ووقف هنـاك برهة في وجه

السمـاء، وسـط بريق وعبير الـذرة الذهبيـة، ولوح بذراعـه لزوجته التي كانـت تعبر ظل المبنى. وبدأ آرثر يرفع الحـزم إلى الركام، وعمل الرجلان بإيقاع رائع، دقيق، وقميصاهما الأبيضان ورأساهما القاتمان تلمـع، تتحركُ في وجه السمـاء المعتدلة والذرة. لم يكسر الصمت بين حـين وآخر إلا ميـل جسم العربة، عندما خطا السائـق إلى مقدمة، أو مـن جديد إلى خلفية الحمولة. وأحياناً كنـتُ ألمح تلألؤ رؤوس أسنان المذراة. عندئـذٍ ارتفع توم عالياً فوق حمولـة العربة الصغيرة، وهتف لأخيه طارحاً سؤالاً حول الركام. كان رنين صوته قوياً ورخيماً.

التفتُّ إلى جورج، الذي كان يراقب بدوره، وقلت:

«هكذا ينبغي أنْ تكون».

سمعنـا توم يهتف: «حسن!» ورأيناه واقفاً عالياً على أطول زاوية من الركام، وكأنما على مقدمة سفينة.

راقـب جورج، وببطء شكّل وجهه تعبـيراً. التفت إليّ، وقد دبّت الحياة في عينيه السوداوين بفعل الرعب واليأس.

قـال: «قريبـاً – سوف أبتعد عـن طريق الجميـع!». كانت لحظة الرعـب واليأس التي مرَّ بها قاسيـة. ولعنتُ نفسي لأننـي أيقظته من سُباته.

قلت: «سوف تتحسن».

من جديد راح يراقب الحركة الأنيقة للرجلين عند الركام.

قال: «لا أستطيع أنْ أقود عربة تحمل عشرة حزم».

ألححت: «سوف تستطيع في غضون شهر أو شهرين».

تابع المراقبة، بينما توم على السلَّم وانتقل إلى مقدمة الركام.

كــرر، بينه وبــين نفسه: «كلا، كلمــا أسرعــت في الرحيل، كان أفضل».

عندمــا ولجنــا المنزل لشــرب الشــاي، كان، حســب تعبير توم، «مهزومــاً» . تحدث الرجال بانزعاج بأصوات خافتة. وأخذت إميلي توليه قليلاً من العناية المُفرطة والمرتعشة. كنا جميعاً منزعجين متأثرين بإحساسنا بغربتنا عنه. جلس منعزلاً عنا ونائياً، كرجل مُدان.

- انتهــى -

الفهرست

الجزء الثاني

الجزء الثالث

كان د. هـ لورنس صغيراً جداً ومغموراً جداً عندما باشر بكتابة المسوّدة الأولى لهذا الكتاب في خريف عام 1906. كان حينئذٍ في جامعة نوتنغهام يقضي دورة إعدادية مدتها عامان لكي ينال شهادته كمُدرّس للمرحلة الابتدائية. كان قد التحق بالجامعة بجهوده الخاصة، ذلك أنَّ والده، عامل المنجم ذو الأطفال الخمسة، لم يكن في وسعه أنْ يتحمّل تكاليف إرساله إلى هناك من دون مساعدة. وكان لورنس تلميذاً متفوقاً بصورة استثنائية في المدرسة وعندما تقدّم لنيل منحة كينغ الدراسية أذهل رفاقه بكونه الأول في الدفعة الأولى، ولولا تدهور صحته لكان له مستقبل أكاديمي مرموق.

نشأت رواية «الطاووس الأبيض»، التي كُتِبَتْ وأُعيدت كتابتها ثلاث مرات أو أربع على مدى ثلاث سنوات خلال ساعات الفراغ وفي العُطل، من تجارب حياته في ميدلاند ومنذ بداية مسيرته الأدبية أبدى أصالة وعدم اكتراث بالأدب السائد، الذي كان في ذلك الوقت منكباً على «الشكل» في الرواية رافقه فراغ في المحتوى. بالنسبة إلى لورنس لم يكن تأليف رواية عرضاً فنياً لحكاية مُختلَقة ولا مجرد قطعة من التسلية المُثيرة - بل كانت «مغامرة ذهنية»؛ تهدف في المقام الأول إلى وضع القارئ في تلامس مع الحياة. لقد مقت أنواع الكتابة «الشكلانيّة» كلها، وأخطاؤه التي ارتكبها مرجعها في الغالب إلى تصميمه الشديد على أنْ يكون صادقاً مع الحياة كما عرفها. وللسبب نفسه تنتهي رواياته كالمعتاد بهدوء، وبدون حسم تقريباً - لأنَّ النهاية الماهرة أو المُثيرة ينبغي دائماً تقريباً أنْ تُزيّف الحياة.

لوحة الغلاف: maurice greiffenhagen



ISBN 978-2-843090-33-2